مذكرات
عماد عبد السلام رؤوف
شيخ المؤرخين والمحققين البغداديين المعاصرين

بعناية

د. رؤوف عماد عبد السلام رؤوف العطار

تقديم

د. جمال الدين فالح الكيلاني

الطبعة الأولى

2022 م – 1443 هـ



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2021/8/4644)

818.050563

رؤوف، عماد عبدالسلام

مذكرات عماد عبدالسلام رؤوف : شيخ المؤرخين والمحققين البغداديين المعاصرين / عماد عبدالسلام رؤوف.- عمان: دار دجلة ناشرون وموزعون، 2021

() ص

ر.أ: (2021/8/4644)

الواصفات: /اليوميات// المذكرات الشخصية // السيرة الذاتية/ /بغداد/

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية



المملكة الأردنية الهاشمية

عمان – شارع الملك حسين – مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص. ب: 712773 عمان 11171 – الأردن

E-mail: dardjlah@ yahoo.com

www.dardjlah.com

ISBN: 978-9923-37-092-6

بسم الله الرحمن الرحيم

قـــال ســـبحانه وتعـــالى ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ 152البقرة

كلمة الدكتور/ رؤوف العطار

بسم الله الرحمن الرحيم

كان المرحوم والدي كل فترة يرسل لي جزءا من مذكراته بعد حديث دار بيني وبينه لعدة مرات اقول له حققت الكثير من المذكرات لشخصيات كثيرة متى ستكتب مذكراتك. ولم يكن يهتم حينها بطلبي هذا وكل مره يقول لي بعد ان اكمل كتابي هذا وبعدها الاخر الى ان في يوم قال سابدا بالكتابة في بداية سنة 2001 ولم ارى ماكان يكتب ولكن كان يحدثني بكل تفاصيل كتاباته واستغرق بكتابتها وقت طويل جدا حيث لم يستمر بالكتابه بشكل مستمر لها كانت محطات بين تاليفه لكتبه الى ان ارسلها لي يوم 31 / 1 / 2018 فقد كتبها بما يقارب ال سبعة عشر عاما وقد بعثها لي بعنوان:

(مذكرات عماد الى رؤوف).

لقد اسماني ب رؤوف نسبتا لجده رؤوف العطار الذي كان من رواد التربية والتعليم، رسم لنا طريقا لكي نكون على نهجه والده ونهج جده في طلب العلم والثقافة.

وسارفق في هذا الكتاب بعض من صور لوحاته القديمة والحديثة التي رسمها حين انتقاله من بغداد الى اربيل حيث بدا بالتجوال بين ازقة قلعة أربيل. وصور لبعض من الشهادات والاوسمة والصور الشخصية.

كان من عائلة تعشق الفنون من الموسيقى الكلاسك وفن التصوير والكتب مع اخوته نزار وعصام ولهم نشاطات اسبوعية برسم وكتابة الروايات

والقصص والحمد لله هذه عكسها علينا انا واخوتي فيصل وفـواد. تـوفي صـباح يوم الاحد المصادف 27 / 6 / 2021 ودفن في اربيل في مقبرة كسـنزان جنـب والدته. وساذكر كلمه واحده ذكرت انه الرجل الذي لم يختلف على حبـه احـد. نشرو تعازي ورحمه والذكر الطيب الرحمة والخلود.

" د. رؤوف عماد عبد السلام رؤوف

استاذ في قسم التصميم والمعماري / اربيل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني

للكتب التى تنشر بعد وفاة مؤلفيها منزلة خاصة، ويعنى بها المؤرخون عناية أعظم، وخاصة إذا كان صاحب هذه الكتب من الاعلام المشهورين ولا جدال في ذلك. فالعلامة عماد عبد السلام رؤوف من الاعلام المؤرخين والمحققين والمفكرين في هذا العصر.

لذا كانت العناية بهذه الكتب مهمة جدا من حيث أنها تعبر عن اراء المؤلف بعد نضوجه ووصوله درجة الرقى والكمال فهى الكتب التى سبق وحبرها في حياته،وهذا ما ينطبق على هذا الكتاب.وحين طلب منى ولده الدكتور رؤوف عماد عبد السلام رؤوف "الصديق الصدوق" التقديم لهذا الكتاب، ترددت أول الامر لان مهمة التقديم لمذكرات قامة علمية عالية، مهمة شاقة، وأمانة تاريخية ثقيلة خاصة وهو استاذي وشيخى الغالى.

ثم قبلت الامر قبل كل شىء لانه واجب مفروض على ان أقوم به كتلميذ للعلامة هذا العلم الذي غمرنى بفضله عندما كنت تلميذا له على الحقيقة، ففى دراستى الأولية في كلية التربية/ ابن رشد بجامعة بغداد،ومابعدها من الدراسات العليا، أخذت عليه دروسا كثيرة في التاريخ، وقد بهرنى بطريقته في البحث والتقصى والعرض وهى الطريقة ذاتها التى يتبعها في كتبه ومقالاته، من الاحاطة الشاملة ووضوح في العرض وبساطة في الاسلوب ونفاذ الفكر

الوقاد، ولم تنقطع صلتي به حتى وفاته رحمه الله، فقد كنت أشاوره في اغلب شؤوني وفي مجمل حياتي العلمية وغير العلمية.

.فأشهد له انه كان موفقا في هذه المذكرات، فقد عرضها عرضا هو أبعد حقا عن جفاء العلم وجفوته، وأدنى شيء الى جمال الفن وعذوبته، وتعد اضافة قيمة للمكتبة العربية وإثراء ثمين لها، لاغنى عنها للدارس في التاريخ، أو معني بالتعرف على مسيرة الفقيد، إنه كتاب كما يجب ان يكون الكتاب، ولا غرو أن يكون بهذه القيمة التي وصفناه بها فإن هذه القيمة إنما حصيلة علو كعب العلامة رؤوف في الدراسات العلمية، والصفات والمزايا التي يتمتع بها، والتي هي خير المزايا والفضائل التي يجب أن تتوافر في المؤرخ الموثوق.

.فلينعم القراء بفضل هذا الكتاب، ورحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جناته، وهو الذي خطفته المنية من بين ظهرانينا في عز عطائه العلمي وتوقد ذكائه وإمتلاء روحه بأسمى المعاني وأرفع المثل وأغنى الاماني... تلك دروس وعبر جرى استخلاصها نتيجة استقراء التاريخ، فهل يمكن ان نستوعبها ونفيد منها في تحريك عجلة "واقعنا" البائس قدماً الى الأمام؟

أسأل الله تعالى أن يسدد الخطى ويوفق الجميع لما هو الخير وأبقى.

دكتور جمال الدين فالح الكيلاني

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية الزائر

معهد الدراسات الإسلامية / ولاية قانصو_الصين

مذكراتي

كتبها

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

بدأ في كتابتها في حزيران سنة 2001

الإهداء

الى طلبتي الأعزاء

مؤرخي المستقبل

بسم الله الرحمن الرحيم

النشأة

ولدت في الأعظمية ببغداد، لأسرة موصلية الأصل عباسية النسب، في اليوم التاسع من كانون الثاني سنة 1948، في دار لم تكن تبعد عن مدخل جامع الإمام الأعظم إلاّ ببضعة أمتار، وقد أزيلت هذه الدار في أثناء توسعة شارع الإمام الأعظم، وهي اليوم داخلة في أرض الساحة المقابلة للجامع المذكور، بيد أني لا أتذكر شيئاً من تلك الدار لصغر سني حينما غادرتها أسرتي إلى دار أخرى في محلة السعدون، فلم يكن عمري يتجاوز يومذاك السنتين، وقد أجهدت نفسي فيما بعد أن أتذكر شيئاً من تلك المرحلة المبكرة من حياتي، فلم أتذكر إلاّ اللحظة الأخيرة قبل مغادرة الدار، لحظة كنت جالساً على كتف والدتي، فقد طرق سمعي صوت الباب الخشبية الثقيلة وهي تصفق بقوة للمرة الأخيرة، وكانت بقية الأسرة قد تقدمتنا فيما يبدو في مسيرتها إلى البيت الجديد.

وكانت دارنا في السعدون قد شيدها والدي على أرض تمتلكها والدته، وتبلغ مساحتها نحو ألفي متر مربع، ومساحة كبيرة كهذه من شأنها أن تتيح للطفل مجالاً رحباً من حرية الحركة واللعب، وكان والدي قد اعتنى اعتناءً ظاهراً بتنظيم نصف مساحة الحديقة، بأن غرس حوافيها بأشجار (السيسبان)، وأنواع من الزهور، كما جعل قسماً منها ملعباً للعب كرة الريشة الطائرة، أما النصف الآخر من الحديقة فقد تركها دون عناية فاكتظت بنبات القصب، وأحاطت بها أشجار (اليوكالبتوس) العملاقة، فكانت أشبه بغابة، فلم يكن أجمل لطفل مثلي أن يقضي ساعات لهوه ولعبه في مثل هذا الجو شبه الريفي، وكثيراً ما كنت أرى

أخوي، نزار وعصام، وهمـا يضـعان ريـش الـدجاج علـى رأسـيهما وينطلقـان راكضين وهما يصدران أصـواتاً عاليـاً شـبيهة بأصـوات الهنـود الحمـر، أو همـا يجوبان غابة القصب من خلال طرقات فيها يعرفانها جيداً، وربما مضـياً إلى آخـر هذه الحديقة حيث أخذا بصيد الحمام الذي يتخـذ مـن فـروع الأشـجار العاليـة وكنات له. ولم يكن يجاور دارنا إلا دار زوج عمتي الكبرى المحـامي عيسـى طـه، وفي احد الايام غافلت اسرتي ومضيت الى اخر الحديقة وقفزت من فوق الجـدار الطيني الذي كان يفصل بين دارينا، ومضيت إلى دار عمتي حيث وجدت الأسـرة تستقبلني بجفاوة لم أكن أتوقعها، والمهم أني اكتشفت سعة العالم بعد ذلك الجـدار الطيني، وعرفت حلاوة الإكتشاف.

وكانت تقابل دارنا هذه مباني شركة نفط العراق البريطانية، ولم أكن أعـي بالطبع أهمية هذه الشركة، إلاّ أني شاهدت في صباح أحـد أيـام الصـيف، وأنـا على سطح دارنا، طفلاً أشقر نصفه العلوي عار، يجلس في أعلى دار تقع ضـمن منشآت الشركة، فتعجبت من سحنته، ولمـا سـألت والـدتي عـن هـؤلاء الـذين يسكنون في الشركة، قالت إنهم (إنكليز)، وكانت هذه أول مرة أسمع فيها بهـذا الاسم، ولم ألبث أن سمعت به مـرات عـدة مـن كبـار الأسـرة، في أثنـاء بعـض التظاهرات التي جرت سنة 1952.

بدايات الوعي

وقدر لي، وأنا في السادسة من عمري، أن اشاهد أول الأحـداث العامـة، التي يتجاوز مداها نطاق البيت والأسرة، ذلك أنـه في 2 أيـار سـنة 1953 تقـرر تتويج فيصل الثاني ملكاً على العراق، فقصدت الأسرة عمارة (حافظ القاضي) في ساحة الملك فيصل الثاني، ساحة الوثبة فيما بعد، كان يتخذ فيهـا زوج عمـتي الكبرى عيسى طه، مكتباً للمحاماة، ومن على سـطح العمـارة رأيـت الشـوارع المحيطة وقد غصت بحشود من الناس الذي جاءوا لتحية الملك وهو يجتاز بموكبـه الملكي جسر الملك فيصل الثاني، جسر الأحرار فيمـا بعـد، ليصـل إلى السـاحة، وكنت انتظر ظهور هذا الموكب لتصوري، وأنا طفل، أن الملك سيظهر وهو يضع على رأسه (تاجاً من ذهب) كما كنت أسمع في الحكايات عن الملوك التي تقصها عليَّ خادمة كانت تعمل في بيتنا في ذلك الوقت. وكم كانـت خيبـة ظـني حينمـا رأيت الموكب الملكي أخيراً، وكان الملك يجلس إلى جانب خاله عبـد الإلـه، فـلا يضع على رأسه إلاّ قبعة طويلة كقبعات الطهاة، ثم علمت بعـد سـنين أن هـذه القبعة كانت جزءً من زي (الفيلد مارشال) ولا علاقة لهـا بالطهـاة بـأي حـال!. كانت حادثة (التتويج) هذه من أهم أحداث حياتي في تلك المرحلة من عمـري، وقد بقيت في كل تفاصيلها ماثلة في ذاكرتي حتى الآن، كما كانت الحادثـة، بحـد ذاتها، سبباً في إيقاظ نوع من الوعي المبكر لدي، وهو مـا شـكل نـواة لمزيـد مـن الاهتمامات في المراحل التالية من حياتي.

ومرة أخرى شاهدت الملك فيصل الثاني، فقد أخذتني والدتي في أحد أيام سنة 1957 إلى ساحة الملكة عالية (ساحة التحرير فيما بعـد) يـوم إفتتـاح جسـر

الملكة عالية (جسر التحرير) لأشاهد حفل الإفتتاح المذكور، وأتذكر أنها دست رأسي بين زحام المتفرجين قائلة: أنظر يا ولدي لتحكي لأولادك حينما تكبر قصة بناء هذا الجسر! فكان أن رأيت الملك وخاله يسيران مع ثلة من الوزراء والمقربين مجتازين الجسر من جانب الكرخ إلى الساحة، وسط تصفيق الجمهور على جانبي الطريق. وقد تحقق توقع والدتي تماماً، ففي أول سنة 1991 قصفت طائرات معتدية جسر التحرير وانهار جزء مهم منه، وطفقت أصف لولدي رؤوف وغيره من صغار الأسرة حادث افتتاح الجسر، كما رأيته قبل ثلث قرن تقريباً.

وواضح أن والدتي كانت تملك حساً فطرياً بالتاريخ، فضلاً عن أنها درسته لمدة ما في كلية الملكة عالية على يد أساتذة أكفاء، منهم الدكتور صالح أحمد العلي وغيره، وكانت من المتفوقات في هذه المادة خلال سني دراستها عامة، ومن مدرساتها المشهورات، اللواتي توقعن لها مستقبلاً في التاريخ الدكتورة ألبرتين جويدة، التي هاجرت فيما بعد إلى الولايات المتحدة الأمريكية ونبغت هناك، وكان من محاسن التقدير إني التقيت بها في وزارة الخارجية سنة 1984 على ما أظن، وكانت تؤلف كتابا عن الحرب العراقية- الإيرانية، وكانت والدتي حريصة على أن تكون لي ذكرياتي الخاصة التي يمكن أن تكون جزءاً من نسيج شخصيتي في المستقبل، وليست حادثتا (التتويج) وافتتاح جسر الملكة عالية هما الوحيدتان اللتان دلتا على عمق هذا الحس، وإنما كانت ثمة حوادث أخرى مشابهة، وقد صادف أن سافر والدي إلى سويسرا سنة 1955 للعلاج من مرض السكري الذي أصابه عهد ذاك، فكان أول ما فعلته والدتي في غيابه، أن اصطحبتنا، أنا وأخويَّ، إلى المتحف العراقي، وكان يشغل مبنى المتحف البغدادي الحالي، حيث قضينا ساعات ونحن نتفرج على الآثار المعروضة فيه، ومن نافلة

القول أن تلك الزيارة المبكرة للمتحف، كان لها أثرها في شدّي إلى تلك المعروضات، وهي اهتمامات غير واعية في حينه، إلاّ أنها كانت كافية لشحذ حسي الفطري بالماضي والإعجاب بآثار الماضين.

ومن الحوادث الطبيعية التي أثرت في لما أدت اليه من اضطراب في حياة أسرتنا، تعرض مدينة بغداد الى خطر الفيضان الهائل في سنة 1954، وكان بيتنا قريبا من السدة الشرقية التي باتت الحاجز الوحيد الذي يحجز مياه الفيضان عن بغداد، وصارت المياه ترتفع تدريجيا في حديقة بيتنا الواسعة، وسمعت لأول مرة في حياتي عن هذا الخطر، وعن ظاهرة (النزيز) وهي تدفق المياه الى الحدائق والبيوت نتيجة ضغط مياه الفيضان على تلك السدة، في البدء كانت هذه الظاهرة لا تخلو من طرافة، حيث استخدمنا، أنا وإخوتي، بعض (الطشوت) التي في المنزل زوارق تطوف بنا في الحديقة التي أصبحت مجرد مسطح مائي كبير، لكن الماء ما انفك في ارتفاع حتى أوشك على دخول حجرات المنزل، فاضطر والدي للانتقال بنا للعيش مؤقتا في بيت جدي، الكائن في محلة (الصرافية) قرب الجسر الحديدي، ولم نعد الى بيتنا الا بعد ن انتهى الفيضان وجفت حجرات البيت.

في تلك الايام العصيبة رأيت أخي الأكبر نزار، وشبان كثيرون مثله، وهم يعملون معظم النهار متطوعين في ملء أكياس الرمل وترتيبها على السدة المذكور ليزيد ذلك من ارتفاعها، وقيل أن سيارة سوداء وقفت مرة قرب موقع العمل، ونزل منها شاب يافع صغير يرتدي ملابس نظيفة، فإذا به يخلع سترته، ويكف بنطلونه، ويحمل (كركاً) ويبدأ بالعمل في ملء أكياس الرمل، مثله مثل أترابه من الشبان، ولم يعرف أحد من الحاضرين هويته إلا بعد مغادرته المكان، لقد كان الملك فيصل الثاني!

في بغداد القديمة

وقدر للأسرة أن تغادر دارها في محلة السعدون إلى دار حديثة في محلة راغبة خاتون، وكنت يومذاك في الصف الأول الإبتدائي، فانتقلت، وأخي عصام، للدوام في مدرسة الحريري الإبتدائية، بينما انتظم اخي الاكبر في الاعدادية المركزية حيث اختار الدراسة في القسم العلمي فيها. ولم ألبث أن انتقلت، وحدي هذه المرة، إلى مدرسة أخرى هي أقرب إلى دارنا، تدعى (النيِّرات) وكانت تشغل داراً مستأجرة قريبة من دارنا الجديدة، وتقع هذه الدار خلف مبنى كلية الآداب القديمة (كلية القانون حالياً). ولم يكن مستوى التعليم في هذه المدرسة جيداً، كما أن عدداً كبيراً من تلاميذها كانوا من سكان الصرائف القاطنين وراء السدة الشرقية، فقررت أسرتي نقلي إلى مدرسة أخرى قرب المدرسة الإعدادية المركزية للبنات التي عينت فيها والدتي مدرسة آنذاك، وهكذا وجدت نفسي تلميذاً في مدرسة (القبس) الإبتدائية، وكانت تقع في زقاق ضيق يتفرع من دربونة يتصل أحد منفذيها بشارع الأمين المتصل بساحة الأمين (ساحة الرصافي اليوم). وكانت تصحبني إلى المدرسة يومياً (بهية) وهي سيدة كبيرة طيبة كانت تعمل (فراشة) في مدرسة والدتي. وكانت الإعدادية المركزية تشغل يومذاك داراً كبيرة ضخمة تقع في محلة العاقولية. ولكم شغفت بهذه الدار، فهي تمثل طرزاً من الدور لم أره من قبل، في وسطها حوش كبير، تتوسطه حديقة واسعة نسبياً، وحول الحوش طارمات تليها صفوف من الحجرات الفسيحة، وثمة طابق علوي مشابه في تصميمه للطابق الأرضي، يصعد إليه بسلالم تقع في أركان المبنى. وللدار سطح واسع له أسوار من صفيح كسائر الدور المماثلة.

وكنت اكتشف في كل مرة تفاصيل جديدة في هذا المبنى التراثي الجميـل، فـازداد انبهاراً بروعة تلك التفاصيل وما يكمن فيها من جمـال، وكـم كنـت أتخيَّـل نمـط الحياة التي كانت دائرة في هذه الدار أيـام إنشـائها، وهويـات الأشـخاص الـذين سكنوا فيه أول مرة، وكم سألت (بهية) عـن صـاحب الـدار، ومصـيره، وكيـف تحولت داره إلى هذه الإعدادية. وفي الثمانينات زرت مبنى المدرسة فـإذا بهـا قـد تحولت إلى خان تجاري غير معالمها، فتألمت، ثم زرتها في التسعينات، فإذا بهـا قـد انهار معظمها، وأنهار باقيها، بسبب حريق أتى عليها، فزاد ذلك من ألمي.

وكان الطريق الضيق الذي يصـل بـين الـدار ومدرسـتي مكتظـاً بـالبيوت القديمة، مزدحماً فضاؤه بالـ(شناشـيلات)، فكنـت كلمـا مضـيت فيـه ذاهبـاً إلى المدرسة أو آيباً منها، تتبعت بنظري تلك المظاهر البنائية الجميلة، وربمـا اسـترقت النظر إلى داخل أحواش البيوت إذا كانت أبوابها مفتوحة، ولم تكـن ثمـة سـتائر تحجب جوف البيت عن أنظار المارين، أحاول أن أتصور شكل الحيـاة في بيـوت عتيقة، وأن أتصور كيف كانت تدور الحياة في الماضي، ولكم سألت والدتي: من بنى هذا البيت؟ ومن كان يسكن ذاك؟ فكانت اجابتها تأتي مختصـرة وحاسمـة: إنهم (أهل الأول)، وقد دار في خلدي أول وهلة أن (أهل الأول) هـؤلاء جيـل محدد من الناس بنى كل هذه البيوت، وأعطوا للحياة شكلها، ثم مضوا أو بادوا، وكان يعين عقلي على تخيل الماضي ما كنت أقرأه من قصص الأطفال، وأكثرهـا من مكتبة الأديـب رائـد هـذا النـوع مـن الأدب، كامـل كيلانـي، فـبعض هـذه القصص يستوحي التراث العربـي القـديم ويقدمـه في صـورة شـائقة للأطفـال، ويعزز تلك الصورة برسوم متخيلة تمتع القـارئ وتـثير شـغفه، وكنـت أتصـور، نتيجة ذلك كله، أن أرى الرشيد مثلاً، الذي هـو مـدار بعـض تلـك القصـص، عاش في مثل ما كنت أراه من دور، وعسَّ لـيلاً فيمـا أسـير فيـه مـن (درابـين)،

وبهذه الصورة امتزج الماضي لدي بالحاضر، وتـداخلت حيـاة العصـور السـالفة بالحياة المعاشة تداخلاً عجيباً، وكم لذ لي أن أدع خيالي يسرح بعيداً عن الواقع، إلى حيث كان الناس يعيشـون في عصـور ماضـية لا أسـتطيع تحديـدها، ولكنهـا مضت على أية حال.

وأذكر أن مدرستي (القبس) انتقلت إلى دار كبيرة تقع في نهاية زقاق قريب من جامع خضر بك في محلة قنبر علي، فكنت أقطع سلسلة مـن الـدرابين حتـى أصل إليها، وفي كل دربونة كانت تتجلى لي ملامح الحياة البغدادية قبل أن تأتي عليها رياح التغيير، وقد لاحت أول مقدمات تلك الرياح، حينمـا فوجئـت، أنـا وزملائي من تلاميذ المدرسة، وقـد عـدنا إلى الدراسـة بعـد عطلـة صـيفية، بـأن الشمس تسطع في نهاية بعض الأزقة، فلما بلغنا تلك النهاية، وجدنا فضاءاً كبيراً قد حل محل بقية الزقاق، وأن البيوت الجميلة التي تحيط بذلك الزقاق قد تحولـت إلى أكوام من الأنقاض، وعلمت في حينه أنها نقضت لأغراض فتح شارع جديد عريض، ثم سمعت أن هذا الشارع سمي بشارع الملكة عالية (وأبدل بعـد ثـورة تموز 1958 إلى شارع الجمهوريـة، وسمـي بعـد ثلاثـة عقـود بشـارع الخلفـاء)، وأستطيع الآن أن أقرر بأني لم أشعر بفرحة لحدوث هـذا التغـيير، بخـلاف جميـع زملائي، فلقد تألمت لأن عالماً جميلاً، ظليلاً، أليفاً إلي، اختفى مرة واحدة، ليحـل محله أسفلت أصم، وأرصفة جرداء، تضرب فيها شمس الصيف الحارة، فلا تجـد تحتها (شناشيل) تستجير به من أشعتها، ولا ترى فيها أبواباً ذات مسامير بـارزة، أو حنيات مزخرفة تثير الخيال.

قضيت في محلة العاقولية تلميذاً في مدارسها نحو سنتين، كان لها أثر عميـق في نفسي، ولقد خيل لي أني تعرفت في خلال هذه المـدة علـى بغـداد الحقيقيـة،

بغداد ألف ليلة التي طالما قرأت عنها في قصص كامل كيلاني، ولم تكن السـكنى في ضواحي تمنح مثل هذا الإحساس القوي بالماضي.

المأمونية

وحرصاً من الأسرة على توفير مستوى دراسي أعلى، فقد قرر والديَّ نقلي إلى إحدى المدارس النموذجية، وكانت (المدرسة المأمونية) في موقعها الجديد في محلة الوزيرية، هي التي جرى اختيارها لأكون أحد تلامذتها، وفي الواقع فإني سرعان ما لاحظت ارتفاع مستوى المأمونية عما عرفته من مدارس، فكان ثمة نمط مختلف من التعليم، واهتمام خاص بالنشاطات اللاصفية، مثل الموسيقى والرسم، ورحلات مدرسية. وقد وجدت في هذه النشاطات ما لبّى طموحاتي، فانصرفت إلى الرسم في مرسم المدرسة، وإلى تعلم الموسيقى على يد معلم مختص، وبينما نجحت باثارة اهتمام معلمة الرسم، فشلت في الإستمرار في دروس الموسيقى، وأتذكر أني عدت إلى البيت ذات يوم وأنا أبكي بحرقة، فقد أخبرني معلم الموسيقى في ذلك اليوم بأني لا أملك (أذناً موسيقية)، هذا مع إني قد بدأت، منذ مدة، باستذواق الموسيقى الكلاسيكية الغربية، بعد أن اقتنت الأسرة جهاز (كرامافون)، مع عدد كبير من الإسطوانات الموسيقية، من مزاد أقيم لبيع أثاث أحد الموظفين الأمريكيين العاملين في بغداد آنذاك.

وعلى أية حال فقد وجدت في الرسم المجال الذي أستطيع أن أعبر به عن نفسي، فكنت أحضر جميع الساعات اللاصفية التي تخصصها المدرسة لممارسة الرسم، وكانت رسومي تتميز بانسجام ألوانها، وإن لم يكن مقصوداً أو واعياً في أكثر الأحيان، وأتذكر أن المدرسة كانت تختارني لأرسم عند زيارة إحدى الشخصيات المهمة، ومن تلك الشخصيات وزير الثقافة المصري السيد كمال الدين حسين، حينما زار المدرسة في صباح أحد الأيام من سنة 1958، كان قد

قدم العراق آنذاك قبل أن تأخذ العلاقات العراقية المصرية بالتدهور السـريع إثـر سيطرة الشيوعيين العراقيين على السلطة. وصادف أن زار العراق ملك المغـرب محمد الخامس، فاخرجنا الى الوزيرية القريبة لنكون في استقباله، وقد مضى موكبه سالكاً شارع جديد كان قد افتتح في تلك الأيام، وسمي بإسم دولته، فكـان ذاك الشارع هو شارع المغرب.

وكانت في الطابق العلوي من المدرسة غرفة كـبيرة لاحظـت أنهـا ضـمت أكداساً من كتب، وكم كنت مسروراً حينما عنيت المدرسة بتنظيم الغرفة وجعلها مكتبة للمطالعة، وعينت موظفاً مختصاً برعايـة شـؤونها، وقـد تـرددت إلى هـذه المكتبة مرات عديدة، وأخذت أستعير الكتب منها بانتظام، وأتذكر أني قرأت من محتوياتها (ديوان الكاظمي)، وبعض مسرحيات أحمـد شـوقي، مـع أن عمـري لم يكن يتجاوز الثانية عشرة، حيث كنت في الصف السادس، وفي هذه المكتبـة بـدأ حبي للقراءة، وشغفي بالكتب، وبخاصة الكتب التي تتحدث عن الماضي. وأتذكر أن إدارة المدرسة قد نظمت لصفنا هذا رحلة إلى مزرعـة الزعفرانيـة النموذجيـة، وفي هذه المزرعة استهواني بنـاء قـديم لـدولاب (كـرد) بُـني بقطـع مـن الآجـر الفرشي، فما كان مني إلاّ أن آخذ بعض هذه القطع إلى البيت، فقد قررت فجأة، ولا أتذكر الآن ما هي مـبررات ذلـك القـرار العجيـب، أن يكـون لـي متحفـي الخاص في البيت، فكانت تلك القطع من الآجر الفرشي هي نواة ذلـك المتحـف العتيد! بيد أني استطعت أن أنمي محتويات هذا (المتحف) بمجموعـة مـن القطـع الفخارية والآجر، مما كنت التقطه من المواقع التي كان يحدث أن أزورها بصـحبة المدرسة أو الأسرة، وأتذكر أني كنت أسجل علـى كـل قطعـة مكـان التقاطهـا، وتاريخ ذلك.

ومن ناحية أخرى، فإن ولعي بالقراءة، وأنا في هـذه السـن الصـغيرة، قـد أنمى لدي ميولاً أدبية، وقد خيل لي لبعض الوقت أني يمكن أن أكـون روائيـاً أو شاعراً مثلاً، بيد أني فشلت المرة تلو المرة في كـل مـن مجـالات الإبـداع الأدبـي، ولكني مع ذلك فزت بما هو أكبر أهمية في حياتي العملية، تلك هي القدرة علـى التعبير عن أفكاري بأسلوب واضح جهد الإمكان، وهو الأمر الذي دفعني بعـد سنوات إلى الكتابة في مجال جديد سوف يستأثر بكل اهتمامي، أعني التاريخ.

وعي سياسي

ولم تكن هذه المرحلة هي التي شهدت تـيقظ إحساسـي الفطـري بالماضـي فحسب، بل تعرفي على أحداث عامة مهمة، أحـداث امتـزج فيهـا الألم بالأمـل على نحوعجيب، وعاشت فيها الأسرة، كغيرها من أسر أخرى، جواً ملتهبـاً مـن المشاعر الوطنية القوية، ففي نحو السابعة من عمري، سمعت، لأول مرة بـالطبع، عن رجل يدعى (محمد نجيب)، ثم علمت أنه كان أول رئـيس لجمهوريـة مصـر، وأتذكر أن أسرتي كانت تتعاطف مع مواقفه السياسية، ثم بدأت أسمع أن رئيساً جديـداً في مصـر، اسمـه جمـال عبـد الناصـر، أخـذ يتخـذ مواقـف مناوئـة مـن الإستعمار، وإن ذكره في أحاديث الأسرة كان يقترن بإحترام، وفي مساء أحد أيام سنة 1956 رأيت أخوي، نزار وعصام، قد جلسا يصغيان إلى الراديو وهو ينقـل خطاباً يذاع على الهواء مباشرة لجمال عبد الناصر، وكان والـداي خـارج البيـت حينذاك، فأنصت إلى الجهاز مثلهما، وأتذكر أنها طـارا فرحـاً عنـدما تـرددت في الخطاب كلمة (تأميم القناة)، ولما وصـل الوالـدان إلى البيـت، وكانـا قـد سمعـا الخبر، كانت الفرحة قد تجاوزت كل الحدود، وقد تساءلت في حينهـا عـن معنـى (التأميم)، وعن موقع (قناة السويس)، فلم تكن الإجابـات لتقتصـر علـى هـذه المعاني فحسب، وإنما تطوع كبار الأسرة بقص حديث القناة منذ حفرهـا وحتـى تأميمها على نحو مبسط جعلني أحس بحرارة الحدث وأهمية مغزاه.

ولم تمض إلاّ مدة بسيرة حتـى لاحظـت أن أحـداثاً مدلهمـة أخـذت تشـد الأسرة إلى جهاز الراديو من جديد، وبدا القلق واضحاً على وجوه الجميع، فهـا هي بريطانيا وفرنسا و(إسرائيل) يشنون عـدواناً مشـتركاً علـى مصـر، وتـدفقت

الأخبار من الراديو عن قصف لمدينة بورسعيد، ومآس تقع هناك، ومقاومة شعبية تجري في شوارع المدينة، وإنزال للجنود المعتدين بالمظلات،فعاشت الأسرة أياماً عصيبة لم يكن صعباً علي أن أدرك خطورتها، وبدت الأبصار وقد شخصت وهي تتابع الأحداث المتسارعة، وأتذكر أن والدتي ذهلت عن إعداد طعامنا يوم انقطع ارسال الإذاعة المصرية، بسبب قصف الطائرات المعتدية لها.

شاء القدر أن ينتدب والدي، وكان موظفاً في مديرية البلديات في وزارة الداخلية، للعمل في إمارة (دبي) بصفة خبير، بهدف تأسيس أول بلدية لمدينة دبي آنذاك، ولثاني مرة، بعد سفره إلى سويسرا، تبقى أسرتنا من دونه، ففي سفرته الأولى كان قلق والدتي منصباً على صحة والدي، إلاّ أنه في سفرته الثانية كان قلقها منصباً على أخي الأكبر نزار، وذلك أن نزاراً قد أخذ يتدخل، على ما سمعت من والدي، في السياسة، وعلمت أن السياسة تعني هنا المشاركة في المظاهرات الصاخبة التي كان يقوم بها طلبة الكليات ببغداد، وكان أخي قد أصبح طالباً في الكلية الطبية، وكان لهذه الكلية العتيدة نصيبها البارز في تلك المظاهرات، وهكذا دخلت السياسة لأول مرة في بيتنا، ولم تعد شيئاً تجري الفرجة عليه في خارج البيت، وتدافعت الأحداث بسرعة بعد عودة والدي من انتدابه الذي استغرق نحو ثلاثة أشهر، فنزار لم يعد هو نفسه ذلك الشاب الوديع الذي يأتمر بأوامر والدي بصورة عمياء، وإنما فتحت له مشاركته في المظاهرات الوطنية، وتعرفه على شبان وطنيين مثله، آفاقاً جديدة، وطموحات عريضة كان لابد أن تصطدم بحرص والدي على سلامته الشخصية، بل سيطرته التامة على شؤونه، كما كان يجري من قبل، وبدأ القلق يسود بيتنا هذه المرة لأسباب جديدة غير التي تعودناها، فلم يمتثل نزار هذه المرة لأوامر الوالد الحريص، واندفع بالعمل السياسي، وأخذت المنشورات تجد طريقها إلى أرفف مكتبته، إلى جانب كتب

الطب وعظام الموتى التي كان يحصل عليها لأغـراض الـدرس، وبـدا والـدي في حينها وهو يحاول أن يمسك بزمام الأمر بيد قوية، مـع أن الزمـام قـد فلـت منـه تماماً. لم يكن يخطر بباله، ولو للحظة، أن يعصي له أحد أمراً، فإذا به يواجه تحدياً خطيراً من أقرب الناس له. وفي الحقيقة كان أخي مستقيماً في كـل تصـرفاته، إلاّ أن استقامته الشخصية لم تكن- في نظر والدي- كافية بأية حـال، فسـلامة أخـي مهـددة بالاعتقـال في كـل لحظـة، واحتمـال تفتـيش الشـرطة للبيـت بحثـاً عـن المنشورات- التي كان والدي يخشاها خشيته للموت- قائم، وتأثير ذلك كله على مستقبل أخي، وهو أكبر أبنائه، ومعقد آمالـه ورجائـه، بـدا واضـحاً مـن خـلال انشغال نزار بالمظاهرات، وانصرافه التدريجي عن الدرس.

فن الرسم

ولعت في السنين المبكرة من عمري بالأقلام والألـوان، فحـرص والـداي على تنمية حسي الفني، باصطحابي إلى معارض الرسم التي كانت تقام في بغـداد بين حين وآخر، في نادي المنصور، وفي النادي الأولمبي في ساحة عنتر بالأعظميـة، وغير ذلك، وكانت سعادتي غامرة حين كانت والدتي تصطحبني إلى مرسم كليـة الملكة عالية حيث تدرس هناك، لأقضي ساعات حلوة من كل يوم خميس في هذا المرسم الحافل بالحركة، والذي يتولى الإشراف عليه الفنان المبدع الـدكتور خالـد الجادر، وقد تولى الجادر تشـجيعي علـى الرسـم، وكـان يحسـن الظـن بقابليـاتي الفنية، على الرغم من صغر سني، وأنا أذكر بمزيد مـن العرفـان طـول أنـاة هـذا الفنان المربي الذي لم يبخل علي بخبرته وصداقته، ثم تحولت الصـداقة إلى زمالـة محببة حينما قدر لي بعد سنوات أن أعمل مدرساً في كلية التربيـة المجـاورة لكليـة الآداب، وكان يعمل أستاذا للرسم في مرسمها، ولم تنقطع هـذه الصـلة إلاّ عنـد مغادرته العراق بصورة نهائية، قبيل اندلاع الحرب العراقية الإيرانية سـنة 1980 واستقراره في المغرب ثم وفاته هناك سنة 1988رحمه الله.

حب التاريخ

أتذكر أني كنت في السنة الرابعة من دراستي بالمدرسة المأمونية حين لفت نظري وجود نشرة مدرسية معلقة على الجدار الداخلي للمدرسة تتصدرها صورة لرجل شيخ يلبس الكوفية والعقال، علمت فيما بعد أنه الشريف حسين بن علي، تليها صور لأشخاص تبدو عليهم سيماء النبالة، وتحت كل صورة تعريف بدورهم، مع صورة متميزة للملك فيصل الثاني، وكنت أعرفه بسبب وجود صورة له تعلو سبورة الصف الذي أدرس وزملائي فيه، وتعلو النشرة عبارة (الأسرة الهاشمية). قرأت النشرة بشغف، وأعدت قراءتها فيما بعد، لا حباً بمن ضمتهم من أصحاب الصور، بقدر أنها أيقظت في احساس فطري بحب الماضي، والاهتمام بشخوصه، لقد تحرك في إذاً الشغف بالتاريخ، ذلك الشغف العجيب الذي ملك علي إحساسي ووجداني عمري كله.

وحين قامت ثورة تموز 1958 شعرت ان والدي كان يتوقع حدوثها، لأنه كان يستقرئ نذرها، لا سيما بعد مظاهرات سنة 1956 التي شارك فيها أخي نزار، وبدا لي أنه كان يتوقع من الثورة ان تكون بداية تغيير ضروري باتت البلاد في حاجة اليه، لكنه أخذ يشعر بالقنوط حينما اخذت الأخبار تترى عن مقتل الأسرة المالكة، ومنهم النساء الصالحات والملك الشاب البريء في حديقة قصر الرحاب، وزاد ألمه حينما شاهد وقائع محاكمة سعيد قزاز ثم علم باعدامه، فقد كان قزاز وزيراً للداخلية، أيام كانت مديرية البلديات العامة تابعة لها، وكان والدي معجبا بنزاهته المطلقة وصفاته الحميدة الأخرى الى حد بعيد.

وفي السنتين التاليتين وجدت نفسي أقرأ باستمتاع كل ما تقع عليه يدي الصغيرة من قصص تدور في أجواء الماضي، لا سيما ما كنت أقرأه في مجلة (سندباد) المصرية، ثم أخذت أقرأ روايات (أولادنا) التي تصدرها آنذاك دار المعارف بمصر بالقاهرة، وهي روايات أعدت خصيصاً للناشئة، وأغلبها مترجم من روائع الأدب العالمي. كانت تلك القراءات المستمرة سبباً في تحسن أسلوبي في الكتابة، وزادت من قدرتي على فهم ما أقرأ. وفي العطلة الصيفية التي تلت انهائي للدراسة الابتدائية وقع بيدي كتاب أعجبني جداً، هو كتاب (الرافدان) تأليف مفتش الآثار البريطاني سيتون لويد، وترجمه إلى العربية الأستاذان طه باقر وبشير فرنسيس، فقرأته مستمتعاً بكل عبارة وردت فيه، وكان يستعرض بأسلوب شيق وذكي تاريخ العراق منذ أقدم العصور حتى عهد الملك فيصل الثاني، وقد أثار هذا الكتاب خيالي، فصرت أتصور شخوصه وكأنها بعثت حية، وحينما فرغت منه شعرت بفراغ هائل في وجداني، وشرعت أفتش عن أي كتاب من نوعه يمكن أن يملأ لي هذا الفراغ، وبعد بحث وجدت كتاباً كان والدي قد اشتراه لوالدتي في أثناء الدراسة في كلية الملكة عالية، وهو كتاب (العصور القديمة) لجورج هنري برستد، ترجمة الأديب داود قربان، فشرعت بقراءته بنهم، رغم ضخامة حجمه، وقدم طبعته، وكونه قد ألف ليلائم المستوى الجامعي. وقد أمتعني الكتاب إلى حد لم أكن أتصوره، ولم أكتف بقراءته، وإنما بحفظ مادته، وكنت أعيد رسم صوره، وتعلمت منه كتابة الحروف الهيروغليفية، بل حفظت أصواتها، وكنت سعيداً حينما أكتب اسمي أو أسماء افراد عائلتي بهذه الحروف الصورية العجيبة. وأتذكر أني كنت أقضي سحابة نهارات تلك العطلة وأنا مستلق في عربة دفع، كان بعض عمال البناء قد تركوها في حديقة الدار إثر انجازهم بعض الأعمال الترميمية في البيت. وما أن انتهيت من الكتاب حتى

استهواني كتاب آخر، من كتب والدتي أيضاً، اسمه (النهج القويم في التاريخ القديم) لمؤلف يدعى هارفي بورتر، وكان مما يدرس في الكلية الإنجيلية في بيروت (الجامعة الأمريكية فيما بعد)، فقرأته بشغف لم يقل عن شغفي بالكتابين السابقين، مع أن أسلوب ترجمته لم يكن بمستوى طلاوتهما. وزادت متعتي بقراءة كتاب كبير عنوانه (دليل المتحف المصري) وكان يتضمن مقدمات في تاريخ مصر القديمة، مع صور المعروضات الأثرية في المتحف، وشروحاً وافية. وحينما انتهت العطلة الصيفية شعرت أني أصبحت مدمناً للتاريخ، انتقل من كتاب الى آخر، وتضيق نفسي إذا لم اجد كتاب تاريخ أقرأه.

كان التاريخ قد أصبح شاغلي الأول، ومصدر سعادتي الوحيد. وفي أول سني الدراسة المتوسطة لم أشعر باية رغبة بممارسة رياضة كرة القدم أو غيرها من أنواع الرياضة، بل لم أكن أشارك زملائي أياً من هواياتهم، وكان جل همي أن أجمع من مصروفي اليومي مبلغاً أتمكن به من شراء كتاب، وكانت ثمة مكتبة كبيرة نسبياً في شارع السعدون أقصدها فأشترى ما أتمكن من شرائه في كل اسبوع، وهكذا عرفت قدماي طريقهما لأول مرة إلى مكتبات بيع الكتب، وصرت أشعر بمتعة كبيرة وأنا أتطلع إلى أغلفة الكتب المصفوفة، فأقرأ عناوينها، وأسماء مؤلفيها، وأتصفحها حتى أنتهي إلى شراء واحد منها يعجبني ويلائم سعره ما جمعت من مال. وكانت أمي تخشى أن احرم نفسي من متع الطفولة، فكانت كثيرا ما تنصحني باللعب مع أترابي، وتقول: أخشى أن تندم حينما تكبر فإنك لا تعطي لهذه المرحلة من عمرك حقها من اللهو واللعب. ووالله لم اشعر بهذا الندم قط في سنوات عمري التالية، وانما الأمر كان بالضد من ذلك تماما.

وحينما انتهت العطلة الصيفية، انتقلت للدراسة في (متوسطة الشرقية)، بحكم قربها من دارنا، وكانت هذه المدرسة تشغل يومها داراً قديمة مستأجرة في

الكرادة الشرقية، في درب يقابل اليوم ساحة الفتح، حيث المسرح الوطني، ولم يكن غريباً إذن أن يلفت اهتمامي بالتاريخ انتباه مدرس هذه المادة في المدرسة، وكان من حسن حظي، أن موضوع التاريخ الذي يدرس في السنة الأولى من الدراسة المتوسطة هو (التاريخ القديم)، وقد دهش مدرس التاريخ حينما كنت أجيب عن أسئلته بتفصيل لم يكن يتوقعه، وأتذكر أنه سألني مرة متعجباً: من اين لك هذه المعلومات، فذكرت له المصادر التي ذكرتها من قبل، وأكثر من الأسئلة فأكثرت من الأجوبة، فأثار ذلك دهشته وشرع يمتدحني أمام الطلبة مما أثار زهوي بما أعرف.

كان مدرس مادة اللغة العربية معجباً بالقطع الإنشائية التي كنت أكتبها وألقيها بناء على طلبه، فكان ان اختارني أمينا لمكتبة المدرسة، التي كانت تشغل بضعة رفوف من دولاب، وقد سعدت بهذا (المنصب)، لانه صار بوسعي ان اقرأ من الكتب ما لم يكن متوفرا في البيت، وأذكر اني قرأت منها كتاب (كتبوا على الطين) لأدورد كييرا، وبعض مسرحيات علي باكثير، وغيرها.

وأذكر اني جازفت مرة فشاركت في مسابقة لقصص الاطفال اعلنت عنها مجلة (سمير) التي كانت تصدرها دار الهلال بمصر، وكان فرحي غامرا حين أعلمتني المجلة بفوزي، وارفقت رسالتها بكمية من اللعب غلفت بكيس كبير من البلاستك، ولكني سرعان ما اكتشفت ان معظم هذه اللعب قد جرت سرقته في البريد ولم يتبق منها الّا القليل.

اكتشاف!

وكان أن انتقلت الأسرة إلى بيتنا الجديد الذي شيده والدي في منطقة اليرموك سنة 1962، وكان قد اشترى أرضه من جمعية إسكان موظفي وزارة الداخلية، فقد كان هو موظفاً في مديرية البلديات العامة التابعة يومذاك إلى هذه الوزارة، ولم تكن منطقة اليرموك في ذلك الوقت إلا أرضاً جرداء، في أطراف بغداد الغربية، لا عمارة بعدها، وكانت يوما مزارع للجت إلا أن هذه الزراعة أهملت، ثم وزعتها الوزارة المذكورة على موظفيها سنة 1956، وكان بيتنا من أوائل البيوت التي شيدت في هذه الأرض، ومن ثم وجدت نفسي في بيئة جديدة تماماً، فليس أمام بيتنا إلا أرض قاحلة على مدى البصر، ونخيلات بعيدة لا أكثر، وأذكر أن بعض زملائي في المدرسة، ممن كانوا يسكنون في منطقة قريبة منا، أخبروني بإنه في أثناء جرف اللوريات الأتربة في منطقة غير بعيدة عن مكان سكننا، ظهرت مبان قديمة هناك، فذهبت بصحبتهم إلى تلك المباني، فوجدتها تتمثل في مجموعة من الجدران العريضة من الآجر المطبوخ، مع جدران أخرى من آجر نيئ، وبعض هذه الجدران يمتد لمسافة طويلة نسبياً، قد تتجاوز الإثني عشر متراً، أثارت هذه الشواخص خيالي وحب استطلاعي، فعدت إلى الدار حيث أخذت معي (كرك) و(فيته) وعدت إلى الشواخص حيث تتبعت امتدادات تلك الجدران بإزالة ما يعلوها من الأتربة، وقمت بقياس أبعادها بغاية من استطعت من الدقة، ورسمت مخططاً بدائياً للموقع كله، وفي اليوم التالي قصدت مديرية الآثار العامة في الصالحية وكانت هي المرة الأولى التي أدخل إليها، وقد سألت فراشاً كان يجلس على كرسي خارج أحد أبواب حجراتها عن المدير العام، فأدخلني إلى حجرة فيها موظف يظهر أنه كان سكرتيراً، وبعد استئذان، أدخلني

إلى قاعة كان يجلس في صدرها موظف علمت أنه هـو المـدير العـام للآثـار، ثـم علمت أنه فؤاد سفر، ولم يكن صعباً علي أن أرى على وجهه علامات التعجـب حينما وجد أمامه شاب صغير، لا يبلغ من العمر أكثر من أربعة عشر عاماً وهـو يحمل معه ملفاً، وبسرعة أخبرته بما رأيت من أمـر تلـك الشـواخص، وموقعهـا، وأظهرت له المخطط الذي وضعته، وبعد أن تأمل المخطط لدقائق، قال أن الأمر سيكون مهماً فعلاً لو أمكن جمع بعض اللقى الموجودة في الموقـع، فوعدتـه بـأني سوف أحضر له بعض تلك اللقى، وفي اليوم نفسه ذهبت مع زملائي إلى الموقـع حيث جمعت مجموعة كبيرة من الكسر الفخارية، وبعضها كان مزججـاً بمختلـف الألوان، وبعضها كان رقيقاً من الزجاج الملون، وفي اليوم التـالي حملـت كيسـين كبيرين من هذه الكسر وقصـدت مديريـة الآثـار حيـث طلبـت مقابلـة مـديرها المذكور، وما أن دخلت إلى مكتبه حتـى وضـعت الكيسـين أمامـه، فأخـذ يخـرج الكسر قطعة بعد أخرى، ويضعها على مكتبه، وبعد أن أجال نظره فيها متفحصاً إياها، قال أن الموقع مهم جداً، وشكرني على ما قمت به، وأخبرني أنـه سـيمنع التعديات على تلك الشواخص، وطلب من أحد الآثاريين أن يتوجـه إلى الموقـع بصحبتي للإطلاع المباشر عليه، وحينمـا وصـلنا، وجـدنا اللوريـات مسـتمرة في جرف التراب ونقله، فلم يكن من هذا الآثاري إلا أن طلب منهم الإمتنـاع عـن العمل في الموقـع، ثـم أدار ظهـره وغـادر المنطقـة، ومـا أن ابتعـد حتـى عـادت اللوريات إلى عملها. كان تصرف الآثار على هذا النحو البارد، بعد كل ما قدمته من بيانات ولقى، مخيباً لآمالي، وعلى أية حال فمن المرجح أن هذه الشـواخص كانت بقايا قرية المحول الواقعة على نهر عيسى، حيـث شـيد الخليفـة المستعصـم قصراً له هناك، ومن المؤسف أن زال الموقع كله بشواخصه وتلالـه الغنيـة ولقـاه المنتشرة على منطقة واسعة حوله، وتحولت أرضه لتكون جزءاً من مقتربات شارع

المطار. لقد أشعرتني هذه الحادثة مدى ثراء بلادنا بالآثار، وكثرة ما هو غير معروف منها، ومدى ما تتعرض إليه من إهمال مشين.

خطط بغداد

انتقلت للدراسة في متوسطة المأمون، وكانت تقع في نهاية حي المنصور، في دار كبيرة (اتخذت عيادة لأطباء العيون فيما بعد) قريبة من بيتنا، وغير بعيد عنها افتتحت مكتبة عامة أنيقة هي مكتبة المأمون العامة، مقابل النادي الترفيهي للضباط الذي أنشئ فيما بعد بسنوات عدة، فوجدت طريقي إلى هذه المكتبة أغترف منها ما أشتهيه من الكتب، وزاد ترددي إليها، واتسع نطاق ما كنت أقرأه. وأذكر أني استعرت ذات يوم كتاباً استهواني عنوانه، وهو (دليل خارطة بغداد المفصل) من تأليف الدكتور مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسه، فقرأته بشغف شديد، حتى أني أشتريت فيما بعد نسخة خاصة بي، وصرت أقرأه قراءة تمعن وتأمل، وتعرفت من خلاله على خطط بغداد القديمة، لا سيما في العصر العباسي، وما كان يقوم فيها من منشآت مهمة، ووجدت طريقي هذه المرة إلى بغداد نفسها، أقابل ما أقرأه في (الدليل) و(خرائطه) على واقع بغداد الآن، وأتذكر أني كنت أقف طويلاً متأملا الدروب والمساجد والمباني الأثرية القديمة، حينما بلغت الخامسة عشر من عمري قررت أن تكون لي مكتبتي الخاصة، فصرت أستقطع معظم مصروفي الأسبوعي لأشتري في نهاية كل أسبوع كتاباً جديداً، وما أن أنتهي من قراءته حتى أشتري كتاباً آخر، وتعرفت لأول مرة على شارع المتنبي، وصرت أتردد على مكتبة المثنى، حيث أشتري ما يحلو لي من الكتب، وفي هذه المكتبة كنت أرى بعض رجال الفكر والأدباء والمؤرخين، منهم كوركيس عواد وفؤاد عباس وغيرهم.

ولكم كان حزني عميقاً حينما قدر الله أن أشاهد في صباح يوم كئيب، بعد سنوات عديدة، مكتبة المثنى وهي تحترق بفعل فاعل مجهول، وقد تجمهـر حولها الناس، وامتلأت سماء شارع المتنبي برائحـة الكتـب المحترقـة ودخانهـا، فكتبـت مقالا حزيناً أرثيها فيه، مشبها ذلك الحدث بحريق دار الأوبرا المصرية الذي كنت قد شاهدته ايضاً في اثناء وجودي في ارض الكنانة سنة 1970.

كتابة البحوث الأولى

وصادف أن انتسب أخي الأوسط عصام إلى كلية الآداب، فخيّره عميدها يومذاك ناجي معروف، وكان من تلامذة جدي في المدرسة الإعدادية، بين دخوله قسم الفلسفة فيتخرج كافراً، وبين قسم التاريخ فيخرج وقد زاد ايماناً، وهكذا دخل القسم الأخير، وكنت يومذاك في الصف الثاني المتوسط، ووجد أخي نفسه مكلفاً بنسخ محاضرات أساتذته، وهي كثيرة، إذ لم يكن ثمة أجهزة استنساخ، فصار يكلفني بذلك لمساعدته، ولم أشعر بضيق وأنا أقضي الساعات الطوال من الليل أنسخ بيدي ما فاته من محاضرات، بل كنت أشعر بشوق إلى تلك المهمة، إذ وجدتها تزيد من سعة معرفتي التاريخية، بل كنت أسعد حينما بدأت أكتب له جميع ما كان يكلف به من بحوث، له ولبعض زملائه، وكان شرطي الوحيد للكتابة أن يستعير لي ما أحتاجه من مصادر من مكتبة الكلية، وصرت أقضي ساعات الليل بطولها في الكتابة، مخلصاً في عملي، متلذذاً في إتقانه، متعلماً من المصادر نفسها شكليات البحث، وأصوله.

لاحظت والدتي شغفي بالتاريخ، واستقطاعي معظم مصروفي لشراء الكتب، فشجعتني تشجيعاً كبيراً، وأعلمت والدي بالأمر، فصار يشتري لي ما أريده من الكتب التي لا أتمكن من توفير ثمنها، وأنا أتذكر الآن أنه فاجأني ذات مرة بإهدائي كتاب (الكامل في التاريخ) بأجزائه التسعة، ثم كتاب (المنتظم في التاريخ) لإبن الجوزي بأجزائه الخمسة، بعد أن علم برغبتي في الحصول عليهما، وقد قرأت الكتابين بمتعة كبيرة، وزادت معرفتي، من خلال ابن الجوزي، على خطط بغداد في العصور العباسية المتأخرة، فصرت أزيد على ما قرأته في (دليل

خارطة بغداد) من معلوماتي الجديدة، ثم أني اشتريت كتاب (الحوادث الجامعة) الذي حققه مصطفى جواد من مكتبة حسين الفلفلي في سوق السراي، وجردت ما احتواه من معلومات في خطط بغداد، بل اني اشتريت بعض المخطوطات التي كانت تباع جهرة من مكتبة الحاج ابراهيم الأعظمي في مدخل سوق السراي، بسعر معقول. وهكذا كانت حصيلتي في هذا المجال في ازدياد مستمر، وصار ديدن الأسرة أن تهدي إلي كتاباً أريده في كل مناسبة، وأتذكر أنه في سنة 1965 أهدت لي والدتي كتاباً كنت حدثتها عنه، هو (الجامع المختصر من عيون التاريخ وأعين السير) لإبن الساعي، من تحقيق مصطفى جواد. وفي ذكرى ميلادي في السنة التالية أهدت لي كتاب (مباحث عراقية) ليعقوب سركيس بجزئيه، وكانت متعتي بهذه الكتب لا توصف.

وبدأت مكتبتي الخاصة تنمو، ومع نموها ولدت عندي فكرة أن أجرب الكتابة، وبالطبع كان التاريخ هو مجالها الوحيد، وقد بدأت هذه التجربة بنشر أول مقال لي، وعنوانه (المارستان العضدي) في مجلة اسبوعية مغمورة اسمها (صوت الإسلام) كان يتولى تحريرها الشيخ إبراهيم السامرائي، ويجري طبعها في مطبعة البصري لصاحبها علي البصري، التي طبعت فيها أول كتبي، وهي تقع في أول زقاق ضيق يدخل إليه من ساحة الأمين (الرصافي الآن)، وكانت مصادري في هذا المقال لا تتجاوز عدة كتب، ولكنها أصلية، وهي المنتظم والكامل ورحلة ابن جبير وكتاب الحوادث الجامعة وكتاب أو كتابين آخرين، ولما صدر العدد وهو يتضمن المقال طرت به فرحاً، وفرحت به الأسرة، وقرأه والدي على جدي، وكان شيخاً كبيراً، فكان ذلك سبباً في أن يوصي بمكتبته لي فيما بعد. وقد شجعني هذا على المضي في كتابة بحوث عن (جامع السيد سلطان علي) و(جامع الشيخ سراج الدين) و(الحاج أحمد آغا) و(مسجد نعمان جلبي الباجه

جي) و(المدرسة السليمانية) وغيرها، ولم أكن أكتفي فيما أكتب ما تذكره المصادر، وإنما ما أسجله من ملاحظات مباشرة في زياراتي المتعددة للمكان، حيث لم أزر مكاناً إلا وظفرت بملاحظة جديدة، من ذلك مثلاً أني حينما كتبت عن مسجد نعمان الباجه جي، وهو مسجد صغير يقع قرب ساحة الوثبة (ساحة الملك فيصل الثاني سابقاً) اكتشفت وجود باب صغيرة ينفذ منها إلى سلم طويل يصل إلى أرض سرداب أو قبو عميق، وقد اضطررت لغرض استكشافه أن أوقد (دستة) من الشموع في كل مكان فيه، وإذا بي أرى أن هذا القبو يسبق في وجوده تاريخ المسجد نفسه، حيث توجد ثمة قبور لها شواهد مؤرخة بتواريخ سابقة، ولما كانت المنطقة قبل أن يبني فيها الباجه جي مسجده بساتين غير معمورة، فقد استقر عندي أن ذلك القبو، بعمقه وشكل آجره، يرقى إلى العصر العباسي، ومن الراجح أنه كان جزءا من مباني دار الخلافة العباسية التي كانت تشغل المكان كله في ذلك العصر، كما قرأت في كتابي المفضل (دليل خارطة بغداد المفصل).

اول المخطوطات

وفي العطلة الصيفية التي تلت الدراسة المتوسطة عرفت طريقـي إلى مكتبـة المتحف العراقي في الصالحية، هذه المكتبة التي أدين لمكنوناتها من الكتب النـادرة والمخطوطات والصحف القديمة بتكويني العلمي الأول، فصرت أحرص على أن أدخل إليها مع بدء الـدوام الرسمـي لموظفيهـا وأخـرج مـع خـروجهم، وكنـت أستعير الكتب منها، استعارة داخلية، وأقرأها بنهم، ولما لم يكن في ذلـك الوقـت أجهزة استنساخ، أضطررت إلى ملء الدفاتر تلو الدفاتر بما استنسخه بيدي، ومـا أسجله من ملاحظات، وما اقتبسه من فقـرات، واسـتمرت زيـارتي اليوميـة إلى المكتبة في السنوات التالية بإنتظام، وفي قسم المخطوطات الذي في الطابق العلوي من مبنى المكتبة اطلعت سنة 1965 على أول مخطـوط في حيـاتي، وكـان (غايـة المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام) لياسين العمري، ولم يكـن قـد طبـع في مطبعة دار البصري بعد، وقد نسـخت الفصـول الـتي تتعلـق بالعصـور المتـأخرة بيدي، وهي تؤلف شيئاً كثيراً من الكتاب، وأنا أدين لهذا الكتـاب بالفضـل لأنـه هو الذي أوحى لي باختيار موضوع الماجستير بعد سنوات عديدة، فقـد تضـمن فصلاً عن ولاة الجليليين في الموصـل، فـإخترت هـذا الموضـوع عنوانـاً لرسـالة الماجستير.

وزادت قراءاتـي في مخطوطـات المتحـف العراقـي، ونمـت ملاحظـاتي واقتباساتي منها، وأذكر أن مما استهواني منها تاريخ الغياثي الذي يؤرخ للقـرون التي أعقبت احتلال المغول بغداد، وكنت قد تعرفت على اسمه وموضـوعه مـن كتاب دليل خارطة بغداد المفصل، ونقلت منه أشياء كثيرة لا سيما أسماء مواقـع

معالم بغداد في تلك القرون، وسعيت إلى تصوير نسخة منه على مايكروفيلم من خلال الشعبة الفنية في المجمع العلمي العراقي، ولما حصلت عليها صرت أقرأه بواسطة جهاز بدائي يشبه الفانوس السحري، وكنت أقضي الساعات الطوال في قراءة هذه المخطوطة كلمة كلمة دون أن ينتابني تعب أو ملل. وكم كانت سعادتي حينما رأيت الكتاب مطبوعاً بتحقيق الصديق الدكتور طارق الحمداني سنة 1975 فاشتريت منه نسخة فوراً، ومن بعد ذلك لم أعد أرجع إلى المايكروفيلم، فقد أغنى التحقيق الجيد عنها. ومن المخطوطات التي صورتها في تلك السنة رحلة (كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان) لمصطفى بن كمال الدين الدمشقي، وقد نسخت منها، بالطريقة نفسها، ربعها الأول، ومن المكتبات التي ترددت عليها أيضاً مكتبة المدرسة القادرية العامة، حيث اطلعت على بعض مخطوطاتها، وعلى مكتبة الخلاني القريبة منها، وعلى مكتبة الحاج حمدي في الأعظمية.

ثم أني أخذت بالتردد على مكتبة الأوقاف العامة، وكانت تشغل شقة واسعة في الطابق العلوي من عمارة قديمة قرب جامع الفضل، مطلة على شارع غازي (شارع الكفاح)، وهناك تعرفت على مديرها عبد الله الجبوري، وقد نشأت بيننا صداقة ومودة دامت أربعة عقود أي حتى سنة 2006، ثم انقطعت فجأة إثر اتخاذه تجاهي موقفاً عدائياً عجيباً لم أفهم أسبابه إلى حد الآن، على الرغم مما كنت أكنه نحوه من مودة واحترام في أثناء هذه المدة الطويلة. اطلعت في هذه المكتبة الغنية على مؤلفات الآلوسيين الخطية، وعلى مؤلفات عبد الكريم الجيلي ذلك الصوفي الذي أولعت به، وعلى غير ذلك من الكتب لا سيما الإجازات العلمية لبعض علماء العراق.

وشيئاً فشيئاً اعتادت عيني على قراءة أوعر المخطوطات خطاً، وأدقها حرفاً، وقد صورت عدداً من المخطوطات بواسطة كاميرا جيدة كان والدي قد جلبها لي من براغ، في رحلة له الى هناك لغرض العلاج، وأضاف اليها عدسة ألمانية مقربة، ومما صورته مخطوطة (حروب الإيرانيين في العراق) للمؤرخ سليمان فائق بك، وغير ذلك.

وكانت لرحلات الأسرة السنوية الى تركيا وايران واليونان، فضلاً عن الأقطار العربية الأخرى، دور مهم في اطلاعي على المتاحف، والآثار المهمة هناك، من المعالم القديمة، والقلاع، والجوامع، وقصور السلاطين. وأذكر أن مما استهواني في استانبول، على نحو استثنائي، مقابرها العثمانية ذات الشواهد الرخامية المنحوتة، فكنت أقضي الساعات الطوال في تأملها، بينما استهواني في مدينة كافالا اليونانية (او قوله كما كان يكتبها العثمانيون) بيت محمد علي، قبل ان يرحل الى مصر ويصبح حاكمها المتفرد. وفي إحدى تلك الرحلات، وكنا ننزل في انطاكية، طلبت من أبي ان يشتري لي خمسين قطعة من النقود، أغلبها بيزنطي، وأقلها اسلامي، من رجل كان يعرضها للبيع هناك، ففعل، وبقيت معتزاً بهذه النقود سنين الى أن أهديتها الى مديرية الآثار العامة، وكنت يومذاك في أولى سني الدراسة الجامعية. ومما أهديته الى مديرية الآثار العامة ايضاً، مقبض كروي الشكل تقريبا كان أبي قد ورثه عن جدي، وهو من حجر أسود اللون، صقيل، قد كتبت عليه كتابة بأحرف مسمارية، وقد صورت هذه الكتابة وقدمتها الى الدكتور محمود الأمين، استاذ التاريخ القديم فلم يعرف معناها، ثم عرضها على مختصين آخرين فلم يعرفوها هم ايضاً، واكتفى الأمين بالقول انها بلغة غريبة لم يعرفها وإن كتبت بالخط المسماري.

نحو فهرسة المخطوطات



وفي سنة 1965 تعرفت على السيد جمال الـراوي، وكـان محامياً ومتولياً على جامع السيد سلطان علي المقابل لداره، وقد تعرفت عليه من خلال قريبة له هي الآنسة بلقيس الراوي، التي أصبحت زوجة للشاعر نـزار قبـاني فيمـا بعـد، وكانت زميلة لوالدتي في التدريس في إحدى مدارس البنـات في الأعظميـة، وفي المرة الوحيدة التي زرته فيها أطلعني على مخطوطين، أولهمـا (روضـة الأعيـان في أخبار مشاهير الزمان) لإبن حماد دكين الموصلي المتـوفى سـنة 750هـ، والآخـر

(سراج الأخبار) للرفاعي، واستأذنته بنقل نصوص مهمة من أولهما فأذن، ثم استأذنته للإطلاع على المخطوطات المحفوظة في مكتبة جامع السيد سلطان علي، فأذن أيضاً، ومنذ اليوم التالي على هذه الزيارة أخذت أتردد على مكتبة الجامع المذكور، وفي كل زيارة لها كنت أسجل ملاحظاتي في وصف مجموعة من المخطوطات، ثم أتوجه بعدها الى مكتبة المتحف العراقي لأقابل هذه الملاحظات على معاجم الكتب وفي مقدمتها (كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون) للحاج خليفة، وذيله المسمى (ايضاح المكنون) لإسماعيل باشا البغدادي، حيث لم اكن أملك هاذين الكتابين اللذين لا مندوحة عنهما في عمل كالذي كنت اقوم له، وكانت تعلو الكتب كمية هائلة من الأتربة، وتخلو حتى من مروحة عادية، بينما كان الفصل صيفا، والحر قائضاً. وأخيراً أكملت مهمة الفهرسة، وظل الفهرس عندي حتى أخذت أنشره تباعاً على شكل حلقات في مجلة المكتبة التي كانت تصدرها مكتبة المثنى لصاحبها الكتبي قاسم محمد الرجب في السنوات 1967- 1970، ثم جمعتها في عمل واحد ونشرته في سنة 1994 في مجلة المورد التراثية، التي تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، فكان فهرستي لهذه المكتبة اول تعرف لي على فهرسة المخطوطات، وبداية لقيامي بفهرسة عدد من المكتبات القيمة فيما بعد.

وكان مما استهواني من كتب التاريخ في مكتبة المتحف العراقي كتاب (كلشن خلفا) اي حديقة الخلفاء، تأليف مرتضى نظمي زاده، وهو كتاب فائق الأهمية في عرضه لتاريخ العراق في القرون المتأخرة، ولما كان الكتاب باللغة العثمانية القديمة، فقد اضطررت إلى بذل جهود مضنية لفهم هذه اللغة من خلال معجمين كبيرين، وقد ساعدني ذلك على فهم نصوص كثيرة في كتاب سجل عثماني لمحمد ثريا، ورحلة أوليا جلبي، وتاريخ نعيما، وغير ذلك، وما كان

أحسن ما قام به الإستاذ موسى كاظم نورس حين ترجم كتاب (كلشن خلفا) إلى العربية فسهل على أبناء الضاد قراءته.

ومن المؤسف اني زرت السيد جمال بعد نحو اربعين سنة من ذلك التاريخ، وكان قد ترك ذلك البيت القديم في شارع السيد سلطان علي، وسكن في إحدى شقق الصالحية الأنيقة، فسألته عن مخطوطة (روضة الأعيان) التي رأيتها عنده، فأخبرني آسفاً انه فقدها في ظرف غريب لم يوضحه لي، وقد دفعني جوابه الى ان أسعى للحصول على صورة لنسختين مستقلتين من الكتاب، موجودتين في معهد المخطوطات العربية، بهدف تحقيقه، ولعلي أوفق الى ذلك ان شاء الله.

التاريخ والمؤرخون

وكنت قد اقتنيت، وأنا في الصف الثالث المتوسط، كتابا كان له أثر بليغ في حياتي، ذلك هو كتاب (التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر) مـن تأليف الدكتور جمال الدين الشيال، فقرأته واستمتعت به كثيرا، ولبث في مكتـبتي الصغيرة، أطالع فيه بين حين وآخر، ومن خلاله تعرفـت علـى أسمـاء مـؤرخين كبار، منهم عبد الرحمن الجبرتي، ورفاعة رافـع الطهطـاوي، وغيرهمـا، وحينمـا انتسبت الى كلية الآداب، خطر ببالي ان أحـذو حـذو هـذا الكتـاب، بـأن اجمـع تراجم المؤرخين العراقيين في العصر العثماني، معرفـاً بمؤلفـاتهم التاريخيـة، ومـا طبع منها وما لبث مخطوطا. وجمعت قدرا لا بأس فيه من التراجـم والمعلومـات، وفي السنة الأخيرة من الدراسة الجامعية قررت أن أتخذ من هذا الموضوع عنوانـاً لرسالتي لنيل درجة الماجستير، وكنت متحمسا له غايـة الحماسـة، إلا أن ظروفـاً معينة حالت دون اختياره، ومع ذلك فقد صحبني هذا المشروع اكثر مـن اربعـين سنة، كما سأذكر بعد قليل.

اول المؤلفات

ووجدت في ذلك التشجيع سبباً في المضي في تجربة البحث في التاريخ وكتابته، فكان أن كتبت سلسلة من البحوث الصغيرة اختص كل منها بتاريخ إحدى مدارس بغداد في العصر العباسي، فكانت تلك البحوث نواة لأول كتبي (مدارس بغداد في العصر العباسي). وكان تأليف هذه الكتاب سبباً في تعرفي على المرحوم المؤرخ الدكتور عبد العزيز الدوري في صيف سنة 1965، وكان ذلك اللقاء مهماً فعلاً في حياتي العلمية، وتفصيل هذا الأمر إني لما لم تكن لي تجربة سابقة في نشر الكتب، فقد أرسلت بمسودة الكتاب، وتقع في دفترين كبيرين، إليه بواسطة صديق له هو الدكتور فاضل القدسي، عميد كلية طب الأسنان آنذاك، وأحد أصهار أسرتي، ليبين رأيه فيه، وفي جدوى نشره. وكنت في ذلك الحين شاباً يافعاً لم أتجاوز السابعة عشر من عمري، يملكني حب عجيب للتاريخ، لا سيما تاريخ بغداد العباسية، بينما كان هو – فيما أظن- رئيساً لدائرة التاريخ الإسلامي في جامعة بغداد، ولم يكن يدر في خلدي أن يجد الدكتور الدوري، على كثرة مشاغله وتنوع مسؤولياته الإدارية والعلمية، من الوقت ما ينفقه على قراءة كتاب كتبه شاب مثلي، لم يدخل الجامعة بعد، لا سيما وأني كتبته بخط بالغ الدقة، على مسافات متقاربة جداً من السطور، ولكن ما أن مضى أسبوع واحد أو يزيد قليلاً، حتى أبلغني الدكتور القدسي برغبة الدكتور الدوري في لقائي في مكتبه بجامعة بغداد، ودهشت لإهتمامه بي وبكتابي الوليد، وذهبت إليه، وكم كان سروري حينما وجدت مسودة الكتاب على مكتبه، وقد أثبت فيها وريقات بيض إشارة إلى مواضع أراد أن تكون موضوعاً لحديثه إلي، وفي الواقع فإني لا أنس ذلك الحديث الشيق، فقد أبدى اعجابه الشديد بالكتاب،

وبخطته، ومقدمته، وتفاصيله، كما أبدى اعجاباً خاصاً بخريطتين كبيرتين كنت قد ألحقتهما به، تمثل الأولى مواقع مدارس بغداد في العصر العباسي، والثانية خارطة خططية لجانب من بغداد الشرقية في ذلك العصر، والأهم من ذلك كله أنه شجعني على طبعه فوراً ودون أن يبدي ملاحظات تذكر، وأخبرني – بتوضع جم- أنه مستعد لإستقبالي لأي شأن من شؤون العلم، وتوقع لي مستقبلاً محموداً في مجال دراسة التاريخ. وأحسست، وأنا أغادر مكتبه، أن الدنيا لم تكن تسعني، فلم أكن أتوقع أبداً أن يخرج كتابي الأول وهو يحمل شهادة ولادته موقعة بيد هذا المؤرخ الكبير، ولم أكن أنتظر كل هذا التشجيع الجميل. وكان من ثمار ذلك اللقاء أني قدمت كتابي للطبع في مطبعة دار البصري، التي سبق ان أشرت اليها، وخرج للناس في شتاء سنة 1966، شاغلاً نحو 230 صفحة كبيرة.

وفي نظر كثير ممن اطلعوا على الكتاب فإن تأليف فتى في السابعة عشر من عمره كتاباً في تاريخ جانب مهم من الحضارة الإسلامية في بغداد كان أمراً مدهشاً وملفتاً للنظر، وأذكر أني حينما ذهبت إلى الأستاذ سالم الآلوسي في مكتبه في وزارة الثقافة الكائن مبناها في مكان مطبعة الحرية المحاذي للجسر الحديد في الباب المعظم، لأهدي إليه نسخة منه، دهش حينما رآني، وقال لي مستغرباً أنه كان يقرأ مقالاتي في جريدة البلد معجباً بها، وقد سأله المرحوم الدكتور مصطفى جواد عني، وقال كنا نتصورك شيخاً لا فتى، وقد سررت بهذا الكلام جداً واعتبرته إطراء ما بعده إطراء، وظل الآلوسي يكرر هذه الشهادة في مجالس عديدة، وحينما دعاني- وكان يومذاك مدير المركز الوطني للوثائق، لإلقاء محاضرة عن واقع الوثائق العثمانية في العراق، وكنت في حينها أستاذاً للتاريخ الحديث في كلية التربية، قدمني للحضور بهذه الشهادة الطريفة. ثم أني أهديت نسخة من الكتاب إلى الدكتور مصطفى جواد عن طريقه، ونسخة اهديتها بنفسي

إلى الدكتور حسين أمين في مكتبه في كلية التربيـة، فأعجـب بالكتـاب، وأهـداني بالمقابل كتابه (تاريخ العراق في العصر السلجوقي) الذي كان قد صدر قبل أشهر من تاريخ زيارتي له، كما أهديت نسخاً أخرى لعدد مـن الكتـاب المعـروفين في ذلك الوقت، منهم الدكتور عبد العزيز الدوري مشجعي الأول، والقارئ الأول لمسودة الكتاب قبل طبعه، والدكتور صالح أحمد العلي، وغيرهما.

وفي سنة 1968 التقيت بالعلامة الدكتور مصطفى جـواد، وكـان يومـذاك ملازما فراش المرض في مستشفى ابن سينا في كرادة مريم (ضمن ما يعرف اليوم بالمنطقة الخضـراء) وسـبب ذلـك اللقـاء، أنـي كتبـت مقـالاً في جريـدة (المنـار) البغدادية (في 30/ 10/ 1967) أرد فيه عليه بشأن مسألة جزئية وردت في مقال كتبه في تحقيق قبر ابن الجوزي (نشر في المنار أيضا في 16 من ذلك الشـهر) نفـي فيه أن يكون ذلـك موضـع ذلـك القـبر المدرسـة الـتي درس فيهـا العلامـة ابـن الجوزي، مسترجحا أن يكون موضع مدرسة أخرى، تنسب الى عبد الوهاب ابن قاضي داقوقا، وقد رأيت أن هذا الإسترجاح بعيد جداً، لاسيما وأن هـذا القـبر موجود فعلاً على شاطئ دجلة في محلة السـنك، وهـو منسـوب لإبـن الجـوزي، وجميع آل الجوزي من أبنائه كانوا يدرسون فيها، وقد نشرت الرد باسم مسـتعار، هو (بغدادي) لكن الدكتور عرفني بذكائه المعهود، واذكر انـه كتـب (عرفتـه مـن ادبه الجم)، فقصدته الى المستشفى شاكرا ومعتذرا في وقت واحد، ومتفقدا صحته أيضا، وفي الواقع فإني كنت من أكثر المتابعين له حينما كـان يظهـر علـى شاشـة التلفزيون مع الأستاذ سالم الآلوسي، حتى أني كنت اسـجل كـل كلمـة يقولهـا، وكانت هذه هي المرة الثانية التي أراه فيها، فقد التقيت به في استانبول قبل ذلـك بثلاث سنوات، وكنت يومذاك بصحبة والدي الذي يعرفه شخصـياً، وكـان هـو في طريقه الى البلاج للسباحة. وكان لقائي به في المستشفى قصـيرا بسـبب حالتـه

الصحية لكنه كان لقاءا ممتعاً، وقد ضحك كثيرا وأبدى اعجابه بكتابي (مـدارس بغداد) وبما كتبت في ذلك المقـال، وأبـدى أنـه كـان يجـب عليـه الـرد، فشـكرته وخرجت مقدرا أدب العلماء وتواضعهم، ولم تمض الّا سنة او يزيـد حتـى نعـاه الناعي وخرج الناس في تشييعه آسفين.

تحقيقات صغيرة

في سنة 1966 كان تعرفي على جريدة البلـد لصـاحبها الصـحفي القـديم عبد القادر البراك، فتركت النشر في مجلة (صوت الإسلام) وأخذت أنشر في هذه الجريدة مقالات تاريخية يدور معظمها حول موضـوعات خططيـة، وردود علـى أخطاء في الموضوع نفسه، من أهمها (تحقيق قبر الحلاج) وقد أثبت فيـه أن القـبر المعروف بقبر الحلاج الكائن في مقبرة الجنيد ببغداد، ليس للصوفي الشهير الحسين بن منصور الحلاج وإنما لرجل آخر توفي بعده بنحو قرنين، اشترك معـه باللقـب، وأن الرحالة ابن جبير هو أول من أخطأ في نسـبته إليـه، كمـا نشـرت بحثـاً آخـر بعنوان (دار القرآن البشيرية وهل هي مسجد السيف القديم) توصلت فيه إلى أن دار القرآن التي أنشأتها السيدة باب بشير هي في نفـس المكـان الـذي أنشـئ فيـه مسجد السيف في الكرخ، قرب مديرية التقاعد العامة، وبحث حـول تحقيـق قـبر أبي الحسن الأشعري، وأن الأصل التاريخي لجامع السـراي هـو مسـجد الناصـر لدين الله، وبحوث أخرى، وكانت جريدة البلد في حينها تتخـذ مـن دار قديمـة في محلة جديد حسن باشا خلف مبنى أمانة العاصـمة (مجمـع الأدبـاء اليـوم) وكـان مكتب المرحوم البراك يقع في الطابق العلوي، وكنت كلما دخلت إليه أجد بعض السياسيين القدامي يتحدثون، أو يناقشون، مـا شـاهدوه أو عـانوه، مـن تجـارب سياسية في العهد الملكي، وكثير مما كانوا يتحدثون فيه يـدخل في بـاب (الأسـرار السياسية)، وكنت أحمل للبراك احتراماً عميقاً، فهو متفائـل دائمـاً، تعلـو وجهـه ابتسامة طيبة، وقد ظلت صلة الاحترام والمودة بيننا حتى وفاته سنة 1995. وفي زاوية من ذلك الطابق كانت حجرة صغيرة يشغلها مكتب الصحفي زهـير احمـد القيسي، وكنت أعجب بطريقته في التحرير الصحفي، وصياغته للعنـاوين. وقـد

انعقدت بيننا من ذلك الحين صداقة واحترام متبادلين، استمرا حتى تجاورنا في منطقة الغزالية، وقد زرته عدة مرات، ثم علمت أنه اعتكف في داره عدة سنوات فانقطعت عن زيارته احتراماً لرغبته في ذلك الإعتكاف حتى وفاته سنة 2012.

وتعرفت في الوقت نفسه على المرحوم عبد الوهاب السامرائي، مدير دار التربية الإسلامية في الكرخ، وكانت هذه الدار تصدر مجلة بعنوان (التربية الإسلامية) فقدمت إليه بحثاً بعنوان (جامع قمرية في العصور العباسية) وكان اختياري للمجلة أن الدار كانت قريبة من الجامع المذكور، ثم نشرت بحوثاً أخرى عن بعض المدارس في بغداد في تلك العصور، منها (مدارس ابن الجوزي).

ولم تكن تصدر في بغداد يومذاك مجلات ثقافية، فضلاً عن مجلات تعنى بنشر البحوث التاريخية، باستثناء مجلة المجمع العلمي العراقي ومجلة كلية الآداب ومجلة الأستاذ التي تصدرها كلية التربية، وهي المجلة التي أصبحت عضواً في هيئة تحريرها فيما بعد. وحينما أصدرت وزارة الثقافة والإرشاد مجلة الأقلام كان ذلك حدثاً مهماً في الحياة الثقافية، لأنها أصبحت منبراً ينشر فيه الكتاب بحوثهم، والشعراء قصائدهم، فقصدت هذه المجلة حيث نشرت فيها عدة بحوث من أهمها بحث بعنوان (الشيخ عبد الكريم الجيلي)، وهو اعادة جذرية للمقال الذي كتبته عنه في جريدة البلد من قبل، ومن المؤسف أن شخصاً، كان زميلا لي في الكلية، قام بالسطو على البحث فنشره بحرفه في مجلة (المورد) التي أصدرتها وزارة الثقافة والإعلام بعد عقد من السنين، فما كان مني الّا ان نبهت المجلة الى هذا السطو فنشرت اعتذاراً في العدد التالي من المجلة، وحجبت عنه مكافأته..

كلية الآداب

أنهيت الدراسة الإعدادية بنجاح، أو بتفوق على وجه الدقة، وكنت قد عقدت النية على ان أدخل قسم التاريخ من كلية الآداب، فذلك هو هدفي الوحيد، ولا خيار لي غيره، ولما تسلمت استمارة الإختيارات، كغيري من المتخرجين من الإعدادية، وجدتها تضم خمسين خياراً، ولم يكن ملؤها جميعاً إلزامياً كما حدث فيما بعد، فلم أملأ منها إلا حقلا واحداً، كتبت فيه اسم كلية الآداب، واسم قسم التاريخ، وشطبت على الحقول التي تركتها خالية بالحبر، بمعنى أن لا خيار لي غير دراسة هذا العلم، ولا شيء بعده، وبعد انتظار وجيز أخبروني بقبولي في ذلك القسم، وأن علي مراجعة الكلية، ولم أكن قد دخلت هذه الكلية إلا مرة أو مرتين بصحبة أخي عصام، فذهبت إليها، وكانت تشغل المبنى الذي شغلته منذ سنة 1968 كلية القانون، فذهبت إلى قسم التسجيل الذي كان يشغل بيتاً مستأجراً خارج مبنى الكلية، وهناك أخبرني موظف التسجيل بقبولي في القسم الذي أريد، فلم أصدق الأمر للفرحة التي أصابتني، بحيث اضطر أن يكرر كلامه مرة أخرى، وكان ثمة مقابلة شكلية توجب أن أحضرها قبل أن أذهب إلى القسم، وسألت عن مكان إجرائها، فأشروا إلى حجرة تقع مقابل مكتب العميد، وذهبت إلى المكان المقصود، وهالني أني سمعت أصوات بكاء ونشيج تنطلق من تلك الحجرة، ولما وصلت إليها فوجئت بعدد من الطلبة يتصايحون معترضين، وطالبات يبكين للسبب نفسه، ولما سألت عن سبب الصياح والبكاء أخبروني بأن الكلية قد زجتهم زجاً في قسم التاريخ على رغم أنوفهم، مع أنهم يكرهون التاريخ، فاستغربت من ذلك إذ لم أكن أتصور كيف يمكن لإنسان أن لا يحب التاريخ، وأخيراً وصلت إلى القسم وانتظمت بين

طلابه، وأنا أجزم الآن أن أجمل لحظة في حياتي هي جلوسي في قاعة الدرس، في هذا القسم، مستقراً على أن لن أدرس شيئاً غير التاريخ، والتاريخ وحده، وبالفعل شغفت بما كنت أدرسه في هذا القسم من مواد، وتفوقت في كل الدروس، حتى كنت الأول فيها جميعاً، وقد ساعدني على ذلك ما قرأته من قبل، وما كنت مواصلاً على قراءته من الكتب التي صرت استعيرها باستمرار من مكتبة الكلية الغنية، وكنت سعيداً بالدوام في الكلية، حزيناً حينما تنقطع الدراسة بسبب الإضرابات التي كان يقوم بها الطلبة، أو فريق منهم، بين حين وآخر، وفي السنين الدراسية تعرفت على أساتذة أجلّاء، وزادت معرفتي بهم، وتقديرهم لي، من خلال اجاباتي على ما كانوا يطرحونه من أسئلة، وما كنت أكتبه من بحوث، وما كنت أنشره في المجلات، ومن هؤلاء الأساتذة الدكتور صالح أحمد العلي، والدكتور خالد العسلي، والدكتور جعفر خصباك، والأستاذ محمد توفيق حسين، والدكتور محمود الأمين، وقد استمرت علاقتي بهم حتى بعد تخرجي من الكلية، بل وحتى الأيام الأخيرة من حياتهم، فصرت أهدي إليهم ما أنشره، وقد أهدوني هم بالمقابل بعض مؤلفاتهم، وكنت أعتز بهم وبعبارات الإهداء الرقيقة المشجعة التي كانوا يكتبونها على تلك المؤلفات.

اساتذة كبار

أعجبني في الدكتور العلي قدرته على ارتجال المادة، وسيطرته التامة عليها، وكان يدرسنا مادة (السيرة النبوية) وكان كثير الإنتقاد لكتب السيرة لاسيما الكتب التي كتبها أصحابها إبرازاً لما كانوا يؤمنون به من أفكار لا من أجل تقديم صورة حقيقية للسيرة، وقال أنه يكتب الآن السيرة الحقيقية، وسينشرها على الناس قريباً، وأذكر أني جمعت ما أملك من شجاعة حين سألته: وكيف سنميز هذه السيرة عن غيرها من مئات السير ما دام كل كاتب يدعي أنه كتب الحقيقة دون غيرها، ورجوت أن يعطينا علامة نعرفها بها، توقف لحظة مفكراً ثم قال: تعرفونها مما ستحصل عليه من تأييد القراء وتصديقهم بها، قلت: أظن أن إيمان العدد الأكبر من الناس ليس دليلاً على صحة الكتاب، فلو افترضنا أن كل أهل الأرض أجمعوا على أن 2×2= 5، ما كان هذا صحيحاً، قال بعد أن فكر أكثر: لا، ولكنه الكتاب الذي ينال تصديق الناس لمدة طويلة، قلت: وليس هذا دليلاً أيضاً ألا ترى أن المدة التي آمن خلالها الناس بأن الشمس تدور حول الأرض كانت أطول بكثير من المدة التي آمنوا خلالها بأن الأرض هي التي تدور حول الشمس، سكت برهة ثم قال وقد نفدت الإجابات عنده: سأنشرها وللناس أن يقبلوها أو أو يرموا بها بعرض الحائط! فكان ذلك الحوار هو بداية معرفتي بالدكتور العلي.

وكنت أشعر بإحترام خاص للأستاذ محمد توفيق حسين، على الرغم من عدم تأييدي أفكاره الدينية، وعزوفه المطلق عن البحث والتأليف، وسبب ذلك الإحترام أن الرجل كان يجمع بين ثقافتين، غربية وإسلامية، وقدرة عجيبة على

تحليل النص واستقصاء أبعاده، وكنت أعلم بتقديره لـي، وهـو تقـدير تحـول إلى صداقة حقيقية استمرت حتى خروجه من الكلية بالتقاعـد. كـان توفيـق حسـين يحمل شهادة الماجستير من الجامعة الأمريكية في بيروت، وقد تأثر بأسـاتذة كبـار هناك، ومنهم اساتذة في الجامعة اللبنانية، من ابرزهم الأستاذ اسد رسـتم، الـذي اختار كتابه (مصطلح التاريخ) ليحاضرنا فيه في مادة (منهج البحـث التـاريخي). وأذكر انه حينما كلفنا بإعداد بحوث في هذه المادة اخترت ان اكتـب بحثـاً بعنـوان (التفسير الإجتماعي للتصوف الإسلامي)، وكنت قـد اولعـت عنـد ذاك بقـراءة كتب التصوف، لا سيما كتب ابن عربي ومدرسته، وفتحت لي تلـك القـراءات آفاقاً فكرية رحبة ومجـالات واسـعة للتأمـل، وحينمـا قـرأت كتـاب (التصـوف التجربة الروحية في الإسلام) للأستاذ أبـو العـلا عفيفـي، أثـار ذلـك رغـبتي في دراسة التصوف من جانب آخر، وهو مدى تفاعل هذا الفكـر بمـتغيرات الواقـع السياسي، متصورا أن الفكر، أي فكر، لا يتحرك كغيمـة في الفضـاء، وإنمـا هـو يتفاعل مع الواقع ويتطور بتطوره، وهكذا خرجت من البحث بنتيجـة تقـول ان التصوف بدأ ليكون ثورة على الواقع، وانتهى لأن يكون تبريرا له. وقد أعجـب الأستاذ حسين بالبحث وشجعني على المضي في تطويره ليكون كتاباً في المستقبل، لكني لم افعل، وإنما اكتفيت بإلقائه، نصاً ودونما تغيير، بعد اكثر من اربعين سنة في مؤتمر عام عن التصوف، فنال استحسان المشاركين، ونشر في مجلة مرموقة.

أما الدكتور محمـود الأمـين، أسـتاذ التـاريخ القـديم، فلـم أكـن أميـل إلى طريقته في التدريس، بسبب اعتمادها المطلق على (التحفيظ)، لكني أشفقت عليه جدا حينما اضطر إلى مغادرة العراق فجأة إلى السعودية، خشية من اعتقالـه بعـد لقاء صحفي أجراه معه بعض الصحفيين بعيد ثورة 1968، فكان يومذاك مديراً لفرع مؤسسة فرانكلين الأمريكية للنشر، وحاول أحد اولئك الصحفيين أن يثيره

بالأسئلة، قائلا أن هذه المؤسسة (مؤسسة استعمارية)، وكان رد الأمين قوياً ومنفعلاً، مما أثار مخاوفه من مغبة ما قال، فما كان منه إلّا أن غادر العراق ليبقى خارجه حتى وفاته. وكنت أخشى أن أكتب إليه، وفاءً، فيفتح الرقيب رسالتي ويكون ذلك سبباً في اتهامي بوجود علاقة لي بهذه المؤسسة الأمريكية، إذ كان توجيه مثل هذه الإتهامات أمراً سهلاً في تلك الحقبة. ولكني انتهزت فرصة وجودي في مصر، فكتبت إليه رسالة يظهر أنها كانت مفعمة بمشاعر الوفاء، فقد جاء رده مؤثراً، وقال أني الوحيد الذي تذكره بعد مغادرته العراق.

وكان أستاذ التاريخ الأوربي الدكتور ياسين عبد الكريم آل عباس، محاضراً ممتعاً في الحديث عن ذكرياته الشخصية أكثر من محاضراته في مجال تخصصه، أو أنه كان يمزج بين الإثنين، بما يزيد من متعة طلبته، ولكنه كان متشدداً في إعطاء الدرجات، فلم يكن طالب مهما بلغ من الحرص، أن تزيد درجاته عن الستين، كما كان كثير الإطراء لكتاب (السلطان) للفيلسوف الإنكليزي برتراند رسل، حتى كنا نسميه كتابه المقدس، وقد شجعني هذا على أن اشتري نسخة من هذا الكتاب، وقرأته فلم يعجبني أكثره، على خلاف مؤلفات رسل الأخرى، وحينما طلب منا أن نختار موضوعات البحوث التي يتوجب علينا كتابتها كجزء من درسه، اخترت أن أتحداه، فكتبت عنوان بحثي المقترح كالآتي (نقد كتاب السلطان لرسل)، وقلت في نفسي أنه أما سيعطيني درجة كاملة، أو أن يعطيني صفرا كاملاً، وفوجئت بأنه يعطيني درجة 98، وقال: أنه لم يمنح أحداً درجة كهذه منذ أن عمل مدرساً في الكلية!

وأذكر أني حينما كنت في المرحلة الأولى من الكلية، بل لم يكن قد مضى على انتظامي فيها إلّا شهر واحد، نشرت بحثاً في جريدة البلد، عن صوفي كبير هو (عبد الكريم الجيلي) اعتمدت فيه على عدد من مخطوطاته مما كنت قد

راجعته في مكتبة الأوقاف العامة، وصادف أن قرأ البحث أستاذ اللغة العربية، وهو الدكتور محمد شرع الإسلام، فما كان إلا أن ناداني في الفصل بإسمي، وسألني ما إذا كنت كاتب البحث، فلما أجبته، لم يخف دهشته، وشرع يسألني عن تفاصيله فلما تأكد من أنه لي، أخذ يمتدحنى أمام الطلبة، ويطري اطلاعي على المخطوطات وجهدي في الكتابة، وقد أثار هذا المديح حسد بعض زملائي مع الأسف.

واذكر انه سألني عن سبب اهتمامي بهذا الصوفي دون غيره، فأخبرته اني اكتشفت قبره قبل ان اكتشف افكاره، وكان هذا القبر مرئياً في مساحة من الأرض تقع في زقاق ضيق متفرع من شارع السيد سلطان علي ببغداد، فما كان مني إلّا ان اشتريت كتابه (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) من مكتبة المثنى ببغداد، وشرعت بقراءته، ولما كان هو الكتاب الوحيد المطبوع من مؤلفاته، فقد وجدت طريقي الى مكتبة الأوقاف حيث توجد مجموعة طيبة من كتبه المخطوطة، فصرت أتردد على المكتبة طيلة فصل الصيف، لأسجل ملاحظاتي على ما كنت اقرأه من تلك الكتب، لا سيما حياته الشخصية كما كانت تتراءى بين أسطرها، وعلى اية حال فإني لبثت أزيد في هذا البحث اضافات مهمة، حتى نشرته في مجلة (الأقلام) التي كانت تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد سنة 1970.

وأذكر أن الأستاذ الدكتور نوري حمودي القيسي كان يدرسنا مادة اللغة العربية في الصف الثاني، وقد بدأ محاضراته في طريقة كتابة الأرقام والأعداد العربية، وكيف يخالف العدد المعدود وطريقة أعرابه وما إلى ذلك، فطلب منا نحن الطلبة الحضور يومذاك أن يأتي كل منا بجملة فيها عدد، وشرع الطلبة بذكر الجُمل من قبيل: كرّمت المعلمة الطالبتين وأكلت تفاحتين! وتنبه الأستاذ إلى أني

أجلس في الصف الأخير من الصف ولم أرفع يدي لأعطيه جملة فيها عدد كما فعل الآخرون، فإذا به يفاجئني قائلا: وأنت! ولم أكن قد فكرت بالأمر، ولكني تذكرت في تلك اللحظة أني أحفظ بيتاً طريفا قرأته في مخطوطة مصورة بعنوان (كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاه من البلدان) لمصطفى بن كمال الدين الصديقي الدمشقي، وكنت قد حصلت على نسخة من هذه المصورة من مكتبة المجمع العلمي العراقي، فما كان مني إلّا أن هتفت فوراً:

أما أنا فأقول قولا واحدا إني جهول في صفات إلهي

اثار الجواب السريع استغراب الأستاذ واعجابه، فشرع يسألني لمن هذا البيت، قلت له أنه لمصطفى الصديقي الدمشقي، سألني عن تاريخ وفاته فأجبته فورا، ثم سألني أين قراته، أجبته في رحلته الفلانية، وذكرت له عنوانها كاملاً، وسألني أين توجد هذه الرحلة ؟ قلت له أنها لما تزل مخطوطة، ومنها نسخة فريدة في مكتبة جامعة كمبرج، ومنها نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي، قسم المخطوطات في مجلدين تحت رقم 56م، بحسب الترقيم القديم، وأن عندي نسخة مصورة منها، أثارت اجاباتي السريعة اعجابه الشديد، وأثنى عليّ، ومن ذلك اليوم توثقت صلتي به، وتحولت إلى صداقة متينة، لم تنقطع إلا عند وفاته رحمه الله.

وكان ان انتقلت الكلية في سنة 1968 وهي السنة الأخيرة من دراستي فيها، من مبناها القديم قرب شارع المغرب الى مبنى كانت تشغله كلية الإدارة والإقتصاد، قرب محطة سكة قطار كركوك القديمة، وهو مبناها الحالي نفسه، وكان أهم من تعرفت عليه في هذه السنة استاذين فاضلين، اولهما هو الدكتور جعفر خصباك وثانيهما هو الدكتور خالد العسلي، فأما الأول فكان يحاضرنا في

مادة تاريخ الشرق الأدنى الحديث، وهو أستاذ ضليع في تدريسه هذه المادة، وقد أهديت له كتابي الأول (مدارس بغداد في العصر العباسي) فأثار ذلك تقديره، بعد ان قرأه، وتفحص مصادره، لاسيما كوني ألفته وطبعته قبل دخولي الجامعة، وأذكر أنه حينما ألف كتابه (العراق في عهد المغول الإيلخانيين)، دخل الى الصف وهو يحمل حقيبته الجلدية الضخمة، فأخرج منها نسخة من ذلك الكتاب، وطلب مني أن اتقدم الى منصته، فلما تقدمت اليه، أهداني إياه، وقد كتب على صفحة العنوان اهداءاً طريفاً هو (هديتي الى الطالب الإستاذ...الخ) وقال ان هذا الطالب سبق أن أهداني كتاباً وأنا أرد اليه الآن هديته بوصفه مؤلفاً لا طالباً، فأسعدني منه هذا الموقف، وأدركت أنه ينطوي على تقديره العميق، ولكم حز في نفسي حينما علمت أنه احيل، مع نحو ثمانين تدريسياً، الى التقاعد في اواخر سنة 1968، وكان سبب ذلك على ما قيل انه كان (رجعياً) وهي تهمة خطيرة في تلك الأيام، وفي الواقع فإنه لم يخف كرهه الشديد للثورة والثورات، وميله بدلها الى الإصلاح، وكثيراً ما أشاد بالتجربة اليابانية على انها اعتمدت اسلوب الإصلاح المتدرج السريع، لا اسلوب الثورة الشعبية، ومع ذلك ظلت صلتي به طيبة ومتجددة كلما التقيت به في المجمع العلمي العراقي حتى وفاته رحمه الله في سنة 1994.

اما التدريسي الآخر، فهو الدكتور خالد العسلي، وقد باشر التدريس في تلك السنة بعد عودته من بريطانيا، وكانت المادة التي يحاضرنا فيها هي التاريخ العباسي، وأذكر أنه طلب منا مرة ان نسجل لديه عنوانات (التقارير) اي البحوث التي يجب ان نقدمها اليه بوصفها جزءاً من متطلبات الدرس في تلك المادة، وقد اخترت يومذاك عنواناً للبحث هو (الصحيفة الصفراء)، تلك الصحيفة التي ادعى العباسيون، في فجر دعوتهم، أنهم تسلموها من ابي هاشم

عبد الله بن محمد بن الحنفية، وعلى أساسها قامت دعوتهم في فجرها الأول، وكنت قد اخترت هذا الموضوع متأثراً بما قرأته عن (هبة قسطنطين) وهي عهد ادعى البابوات في روما أن الإمبراطور البزنطي قسطنطين قد وهبه إليهم، وفوضهم بموجبه حكم ايطاليا، ثم اكتشف أحد المؤرخين، واسمه لورنزو فاللا L Valla، فى عام 1440 زيفها مستخدماً أول طرائق النقد التاريخي المعروفة عهد ذاك. وبالفعل انهمكت بكتابة البحث، مستقصياً كل النصوص التي نسبت إلى تلك الصحيفة، ومعتمداً على نحو خاص على ما ورد عنها في كتاب (أخبار العباس وولده) لمؤلف مجهول، وكان هذا الكتاب يومها ما زال حبيس نسخة مخطوطة فريدة محفوظة في مكتبة الأوقاف الكائنة في شارع الكفاح، ولعدم وجود وسائل تصوير في ذلك الوقت، فقد اضطررت لنسخ معظم المخطوطة بيدي، ثم ناقشت نصوصها وحللت مضامينها وقرنت ذلك بدراسة شخصية أبي هاشم وظروف الدعوة العباسية، فاستوى البحث في نحو من ستين صفحة كبيرة، ولما قدمته إلى الدكتور العسلي أثنى عليه طويلاً، وأعاده إليّ مزداناً بكلمة (ممتاز)، وأخبرني بأن في وسعي أن أنشر البحث إن شئت في أية مجلة علمية، وبقي البحث في درج مكتبي حتى عينت مدرساً في كلية التربية فنشرته بحرفه في مجلة (الأستاذ) التي تصدرها تلك الكلية سنة 1977، فكانت تلك الحادثة بداية لتعرفي بهذا الأستاذ الفاضل، وتوثقت صلتي به فيما بعد، حتى أنه كان السبب المباشر في تعييني مدرساً في كلية التربية بعد حصولي على الدكتوراه سنة 1976. وظل موقفه المشجع مني حياً في وجداني لسنين طويلة بعد وفاته، وكم كنت أتمنى أن تتاح لي فرصة لرد جميله، وقد حدث ذلك فعلاً في سنة 2002، حينما اقترحت على مديرية الشؤون الثقافية ان تقوم بجمع دراساته المتناثرة في المجلات العلمية، وتطبعها في كتاب مستقل، فما كان منها إلّا أن كلفتني بأن أقوم بهذا

العمل، فتفرغت لجمع تراث الرجل من مظانه، وتبويبه، ومراجعته، ثم ترتيبه في جرئين كبيرين، واخترت لهما عنواناً واحداً هو (دراسات في تاريخ العـرب قبـل الإسلام وفي العهـود الإسـلامية المبكـرة)، وكتبـت لـه مقدمـة تضـمنت ترجمتـه الذاتية، وكم كنت سعيدا حينما تسلمت أول نسخة من المطبـوع، لأنـي شـعرت حينذاك بأني قد سددت دينه، ورددت له موقفه النبيل تجاهي، وأدركت أن كثيرا من جهود الأكاديميين ضاعت وتبـددت لأن أحـداً مـن طلبـتهم لم يُعـن بجمعهـا واخراجها في كتاب أو كتب لتبقى صدقة جارية بعد رحيل أصحابها.

دراسة محببة

وكما يحدث عادة للطلبة في مرحلتهم الجامعية، كانت حياتي في كلية الآداب مفعمة بالجد والدرس، وبالسعادة ايضاً، فقد كانت دراسة التاريخ في اروقتها تمثل سعادة غامرة، وكتابة البحوث عملاً جاداً تماماً لكنه يمثل قمة النشوة، لقد ادركت بسرعة جوانب الوجد الذي يصيب دارس التاريخ وهو يتصفح كتاب التاريخ، ثم يغمض عينيه للحظات ليرى حوادث الماضي وهي تتحرك امام وجدانه وكأنها تنبض بالحياة. واتذكر أني قرأت كتاباً لكاتبة امريكية بعنوان طريف لكنه يعبر عن احساسي ذاك، وكان عنوانه (التاريخ دراسة مسلية). ولم اشأ ان أنغص هذه السعادة بالإقتراب من العمل السياسي، ذلك (البعبع) الذي خشيته كل الخشية منذ طفولتي بتأثير توجيه الأسرة كما تقدم في هذه المذكرات، لم افهم من السياسة في سنوات الجامعة الأولى إلّا اضرابات واعتصامات يدبرها طلبة معدودون من تنظيمات مختلفة بين حين وآخر وانقطاع للدوام، مما كان يحرمني من سعادتي في حضور محاضرات التاريخ التي كنت احبها، ولم افهم منها في سنيها الأخيرة إلّا مظاهرات معدة مساندة- هذه المرة- للسلطة، يغادر فيها الطلبة قاعات كليتهم، فأنقطع عن حضور محاضراتها مضطراً، وفي كِلا الحالين كان الأمر منغصاً عليّ سعادتي وهدوء نفسي.

وعلى أية حال، أثار ذلك الجو اهتماماتي الفكرية لكن مع الوقوف بعيداً عن العمل السياسي والإنخراط في اي تنظيم، فقرأت كل ما أستطيع من كتب لأحزاب متقاطعة في ايديولوجياتها، يسارية، ويمينية على حد سواء، لكني في الحالين لم اكن اقف منها الّا موقف المطّلع لا المشارك، كانت تلك الأفكار تمثل

لي نوعاً من المغامرات الفكرية او جزءاً من التاريخ نفسه، لأني كنت أشعر بأنها ستصبح في يوم ما تاريخاً، ومن ثم لا يستحق الأمر أن يتحمس لها أحد الى حد ان يهدد ذلك مصيره ومستقبله. واتذكر اني قرأت يومها عبارة في كتاب تاريخ العالم لمؤرخ امريكي اسمه (بالمر) تقول انه لا فكرة تستحق أن تحرق بيت جارك من أجلها، فأعجبتني، وسرعان ما وجدتني أعتنقها تماما، وصرت أقول في نفسي: كل شيء سيصبح تاريخاً، فتأمله على هذا الأساس.

الرسم مرة اخرى

وصادف أني وجدت لوحة صغيرة قد ثبتت في مدخل قاعة منخفضة تحتل مكاناً قريباً من قاعة كبيرة للمناقشات، كتب عليها عبارة (المرسم)، فكان أن دخلت إليها، ووجدت فيه طلبة يرسمون على مساند خاصة، وأستاذاً يرقبهم وهو على مكتب خشبي في ركن القاعة، وكم كانت دهشتي وفرحتي حينما اكتشفت أن هذا الأستاذ هو الفنان الكبير الدكتور خالد الجادر، وقد ذكرت من قبل في هذه المذكرات أني عرفت هذا الفنان أول مرة، بعد عودته من فرنسا مباشرة، وكان يومذاك مدرساً للرسم في كلية الملكة عالية، إذ كانت والدتي- رحمها الله- تصحبني إليه في مرسم الكلية في الساعات الإختيارية من كل اسبوع، وذلك في خلال سنتي 1955 و1956 على ما اتذكر، وكنت عهد ذاك طفلا في السابعة من عمري، أعشق الرسم، فوجدت فيه خير مشجع ومعلم لهذا الفن الجميل. ومنذ سنة 1963 غادر هو العراق، حيث عمل في المملكة العربية السعودية مدرساً للمادة نفسها، وعاد بعد 1968 مباشرة ليكلَّف بتدريسها في كلية الآداب، وفي قاعة مرسمها المتواضعة تجددت صلتي به، وأستأنفت هوايتي المفضلة في الرسم بإشرافه هذه المرة، وكنت مولعاً في حينه برسم التراثيات البغدادية مستخدماً الألوان الزيتية، وكان يشاركني ذلك المرسم عدد من الطلبة والطالبات، المهتمين بالرسم بأنواعه، منهم الصديق منير العبيدي الذي اصبح فناناً مرموقاً. وسرعان ما أثمر اندفاعنا، وتوجيه الأستاذ القدير، أعمالاً لا بأس بها، فكان أن أقامت لنا الكلية معرضاً شغل قاعتها الرئيسة، ولقي تشجيع زوارها، وأذكر أن العميد يومذاك، وهو الأستاذ الدكتور محمود غناوي، ذلك المربي الفاضل، قد أهدى كل منا هدية هي مجموعة من الكتب التي كانت مودعة

في مخزن الكتب، وكان نصيبي منها مجموعة لعل أهمها كتاب (أطلس الفن الإسلامي) للدكتور زكي محمد حسن، فكان مصدر متعة لا توصف كلما تصفحته وتأملت ما ازدنان به من صور المآثر الفنية الإسلامية. وقد شجع ذلك النجاح الدكتور الجادر على أن يشكل منا جماعة فنية سماها (جماعة الآداب)، وقد أقامت هذه المجموعة معرضها الوحيد في قاعة الفنانين التشكيليين في المنصور، ونال قبولا طيباً، وبيعت لي لوحتان زيتيتان، تمثل كل منهما زقاقاً من أزقة بغداد القديمة، ولم أكن حاضراً في أثناء افتتاح المعرض، إذ كنت يومذاك قد التحقت بدراسة الماجستير في جامعة القاهرة، ولكني علمت من أسرتي أن رجلاً أمريكياً اشتراهما معاً، وشجعني ذلك على الإنتساب الى الجمعية والمشاركة في بعض معارضها السنوية، ثم انقطعت عن ذلك بعد حين لإنشغالي بالدراسة على ما ذكرت، واهمالي تجديد عضويتي بسبب ذاك.

في الكلية

وصادف أن قدم إلى الكلية استاذ مصري بارع، هو الدكتور يحيى الخشاب، زوج الأديبة الأكاديمية المعروفة سهير القلماوي، ومترجم الكتاب الشهير (إيـران في عهد الساسانيين) لكرستنسن، وقد جاء أستاذاً زائراً، فألقى علينا محاضراته في التاريخ الساساني، لمدة شهر كامل، دون أن يلقي نظرة في كتاب أو (ملزمة) كمـا كان يفعل أكثر أساتذتنا، وإنما هو يتحدث مسترسلاً دون توقف وكأنه يستحضـر مصادر التاريخ كلها، يفعل ذلك كله وهو (يتمشى) أمامنا دون أن يجلـس علـى منصته، كان مسيطراً على مادته إلى حد بعيد، يصوغ منها عباراته بأسلوب عربي سليم، بل بليغ أحياناً، فأثرت تلك التجربة فيّ تماما، وتعلمت منهـا مـا رأيتـه في حينه الطريقة المثلى في فن الألقاء.

ثم أني وجدت طريقي إلى مكتبة الكلية، وهي مكتبة غنيـة فعـلاً تأسسـت منذ عدة عقود من السنين، فصرت استغل أوقات الفراغ المحدودة في قضاء بعض الوقت فيها اطالع ما أمكن من كتـب، وأذكـر أن أول كتـاب قرأتـه فيهـا كتـاب (تكملة المعاجم العربية) للمستشـرق دوزي، ومـع أن الكتـاب بالألمانيـة إلا أنـه يمكن فهمه لأن ألفاظه بالعربية، وكنت قد سمعت به، ولم أقف عليـه إلّـا حينمـا وجدت نسخة منه في مكتبة الكلية، وصرت من حينها مولعـاً باصـطياد الألفـاظ العربية المولدة التي أجدها في كتب التراث، وأسـجلها بإعتنـاء في دفـاتر خاصـة. ومما أتاحته لي هذه المكتبة فرصة الإستعارة الخارجية للكتب، فكنت أستعير منها في كل حين كتباً متنوعة، وفي الوقت نفسه لم أنقطع عن مراجعة مكتبتي المفضـلة، مكتبة المتحف العراقي، في أكثر الأيام الـتي أسـتطيع فيهـا المواءمـة بـين مواعيـد

المحاضرات في الكلية ومواعيد دوام المكتبة، لا سيما بعد أن مـددت ادارة المكتبـة دوامها ليشمل وقت المساء أيضاً. وكانت هذه المكتبة تتميز بوفرة كتبهـا، لاسـيما كتب الرحلات القديمة، وكتب الآثار، وامهـات المصـادر التراثيـة، وقـد تـرددت كثيراً الى قسم المخطوطات الكائن في الطابق العلوي من المكتبة، واطلعـت علـى عدد من المخطوطات هناك، ولما لم يكن تصوير للكتب، فقـد اخـذت اصـور مـا احتاجه بالكاميرا المطورة التي احملها معي. ومن ناحية اخـرى، زاد تـرددي علـى شارع المتنبي وسوق السراي، حيـث الكتـب ومكتبـات البيـع، اشـتري منهـا مـا استطيع شراؤه، ولم تكن اثمانها مرتفعة على ايـة حـال، فيسـر لـي ذلـك تنميـة مكتبتي الشخصية في البيت، وزادها تنوعاً ووفـرة، واضـطررت إلى إيجـاد أمـاكن جديدة لوضع الكتب، وترتيب رفوف كافية لهذا الغرض.

وفي السنة الثانية من دراستي الجامعية تملكـتني رغبـة عجيبـة في ان أؤلـف كتاباً يشتمل على جداول عديدة تضم أسماء حكام العـراق وسـنوات حكمهـم في الحقبة الممتدة من الإحتلال المغولي وحتى الإحتلال البريطاني، وكنـت اعلـم ان الفكرة صعبة التنفيذ لتفرق المادة التاريخية عن هذه الحقبـة في مصـادر كـثيرة، ومع ذلك لم أترك المشروع مصمماً على أن أبدأ بالأسهل، فاشتريت دفـتراً كـبيراً وشرعت اسجل كل اسم يصادفني من الأمراء والـولاة والزعمـاء الـذين تولـوا الحكم في المدن والنواحي العراقية، وصرت أجرد كـل كتـاب تقـع عليـه يـدي، مستفيداً من ترددي الدائم إلى مكتبة المتحف العراقي، ومع مرور الوقـت بـدأت بعض القوائم تتكامل، وواصلت العمل مسرراً.

نفاذ الى ماض خلاب

كنت قد اعتدت على ارتياد موقع الباب الوسطاني، القريب من كليتي، بين حين وآخر، فهو الأثر العباسي الوحيد الذي ظل شاخصاً، على هيأته الأولى تقريباً، في هذه المنطقة من بغداد، فأتجول في برجه، واصعد على سلالمه الخارجية، وأطل من مزاغله العالية، ثم أعلو قبّته التي تغطي برجه، لأجلس هناك ساعة من النهار، أتأمل منظر بغداد من بعيد، بمآذنها وقبابها، ومبانيها العالية، وكانت قليلة عهد ذاك. وكان مما يسهل أمر تأمل ذلك المنظر الجميل، الفضاء الواسع الذي كان يفصل بين الباب وبين الجزء المعمور من بغداد، بإستثناء جامع الشيخ عمر السهروردي ومقبرته، فكان منظر بغداد ينفتح أمامي كما لو كان بانوراما هائلة الإتساع، وكانت مخيلتي تصور لي المراحل التاريخية التي مرت على هذا المشهد وكأنها تتبدل امامي وتتعاقب مثل فيلم متحرك، وكانت تلك العودة الى الماضي تسعدني جداً، بل تدخل الراحة والسكينة الى نفسي، فأنعزل عن ضجيج عالمي المعاصر بعض الوقت، لأتصل بتلك العوالم الخلابة، بناسها، وخلفائها، وعلمائها، وفاتحيها ايضاً. ولم يكن يشاطرني في مجلسي الغريب هذا إلّا طائر (لقلق) رشيق يقف في الركن الآخر من قبة البرج حيث بنى عشه هناك.

ولقد بقيت ذكرى تلك الساعات الهادئة، ومشهد البانوراما التي كانت تتراءى لي من عالم الخيال في ذهني، مهما مرت السنون، وأذكر أن الإعلامي الدكتور مجيد السامرائي، سألني، وهو يحاورني في لقاء خاص في أربيل سنة 2013 لقناة (الشرقية) بعنوان (أطراف الحديث): أي الأماكن أحب أليك ان تجلس فيها الآن؟ فأجبته على الفور: قبة الباب الوسطاني!

الأول على قسم التاريخ

تخرجت من الكلية في العام الدراسي 1969/ 1970م، وكان تقديري الأول على قسم التاريخ، فقررت جمعية المؤرخين أن تقيم حفلاً لتكريم الطلبة الأوائل من خريجي التاريخ والآثار في كليتي الآداب والتربية، وكان حظي أن أكون واحداً من المكرمين الثلاثة، وقد أقيم الحفل في حديقة كلية الآداب، وبحسب طلب الدكتور حسين أمين، وكان رئيس الجمعية آنذاك، ألقيت كلمة، هي الأولى في حياتي، شكرت فيها أساتذتي، والجمعية، على ما بذلوه من جهد في تدريسنا، وقد وعدنا الدكتور حسين علي محفوظ، وكان حاضراً، بتقديمه هدية لكل طالب مكرم، هي مجموعة من كتب مكتبته، وقد قدم الكتب فعلاً لكن خجلي منعني من تسلم هديتي، وكم ندمت فيما بعد على ذلك، ومع ذلك كانت تلك الحادثة بداية تعرفي على الدكتور محفوظ وتوثق صلتي به وهي صلة زادت وثاقة ومودة حتى غادرت بغداد إلى أربيل ثم بلغني نبأ وفاته رحمه الله سنة 2009.

نحو الدراسات العليا

في السنة الأخيرة من الدراسة الجامعية بدا لي أن موعد تحقيق حلمي بالدراسة العليا قد أصبح قريباً، وقد قررت أن اقدم للدخول إلى هذه المرحلة بمجرد تخرجي من الكلية، لكن شاء تعالى أن تتغير الأمور فجأة، فقد صادف أن صدر سنة 1969 قانون جديد للتجنيد يلزم خريجي الجامعة بأداء الخدمة العسكرية الإلزامية بعد تخرجهم مباشرة، فعشت شهوراً كئيبة وأنا أرى حلمي قد تبدد أو تأجل إلى أمد غير معلوم، وكتبنا، أنا وأصدقاء لي، عرائض إلى مسؤولين كبار نرجوهم فيها الموافقة على تأجيل تجنيدنا حتى بعد اكمالنا الدراسة العليا، ولكن دونما جدوى، وأخيرا استجاب القدر، لا المسؤولين، فقد صدر قرار بقبول البدل النقدي، ودفعته فوراً، في يوم من أسعد أسعد أيام حياتي، وانطلقت بعدها لمعاودة السعي في تحقيق الحلم المنشود، دراسة التاريخ.

في اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة في الجادرية، لأقدم أوراقي، وكنت أحمل، فضلا عن شهادة الكلية، تزكية من رئيس القسم في حينه، الدكتور فيصل السامر، تشهد بتفوقي في دراسة التاريخ، وأن لي بحوثاً منشورة وكتاباً مطبوعاً، لكني فوجئت بالموظفة المسؤولة تخبرني بأن وقت التقديم قد انتهى بالأمس فقط، ومهما حاولت أن أقنعها أن فرق يوم واحد ليس بالخطير ليمنع شاب محب للعلم من أن يحقق طموحه المشروع، إلّا أنها لم تقتنع مطلقاً، وقالت بكل هدوء: تستطيع أن تأتي في مثل هذا الوقت من السنة المقبلة لتقدم أوراقك! هكذا أسقط في يدي، فلا أمل ولا حلم ولا هم يحزنون، فقد مرت اربعة وعشرون ساعة بعد انتهاء موعد التقديم!

وحينما عدت إلى البيت، أخذت وأسرتي، نفكر بحل لهذه المشكلة، وكان الحل هو مواصلة الدراسة في خارج العراق، وبرزت جامعة القاهرة لتكون البديل العذب، لجامعة بغداد بموقفها المتعنت بلا مبرر، وهكذا انعقدت النية على التقديم لهذه الجامعة، فقدمت أوراقي وصادقت عليها السفارة المصرية حسب الأصول، وأرسلتها بالبريد في ظرف كبير، ومضت الأيام ولا جواب، فقررت السفر بنفسي إلى القاهرة لمتابعة الموضوع هناك. وقرر والدي أن يصحبني في هذا السفر اذ لم اكن قد سافرت وحدي الى خارج العراق من قبل، ولم يكن يستطع صبراً لأنجز هذه المعاملة المصيرية، وانا لا أعرف القاهرة ولم تكن لي سابقة في مراجعة الدوائر بحال.

سافرنا، أنا وأبي، إلى القاهرة في كانون الأول من سنة 1970، وبتوفيق رباني، يشبه المعجزات، عثرنا على الملفة الخاصة بي بين مئات أو آلاف الملفات المشابهة في دائرة الوافدين، الكائنة قرب ضريح الزعيم سعد زغلول، في حي القصر العيني، وقصدت كلية الآداب حيث قدمت الأوراق، وكان مجلس قسم التاريخ على وشك الإنعقاد، فتم إدخالها إلى المجلس، وتقرر قبولي طالباً في فرع التاريخ الحديث، بحسب طلبي، وكان هذا الفرع يقبل الطلبة الحاصلين على تقدير (جيد جداً) بخلاف أقسام أخرى تكتفي بتقدير (جيد)، ولما كنت حاصلاً على التقدير الأول، فقد جرى قبولي، وخرج الدكتور (سعيد عبد الفتاح عاشور)، أستاذ العصور الوسطى، ليبشرني بذلك القبول، والحمد لله.

في جامعة القاهرة

كان لابد من الدراسة في سنة تحضيرية، كما جرت أنظمة معظم الجامعات العربية، فانتظمت في الدراسة، وانتظمت معها حياتي العملية، ذلك أن والدي استأجر لي شقة في حي الدقي القريب جداً من جامعة القاهرة، وصرت، ويا لسعادتي، أسمع دقات جرس ساعة الجامعة في كل حين، وأطل من شرفة الشقة على حدائق وملاعب الجامعة، وكان يشاركني في الشقة طالب سوري فاضل من دمشق اسمه (فواز حسين) يدرس الطب في كلية طب القصر العيني، ولم أكن أراه إلّا لماماً لإنشغاله بالدراسة المضنية، بينما كان يشاركني الدراسة طالب لبناني على دمث الخلق اسمه (غسان سرور)، وبعد نحو ثمانية أشهر، دخلنا الإمتحان، ونجحت بمعدل عالٍ، أما سرور فقد نجح هو أيضاً ولكنه غادر القاهرة فجأة ليلتحق بالعمل مدرساً في بعض المدارس في لبنان، وترك الدراسة نهائياً.

في آخر السنة التحضيرية حزمت أمر اختيار موضوع الرسالة، فإخترت موضوعاً هو(حركة كتابة التاريخ في العراق في العصر العثماني) الذي كنت أعددت كثيراً من مواده، كما ذكرت من قبل، إلّا أن رئيس الفرع الدكتور السيد رجب حراز لم يُحبِّذ هذا الإختيار، على أساس انه موضوع واسع ولا حدود له، فدفعني رأيه إلى أن أقترح عليه موضوعاً جديداً هو (ولاية الموصل في عهد آل الجليلي 1726- 1834)، ويعود سبب اختياري هذا إلى أني كنت قرأت واستنسخت بيدي تراجم ولاة الجليليين في مخطوطة (غاية المرام) التي سبق أن اشرت اليها، وصارت لدي فكرة لابأس بها عن حكم أسرتهم في الموصل وعصرهم، ولم يكن أحد قد سبق إلى كتابة مثل هذا الموضوع مطلقاً، فإستحسن الدكتور السيد رجب حراز، رئيس الفرع، هذا الموضوع، وجرى تسجيله فعلاً.

إعداد الرسالة

عدت الى بغداد لأقوم بجمع مصادر الرسالة، وكتابة ما أمكن من فصولها، وبعد مدة قصيرة سافرت إلى الموصل، بصحبة والدي، لغرض زيارة مكتبات المدينة من جهة، واستنساخ كل ما له علاقة من النصوص في مخطوطاتها، والإلتقاء بشخصيتين مهمتين من الجليليين، كان والدي على معرفة سابقة بهما، هما الدكتور الطبيب محمود الجليلي، والدكتور صديق الجليلي، و لم أستفد من الأخير شيئاً على فضله وما أبداه من تشجيع، إلّا ان لقائي بأولهما كان فعالاً ومفيداً إلى حد بعيد، واستمر حتى وفاته كما سيأتي. وكان اول لقاء لي به حتى قصدته في داره في محلة الدواسة مقابل بستان الفستق (وقد أزيلت هذه البستان فيما بعد واقيم في ارضها ملعب لكرة القدم) وسألته عما إذا كانت الأسرة تحتفظ بوثائق تتعلق بمدة حكمها، فأجابني أن لديه وثيقة مهمة أصلية سيريني اياها، ولما اطلعت عليها وجدتها فرماناً عثمانياً يمنح فيه السلطان عبد الحميد الأول قرية قره قوش بكافة حقوقها ولواحقها إلى والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي لموقفه الشجاع في الدفاع عن الموصل حينما حاصرها نادر شاه سنة 1734، وكان الفرمان في غاية الفخامة والجمال، وقد طليت مساحات منه بقشرة من الذهب، فأبديت رغبتي بتصويره، فوافق في الحال وصوره على نفقته وأهداني النسخة المصورة فيما بعد. كما أنه صحبني الى مدرسة يحيى باشا الجليلي حيث أطلعني على مخطوطاتها النادرة، وإلى بعض الدور الفخمة التي كانت لولاة الجليليين في الموصل في القرن التاسع عشر. ظلت صلتي بالدكتور النبيل مستمرة لم تنقطع كما سيأتي بيانه، وقد زرته بعدها في داره المذكورة في الموصل وفي دار له في حي الوزيرية ببغداد، حيث كان ينزل فيه كلما قصد بغداد

لاسيما عند حضوره جلسات المجمع العلمي العراقي الذي كان عضواً فيه. واذكر انه طلب مني في آخر لقاء، أن أزوره في الوزيرية، وحينما ذهبت اليه وجدته يطلعني على كمية من الوثائق العثمانية كان قد جاء بها من رحلة له إلى استانبول، وقد طلب مني أن أرشده الى من يقوم بترجمتها إلى العربية، فإقترحت عليه الأستاذ فؤاد حمدي الذي سيأتي ذكره فيما يلي من هذه المذكرات، وأرشدته الى عنوانه في كركوك، وأظن أنه قصده هناك وانه ترجمها له بالفعل.

وممن سعدت بمعرفتهم في هذه الرحلة العلمية الدكتور يوسف حبي، وقد التقيت به في المطرانية الكلدانية في محلة مياسة في الموصل، وكان حديث العهد بها بعد عودته من روما في ذلك العام، وقد طلبت منه أن يقودني إلى حيث يوجد القبر الذي قيل أنه لعبد الجليل، مؤسس الأسرة الجليلية موضوع رسالتي، فلم يتردد في أن يقودنا، انا وأبي، تحت وابل من المطر، الى كنيسة شمعون الصفا، في المحلة المذكورة، ويهبط بنا الى الأرض الأصلية المنخفضة للكنيسة، ويرينا قطعة من الرخام، في السلم، ذاكراً لنا انها هي للقبر المذكور، وقد أخبرته انه لا يبدو على القطعة انها لقبر، وانما هي لمسيل ماء من الطراز الأتابكي، فأيدني في ذلك، وقال: هذا ما يقال ولم أتحقق منه، وعليك ان تتأكد من ذلك. ثم تعددت لقاءاتنا بعد ذلك، وتوثقت صداقتنا، وبعد ضمي إلى لجنة التراث العلمي في المجمع العلمي العراقي، التي كان هو عضواً فيها، أصبحت لقاءاتنا اسبوعية، ولم تنقطع حتى وفاته سنة 2000.

ومن المكتبات الغنية التي قصدتها في الموصل، مكتبة الدكتور داود الجلبي، وتقع في بيته في محلة الدواسة، وكان قد وقفها على الباحثين، ويتولاها صهره الدكتور فيصل دبدوب، فأفدت من مكنوناتها أيما فائدة، وكان هو صديقاً حميماً لجدي محمد رؤوف، وقد ضُمَّت مكتبته إلى مكتبة الأوقاف العامة عند إنشائها.

ومنها أيضا المكتبة المركزية العامة، ففيها مجموعة مهمة من المخطوطات التي تتعلق بحكم الولاة الجليليين وما قيل فيهم من الشعر.

وبعد أن جمعت كل ما أمكن من نصوص، ناسخاً بعضها بيدي، ومصوراً البعض الآخر، عدت إلى بغداد لكي أبدأ رحلة كتابة رسالتي، وإندفعت في العمل بكل ما أملك من إندفاع، مواصلاً الليل بالنهار، حتى أنجزت، خلال ستة أشهر فيما أتذكر، معظم فصول الرسالة العشرة، ولم يبق لي الّا فصلاً واحداً، أجلت كتابته لأنه يعتمد على وثائق غير منشورة محفوظة في دار الوثائق القومية التاريخية الكائنة عهد ذاك في قلعة محمد علي في قمة المقطم, وسافرت إلى القاهرة بعدها، حيث أقمت في أحد فنادقها في شارع سليمان باشا في وسط البلد.

موافقات أمنية

ثم أني أخذت بمراجعة دار الوثائق للسماح لي بالدخول اليهـا والإطـلاع على ما إحتاجه من وثائقها، وبعد أن مـلأت إسـتمارة الـدخول، طلـب مـني أن أنتظر وصول الهوية الخاصة بالدخول بعد مصادقة دائرة الأمن في الوزارة، وبعـد نحو ثلاثة اشهر من الإنتظار وتكرار المراجعة، نفد صبري، وأخبرت مـدير الـدار بأني يئست تماماً، وبعد إلحاح مني وافـق علـى أن أتـابع بنفسـي الـدائرة الأمنيـة عسى أن يفيد ذلك في الحصول علـى الموافقـة المنشـودة، ولمـا كانـت مؤسسـات الوزارة تتوزع في عدد من المباني في أنحاء متفرقة في القاهرة، صار علي أن أذهب اليها جميعاً، وبعد لأي اخبرني احدهم بمكان وجودهـا في قصـر مـتروك في حـي الزمالك على النيل، يسمى قصر عائشة فهمي، وبالفعل قصدت القصر الكـبير، الذي صار يشبه بعد أن أخلتـه الـوزارة قصـراً للأشـباح، وتأكـدت مـن وجـود الدائرة الأمنية في غرفة تقع على سطح القصر، وحينمـا صـعدت اليهـا وجـدت ضابطي امن مهذبين بملابس مدنية، فأخبرتهما بحاجتي إلى الموافقة لأكمل فصـول رسالتي، فعاملاني بلطف، وسألاني عدة اسئلة كـان واضـحاً منهـا انهمـا أرادا معرفة هويتي السياسية، فأجبتهما على نحو أقنعهما بأن لا صلة لي بالسياسة مـن قريب او بعيد، وكان ذلـك صـحيحاً تمامـاً، وفي اليـوم التـالي أخـذت الموافقـة، وقصدت دار الوثائق فرحاً مسروراً، وكنت أول عراقي يدخلها كما قيل لي.

دخلت إلى قاعة المطالعة، وطلبت الملفات الخاصة بما يعـرف (بـر الشـام) فإذا بها عدد كبير من الملفات تضم عشرات الألوف أو اكثر من الوثائق الأصلية التي كانت القيادة المصرية ترسل بها إلى محمـد علـي في القـاهرة في اثنـاء الحكـم

المصري في الشام في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وصرت أقصد الدار في كل يوم على مدى سنة كاملة، أتصفح فيها تلك الوثائق، واستنسخ بيدي ما أراه مهما منها، ومن الطريف أن قاعة المطالعة كانت نفسها غرفة نوم محمد علي نفسه، مما زاد من إحساسي بمتعة قراءة وثائقه. وصادف أني تعرفت على رجل خليجي كان يعمل في جمع الوثائق المصرية المتعلقة بمنطقة الخليج، فعقدنا إتفاقاً فحواه أن أطلعه على الوثائق التي تهمه، مما يمر بيدي من وثائق بر الشام، ويطلعني هو بالمقابل على الوثائق التي تخصني إذا ما مرت عليه في ملفات الخليج التي كان يتصفحها، وهكذا أفاد كل منا مما لدى الآخر، واجتمعت لدي مجموعة مهمة من الوثائق الخاصة بالعراق، وبخاصة ولاية الموصل في اثناء ولاية آخر ولاة الجليليين، وهو يحيى باشا الجليلي. وكان ذلك الباحث هو علي التاجر، اخو مهدي التاجر الذي تعرف عليه والدي في أثناء اقامته في دبي في منتصف القرن الماضي موفداً من مجلس الوزراء العراقي لتأسيس أول بلدية في دبي سنة 1956، وقد عينه والدي في هذه البلدية براتب محدود من (الروبيات) لكنه أصبح فيما بعد سفيراً لدولة الإمارات في بريطانيا، ومليونيراً كبيراً.

سياسي رغم أنفه!

وأخيراً أنجزت الرسالة، وألحقت بها مجموعة من الوثائق غير المنشورة، فبلغت اكثر من سبعمائة صفحة من القطع الكبير، وشرعت أعرضها فصلاً فصلاً على المشرف الدكتور حراز، وكان يبدي إعجابه الشديد بما يقرأه، وحينما أتم قراءتها طبعت منها عدداً من النسخ، وصار علي تقديمها إلى عضوي لجنة المناقشة، وهما الدكتور محمد أنيس أستاذ التاريخ الحديث في آداب القاهرة، والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة عين شمس، وصادف أني لما قصدت الدكتور أنيس في مكتبه في جامعة القاهرة، وأنا أحمل اليه رسالتي، كانت القاهرة تلتهب بثورة الشباب على الرئيس الراحل أنور السادات مطالين بالحرب من أجل استرداد سيناء وعودة المهجرين من مدن القناة الى مدنهم، وكان معظم المظاهرات تتجمع في الجيزة حيث منزل السادات، وحيث جامعة القاهرة. ولما بلغت ميدان نهضة مصر المقابل للجامعة، وجدت عدداً كبيراً من قوات الأمن المركزي بهراواتهم ودروعهم البلاستيكية يحتلون الميدان، ويحيط بهم عدد أكبر من الشبان المتظاهرين، فاضطررت الى أن أقف وراء صفوفهم لأرى ما يحدث، ثم لأجد طريقي إلى بوابة الجامعة، وما هي الّا دقائق حتى هجم جنود الأمن المركزي على الطلبة الذين أقف في آخر صفوفهم، فركض الجميع منسحبين على عجل، وبالطبع اضطررت إلى الجري مثلهم، فبدوت، بالنسبة لمن كان يشهد ذلك المشهد من ورائنا، وكأني انا الذي كنت أتقدمهم، مع أني كنت فبل دقائق أقف في آخرهم. كنت أخشى ما أخشاه أن يرصدني أحد رجال الأمن فيظن أنني مشارك في تلك المظاهرة، وكان سهلا في ظل تلك الظروف المتوترة أن يجري استدعائي حينذاك إلى دائرة الأمن لأنذر

بمغادرة الأراضي المصرية خلال 48 ساعة، فتضيع عليَّ فرصة مناقشة الرسالة نهائيا، وأعود خائباً إلى وطني صفر الدين. ولم ينقذني من الموقف الحرج غير أني وجدت مدرسة ابتدائية في الطريق، فدخلت فيها واتخذت من حجرة حارس المدرسة مخبأ لي، وبعد قليل حضر مدير المدرسة وطلب مني أن انتقل إلى حجرة في آخرها حيث (الجماعة بتوعي) على حد تعبيره، وأدركت أنه يظنني قائداً لهؤلاء، فلما ذهبت وجدت عدداً من المتظاهرين، واضطررت أن ألزم الصمت خشية من أن تفضحني لهجتي بأني لست مصرياً، فيشك فيّ، والغريب أنهم حينما وجدوني صامتاً، تخيلوا أني رجل أمن اندسست بينهم، وهكذا عدني البعض زعيماً، بينما عدني الآخرون جاسوساً على المتظاهرين، ولبثت في مكاني حتى خلا شارع الجيزة تماماً، فمضيت في طريق جانبي حتى وصلت النيل ومن هناك ركبت زورقاً فاراً بنفسي إلى الجانب الآخر، وأثار تصرفي هذا دهشة المدير وأذكر انه قال لي مشفقاً: يا بني ما دمت (خوافاً) إلى هذا الحد، فمالك ومال قيادة المظاهرات؟، قلت له: هناك مسرحية مشهورة لموليير اسمها (طبيب رغم انفه) وأنا الآن زعيم رغم انفي!

مناقشة

ثم أني علمت أن الدكتور أنيس إنضم إلى المضربين، وانتقل إلى المركز الذي أسسه في دار الكتب، وهو (مركز وثائق مصر المعاصر) فقصدته هناك، وعرضت عليه رسالتي طالباً منه أن يحدد موعد المناقشة، وفوجئت بأنه يخبرني بأنه لن يزاول عمله لأنه متضامن مع الطلبة المضربين، وأخيراً عرضت عليه حلاً وسطاً، وهو أن تجرى المناقشة في قسم الآثار الذي كان يشغل مبنى قصر قديم خارج مباني الجامعة، وهكذا جرى الأمر فعلاً، وكانت ملاحظات اللجنة خفيفة بل طفيفة، وبعد المناقشة قررت اللجنة منحى درجة الماجستير بتقدير جيد جداً، والحمد لله، ومع أني تعمدت أن لا أدعو إلّا القليل من الأصدقاء، ألا أن قاعة المناقشة امتلأت بالحاضرين.

وفي خلال تلك الأيام التي تلت المناقشة أفدت من الوقت المتبقي، فسجلت موضوع الدكتوراه وقد اخترت عنوانها كالآتي (الحياة الإجتماعية في العراق في عهد المماليك 1749- 1831م) وكان موضوعها جديداً تماماً، وعدت إلى بغداد لأشرع بجمع مادتها العلمية.

وكنت أقضي ما يتبقى من الوقت في مكتبة جامعة القاهرة، وقد اكتشفت أن فيها مجموعة من المخطوطات النفيسة، من مقتنيات طبيب عيون نمساوي هو ماكس مايرهوف، وأُعجبت بمخطوطة منها غير مطبوعة في علم الأحجار الكريمة بعنوان (كتاب الجواهر وصفاتها) ليوحنا بن ماسويه، المتوفى سنة 243هـ، فنسختها بيدي، وعلمت بوجود نسخة اخرى منها في دار الكتب، فقابلتها عليها، وصممت أن أحققها إذا ما توفرت الفرصة.

كنت أشعر أن وجـودي في القـاهرة فرصـة كـبيرة اتيحـت لـي وعلـيّ أن اغتنمها، ولذلك فإن بامكاني القول اليوم أني لم أكـن أعـيش فيهـا وحسـب، أو أني كنت أدرس فيها، وإنما كنت (أدرسها) هي في كل يوم، أجوب علـى قـدمي (حواريها) وشوارعها وأسواقها القديمة، وأقارن بين ما كانـت تبـدو في الخـرائط القديمة وبين واقعها الحالي، وأتفحص معالمها الباقيـة لاسـيما مـن عصـر محمـد علي، ومن عهود أعقابه مـن أسـرته، ومـنهم الخـديوي اسماعيـل الـذي كانـت جامعة القاهرة، وحديثنا (الأورمـان) و(الحيـوان) ذات يـوم جـزءاً مـن حـدائق قصره، حتى أني فرحت مرة حينما اكتشفت عموداً رخامياً بـديعاً يقـف وحيـداً منفرداً في موضع ناءٍ من حديقة الحيوان في الجيزة، فقد كان هذا العمود هـو كـل ما تبقى من قصره الداثر. وصرت أتردد إلى دار الأوبـرا بـين حـين وآخـر امتـع احساسي بالعصر الذي بنيت فيه، والمناسبة التي دعت الى تأسيسـها، وكـم كنـت حزيناً حينما قصدت ميدانها في صباح احد الأيام، فهـالني منظـر ألسـنة اللـهيب وهي تتصاعد من قبتها الفخمة، وسـيارات الإطفـاء تصـب مياههـا فيهـا صـباً، وسألت إحدى السيدات الواقفات وهن يشخصن بأبصارهن إلى المشهد المؤلم عن جلية ما يجري، فأجابت وهي تجهش بالبكاء: احترقت دار الأوبرا، وكان المشهد، ممتزجا بمشاعر الجمهور، مؤلما وممضاً، لقد كان الجميع يرون في حريق هذا المبنـى حريقا لجزء عزيز من تاريخ مصر!

وقدر لي في شتاء سنة 1972 أن أحضر في القاعة الكبرى لجامعة القـاهرة حفلة للسـيدة ام كلثـوم، أظـن انهـا كانـت آخـر حفلاتهـا في مصـر، وأذكـر أن مستشرقاً امريكياً أعرفه كان يدرس في القاهرة، ويسكن في نفـس الفنـدق الـذي كنت أسكن فيه، اسمه (داستن)، سألني أن أصطحبه إلى هذه الحفلة، ولما أخـذت تغني سألني عن عمرها، قلت أنها من مواليد القرن التاسع عشـر! فإنهـا ولـدت

سنة 1898 اي في عهد الخديوي عباس حلمي، أيام كانت مصر جزءاً من الدولة العثمانية، فما كان منه إلّا أن ضحك متصوراً أني أمـزح، والتفـت عـني ومضـى مستغرقاً في مشاهدتها وسماعها وهي تغني معبرة عن مشاعر الشباب الذين كانوا أمامها في غاية الطرب والنشوة.

في المجمع العلمي العراقي

وحينما عدت إلى العراق، شجعني بعض الأصدقاء والمعارف على أن أجمع بين العلم والعمل، بمعنى أن أسعى إلى التعيين في إحدى الجامعات، مع قيامي بجمع المصادر والمعلومات اللازمة لكتابة اطروحة الدكتوراه، وبالفعل قدمت أوراقي الى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، وكانت تشغل مبنى في باب المعظم قرب مكتبة الاوقاف، وهناك كان أمامي خياران، أما التعيين في جامعة الموصل، مع منحي درجة إضافية، وأما التعيين في جامعة البصرة مع منحي درجتين، وكانت تلك الدرجات الإضافية بهدف تشجيع الحاصلين على الشهادات العليا العمل في الجامعات الإقليمية التي كانت تشكو في ذلك نقصاً فادحاً من التدريسيين، فكرت في العرضين السخيين، فلم أجد غايتي في أي منهما، والسبب أن كلا منهما سيضطرني الى ترك والديّ وحدهما والعيش وحدي بعيداً عنهما، بل وبعيداً عن المكتبات التي ألفتها في بغداد، وهي المكتبات الغنية بالكتب والمخطوطات التي لا شك في أني لن أجد ما يعوض عنها إن أنا غادرت بغداد إلى أي مدينة اخرى، وصادف أن التقيت بالدكتور محمود الجليلي فأخبرته بالأمر، فما كان منه ألا أن اقترح علي أن أعمل بصفة مساعد خبير علمي في المجمع العلمي العراقي، حيث كانت تتوفر درجة وظيفية فيه بهذا العنوان، ومع أن راتب هذه الوظيفة كان أقل بكثير من راتبي في اي من الجامعتين، إلا أني وجدت في هذا العرض ما يلائمني تماماً، فالمجمع كان مؤسسة ذات مهابة بحكم من تضمه اليها من كبار العلماء واكاديميين، كما كان يضم مكتبة تحوي أكثر من اربعين الف كتاب في ذلك الوقت، ومكتبة أخرى فيها عدد

كبير من المخطوطات المصورة، مما سيفيدني دون شك في جمع مواد أطروحتي المنشودة.

باشرت في هذه المؤسسة، وكانت أول دائرة أوظف فيها، وأنا أحمد الله تعالى إلى أن وفقني إلى هذا الإختيار، ففي غرفها العديدة، حيث يتفرغ أعضاؤها، وفي أروقتها وقاعاتها، تعرفت على نخبة من العلماء، منهم رئيس المجمع الدكتور عبد الرزاق محيي الدين، وأمينه العام الدكتور فاضل الطائي، والدكتور جواد علي، والأستاذ طه باقر، والشيخ محمد بهجة الأثري، والأستاذ كوركيس عواد، واللواء محمود شيث خطاب، والأستاذ ناجي معروف، والدكتور يوسف عز الدين، والدكتور سليم النعيمي وغيرهم. كما أفدت من مكتبة المجمع ومخطوطاته، لاسيما وأن مكتبي كان يقع في قسم المخطوطات، فكنت أستغل الوقت في مراجعة ذلك كله، فأملأ كل يوم عدداً كبيراً من بطاقات البحث الملونة بنصوص أقتبسها من تلك المصادر الثمينة.

وكان مبعث سروري أني تعرفت أيضاً على الشاعر الإسلامي المعروف الحاج وليد الأعظمي، الذي كان نموذجاً للثقافة الشعرية الواسعة والخلق الإسلامي الرفيع، فكنا نقضي أوقات الإستراحة من العمل في أحاديث أدبية شيقة، يشاركنا فيها أحياناً بعض قاصدي مكتبة المجمع من المطالعين، وجلهم من طلبة الدراسات العليا. وقد استمرت الصداقة بيننا وطيدة حتى وفاته رحمه الله، إشتركنا خلالها في أكثر من عمل علمي، وقد رثيته في كلمة مؤثرة صادرة من أعماق القلب في الحفل الذي أقيم لتأبينه في جامع الإمام أبي حنيفة. وقد تأكد لي، في مناسبات عديدة، أن هذا الرجل محفوف بالكرامات.

وصـادف أن كلـف الأسـتاذ ميخائيـل عـواد بمهمـة فهرسـة المخطوطـات المصورة المحفوظة في القسم الخاص بها، فأختير له مكتب في الطرف المقابل لمكتبي من قاعة المكتبة، وشيئاً فشيئا صرنا نتبادل الحـديث عـن المخطوطـات والكتـب، وقد أفدت كثيراً من معلوماته في هذه الشؤون المحببة إلى نفسـي، ولم تكـن المهـام التي أكلف بها بالمرهقة، مما يسَّر عليَّ الإستفادة مـن الوقـت المتبقـي في المطالعـة، وفي كتابة بحوث صغيرة صرت أنشرها في المجلات الأدبية، ثم أني حققت رسـالة مهمة في أحوال حروف الجر، نظمها شاعر موصلي نابـه، هـو خليـل بـن علـي البصير، عن نسخة فريدة كانت قد انتقلت إليَّ إرثـاً مـن جـدي رؤوف العطـار (المتوفى سنة 1965)، وقـدمتها إلى مجلـة المجمـع فنشـرت سـنة 1974، وقمـت بدراسة عن شاعر منسي، هو محمد أمين آل ياسين المفتي، معتمداً بالدرجة الأولى على تحليل تاريخي لشـعره في ديوانـه المصـورالمخطوط الـذي وقفـت عليـه بـين مخطوطات المكتبة، قد أرسلت بها إلى مجلـة الأديـب البيروتيـة، فنشـرت في أحـد أعداد سنة 1975. ولكم سعيت، فيما بعد، للحصول على نسخة مصـورة مـن كتابه الطبي النفيس (الشفاء العاجل والدواء الكافل) بوصفه يكشف عـن علمـه الواسع والمتعمق بالطب والتشريح، وقد رأيته سنة 1970 في مكتبة مدرسة يحيى باشا الجليلي في الموصل، فلم أظفر بطائل، ثم علمت أن منه نسخة مصورة على (مايكروفيلم) في معهـد المخطوطـات العربيـة في القـاهرة، فسـعيت مـن خـلال الصديق سراج عثمان، الذي طبع لي عدداً من كتبي، للحصول عليها، وقد فعل مشكوراً، وما أن وصلت إليَّ حتى شرعت بدراستها بتأن، وتوضح لـي انهـا لا تكشف علم مؤلفها في الطب فحسب، وإنما تكشف عن جوانب من حياته أيضاً، وعن الثقافة الطبية في بيئته وعصره، فما كان مني إلا أن أعدت كتابة تلك المقالـة على وفق ما تحصل لدي من ملاحظات جديدة عديدة استفدتها من هذا الكتاب

ومن مخطوطات ووثائق اخرى، بعد أكثر من أربعة عقود من كتابتها لأول مرة. وحينما استغرب صديق من العودة بعد كل هذه المدة، قلت له: إن من الطبيعي أن تنشأ بيني وبين من أكتب عنهم صداقة حميمة، وأنا لا أنس أصدقائي، فتراني أعود إليهم، متفقداً، كلما وقفت على معلومات أساسية جديدة عنهم.

وأذكر أنه في سنة 1974 أخذ المجمع بالعمل بنظام خفارات الدفاع المدني، ولم يكن ذلك النظام مطبقاً فيه، وربما في دوائر الحكومة الأخرى، من قبل، ولم تكن تلك الخفارات موضع ترحيب من الموظفين القليلين الذي يعملون في المجمع عهد ذاك، إلاّ أني وجدت فيها فرصة طيبة لي لقضاء مزيد من الوقت في مكتبة المجمع في الليل أيضاً، وقد قضيت أول خفارة لي بين رفوف تلك المكتبة، ولم أشعر إلاّ والضوء يملأ المكان، وأقدام الموظفين تطرق الأروقة المجاورة، فغادرتها مضطراً لا مختاراً. وكانت ثمرة تلك الليلة الساهرة أن وضعت خطوطاً عامة لبحث أكملته فيما بعد بعنوان (عبد علي الحويزي)، وهو أديب مؤرخ وموسيقي عاش في الحويزة وفي البصرة في القرن الحادي عشر للهجرة.

ديوان مشؤوم

وفي ذات مرة، قرأت مخطوطة مصورة كان يحتفظ بها المجمع، هي ديوان لشاعر بغدادي هو حسين بن علي العشاري، كانت له مواقف سياسية من ولاة عصره، في القرن الثاني عشر للهجرة (18م) ولفتت نظري حياته البائسة على الرغم من سعة علمه، فقد كان عالماً كبيراً ومؤلفاً وفقيهاً بارزاً، أعجبتني تلك الشذرات التاريخية التي تناثرت في ديوانه، فقررت أن أكتب بحثاً عن حياته، وشرعت بالكتابة فعلاً، وصادف أن أطلعت الحاج وليد الأعظمي على مشروعي، فأعجب به، وإتفقنا أن نتعاون على تحقيق الديوان نفسه، فأقوم أنا بكتابة المقدمة التاريخية المطولة، والتعليقات التاريخية، ويقوم هو بضبط الشعر من النواحي اللغوية والعروضية، وشرعنا بالعمل فعلاً، إذ بدأ الحاج وليد بنسخ المخطوطة بيده تمهيداً لمقارنتها بالنسخ الأخرى، التي علمت أنها موجودة في مكتبات عدة في داخل العراق وخارجه. وما أن بدأنا العمل حتى بدأت سلسلة من المضايقات، فقد أثار عملنا هذا حسد بعض الموظفين، ممن كان يعمل في الشعبة الفنية، في المجمع، فقرروا تثبيط همتنا بأن بثوا إشاعة تفيد بأن احد المحققين يعمل على تحقيق الديوان، وأنه موشك على الفراغ من عمله قريباً، وعجبنا من هذه الإشاعة فالديوان الذي قبع على الرفوف منذ وفاة مؤلفه قبل نحو قرنين لم يجد من يلتفت إليه، فما أن شرعنا بتحققه حتى تبين بأن غيرنا قد قام بهذا العمل، وكدنا أن نصدق الإشاعة، إلاّ أننا قررنا المضي في العمل، فعملنا بكل همة ونشاط، وقابلنا النسخة على النسخ الأخرى، وقمت أنا بكتابة المقدمة فجاءت بنحو ثمانين صفحة، وكتبت التعليقات التاريخية الكثيرة على هوامش الديوان، بينما تولى الحاج وليد كتابة التعليقات اللغوية والعروضية كما إتفقنا من

قبل، فجاء الديوان متكاملاً إلى حد بعيد، وعنـد إنجـاز العمـل فكرنـا في طريقـة لطبعه ونشره. وأول ما فكرنا بـه أن نقـدم الكتـاب إلى وزارة الثقافـة والإعـلام لتتولى هي طبعه، وكانت الوزارة يومذاك تشغل عمارة مـن بضـعة طوابـق تطـل على ساحة التحرير، وقدمنا الكتاب بالفعل إلى لجنة النشر فيهـا، وأخـذنا نـتردد عليها عدة أسابيع لعلنا نظفر ببشرى الموافقة على طبعه ضمن إصدارات الوزارة كما جرت العادة عهد ذاك، ثم أنهـم ضـربوا لنـا موعـداً أخـيراً لتسـلم القـرار بالنشر، وحينما ذهبت أنا لتسلمه، خرج علي الصـديق عبـد الحميـد العلـوجي، وكان يومذاك عضواً في هذه اللجنة، وأخبرنـي بـأن اللجنـة تعتـذر عـن نشـره، وحينما سألته عن السبب، قال لأنـه كـبير الحجـم! وبـالطبع لم يكـن هـذا سـبباً حقيقياً، لأني رأيت في تلك الزيارة ديواناً ضخماً لشاعر لبناني قد طبعته الوزارة رغم أنه يزيد في عدد صفحاته على ديوان العشاري. أخذنا الديوان ونحن نعجب من سـوء حـظ صـاحبه العـاثر. وبعـد مـدة تـذكرنا صـديقنا الـدكتور عبـد الله الجبوري، وما أظنه قد أصبح دكتوراً آنذاك، وكان مديراً لمكتبة الأوقـاف العامـة ورئيساً أو عضواً في لجنة التراث الإسلامي في وزارة الأوقـاف، الـتي يتولاهـا في ذلك الوقت الدكتور عبد الستار الجواري، فإتصل به الحاج وليد الأعظمي بشأن إدراج الديوان ضمن الكتب الـتي تعضـد الـوزارة نشـرها بالمـال، نظـراً للطـابع الإسلامي الذي يتسم به شعره، ولأن صاحبه العشاري كان عالماً جليلاً ومفتياً في البصرة، وهو جد أبي الثناء الآلوسي، لأمه، العلامة المفسر الشهير. وكان موقف الجبوري إيجابياً ووعد خيراً، فذهبنا بالديوان إليه بغية نشـره، وبالفعـل حصـلت الموافقة، إلاّ أننا فوجئنا بزهادة المبلغ الذي تدفعه الوزارة علـى سـبيل التعضـيد، وهو عشرين ديناراً للملزمة الواحدة، بضمنها سعر الورق نفسه، ووجدنا أنفسـنا ندور على جميع المطابع في بغداد، وأكثرها يومذاك كان في شارع المتنبي، فـلا نجـد

مطبعة ترضى بهذا المبلغ الضئيل، وأخيراً عثرنا على مطبعة متواضعة جداً في زقاق يقع في محلة الميدان، إسمها مطبعة الأمة، قبلت بهذا المبلغ، وكانت المطبعة تشغل جانباً من بيت قديم متداعي، ويجري الطبع فيها بطريقة التصفيف اليدوي، ويقوم بالتصفيف صِبية يظهر أنهم كانوا أبناء صاحب المطبعة، ولم نجد بداً من تقديم الديوان إليهم ليتولوا طبعه، وبعد نحو أسبوع أو أكثر، تسلمنا الملزمة الأولى فهالنا ما رأينا من كثرة الأخطاء الطباعية، وشرعنا نصحح ما أمكن تصحيحه، وبعد بروفة وبروفتين وثلاث وافقنا على الطبع، ولما طبعت قدم لنا أحد صِبية المطبعة الملزمة، فإذا بها خالية تماماً من الفوارز والنقاط، وهو نقص مخل بسبب أن عبارات مقدمة الديوان كلها مسجوعة، وعدم وجود فوارز بين هذه العبارات يضيع على القارئ نهايات سجعاتها، وساءنا الأمر كثيراً، ولما سألناه عن سبب ذلك، أجاب بكل بساطة بأنه لم يجد لها ضرورة فرفعها، وهكذا خرجت الملزمة الأولى من الديوان وهي على ذلك النقص الفادح، فأدركنا أن النحس ما زال ملازماً صاحبنا العشاري. ولا داعٍ للقول بأننا عانينا من تصحيح سائر الملازم الكثير، لاسيما وأن الديوان كان يتجاوز السبعمائة صفحة كبيرة، وأخيراً تم طبعه، وفرحنا بالإنجاز الشاق، وتسلمنا حصتنا من نسخه، البالغة خمسون نسخة، وشرعنا نوزعها على سبيل الهدية على من رأيناه يستحقها، وكانت أول نسخة لوزير الأوقاف بوصفه صاحب الفضل الأول على طبعه، وبعد أيام فوجئنا بعبد الله الجبوري يخبرنا أنه لقي تعنيفاً شديداً من الوزير بسببنا، لأن الوزير اكتشف بأن الكتاب الذي حمل إسم الوزارة هو ديوان شعر لا كتاب تفسير أو فقه كما كان يتوقع، فكان الجبوري ضحية أخرى لذلك النحس العجيب الذي لازم ديواننا. وبحسب القاعدة المتبعة في منشورات الوزارة تم تسليم الكمية المطبوعة إلى مخزن وزارة الأوقاف لكي تقوم هي بتوزيعه، وكان

مخزنها يشغل بناية كبيرة ملحقة بجامع عادلة خاتون في محلة الصرافية، وبعد انتظار لعدة أشهر، نفد صبرنا، فذهبت إلى المخزن المذكور لنتبين سبب التأخير، وإذا بي أخبر بأن نسخ الديوان وضعت في آخر المخزن، فجاءت مطبوعات الوزارة الأخرى، لتحجبها تماماً، وهم ينتظرون نفاد هذه المطبوعات الجديدة لكي يسهل عليهم إخراج النسخ وتوزيعها، وبما أن مطبوعات الوزارة بطيئة التوزيع، فما زال الديوان حبيساً في مكانه من المخزن، محاصر بكميات من المطبوعات التي تحول دون إطلاق سراحه، وأدركنا أن النحس ما زال ملاحقاً عشارينا حتى بعد طبع ديوانه، وانتظرنا ستة أشهر أخرى ولم يظهر الديوان، فذهبت إلى مخزن عادلة خاتون لأستعجل أمر التوزيع، وإذا بي أفاجأ بأمر عجيب، فالمخزن خالٍ منه تماماً، وأخبرني المسؤول أنه جرى توزيعه كله ولم تتبق منه نسخة واحدة، فعجبنا من الأمر، وأحسسنا بشيء غير عادي قد حصل، فسألنا المسؤول: وأين وزعت النسخ ونحن لم نر نسخة منها في أي مكتبة، قال: لقد وزعت في أفريقيا الوسطى، وزاد عجبنا: ولماذا أفريقيا الوسطى!! وكيف وصل إلى هناك؟؟ قال ببساطة: أبداً، كل ما في الأمر أن رئيس جمهورية أفريقيا الوسطى، وإسمه بوكاسا، أعلن اعتناقه للإسلام، وسمى نفسه أحمد صلاح الدين، وسافر إلى السعودية وإلى الإمارات المتحدة لطلب الأموال بحجة العمل على نشر الإسلام بين بني قومه، ثم أنه قصد العراق، حيث التقى بالرئيس، وكان أحمد حسن البكر، للغرض نفسه، ثم التقى بوزير الأوقاف حيث طلب منه بعض المطبوعات الدينية لكي تساعد على نشر الإسلام في بلاده، فما كان من الوزير إلاّ أن أمر بإعطائه الكميات المتوفرة من مطبوعات الوزارة التي في مخزن عادلة خاتون، ونفذ مسؤول المخزن الأمر بدقة، فكان أول ما شحن على طائرة الرئيس الأفريقي نسخ ديوان العشاري، وهكذا ذهب الكتاب إلى مجاهل أفريقيا

وضاعت أخباره هناك، فلا أهلها يعرفون العربية، ولا هم مسلمون، ولا بوكاسا نفسه أصبح مسلماً، وادعاؤه الإسلام كان لمجرد رغبته في الحصول على مساعدات مالية من دول النفط العربية، ثم اتضح أنه مازال وثنياً إذ ثارت حوله فضيحة مدوية تقول بأنه كان يأكل لحوم الأطفال! وهكذا لازم النحس عشارينا حتى آخر لحظة من عمر ديوانه المشؤوم.

وشجعنا تحقيقنا لديوان العشاري على العمل على تحقيق ديوان الأديب المؤرخ عبد الرحمن السويدي، صاحب كتاب (حديقة الزوراء) الذي حققته فيما بعد، وذلك أن هذا الديوان كان يعد مكملاً للكتاب المذكور لكثرة الحوادث التاريخية التي تناولتها قصائده، فتقاسمنا العمل، انا والحاج وليد، وانجزنا تحقيق الديوان كاملاً، إلّا أن طبعه تأخر كثيراً، وقد طبعته طبعة محدودة في بغداد سنة 2000 بينما توفي هو في سنة 2004.



الجمهورية العراقية
وزارة الأوقاف
إحياء التراث الإسلامي
٢٥

ديوان العشاري

حسين بن علي بن حسن بن فارس العشاري البغدادي
المتوفى في حدود سنة ١١٩٥هـ

حققه وعلق عليه

الدكتور
عماد عبد السلام رؤوف

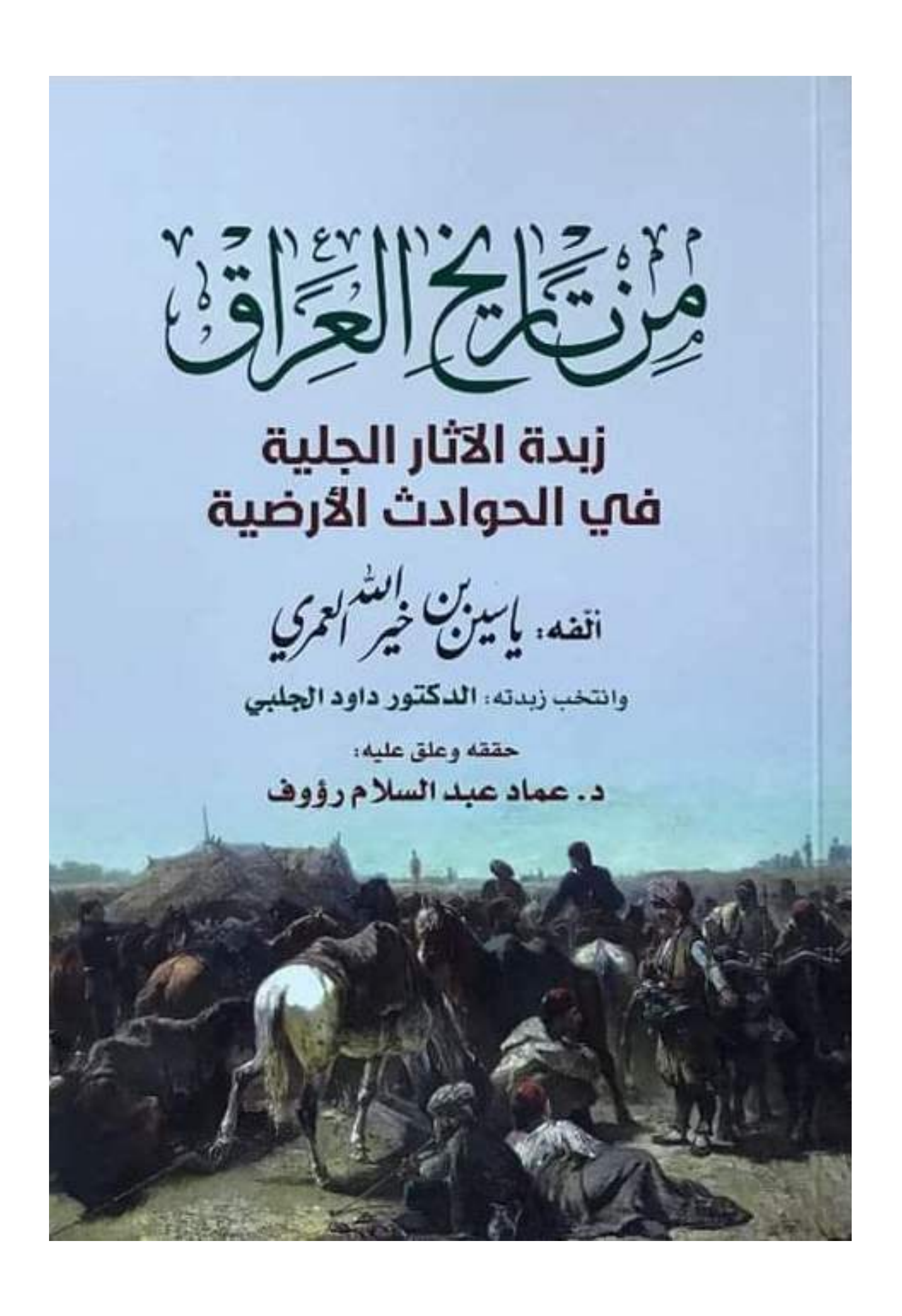
وليد عبد الكريم الأعظمي

الكتاب الخامس والعشرون

مطبعة الأمة — بغداد

تحقيق ونشر

وفي ذات مرة، تناهى إلى سمعي من الغرفة المجاورة لمكتبي في المجمع، صوت احد الأعضاء وهو يثني على كتاب مخطوط بعنوان (زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية) الذي ألفه المؤرخ الموصلي ياسين العمري وانتخب زبدته الدكتور داود الجلبي، وهو يتناول تاريخ العراق والبلاد العربية في القرون المتأخرة، ويدعو إلى إدراجه في قائمة المخطوطات التي يتبنى المجمع دعم نشرها، ولما كنت قد حصلت على نسخة مصورة من هذا المخطوط، وكان أحد مصادري في رسالتي للماجستير، فإني شرعت بتحقيقه باذلاً غاية جهدي في التعليق عليه والتقديم له وفهرسته، وقد ساعدني المجمع بمبلغ من المال لم يكن يكفي لطبعه، فإضطررت لطبعه في مطبعة الآداب في النجف حيث الطباعة هناك أقل كلفة، وقد أنجز طبعه فعلاً في سنة 1974، وتولت الدار الوطنية للتوزيع توزيعه، وهي مؤسسة استحدثت في ذلك الوقت من أجل أن تحتكر توزيع الكتب. وكم كانت سعادتي حينما ذهبت إلى هذه الدار لأسحب نسخ الكتاب الألف، تصوراً مني انها لم تجد من يشتريها، فأجد الكتاب قد نفدت نسخه تماماً، لقد كانت تجربة ناجحة اذن، على الرغم من أن عنوان الكتاب لم يكن مشوقاً، بل لم يكن مفهوماً لأكثر القراء. لقد أدركت في حينها ان كتاب التاريخ الرصين يبقى وطيداً أمام كثرة الكتب السياسية التي كانت تملأ رفوف المكتبات في ذلك الوقت.


من تاريخ العراق
زيدة الآثار الجلية
في الحوادث الأرضية
ألفه: ياسين بن خير الله العمري
وانتخب زبدته: الدكتور داود الجلبي
حققه وعلق عليه:
د. عماد عبد السلام رؤوف

وشجعتني هذه التجربة على أن أطبع رسالتي عن الموصل في العهد الجليلي، ونزولا عند رغبة الدكتور محمود الجليلي، الذي أكن لشخصه إحتراما عالياً، فقد غيرت عنوانها إلى (الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي)، ولم أدر سبب هذه الرغبة في عدم ذكر إسم الجليليين، وتصورته نوعا من التواضع، وحينما قدمت الكتاب إلى الرقابة لآخذ موافقتها على طبعه، كما كانت تقضي التعليمات، فوجئت بإعتراض الرقيب على اسم آخر، هذه المرة، هو (العهد العثماني) على أساس أن العثمانيين كانوا محتلين ولا يجوز تسمية العهد بإسمهم، وهكذا ضاع العنوان بين الطرفين، وأخيراً إستطعت أن أقنع الرقابة بالعنوان الأخير، بعد جهد بذلته وواسطة استعنت بها، ومضيت بعدها إلى النجف، حيث مطبعة الآداب، وعدت إلى التردد الإسبوعى إلى هذه المطبعة، أقوم بتصحيح تجارب الطبع، وكانت المطبعة لا تستطيع طبع أكثر من ملزمتين في الأسبوع، ولذلك إقتضى طبع الكتاب وقتاً طويلاً بلغ عدة شهور، ومع ذلك كانت الزيارة الإسبوعية للنجف ممتعة بكل المقاييس، فقد تعرفت على مكتباتها، واشتريت منها كتباً مهمة، وجمعتني لقاءات علمية نافعة مع رجال فضلاء من علمائها ومثقفيها.

مخطوطات دار التربية الإسلامية

وفي تلك الأيام المزدحمة بأعمال متنوعة مما ذكرت، تذكرت أن طالباً زميلاً لي في كلية الآداب ببغداد، أخبرني بوجود مكتبة غنية بالمخطوطات في مكتبة دار التربية الإسلامية في الكرخ، وكانت هذه الدار تضم مدرسة راقية أسسها في خمسينات القرن الماضي مفتي بغداد الشيخ أمجد الزهاوي، ولما كنت شغوفاً بالمخطوطات، ولم يكن للمكتبة فهرساً علمياً يصف مخطوطاتها، قررت صنع فهرس وصفي لها، وذهبت بعد إنقضاء دوام المجمع إلى المؤسسة المذكورة وأطلعت مديرها الشيخ عبد الوهاب السامرائي على رغبتي، فوافق مرحباً، وشرعت على الفور بالعمل، فإشتريت دفترين كبيرين، وأخذت أفهرس مخطوطاً بعد آخر، بغاية العناية، وكنت أخرج من المجمع بعد انتهاء ساعات الدوام في كل يوم، وأنطلق إلى المكتبة، حيث افتح دفاتري وأشرع بالعمل لعدة ساعات، ولم أكن أتوقف إلّا مضطراً حين تتحول المكتبة إلى قاعة لإقامة مجلس الفاتحة، بل كنت أعمل حتى في أثناء تنظيف القاعة، فيمتلأ فضاؤها بعاصفة من الأتربة والغبار الناجمة عن كنسها، ومع ذلك لم يثنيني هذا عن الصمود على مكتبي، ذلك أني كنت حريصاً على الوقت، لا أرغب في تضييعه لمثل هذه الأسباب، وفي البيت وفي المجمع أيضاً كنت أقوم بمراجعة ما سجلته من بيانات على مصادر الكتب المعروفة، مثل كتاب (كشف الظنون) و(إيضاح المكنون) و(بروكلمان) وغيرها مما يعرفه المشتغلون في فهرسة المخطوطات. وبعد نحو ثلاثة أشهر إنتهى العمل تماماً، وشغل الفهرس مجلداً، وحاولت أن أقنع الشيخ السامرائي بضرورة طبعه، إلّا أنه لم يقتنع، ربما لأسباب مالية هو أعلم بها، وظل هذا الفهرس مخطوطاً حتى نشرته، بعد عدة سنوات في عددين متتابعين في مجلة المورد التراثية سنة 1977.

مكتبة العزاوي

لم ألتق بالمؤرخ عباس العزاوي إلّا مـرة وحيـدة في حيـاتي، حينمـا حضـر مجلس فاتحة جدي محمد رؤوف العطار، وذلك سنة 1965يصحبه ولده فاضـل، وحينما توفي هو سنة 1970 شكلت لجنة لجـرد محتويـات مكتبتـه الشـهيرة مـن المخطوطات، التي كانت تشغل الطابق الأرضي مـن داره الكـبيرة الكائنـة علـى شارع أبي نؤاس، وكانت هذه اللجنة تتـألف مـن ثلاثـة أعضـاء هـم: الجبـوري نفسه، وأسامة النقشبندي، وأنا، وقد سررت في البداية حينما أخبرنـي الجبـوري بضمي إليها، لأني سأطلع على المكتبة التي طارت شـهرتها في الآفـاق، ولم يرهـا إنس ولا جان، إلّا أن والدي نصحني بالانسحاب من هذه اللجنة فوراً، ومن أي لجنة جرد في المستقبل، لأن من السـهل اتهامهـا، لأدنـى سـبب، بخيانـة الأمانـة، فإنسحبت منها آسفاً، ولا أدري بعدها ما كان من هـذه اللجنـة، ومـا أدتـه مـن عمل.

وفي سنة 1972 اتصلت بي سيدة مسنة قالـت أنهـا راجحـة إبنـة عبـاس العزاوي، وكنت يومذاك أعمل باحثاً في المجمع العلمي العراقـي، وأخـبرتني أنهـا تملك من كتب والدها مجموعة كبيرة من مؤلفاتـه الخطيـة مودعـة في صـناديق في بيتها، وطلبت مني أن أتفحصها لأحدد قيمتها، وما يمكن أن تفعل بهـا، فـذهبت إلى بيتها في الموعد المضروب، وكـان عبـارة عـن شـقة صـغيرة مـن شـقق نـادي المنصور، في حي المنصـور، وهنـاك أطلعـتني علـى مجموعـة مـن الصـناديق مـن الكارتون الثخين، إمتلأت بالمخطوطات، وجلست لأتفحصـها، فـلاح لـي أنهـا جميعاً من مسودات كتب العزاوي، بعضها بخطه، وبعضها بخـط ناسـخه الخـاص

عبد الرزاق ابن فليح، ومنها ما وصل بـه إلى البيـاض، ومنهـا مـا شـغل أوراقـاً مفرقة جمعها في كيس من الورق الأسمر، ووجدت أن بعض هذه المسودات هـي لكتب طبعها العزاوي تحت عناوين أخرى، وبعد أن إنتهيت من الإطلاع عليهـا، سجلت عنواناتها في أوراق منفصلة، أودعتها عندها، وشـاورتني فيمـا يمكـن أن تفعله بها، فإقترحت عليها أن تبيعها إلى المجمع العلمي العراقي، حيـث يمكـن أن يفيد منها الباحثون، وكانت هي بحاجة إلى المال لتقوم برحلة علاجية كانت بأمس الحاجة اليها. ونقلت للدكتور عبد الـرزاق محيـي الـدين مـا عرضـته علـى هـذه السيدة، فوافق، وجرى نقل الصناديق إلى المكتبة حيث لبثت مـدة طويلـة بعيـدة عن تناول الباحثين، ثم أخـذت طريقهـا إلى أيـديهم تباعـاً، وكنـت قـد إخـترت لطالب إسمه أحمد الغريري (هو الدكتور أحمد الغريري، الأستاذ الآن في جامعـة الكوفة) أن يكتب رسالة الماجستير بإشرافي عن عباس العزاوي ومنهجه في كتابة التاريخ، فتولى جرد هذه المسودات وأودع عنواناتها في رسـالته، ثـم قـام الشـيخ محمد علي القرداغي بنشر بعض مخطوطاتها، كما حقـق السـيد زيـن النقشـبندي مخطوطة منها في تاريخ الطباعة والصحافة. وهكذا آتت نصيحتي أكلها وأصبحت مؤلفات العزاوي، لاسيما ما لم يطبع منها، متاحة للمحققين.

المكتبة القادرية

وفي أحد الأيام، أخبرني الدكتور ناجي معروف، وكـان عضـواً في المجمـع العلمي العراقي، أنه رشحني لـدى السـيد يوسـف الكيلانـي، متـولي الأوقـاف القادرية (وكان وكيلاً لوزارة الخارجية في أواخر العهد الملكي)، لأن أتولى فهرسة مخطوطـات المكتبـة القادريـة، علـى غـرار مـا فعلـت في محطوطـات دار التربيـة الإسلامية، وأن السيد الكيلاني وافق على الفكرة، وطلب اللقـاء بـي في ديـوان الأوقاف القادرية الكائن مقابل جامع السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني، وذهبتُ إليه فعلاً، فوجدته رجلاً مثقفا كيساً، محباً للعمل العلمي، فإتفقنا أن أبدأ العمـل فوراً، وفي الحقيقة كنت متحمساً للعمل أكثر من السيد يوسف، فقد كنـت أعلـم أن فهرسة هذه المكتبة العريقة لها معنى علمي كبير. وتفهم المجمع مهمتي، فصرت أخرج من الدوام قبل إنتهائه بساعتين، وأذهب إلى المكتبة القادرية حيـث أعمـل بلا انقطاع حتى الساعة 9 مساءاً وهو موعد إغلاق المكتبة، وأخيراً أنجزت الجزء الأول من الفهرس، وكان يقـع في 320 ص، وقـد إخـتص بفهرسـة مخطوطـات المصاحف وكتب التفسير وعلوم القرآن وعلوم الحديث، وجرى طبعه في إحـدى مطابع شارع المتنبي سنة 1973، بمبلغ كان قد تبرع به أمير الكويت عنـد زيارتـه للجامع. ثم أني واصـلت العمـل فـأنجزت تـأليف الجـزء الثـاني، وهـو يختص بمخطوطات الفقه والفرائض وما إلى ذلك، ولكنه لم يطبع، او تأخر طبعه، بسبب وجود مشكلة مالية في ديوان الأوقاف القادرية.

وصادف أن سمعت ذات مساء، وأنا في هذه المكتبـة مسـتغرق في العمـل، ضجة وصخباً، وأصوات تتنادى، وزعيق يعلو، فتصـورت أنهـا مظـاهرة تهتـف

بسقوط الحكومة، وهالني ما يمكن أن يحدث لو داهم رجال الأمن باحة الجـامع، أو حتى المكتبة التي أقبع في إحدى زواياها، ثم استجمعت شجاعتي، أو ما تبقـى منها، وخرجـت إلى الطارمـة الخارجيـة لأعـرف مـا يجـري، وهنـاك علمـت أن المظاهرة لم تكن إلّا تجمعاً يومياً معتـاداً لجمهـور كـان يحضـر مُسـلحاً بـالأواني والطاسات والكاسات ليأخذ عطاءه من الشوربة من (الشوربه خانه)، وهـي دار مخصصة لطبخها وإعدادها وتوزيعها كل مساء، طلباً للشبع أو رغبـة فيمـا كـانوا يعتقدونه من بركاتها على حد سواء!

إعداد للدكتوراه

ومن أجل مواصلة الدراسة في القاهرة، حيث سجّلتُ عنـوان أطـروحتي، اضطررت إلى الإستقالة من المجمع، وسافرت الى القاهرة ومعي حقيبة كبيرة مليئة ببطاقات البحـث، وبعـض المباحـث المكتوبـة، ونزلـت مؤقتـاً في فنـدق (أنجلـو سويس) الواقع في (شارع الانتكخانه) في وسط القـاهرة، حيـث بـدأت بترتيـب بطاقاتي، وشرعت بكتابة فصول الأطروحة، وبعد نحـو شـهر، انتقلـت الى شـقة جميلة في شارع عبد العزيز آل سعود في حـي المنيـل، مطلـة علـى النيـل، وكـان يشاركني في السكن فيها صديقي السـوري، فـواز حسـين، الطالـب بكليـة طـب القصر العيني، وكانـت إقـامتي في هـذه المـدة مليئـة بالعمـل، ولكـن مـع سـاعة بايولوجية معكوسة، فكنت أبدأ بالكتابة في الساعة السابعة مساء، واتوقف عنهـا في الساعة السابعة صباحاً، وأخلد بعدها إلى النوم، ولا أستيقظ إلا لتناول طعـام الغذاء، والتنزه بعض الوقت وزيارة الأصدقاء، ثم أعود إلى مكتبي لأحبس نفسي فيه حتى الصباح وهكذا. كان نظاماً صارماً لكنه كان نافعاً تمامـاً، ففـي الليـل لا يزورك صديق، ولا يقطع افكارك تلفون، ولا تجد عند بابـك (بتـاع المكـوى) أو (ساعي البريد)، بل تجد هدوءاً مطلقاً، وذهناً صافياً لا يكدره شي.

وفي القاهرة انصرفت أيضاً إلى طبـع مخطوطـة (الجـواهر وصـفاتها) الـتي حققتها، فعرض عليَّ ناشر، هو صاحب مكتبة العرب في حي الفجَّالـة بالقـاهرة أن يقوم بنشر الكتاب، ولما كان طبع مخطوطة مـن دار الكتـب يسـتلزم الحصـول على موافقة الدار، على وفق نظام قديم لم يعد أحـد يلتـزم بـه، قـررت أن أزور الدار لأحصل منها على هذه الموافقـة، وهنـاك قابلـت مـديرها الـدكتور محمـود

الشنيطي، وعرضت عليه الطلب، فإذا به يأخذ بقراءة الكتـاب، وبعـدها بـادرني برغبته في أن تتولى دار الكتب طبعـه ضـمن نفـائس مـا تتـولى طبعـه مـن كتـب التراث. وأذكر أنه عزز مبادرته بمثل مصري يقول (جحا أولى بلحم ثوره) أي أن الدار أولى بنشر نفائس مخطوطاتها، وبالطبع وافقت مسروراً، وتولت دار الكتـب طبعه في مطبعتها الكائنة في الطابق الأرضي من مكتبتها القديمة في بـاب الخلـق, ولما أنجز طبعه سنة 1977، وكنت قد حصلت على شـهادة الـدكتوراه، أرسـلوا إليَّ حصتي من النسخ المطبوعة على عنواني في بغداد وهو يحمـل لقـبي العلمـي الجديد.

وبعد أن أنجزت كتابة الفصول الخمسة التي تتألف منها أطروحتي، أخـذت بتقديمها فصلاً فصلاً إلى أستاذي المشرف الدكتور السيد رجب حراز، فكان يقـرأ كل فصل بتمعن ويبدي ملاحظات طفيفة، فآخذ بها، وهكذا جرى الأمـر حتـى فرغ من قراءتها كاملة، وبعد أن أنجزت طباعتها علـى الإستنسـل، حـدد موعـد مناقشتها، وكانت لجنة المناقشة تتألف مـن الأسـتاذ الـدكتور أحمـد محمـد الحتـة، والأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، وقد عقدت المناقشة هـذه المـرة في أحد مدرجات جامعة القاهرة، وحضرها جمهور كبير من طلبة الدراسات العليا، وكان ممن حضرها والداي اللذان قدما إلى مصر لهـذه الغايـة، وانتهـت المناقشـة بمنحي درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز، والحمد لله.

عاد والداي قبلي، وتأخرت أنا لإنهـاء معاملـة التصـديق علـى الشـهادة، وبعدها عدت لأجد أسرتي بإنتظاري، وكان سروري لا حد له.

التدريسي الأصغر

وبعد أسابيع قليلة بدأت بمعاملة التعيين بالجامعة، وشاءت الأقدار أن أعين في كلية التربية وليس في كلية الآداب كما كنت أرجو، وسبب ذلك أن نظام التعيين كان يقضي حينذاك أن يُعرض طلبي على الجامعات الإقليمية أولاً ثم على جامعة بغداد. وخشية من أن أعين في جامعة إقليمية، فقد نصحني الدكتور خالد الجادر بالبدء بإلقاء المحاضرات على طلبة قسم التاريخ في كلية التربية، فالقسم كان في حاجة إلى إختصاصي، وكان هو صديقاً لرئيس القسم آنذاك الدكتور عبد الأمير محمد أمين، وقد كلمه في أمري فوافق على قيامي بإلقاء المحاضرات على طلبة المرحلة الثالثة في موضوع تاريخ الوطن العربي في العصر العثماني، وكانت تلك تجربتي الأولى في التدريس، وقد رجَّح إستمراري قي إلقاء المحاضرات من فرصة تعييني في الكلية والإستغناء عن مفاتحة الجامعات الإقليمية في أمر تعييني كما كانت تقتصيه التعليمات. وكان صاحب الفضل في هذا الرأي هو الدكتور خالد العسلي، لأنه كان يومذاك يشغل منصب مساعد مدير التعيينات لشرون الاتسانيات. وهكذا صدر الأمر الجامعي بتعييني في كلية التربية بجامعة بغداد، وعمري لم يكن يتجاوز الثامنة والعشرين.

وأذكر أن مديرة الذاتية في إدارة الجامعة قالت، وهي تتأمل أمر التعيين: إنك الآن أصغر مدرس في جامعة بغداد!، وقد تذكرت هذه العبارة حينما مرت ثلاثون سنة بعد هذا التاريخ، فإذا بمسؤولة القلم السري في الكلية تخبرني أن مجلس الجامعة اختارني أستاذاً أقدم على الكليات الإنسانية في جامعة بغداد.

باشرت التدريس في الكلية المذكورة بجد ونشـاط، وحرصـت علـى أبقـى بعيداً عن الإنخراط في أي تنظيم حزبي، وقد تعرضت بسبب هذا الموقف المبدئي إلى كثير من المواقف المحرجة، ومع ذلك فقد تخلصت من الإنخراط في الحـزب في كل مرة.

بين التدريس والبحث

وأذكر أن أول بحث كتبته بعد تعييني مدرساً هو (صمود البصرة في حصار نادرشاه سنة 1743)، وقد قدمته إلى مجلة (الأستاذ) التي تصـدرها كليتنـا فنشـر شاغلاً منها نحو ستين صفحة، وكان مما شجعني على كتابته عثوري على مجموعة غير منشورة من الوثائق الخطية التي تمثل الرسائل التي بعث بها الجانب الإيرانـي الى القيادة الرسمية وغير الرسمية في البصرة، وكانـت هـذه الوثـائق محفوظـة في وقت كتابتي للبحث في مكتبـة الدراسـات العليـا في كليـة الآداب ببغـداد. وقـد اعتدت على أن لا أقدم على كتابة أي موضوع ما لم تكن تحت يدي وثـائق غـير منشورة تدعم البحث وتكشف أسراره.

على أن حياتي في الكلية لم تكن كلـها تـأليف وبحـث وحسـب، إذ مـا أن وضعت قدمي في القسم حتى كلفت بتدريس جملـة مـن المـواد لعـدد كـبير مـن الشعب، مما كان يقتضي مني تكرار المادة نفسها مرات عدة، وهو عمل ممل جـداً ومتعب إلى حد كبير، وأكثر ما درسته من المواد (تاريخ الوطن العربي في العصـر العثماني) و(تاريخ جنوب شرقي آسيا واليابان)، وقد لفت نظـري التشـابه بـين نظام الإقطاع العسكري المعروف بإسم التيمار في الدولة العثمانية ونظام الإقطاع العسكري المعروف بالساموراي في اليابـان، هـذا الى جانـب مـواد اخـرى كنـت أكلف بها أحياناً سداً لشاغر ما.

رحلة علمية محبطة

وفي سنة 1977، ولم تكن قد مضت على تعييني إلّا سنة واحدة، وصلتني رسالة من معهد المخطوطات العربية في الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، يطلب مني مديره الأستاذ قاسم الخطاط، وهو خبير عراقي نابه في مجال المخطوطات، أن أزوده بقائمة بالمكتبات التي تضم مخطوطات عربية في الباكستان، لإرسال بعثة من المعهد إلى ذلك البلد لتصويرها، على وفق ما كان المعهد يتبعه في عمله، كما طلب مني أن أتهيأ للسفر إلى الباكستان، برفقة مصور، وربما مبعوث آخر، لتنفيذ هذه المهمة العلمية. وقد سررت جداً بهذا التكليف، وأعددت القائمة المذكورة، ولم يكن لي ثمة مصدر أعود اليه بشأنها إلّا قائمة المكتبات التي رجع اليها بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي)، وبعد أن أرسلتها إلى المعهد، قدمت طلباً إلى عميد الكلية أطلب فيه الموافقة على السفر، وأداء هذه المهمة التي لا تستغرق أكثر من شهر واحد في أقصى تقدير، وكنت أتصور أنه سيرحب بالأمر، على أساس أن المعهد إعتمد على أحد منتسبي كليته دون الكثير من المعنيين في الأقطار العربية، لكني فوجئت برفضه البات، المقرون بغضب مستتر، وإضطررت أخيراً إلى الإعتذار إلى الأستاذ قاسم الغواص لعدم تمكني من الإلتحاق ببعثة التصوير نزولاً عند رفض عميد الكلية، ولم يكن صعباً أن افهم سبب هذا الرفض القاطع.

فؤاد سزكين

وفي سنة 1978 زار العراق العالم الألماني التركي الأصل فؤاد سزكين، وكان هدفه الحصول على دعم مالي يساعده في تأسيس معهد التراث العلمي الذي انشأه فيما بعد في فرانكفورت بألمانيا، وقد احتفى به أساتذة التاريخ في العراق في دعوات عديدة أصابت معدته منها أضرار التخمة والتلبُك. وكان أن التقيت به أول مرة حينما دعاه الدكتور حسين أمين، أمين عام اتحاد المؤرخين العرب في ذلك الوقت، لإلقاء محاضرة عن العلوم عند العرب في مبنى الإتحاد، الكائن يومذاك في حي تونس في الصليخ، وكان موضوع المحاضرة هو التقدم العلمي الذي حققه المسلمون في العصور الوسطى، وقد إتخذ مجلسه في صدر القاعة وأحاط به المدعوون من الجانبين، ولاحظ الجميع انه كان يقرأ محاضرته مكتوبة في أوراق أمامه، والمعروف عنه أنه كان يرفض أن تسجل محاضراته، أو أن يطلع عليها أحد قبل أن يقرأها، وقد عرفت السبب، ذلك انه كان يعيد قراءتها في مناسبات عديدة كلما دعي إلى ذلك في ندوة او مؤتمر، كما كان يكره أن يقاطعه أحد، او يسمع أدنى صوت او همس في أثناء إلقائه محاضرته، على أنه واجه في تلك الساعة كل هذه المحظورات، فما أن بدأ بقراءة محاضرته حتى كان أستاذ فاضل يجاوره في المجلس يسترق النظر إلى سطورها قبل أن يصل نظر سزكين اليها، فأزعجه ذلك السلوك ايما ازعاج، وزاد من انزعاجه انه لاحظ وجود مسجل يسجل محاضرته على شريط، وبلغ غضبه أشده حينما دخل فراش القاعة المسمى (دِعيِّر) اليها وهو يحمل في يمينه صينية كبيرة عليها عدد كبير من إستكانات الشاي، فشرع كل واحد من الجالسين بوضع إستكانه على الطاولة، ومن ثم أخذ يقلب الشاي بالملعقة مُحدثاً صوتاً عالياً، ويمكننا أن نتصور الضجة

الصادرة عن هذه العملية إذا علمنا ان عدد الإستكانات كان لا يقل عن عشرين أو ثلاثين استكانا، وهالت سزكين هذه الضجة، ولكنه إضطر أن يكمل القراءة وقد إحمرَّ وجهه غضباً، وزاد غضبه شدة حينما فتح باب النقاش، فعلقت على قوله أن العرب صنعوا الثلج، بالقول أنهم عرفوه ولكنهم لم يصنعوه فعلاً، ولو كانوا قد صنعوه لما وجدنا الخليفة وعلية القوم في بغداد يستوردون الثلج من جبال البرز في شمالي ايران، فلا يصلهم إلّا بعد مشقة، ولقاموا بإنشاء معمل للثلج في دار الخلافة مثلاً، وأنهوا المشكلة، وكنت متأكداً من عدم وجود معمل له في بغداد، وإذا به يطير صوابه فيصر على معلومته الخاطئة بإنفعال عجيب، فلم يكن مني إلّا أن أظهرت غضبي وغادرت المبنى دون أن أودعه، وبعد يومين قام الأستاذ سالم الآلوسي بدعوتنا على شرفه إلى العشاء في مطعم لؤلؤة في حديقة الزوراء، فإعتذرت للسبب المذكور، ثم حضرت- بعد إلحاح- مشترطاً أن أسمع منه إعتذاراً عما أبداه من غضب غير مبرر، وحينما حضر فوجئت بأنه يبادر بالإعتذار حتى دون يطلب منه الآلوسي ذلك، أو أن اظهر أنا رغبة في سماعه، مبرراً ذلك بأنه إنما فقد شعوره بسبب عاصفة الإستكانات واستباق نظر الآخرين إلى اوراقه ومزعجات اخرى ذكرها، فأكبرته في تواضعه إكباري إياه في غضبه. وكان أن التقيته مرة اخرى في الندوة الدولية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب التي عقدت في حلب بعد نحو عامين، حيث ألقى تلك المحاضرة نفسها.

علي الوردي

واتصل بي ديوان الوقف القادري بعد طول انقطاع، وأخبروني بنيتهم على إكمال مشروع فهرسة مخطوطات المكتبة القادرية، وانهم وفروا المال اللازم لطبع الجزء الثاني المُعَد أصلاً قبل أن أسافر إلى مصر للدراسة، وبحثت عن مطبعة ذات أسعار معقولة، فوجدت واحدة في منطقة باب المعظم، وصرت أتردد عليها بين يوم واخر، وجرى طبع ملازم الجزء تباعاً حيث أن الطباعة كانت بطريقة التصفيف اليدوي، وأخيراً تم طبع الجزء وكان ضخما بلغت صفحاته نحو 650 صفحة. وعلى الفور استأنفت كتابة الجزء الثالث، ويختص بكتب التصوف والعقائد والمنطق وما إليه، والرابع، ويختص بعلوم التاريخ والجغرافية والأنساب والعلوم البحتة والوثائق، وأخيراً الخامس، ويضم المجموعات التي تحتوي على أكثر من كتاب واحد، وقد إنتهى طبعه سنة 1980. وبحثت عن مطبعة أفضل من سابقتها فوجدت مطبعة المعارف في شارع المتنبي، وهي مطبعة قديمة تأسست في سنة 1930 وطبعت كتباً عديدة، وطباعتها تجري بطريقة اللاينو تيب، فكنت أجلس في ركن من هذه المطبعة حيث أتولى تصحيح الملازم المنضدة، وفي هذه الأجواء الطباعية تعرفت على الدكتور علي الوردي، وكان يطبع الأجزاء الأخيرة من كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث)، وتيسر لنا من الوقت ما أتاح لنا فرصة الحديث عن موضوعات عدة من تاريخ العراق الحديث، لاسيما وأن موضوع أطروحتي هو الحياة الإجتماعية في العراق الحديث، وأتذكر أني سألته مرة لِمَ لم يسمي كتابه (التاريخ الاجتماعي للعراق الحديث) أو ما شابه من العناوين، فهذا أكثر دلالة من (اللمحات) المتواضعة التي لا تدل إلّا على النظرة العابرة، لا المتعمقة، قال أنه لما كان لا يؤمن بوجود

قوانين اجتماعية أو اقتصـادية تحـرك التـاريخ، فإنـه اسـتبعد مصـطلح (التـاريخ الإجتماعي) التي توحي بوجود مثل هذه القوانين، وإكتفى بالقول أن في التـاريخ (لمحات اجتماعية) لا أقل ولا أكثر، وكلما توثقت علاقتنا المبنيـة علـى الإحـترام المتبادل، وكثرت حواراتنا في مناسبات مختلفة، تأكد لي مـدى اقتناعـه بفكـرة أن التاريخ يتحرك (صـدفوياً) أي دون الخضـوع إلى أي قـانون مـن أي نـوع كـان، وتأكد لي أن إعتنق هذه الفكرة في أيام دراسته في امريكا، حيث كانـت الأفكـار (المكارثية) هي السائدة، بينما كانت الماركسية تدعو في الوقـت نفسـه إلى وجـود قوانين حتمية تحرك التاريخ. وقد ألقيت عن هذا الموضوع محاضرة بمناسبة مـرور سنة على وفاته رحمه الله في دار بعض محبيـه في الكاظميـة، نشـرتها فيمـا بعـد في جريدة الزمان اللندنية. وحينما انتخبت رئيساً لإتحاد الأدباء والمؤلفين، قمنا نحـن أعضاء الهيئة الإدارية للاتحاد، بإقامة حفل تكريمي كبير لـه في قاعـة إبـن النـديم بالمكتبة الوطنية، ولما لم يستطع الحضور بسبب مرضه، تولى تمثيله في الإحتفال إبنه إحسان، ثم انتقلنا إلى بيته حيث عقدنا حواراً مفعماً بالحيوية سُجِّل على الفيـديو ونقلت منه مقاطع على التلفزيزن. وما زلت أذكر شيئاً مـن حديثـه، وهـو مـا لم يذع في حينه، إذ قال: أنه حينما كان في إحدى زياراته إلى لندن، التقى بأحد أمراء الأسرة الهاشمية المالكة في العراق سابقاً، فما كان من (سمو الأمير) إلّا أن أنحـى عليه باللائمة قائلاً: لم انتقدت النظام الملكي في العراق في كتبك، هـل آذاك هـذا النظام، هل أزعجك في شيء؟

قلت: لا بل كانت كتبي مديحاً في النظام لا نقداً له!

فقال: وكيف؟

قلت: لقد نشرت كتبي في ظل النظام بما تضمنت من نقد، وأنا مطمـئن أن لا يسيء لي أحد، وقد صدرت فعلاً وقرأها الناس، ولم يمسني النظام بكلمة، ألا يعبر هذا عن حرية الرأي والتعبير، فهل علمت مدحاً للنظام أكثر من هذا!

تاريخ مياه الشرب

كنت قد عُنيت منذ عهد الدراسة الجامعية بجمع المواد الأولية لكتاب شغلني موضوعه تماماً، سميته على نحو مؤقت (تاريخ سقايات بغداد) وهو يتناول تاريخ مشكلة توفير مياه الشرب في بغداد منذ أن أنشأ المنصور مدينته وحتى نهاية العصر العثماني، ثم كتبته على الآلة الطابعة التي كنت أقتنيها، وتركته جانباً بل نسيته. وفي صيف سنة 1978 طلب مني رئيس تحرير مجلة (المورد) التراثية الأستاذ عبد الحميد العلوجي أن أشارك ببحث في العدد الخاص المزمع اصداره عن بغداد، وبسرعة تذكرت الكتاب الذي كنت كتبته، فعرضت عليه موضوعه وإن غيرت عنوانه بسرعة إلى (تاريخ مشاريع مياه الشرب في بغداد)، وسبب هذا التغيير أنه قفز إلى ذهني في تلك اللحظة اسم دائرة كان أخي عصام يعمل فيها موظفاً، عنوانها دائرة مشاريع مياه الشرب، ضمن برنامج لإحدى منظمات الأمم المتحدة في العراق، وتقع في ساحة كهرمانة في الكرادة، فإخترت اسمها ليكون عنواناً للبحث المذكور، ورحب العلوجي بفكرة الموضوع فوراً، وقال انه موضوع جديد فعلاً ولم يسبق أن كتب فيه أحد، وعدت إلى البيت وأنا أفكر في التغييرات التي يستوجبها تجديد كتابته، وحينما بدأت بالعمل وجدتني أعيد النظر في كثير من جزئياته. وأذكر أني ذهبت مرة إلى مكان قريب من ساحة الخلاني لأستنسخ كتابة على لوحة من الرخام كانت عند سقاية قديمة هناك تسمى سقاية الحاج فتحي، وكنت يومها صائماً، فالشهر رمضان، والفصل صيف، والوقت هو الساعة الثالثة بعد الظهر، وخيل لي أني سأقضي عطشاً، ولكني صممت أن لا أعود إلّا بعد أن أنجز ما ذهبت من أجله. وشيئاً فشيئاً تجمعت مواد جديدة، وأعدت النظر في مشاريع كنت قد تناولتها على نحو

مبتسر، وفي تصور عمل تلك المشاريع، وألحقته برسوم لها كنت قد رسمتها بيدي، وكم سُرَّ العلوجي حين سلمته البحث، وأثنى عليه، ونشره في العدد الصادر في صيف ذلك العام، ولكن نشره لم ينه عملي فيه، فقد كنت أضيف إليه كل ما يستجد عندي من معلومات، حتى إستوى كتاباً جديداً نشرته دائرة الشؤون الثقافية في سنة 2001 بالعنوان نفسه. وعلى أية حال، كان ذلك البحث، وبحث سابق نشرته فيها سنة 1972، بداية لتعرفي على الأستاذ عبد الحميد العلوجي، والتعاون معه فيما أصدرته وزارة الثقافة والإعلام من كتب بعدها، على ما سيأتي الكلام عليه فيما يلي.

سلوك غير اكاديمي!

كنت قد اطلعت في المكتبة القادرية سنة 1967 على مخطوطة فريدة بخط مؤلفها المؤرخ عبد الرحمن السويدي تتناول تاريخ بغداد والبصرة في المدة من 1772 الى 1778، وعلى الرغم من قصر الحقبة التي يؤرخ لها، إلّا أنها حافلة بالحوادث الجسام، منها الطاعون الذي داهم بغداد والبصرة وغيرهما من المدن سنة 1772، وما أصابهما من الكوارث المهولة بسببه، ومحاولة أحد السوقة وإسمه عجم محمد التوصل إلى منصب والي بغداد، في سلسلة من المؤامرات، والإنتفاضة التي خاضها البغداديون ضد والي بغداد عبد الله باشا، ودور زعماء العبيد في تزعم المنتفضين، وإشارة مهمة ومبكرة إلى مدينة الكويت، وما إلى ذلك من شؤون، وقيل لي في حينها أن أستاذاً للفن التشكيلي ينوي تحقيقها، وإنتظرت عشر سنين، ليخرج للناس بهذه المخطوطة وقد حققها، مع أن اختصاصه بعيد كل البعد عن مجالها، فلم يفعل، وحينذاك، أي في غضون سنة 1977 قمت بتصويرها على مايكروفيلم وقررت أن احققها تحقيقاً تستحقه، وبذلت كل جهد وعلم امتلكهما في تحقيقها والتعليق عليها، ولاسيما وهي تكتظ بالمصطلحات العثمانية، وبأسماء المعالم الخططية والجغرافية، وبأسماء أعلام الناس، مما يدخل في صميم إختصاصي وإهتمامي، وكنت أستغل كل ساعة فراغ لي فأذهب إلى مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب المجاورة لكليتنا حيث يوجد جهاز (ريدر) وحيد هناك، فأقوم بقراءة المايكروفيلم على هذا الجهاز، ونسخه في دفتر كبير معي، وحينما أنهيت العمل، قدمته إلى وزارة الثقافة لتقوم بطبعه، وتولته فعلاً، فخرج للناس في خريف سنة 1978، وأول نسخة وصلتني منه وضعتها على

مكتب ذلك الإستاذ هدية له واشعاراً له بأن الكتاب طبع، ثم إني نسيت الأمر كله، فإذا بخبر يصلني يفيد بأن الأستاذ اشتكى عليَّ في الحزب الذي إنتمى اليه حديثاً، مدعياً أن الكتاب من تأليفه، وأني إدعيته لنفسي زوراً، ولم يكن صعباً إثبات الحقيقة، فبمجرد أن اطلع مسؤوله على الكتاب، وعلم أنه مخطوطة محققة لا مؤلفاً، وأنه مودع في مكتبة عامة، ومن حق أي انسان تحقيقها، حتى ردت شكواه وأنب تأنيباً شديداً، وكانت تلك الحادثة غريبة فعلاً، وأدركت أن صفة (الأكاديمية) لا تمنع حاملها من أن يسلك سلوكاً معيباً كهذا. وعلى اية حال لقى الكتاب رواجاً جيداً في العراق وفي دول الخليج العربي، حتى أن الدكتور شاكر مصطفى رئيس قسم التاريخ في جامعة الكويت أثنى عليه في مقال له نشره في مجلة العربي، واقتبس منه النصوص التي وردت فيه عن مدينة الكويت في ذلك الوقت المبكر من تاريخها. واتصل لي السفير العراقي في البحرين يطلب بعض النسخ ليقدمها إلى معنيين هناك.

المؤرخون العراقيون مرة اخرى

تذكرت مشروعي المؤجَّل في كتابة (حركة كتابة التاريخ في العراق في العصر العثماني) الذي كنت أتمنى أن يكون عنواناً لرسالتي للماجستير، فعدت إلى مسوداته من جديد، وشرعت باعادة كتابة ما كنت قد جمعته من مواد، وأضفت إليها مواد كثيرة أخرى تجمعت لدي بعدها، ثم كتبت دراسة موسعة عن تطور الدوافع والمنهج والأسلوب لدى المؤرخين العراقيين في هذا العصر، أما الكتاب نفسه فكان يتضمن ببليوغرافيا شاملة لأولئك المؤرخين، تراجمهم، ومصادر الدراسة عنهم، ومؤلفاتهم التاريخية، مخطوطة ومطبوعة، فإن كانت مخطوطة بينت أماكن وجودها، وارقامها، وصفتها، وإن كانت مطبوعة أثبت تواريخ طبعها وأسماء الأماكن التي طبعت فيها، وما إلى ذلك من معلومات ضرورية في وصول الباحث إلى أي من تلك المؤلفات، وإعتنيت جدا بكتابة المقدمة أو الدراسة، مقسماً العصر العثماني في العراق إلى ثلاثة عهود لا إلى اربعة كما جرت عادة المؤلفين منذ أن ألّف عباس العزاوي كتابه (تاريخ العراق بين إحتلالين)، وحينما اكتمل الكتاب قامت بنشره دار نشر حديثة بدأت اعمالها في العراق بكتابي هذا، وكانت المطبعة تقع في شارع المطار الدولي، وصرت أتردد على هذه المطبعة حتى تم طبعه وقد صممت غلافه بنفسي حيث إخترت لونه وإخترت صورة رسمها سائح أوربي، إسمه (هيوبارد) للجانب الشاطئي من بغداد الشرقية، وحقق الكتاب مبيعاً سريعاً وجيداً، فقد بيعت منه نحو 5000 نسخة، وأدى لي ذلك ربحاً لا بأس به.

واتاح لي الإنتقال إلى اربيل سنة 2007 فرصة الوقوف على المؤلفات التاريخية لعدد آخر من المؤرخين الكرد، ونسخ من مخطوطاتهم ومطبوعاتهم النادرة، مما زاد الكتاب ثراء في مادته العلمية، وأخيراً دفعته إلى دار نشر عربية في لندن فتولت طباعته ونشره في حلة قشيبة ووصلت نسخ منه إلى اربيل وبغداد فلقيت إعجاباً بالجهد الذي بذلته في تأليفه، وفي الواقع فإنه إستغرق من الوقت، منذ أن شرعت بجمع مواده الأولى وحتى صدور الطبعة الأخيرة منه نحواً من أربعة عقود من السنين.

دير العاقول

وكنت كثير التنقيب والتنقير عن الوثائق، وفي مرة عثرت في مكتبة خاصة على نسخة من وقفية قديمة من القرن الثاني عشر للهجرة لأرض واسعة في جنوب بغداد فيها إشارة لمعلم باسم (دير ابن العاقولي)، فقدرت أنه دير العاقول الذي اندثر بُعَيد الإحتلال المغولي للعراق في القرن السابع للهجرة، ولما كان لهذا الدير أهمية خاصة بوصفه المكان الذي صُرع عند مشارفه الشاعر المتنبي، فقد استرعت الوقفية إهتمامي، على أساس أن تعيين مكانه سيساعدنا على تعيين مكان دفن المتنبي، وشرعت أدرس بتأنٍ بالغ كل المواقع التي وردت في الوقفية مما يفيد في تعيين موقع الدير، مستعيناً بخرائط تفصيلية رسمتها مديرية المساحة العامة في الثلاثينات، وبعد دراسة متعمقة لتلك المواقع ومقابلتها على المواقع الحالية، توصلت، ليس إلى اكتشاف موقع الدير فحسب، وإنما تعيين عددٍ من المواقع حوله، ومنها (بنارق) التي تسمى اليوم (برنيج) و(همينية) ولما تزل تعرف بالاسم نفسه، ودير قُنّى، وقبر تاج العرفين، وغير ذلك. قد نشرت هذه الدراسة في مجلة (الحكمة) التي أخذت تصدرها مؤسسة بيت الحكمة في بغداد.

الحالة الإجتماعية

في بداية سنة 1980 تزوجت، وبعد سنتين رزقت بولد سميناه رؤوف، إحياء لذكرى جدي الذي كنت معجباً بسيرته العلمية، وفي سنة 1988 رزقت بتؤأمين، سميتهما فؤاد وفيصل، وكنت راغباً في أن أسمي ثانيهما فاروقاً، على إسمَي مَلِكَي مصر من أسرة محمد علي، إلّا أن والدتي أبدت ملاحظة مهمة مفادها أن فاروقاً لم يتمتع بسيرة حميدة، ومن ثم لا يستحق أن نسمي الطفل بإسمه، بينما كان فيصل ملكاً متواضعاً مؤسساً لم يقدح في خُلقه أحد. ومع أن كلهم كان نبيهاً في المجال الذي إختاره، إلّا أن التاريخ، أو حتى الإهتمام به، لم يكن مجالاً لأي منهم، على الرغم من محاولاتي لتوجيههم، واصطحابي إياهم في جولات في بغداد القديمة، وتشجيعي إياهم على مطالعة القصص التاريخي، باستثناء زوجتي التي تمكنت رعم أعباء البيت، وتربية الأولاد، أن تحصل على دبلوم من معهد الوثائقيين العرب، التابع يومذاك إلى الفرغ الإقليمي للوثائق، ثم أن تحصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من كلية الآداب بجامعة بغداد، سنة 2003، ثم الماجستير في التاريخ القديم، في رسالة عنوانها (المتغيرات الدينية في عهد الوركاء الثاني) سنة 2007، وواصلت الدراسة متحدية ظروفاً بالغة الصعوبة، إذ كنا قد انتقلنا إلى أربيل، حتى نالت شهادة الدكتوراه في أطروحة بعنوان (تاريخ الأديرة في منطقة عقره ودهوك والعمادية) سنة 2014، ثم انطلقت بعد ذلك في مجال البحث العلمي ضمن ما إختارته من تخصص.

التراث في مطعم لؤلؤة

في سنة 1978 ألقى صدام حسين، وكان يومذاك نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة، محاضرة أو حديثاً في مكتب الإعلام القومي بالحزب، بعنوان (حول إعادة التاريخ) تحدث فيه عن التاريخ والتراث، وصولاً إلى دور القائد في صناعة التاريخ، و(هو المطلوب) وما إلى ذلك، ثم أنه أمر بإثارة الموضوع في وسائل الإعلام المختلفة، وبين المثقفين، فإذا بهذه (الإعادة) تصبح فجأة حديث الجميع، حتى أن مجلة (الف باء) الأسبوعية، دعت عدداً من تدريسيي التاريخ إلى ندوة في مقرها في باب المعظم لهذا الغرض، وشاء سوء حظي أن أدعى بينهم، فتوجهنا إلى مقرها المذكور، وبدأ كلام طويل، بعبارات مصفوفة لا تتجاوز ما قاله صدام في حديثه، بينما كان موظف في ركن الغرفة يعمل كـ(كاتب ضبط) في محكمة، مهمته أن يسجل ما يقال، وفي الواقع فإنه لم يكن مدرباً على هذا العمل، فأضاع بذلك معظم ما دار من كلام، على فرض أنه كان كلاماً مهماً. ولما جاء موعد الغذاء، وجاع القوم، بشّرتهم المجلة بأن الطعام ينتظرهم في دعوة خاصة في مطعم لؤلؤة، وهو مطعم فخم جديد كان يحتل ركناً من حديقة الزوراء، وحينما انتقلنا إلى ذلك المطعم، فوجئ القوم بأن ادارته اللبنانية قد أعدت فيه من المقبلات، والمشروبات، ما جعلهم ينقضُّون عليها ناسين موضوع الندوة تماما،وطواها النسيان.

عمادة كلية الآداب

في أحد ايام سنة 1983اشتبكت خطوط التلفون بين مركز إحياء التراث ووزارة التعليم العالي، وكنت أحاول الإتصال بها في شأن من شؤون المركز، فإذا بصوت يتعرّف عليَّ، قائلاً: انت فلان؟ قلت: نعم، قال:أين انت، الوزير يريدك! وكان الوزير يومذاك الدكتور عبد الرزاق الهاشمي، وذهبت اليه، فإذا به يعرض عليَّ أمراً لم يخطر لي على بال، وهو أن اتولى عمادة كلية الآداب بجامعة صلاح الدين في أربيل، فوجئت بالعرض ولم أدر كيف أعتذر عن قبوله، لأن مجرد الإعتذار كان يمكن أن يفسر على أنه تمرد في ذلك الوقت، وأنه نكول عن أداء مهمة، وأخيراً قلت: إن ترشيحي لهذا المنصب تشريف ما وراءه تشريف، ولكني لست الرجل المناسب لتوليه. قال: ولِمَ؟، قلت: يا سيادة الوزير، لثلاثة أسباب، أولها أن الكلية في أربيل وأني لست من أهلها، وثانيها أن لغة البلد الكردية وأنا لا أعرفها، وثالثها أن الظرف متوتر، وأنا لا سند لي إلّا الله، إذ لست مسلحاً لأني لست حزبياً كما تعلم، قال: ولكنك من الشمال، قلت: نعم، ولكن هذا لا يكفي، وإنما يجب على من يتولى هكذا منصب أن يكون بمواصفات معينة تتجاوز ذلك، قال: طيب هل تذكر اسماً تعرفه؟ قلت: لا، الله هو الذي يزكي الأنفس، ولكن عندي مواصفاته، قال: ما هي؟ قلت: 1- أن يكون كردياً صريحاً. 2- أن يكون متقناً للغته الأم. 3- أن يكون عالماً حقيقياً في مجال إختصاصه. 4- أن يكون من أشراف اربيل لا من سوقتها حتى لا يشرفه المنصب وإنما هو الذي يشرفه. 5- أن يكون معروفاً بحسن سيرته وخلقه، قال: وبكل هذه الصفات تريده مخلصاً، قلت: ولِمَ لا؟ وفي الواقع فإن أسباباً شخصية أخرى كانت تدعوني إلى رفض الفكرة، أولها حاجة والديَّ إلى وجودي معهما،

لما كانا يعانيان من أمراض تستلزم البقاء إلى قربهما، وكنت أذكر دائماً حديثاً رواه الشيخ معروف الكرخي هو (النظر إلى الوالدين عبادة)، وثانيها إني كنت مشغولاً في ذلك الوقت ببناء دار لعائلتي الجديدة على أرض إشتريتها بشق الأنفس، في حي الغزالية، من جمعية إسكان ذوي الكفاءات، فلا تجدني إلّا ساعياً لشراء الطابوق، وتوفير (شيش الحديد)، وتكديس أكياس الإسمنت، وترك كل هذا يعني أن تحرم أسرتي من بيت الى ما شاء الله. قال: أرجو أن تنسى حديثنا هذا حينما تغادر غرفتي، تنفست الصعداء وقلت: الواقع إني نسيته الآن! ولم أذكر هذا الحديث لأحد بإستثناء الصديق الدكتور محسن محمد حسين.

المحكمة الشرعية

برز نشاطي جلياً فيما كتبته من بحوث وكتب، لا مجال لإدراج عنواناتها الآن، فقررت هيئة كتابة التاريخ في العراق، وكان يرأسها الدكتور صالح العلي، ضمي إليها، وذلك في شتاء سنة 1983 فكان أول مشروع طرحته في هذه الهيئة هو العمل على نقل سجلات المحكمة الشرعية في بغداد من مقرها القديم المعرض إلى الرطوبة ومختلف الآفات إلى مكتبة المجمع العلمي العراقي، أو المكتبة الوطنية، لأقوم بإعداد دراسة عنها، وحاول الدكتور العلي أن يسعى في النقل، وذهبنا سوية إلى الشيخ عبد القادر ابراهيم قاضي بغداد الأول، لكن المحكمة رفضت ذلك، وسعينا لدى وزارة العدل، أيام وزيرها الدكتور منذر الشاوي، لتحقيق المشروع فلم يجد ذلك نفعاً، وأخيرا اضطررت إلى أن أقوم بالدراسة وحدي، وفي ظروف بالغة الصعوبة.

كانت السجلات موضوعة في رفوف عالية تكاد تلمس سقف حجرة رطبة واطئة في مدخل المحكمة، وكل شيء حولها رطب رث، وكان علي أن اتخذ من دكّة هناك مكتباً لي، وأقوم بفهرسة السجلات، وقد بلغ عددها 691 سجلاً، واحداً بعد آخر، فأسجل تاريخ فتح كل سجل وتاريخ إغلاقه، وموضوعه، وإسم القاضي، ونماذج من الأحكام المسجلة فيه، وما إلى ذلك من تفاصيل. وكانت تعلو هذه السجلات طبقة سميكة من الأتربة، لأني أتذكر أن سجلاً منها سقط على الأرض، فامتلأت الحجرة بغبار كثيف، واضطر موظف الأرشيف الموكل بالحجرة أن يضرب سجلاً بآخر بغية نفض التراب عنه، فما كان من اثنين من كتاب العرايض إلّا أن هبّا مغادرين المكان بسرعة وهم يشكوان مما عمهما

من غبار (عمى عيونهما) على حد تعبيرهما. في مثل هذا الجو الملـوث، والمكـان المغبر، والحجرة الضيقة، كان علـيَّ أن أعمـل فيمـا أردتـه مـن عمـل، ثـم إنـي اكتشفت أن الدكّة التي كنت اجلس عليها لم تكن إلّا قـبر السـيدة عادلـة خـاتون بنت أحمد باشا، والي بغداد، ومجددة مبنى المحكمة في القرن الثامن عشر، ولم أجد غيرها مجلساً، فكنت أقرأ على روحها الفاتحة تعويضاً عما أسببه لهـا مـن إزعـاج في كل صباح. وأخيراً فرغت من فهرسة السجلات وقدمت منه نسخة إلى الهيئة، لتضمه إلى أرشيفها، بينما إحتفظتُ بنسخة أخرى منه، وقد قدمتها فيمـا بعـد إلى مجلة المورد، فنشرت في أحد اعداد سنة 1983.

وبلغ من محاولاتي لتصوير هذه السجلات أنـي التقيـت ذات مـرة بأحمـد حسين رئيس ديـوان رئاسـة الجمهوريـة، فحدثتـه عنهـا، وأظهـرت لـه ضـرورة تصويرها، وسألته أن تتولى إحدى الجهات العليـا في الدولـة هـذه المهمـة، وهنـا أظهر شيئا من الإهتمام، وسألني كم يبلغ عدد الأوراق التي تصور، فأجبتـه بـأن عدد السجلات يبلغ نحو 690 سجل، وإن متوسط عدد الأوراق في كـل سـجل نحو 100 ورقة، فيكون مجمـوع اللقطـات المطلوبـة 69000 لقطـة، ويظهـر أنـه إستكثر هذا العدد بدلالة انه لم يفعل شيئا من أجل تصويرها.

ومع كل هذا البخل بالوثائق المذكورة فقد شاء القدر أن تتداعى الحـوادث بعد أكثر من عقد من السنين، فيؤتى بها غنيمة باردة لتحتل مكانها علـى أرفـف المركز الوطني للوثائق، في قاعة كبيرة مضـيئة مـن قاعـات دار الكتـب والوثـائق تقابل مبنى وزارة الدفاع. ولهذا الإنتقال الهادئ قصته، ففي سـنة 1993 نجحـت مساعي الحاج أمين المميز، في الحصول علـى موافقـة وزارة العـدل علـى تعمـير حجرة دفن السيدة عادلة خاتون وترميم قبرها ووضع شـاهد عليـه، ولمـا كانـت تلك الأعمال تستلزم إخلاء الحجرة من السجلات والملفـات الكـثيرة الـتي تمـلأ

أرففها، فقد اضطرت المحكمة إلى هذا الإخلاء، ولكن المشكلة كانت في تعيين الجهة التي ستنقل إليها تلك الأرفف، ومن هنا سعيت لدى دار الكتب والوثائق إلى التقدم بطلب نقلها إلى إحدى قاعاتها وحفظها فيها، وكنت يومذاك عضواً في الهيئة الإستشارية للدار، فما كان من المحكمة إلّا أن وافقت على الطلب المذكور، فنقلت وصارت في متناول الباحثين، وقد أخبرني الدكتور بشير إسكندر مدير عام الدار، في لقاء به في شتاء 2012 أن تلفاً كبيراً أصاب هذه السجلات في أثناء حوادث الفوضى التي رافقت الإحتلال الأمريكي لبغداد سنة 2003، وأن عملية ترميم تجري الآن لصيانة ما تبقى منها.

كنت أدرك أن الوعي بالوثائق محدود حتى لدى المسؤولين الكبار، وكثيراً من الوثائق المهمة جداً جرى إتلافها في (محارق) خاصة في الوزارات بأوامر رسمية، لا لشيء إلاّ لأنها كانت تشغل مساحات من مخازن الدائرة المعنية. وحينما أنشات الدولة معمل الورق في العمارة كان المفروض أن يصنع عجينة الورق من قصب البردي الذي يكثر وجوده في أهوار تلك المنطقة، إلّا أن الذي حدث – كما فهمت– أن المعمل أخذ يستورد عجينة الورق جاهزة من الخارج، والأنكى من ذلك أنه كانت تجمع اكداس الورق المستعمل ليقوم هو بتحويلها الى عجينة، وتحت شعار (تحويلها إلى معمل الورق) جرى إتلاف أكداس من الوثائق في جميع دوائر الدولة، بعضها مهم فعلا، بل أتذكر أني ذهبت إلى الكلية مرة في أثناء العطلة الصيفية فوجدت العميد يوجه مجموعة من العمال إلى تفريغ مخزن كبير ممتلئ بالكتب ونقلها إلى سيارة نقل، ولما سألته عما يجري أخبرني أنه أمر بنقلها إلى معمل الورق، وهكذا خسرت الكلية كتباً كثيرة بعضها جديد تماماً في سبيل الحصول على بضعة أمتار في ذلك المخزن.

كما أتذكر أني بينما كنت أصعد إلى أحد الطوابق العليا في وزارة التعليم العالي في حي الجادرية وجدت كومة كبيرة من الملفات الخاصة بالطلبة الذين درسوا في جامعات خارج العراق في الأربعينات، منهم أساتذة فضلاء أصبحت سيرهم جزءاً من تاريخ التعليم العالي في العراق، وعلمت أنها ستجمع مع كومات أخرى لترسل إلى معمل الورق، وهكذا صرتَ تجد الأكداس من وثائق الدولة ترسل حيث تعدم على هذا النحو، مع وجود مركز وطني للوثائق وقانون يمنع إتلاف اي وثيقة إلّا بعد أخذ موافقته.

وأذكر أني كتبت في مجلة عربية كانت تصدر في باريس يومذاك أدعو فيه إلى عدم الإقتصار على تصوير الوثائق المحفوظة في دور الأرشيف العالمية فقط، وإنما إلى إنقاذ الكميات الهائلة من الوثائق العربية في الأقطار العربية نفسها، فإذا كانت الوثائق الموجودة في دور الوثائق الأوربية محفوظة وفق طرائق وأساليب تكفل لها الوجود أمداً غير محدد، فإن من الوثائق العربية ما هو بحاجة إلى إسعاف سريع تحتجنه في أحسن الظروف دور وثائق قديمة، تفتقر إلى الكثير من مقومات الحفظ والصيانة، وأغلبها ما زال موجوداً في أقبية المحاكم الشرعية أو على رفوفها العالية، لعدم الإنتفاع منها عملياً.. هذا ناهيك عن أعداد ضخمة من الوثائق معرضة يومياً إلى التلف البيئي، نتيجة الرطوبة وآفات الورق المختلفة، وإلى الإتلاف المتعمد تحت شعار تخليص الدوائر مما يثقل عليه حفظه من أوراق لم تعد مدار تعامل، هذا على رغم قوانين حفظ الوثائق الصادرة في أكثر من بلد عربي.. إن وثائقنا المحلية قبل غيرها، في حاجة إلى إنقاذ حقيقي، وإن آلافاً من الملفات المكدسة في زوايا الدوائر الرسمية ستتعرض إلى مصيرها المحتوم كلما احتيج إلى ما تشغله من مساحات، وإن لجان حرق الوثائق أو إتلافها تعمل في مختلف الجهات بجد ونشاط.. علماً بأن مجرد صدور القوانين الرادعة لمثل هذا

العمل، لا يعني – على ما علمتنا التجربة- حماية مخزوننا الوثائقي الضخم، وإنما هو يتوقف على إيجاد وعي وثائقي عام، يحرص على الوثيقة، ويرى فيها، إضافة إلى قيمتها العملية الآنيّة، قيمة علمية مستقبلية لأنها ستصبح مرجعاً موثقاً لحدث، أو نظام، أو علاقة..الخ" (مجلة الطليعة العربية، باريس، 16 كانون الثاني 1983).

ولابد من القول بهذه المناسبة أن أول رئيس لمركز الوثائق (المركز الوطني لحفظ الوثائق، كما كان يسمى) هو الدكتور ياسين عبد الكريم، وكان المركز تابعاً يومذاك إلى جامعة بغداد، إذ يعود الفضل في تأسيسه إلى رئيسها الدكتور عبد العزيز الدوري، وقد شغل بناية مستأجرة في ساحة الوزيرية. ونظراً لأن الدكتور ياسين كان عازباً مستديماً، فقد اتخذ من المركز مسكنا له يبيت فيه، ويعد طعامه، وبعد انقلاب 1968 أخذت صحيفة الثورة تقوم بمداهمات صحفية لبعض الدوائر تحت شعار الكشف عن (مساوئ النظام العارفي السابق)، فكان من حظ الدكتور أن يُداهِم مركزه في الصباح المبكر فريق من الصحيفة، على نحو يشبه مداهمة أوكار الجريمة، ولم يكن هو مستعد لهذه الزيارة المفاجئة، بل ما زال يرتدي البيجاما، مما سهل لهم تصويره، وتصوير بقايا طعام عشائه البسيط، وفي اليوم التالي نشرت (الثورة) بوصفه (خبطة) صحفية، فما كان إلّا أن أخرج الدكتور ياسين من موقعه وأعيد إلى كليته، وفك ارتباط المركز بالجامعة، وربطه بوزارة الثقافة والإعلام. ثم تولّاه فيما بعد الأستاذ سالم الآلوسي. وعلمت أن الوزير لطيف نصيف جاسم فكر، بعد تقاعد الأخير، في ترشيحي لأكون رئيساً لهذا المركز، لكن لما سألني وكيل الوزارة، عبد الجبار محسن، عن درجتي الحزبية، وكان جوابي سلبياً، شطب على الترشيح بالقلم العريض، فقد كان شرطاً لمن

يتولى موقعاً كهذا، في ذلك الوقت بالذات، أن يكون حزبياً، وهو ما حرصت على أن أبقى بعيداً عنه كما ذكرت غير مرة في هذه المذكرات.

معرض الكتاب

وأذكر أني طالبت من خلال أحد اجتماعات الهيئـة، وقـد حضـره آنـذاك طارق عزيز، نائب رئيس الوزراء، باقامة معرض سنوي للكتاب في بغداد، وقلت أن بغداد أصبحت منقطعة عن الكتب، والدولـة مشـغولة عـن الكتـاب بسـبب ظروف الحرب، وأن الكتاب أصبح (حسرة) على العبـاد مـن المـثقفين والقـرّاء، فضلاً عن الكتاب والمؤلفين، وضربت المثل في المعـرض الـدولي للكتـاب الـذي يقام سنويا في أرض المعارض في القاهرة، وكنت قد حضرت الى هذا المعرض، في دورته الأولى، في أثناء إقامتي في القاهرة، وقيل في يومها أن عدد الكتب المعروضة بلغ نصف مليون كتاب، كما ذكرت معارض الكتاب التي تقام في بيروت، علـى الرغم من اشتعال الحرب الأهلية فيها عهد ذاك، وقلـت أن إقامـة المعـرض لـن تكلف الدولة شيئاً فأرض ومنشآت معرض بغداد الدولي جـاهزة وقـادرة علـى استيعابه، والناشرون هم الذين سيدفعون ثمن ما يستأجرون من مكـان. وكنـت أعلم جيداً أن المشكلة في إقامة مثل هذه المعـارض ليسـت في الأمـور الإداريـة، ولكن في الأمـور المتعلقـة بالرقابـة علـى المطبوعـات الـتي سـيجري إدخالهـا إلى المعرض، فقد كانت الدولة حريصة على عدم اسـتيراد اي كتـاب مـا لم يعـرض على دائرة الرقابة في وزارة الثقافة والإعلام، وهي تقوم بإحالته إلى أحد خبرائها، ممن تثق برأيه السياسي، وبعد أن يقدم تقريـره إليهـا، تقـرر ادخـال الكتـاب إلى العراق من عدمه، ولا شك في أن اتمام هذه الدورة الإدارية يستلزم مـن الوقـت معظم الزمن المخصص لإقامة المعرض، وقد تنتهي أيامه والكتاب لما يـزل تحـت أنظار الخبير، والخبير ميال بطبعه إلى الرفض والإعتذار، أكثر من ميله إلى الإباحة والإنتشار. ويبدو أن طلـبي كـان مقنعـاً، إلى الحـد الـذي دفـع بطـارق عزيـز إلى

الإستجابة السريعة، فكلف مدير مكتبه الدكتور عزمي الصالحي بالإتصال بالدار الوطنية للنشر والتوزيع وجهات أخرى لتنفيذ الفكرة، وقد ولدت الفكرة فعـلاً، حيث أقيم المعرض المنشود في أرض معرض بغداد الـدولي، وحضـره المهتمـون بالكتاب، وكنت بالطبع منهم، ولكني فوجئت بأن المحاذير الرقابية فرضـت ظلـها على المعرض كما كنت أخشى، فصار على المشترين أن يختاروا ما يشـاؤون مـن الكتب، ويدفعون ثمنها، ويسجلون عناوينها عند ناشريها، ثم ينتظـرون وصـولها بعد عمر طويل، يجري خلالها فحص كل مطبوع بحسب الطريقة المعتادة من قبل، وأظن أن هذه الآلية لم تكن معروفة في أي من معارض الكتـب في العـالم، ولـذا فقد فشلت الفكرة عملياً، ومع ذلك إستمرت إقامة المعرض في السنوات التالية، وجرى التخفيف من تلك الإجراءات إلى حد كبير. وكنت مسـروراً بـأني كنـت صاحب المبادرة الأولى لإقامة أول معرض للكتـاب في بغـداد علـى الـرغم مـن تحديات تلك الظروف.

كما أني طالبت في الإجتمـاع المـذكور نفسـه بتأسـيس مركـز للدراسـات التاريخية، ولم يكن بيت الحكمة قد تأسس بعد ليتولى مهمته، فجرت الموافقة على ذلك، وطلب مني الدكتور عزمي الصالحي، مدير مكتـب طـارق عزيـز أن أعـد مشروع قانونه، ففعلت، وقدمته اليه، وتم العثور علـى بنايـة مناسـبة في المنصـور لتكون مقراً لهذا المركز، وفجأة توقـف المشـروع، وألغيـت الفكـرة، وعلمـت أن سبب ذلك هو حالة التقشف التي فرضت على أجهـزة الدولـة في ذلـك الوقـت نزولاً عن ضرورات الحرب العراقية الإيرانية.

كتب جديدة

وفي سنة 1986 أخذت هيئة كتابة التاريخ بإصدار سلسلة من الكتب التاريخية الميسرة، فشاركت فيها بثلاثة كتب، الأول بعنوان (كتابة العرب لتاريخهم في العصر العثماني) والآخر بعنوان (عبد الله السويدي، سيرته ورحلته)، والثالث (المدرسة العلية في بغداد)، فأما الأول فكان في أصله محاضرة ألقيتها على طلبة دورة أقامها معهد المخطوطات العربية في بغداد قبل سنوات من ذلك التاريخ، وسعيت فيها إلى إبراز الخطوط العريضة لحركة كتابة التاريخ في البلاد العربية خلال العصر العثماني، وأما الكتاب الآخر فكان موضوعه سيرة العلامة عبد الله السويدي واستعراض رحلته المسماة (النفحة المسكية في الرحلة المكية) وكنت قد حصلت على نسخة مصورة من مخطوطتها المحفوظة في المتحف البريطاني بنية تحقيقها، وقد حققتها بالفعل كما سيأتي بيانه بعد قليل، اما الكتاب الثالث فكان موضوعاً لدراسة في خطط بغداد سيأتي الكلام عليها تفصيلاً.

مضت حياتي في الكلية على نحو هادئ، مع أن جميع الظروف التي كان يمر بها العراق لم تكن هادئة، فمنذ 1980 بدأت الحرب العراقية الإيرانية، وأخذت الحياة تأخذ مجرى لم تألفه من قبل، وكنت مصمماً على أن لا أدع شيئاً يشغلني عن البحث وكتابة التاريخ، فكتبت دراسة عن الجغرافية التاريخية لمناطق الحدود العراقية الإيرانية، استندت فيه إلى مصادر التاريخ الإسلامي والعثماني فضلاً عن مصادر تركية وايرانية متنوعة، واستغرق مني هذا البحث جهداً كبيراً، وغوصاً بين الخرائط القديمة والوثائق، وقد نشر ضمن مجموعة من البحوث لعدد

من الأساتذة في كتاب صدر عن جمعية المؤرخين سنة 1982 بعنوان (الحدود الشرقية للوطن العربي دراسة تاريخية).

وفي وقت قريب من ذلك، ألفت، مشاركة مع أحد الزملاء، كتاباً في تاريخ إمارة كعب في الأحواز في القرن الثامن عشر بحسب الوثائق البريطانية، وقد اعتمدنا فيه ما نشره المؤرخ الهندي (سالدانا) من وثائق شركة الهند البريطانية، وكتاباً آخر في بعض جوانب بلاد الأحواز أيضاً. وفي سنة 1986 عقدت في بغداد ندوة كبيرة شارك فيها ضباط مصريون كبار وباحثون عراقيون موضوعها (التاريخ العسكري العربي) وقد شاركت فيها بدراسة بعنوان (معركة عين جالوت) اتبعت فيها منهج اطاريح الأركان، وكنت مولعا وقتها بالتاريخ العسكري، وكثير القراءة لكتبه، وفي مقدمتها كتب (ليدل هارت) التي كانت تدرس في كلية الأركان في بريطانيا. وقد اجتهدت في تصور المعركة، دوافعها ووقائعها ونتائجها وكل ما يتصل بها، بما ألف منها كتاباً طبع في تلك السنة، معززاً بالخرائط التي رسمتها بيدي. وكان آخر كتاب اقرأه على والدي، فقد توفي بعدها بأشهر يسيرة، وكان رحمه الله يصر على أن يكون القارئ الأول لكل ما أكتبه، وهو أمر كان يسعدني كثيراً.

كرامة لوثر!

كانت الأشهر القليلة التي أعقبت سقوط نظام الشاه في ايران، وسبقت اندلاع الحرب العراقية الإيرانية، اشهراً حرجة ومتوترة الأعصاب، وأذكر أني كنت ألقي محاضرة عادية في (سمنار) القسم في الكلية، تتناول التصوف الإسلامي، فثار نقاش بين الحضور عن امور شتى، ومنها مسألة ظهور (المهدي المنتظر)، شكله ومكانه وما إلى ذلك. فإنبرى استاذ سوري، كان عضواً في القيادة القومية السورية المنفية إلى العراق آنذاك، قائلاً: إن الإمام المنتظر لم يعد منتظراً، لأنه موجود بيننا فعلاً، ونحن نعرفه، إنه حزب البعث، ألا ترونه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً، فأجابه زميل لي، وهو الدكتور محمد حسين الزبيدي: وكيف يكون هذا والحديث النبوي يقول أن اسمه كأسمي وأن على خده خال؟ وتشعب الحديث، وشارك فيه آخرون يردون عليه، وهدتني حاسة سادسة او سابعة لا أدري، الى أن الحوار لم يعد بريئاً، وأن هناك من يديره بغرض كشف آراء الحاضرين لا أكثر، وبالفعل، فوجئت بمن يسألني: وأنت ما رأيك يا دكتور، وتحت تأثير ذلك الشعور الحذر الذي تملكني، حوّلت دفة الحديث الى مجال آخر لا صلة له بموضوع السؤال. قلت: والله انا مستغرب من مارتن لوثر، فحينما كان يترجم الكتاب المقدس من اللاتينية الى الألمانية، ظهر له، كما يقول المؤمنون به، الشيطان محاولاً أن يثنيه عن عمله، فما كان من لوثر إلاّ أن قذفه بالمحبرة التي أمامه، وما زالت بقعة الحبر التي لوثت الجدار يقبلها أتباعه طلباً للبركة.! ما علاقة لوثر بالمهدي، بل بالحديث كله، لا علاقة بالطبع، ولكنه كان مجرد هروب مما كان الكلام ينجر اليه، وبعد يوم أو يومين قرأنا أمراً يقضي بفصل جميع من شارك في الحوار عدا قليل، كنت انا منهم، ولم أدر جلية

الأمر، إلّا بعد عام، إذ اسرني أحد الزملاء، وكان حاضراً في ذلـك السـمنار، أن الحوار كان قد سجل في حينه، وجرى تفريغه، وتعيين مواقف المشاركين فيه، ثـم سكت قليلا، وقال: وكان من المفروض أن تكون أنت أحدهم، ولكـن مـن أيـن خرجت علينا بقصة لوثر هذا، التي قطعت بها مجرى الحديث، وتخلصت بـه مـن الإجابة المحرجة بعد أن كادت أن تؤدي بك، فقلت ضاحكا: اللهم آمنـا بكرامـة لوثر!

وصدق الصديق الدكتور وريا عمر أمين حينما كان يقول ان كلمة سمنـار في أصلها كلمتان هما (سم) و(نار).

رئيس مركز احياء التراث

فوجئت في سنة 1983 بتنسيبي، وأستاذ فاضل، هو الـدكتور بشـار عـواد معروف، المحقق المعروف، الى مركز احياء التراث العلمي العربـي، وسـبب ذلـك النقل ان رئاسة الجامعة وجدت أن هذا المركز قد فقد أهميته وتعثر نشاطه، بعـد أن أخرج منه مؤسسه سنة 1979 وصاحب فكرته الدكتور ياسـين خليـل، فقـد توالى عليه رؤساء غير مفـرغين، وحـين أعيـد الى رئاسـته الـدكتور خليـل، كـان اندفاعه قد فتر تماما، وانعدمت همته للعمل، وخشية من إلغائه، فقد عزز المركـز بنا، وهكذا كان. وبعد مدة قليلة، نقل الدكتور ياسين من رئاسة المركـز، وصـدر أمر مفاجئ لي، بتعييني رئيسا له، وكانت تلك أول مرة اتولى فيها موقعا إداريا.

كان المركز يحتـل دارا كـبيرة مسـتأجرة، في الوزيريـة، صـاحبها الأول هـو الشريف شرف، الوصي على العرش إثر عزل الوصي عبد الإلـه في أثنـاء ثـورة 1941، وكان مكتبي يحتل جزءا من صالة الضيوف القديمة في هذه الدار، وكنت كلما تجولت في أبهاء الدار وحجراتها وشرفاتها تحركت في خيالي شخوص الدار في ذلك العهد، فبدت وكأنها عـادت حيـة أمـام نـاظري، وكـان تنسـيبي مبعـث سروري البالغ، ففي هذا المركز أستطيع أن أجد من الوقت ما يكفـي للعمـل في انجاز مشاريع كنت أتمنى أن انجزهـا، فضـلا عـن أنـي سـأبتعد عـن جـو الكليـة الصاخب بالطلبة والتدريسيين، إلى هدوء هذا المعتكف العلمي الفريد. اكتشـفت بعد شهر واحد من تولي رئاسة المركز، أنه لم يعد مركزا علميـا بـالمعنى المفهـوم، وإنما تحول بسبب الاهمـال المتراكـم إلى مـا يشـبه أن يكـون بيتـا مهجـورا، فـلا مشاريع علمية يتولاها، ولا بـاحثين يعملـون، ولا نشـاطات تجـري، وأتـذكر أن

ضابطا كبيرا من دائرة عسكرية قريبة أراد أن يتصل مرة من هاتف المركز، وحينما فرغ من مهاتفته، ووضع سماعة الهاتف، سألني: ما هذه الدائرة؟ قلت أنها مركز كذا، قال مندهشا: عجيب والله! أن دائرتي تجاوركم منذ مدة ولم أعلم أن جيراني مركز علمي إلا هذه اللحظة، خجلت في داخل نفسي، أي مركز هذا لا يعلم به أحد حتى جيرانه، وقررت أن أفعل اي شيء من أجل أن أعيد الحياة إليه، وعدت أتأمل ميزانية المركز التي بين يدي، فرأيت أن (التقشف) الذي فرضته ظروف الحرب قد أتت على بند (إصدارات المركز)، بينما وجدت مبلغا لا بأس به تحت بند (الطباعة على الاستنسل)، فقررت أن أقوم بطبع نتاجات المركز على الاستنسل، وأغلفها بغلاف مطبوع، كما يجري الأمر في الرسائل الجامعية، وأبادلها مع المراكز العلمية في الجامعات العربية والأجنبية، لأعزز محتويات المكتبة المتواضعة بالإصدارت الجديدة لتلك الجامعات، وقد حصل ذلك فعلا،. لكن واجهتني مشكلة أخرى، وهي أن الباحثين المعدودين في المركز لم يكونوا متفرغين للبحث بأي حال، وسبب ذلك أنهم كانوا مشغولين بالمحاضرات التدريسية التي يلقونها في هذه الكلية او تلك لكي تحتسب لهم لأغراض التفرغ الجامعي، بينما لا يضمن لهم البحث ذلك، فسعيت لاقناع رئيس الجامعة، وكان يو مذاك، الدكتور طه تايه النعيمي، بمنحهم مخصصات التفرغ الجامعي على وفق ساعات البحث في المركز دون التدريس خارجه، ووافقت الجامعة على مضض إذ لم تكن ثمة سابقة قانونية، ولأن النظرة الى البحث كانت دون النظرة الى التدريس بكثير، ومع ذلك أثمرت هذه الخطوة إلزام الباحثين بالعمل في المركز، وكلفت كل باحث بتحقيق مخطوطة، او كتابة بحث، وبعد انجازها جميعا طبعتها، بما تسمح به الميزانية الضئيلة، على الاستنسل، وتجليدها بغلاف بسيط لكنه أنيق، وهكذا أنجز المركز في سنة دراسية واحدة اكثر

من عشرين كتابا. وفضلا عن ذلك فقد سعيت الى تحريك الجو العلمي في المركز بأن عقدت ندوة علمية قطرية، ودعوت اليها اساتذة متخصصين لالقاء بحوث في جوانب مختلفة من التراث العلمي، كان منهم الدكاترة خالد ناجي وكمال السامرائي وصالح احمد العلي وحسين علي محفوظ وغيرهم. وصحيح ان الحضور كان قليلا نوعاً إلا أن الندوة نجحت بكل المقاييس، وفتحت الطريق الى عقد ندوات اخرى ونشاطات مختلفة. ومن جانب آخر أصدرت نشرة دورية تتضمن أخبار المركز العلمية وما الى ذلك. وأذكر الآن أنه بينما كان منتسبو المركز مشغولين بالاعداد لافتتاح الندوة في اليوم التالي، وإذا بدوي هائل لصاروخ ايراني سقط في مكان قريب، وفجة امتلأ جو المركز بالتراب، فتوقفت الأيدي عن العمل، وكادت احدى المنتسبات، وهي الدكتورة رمزية الأطرقجي أن تسقط مغشيا عليها، فما كان مني إلا أن أصيح بأعلى صوتي: لا مجال للتوقف، وواجبنا ان ننجح الندوة مهما كانت الظروف، وفعلا عاد المنتسبون من الباحثين والموظفين الى العمل ولم يتركوا المركز إلا في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم.

والغريب اني كنت ألحظ، كلما مضيت بالعمل، أنواعا من المشاكل المصطنعة تحدث بين بعض العاملين في المركز، من تقارير كاذبة ترفع، واتصالات ببعض مسؤولي الجامعة تجري لأغراض وضع العراقيل، ومشاغبات جلية تدور، وعلمت ان نجاح المركز اثار حسد بعض المسؤولين في الجامعة، وأن مسؤولا اداريا كنا مرتبطين به أراد تعيين قريب له في رئاسة المركز بعد ان كان المركز نسياً منسيا منذ سنوات طوال، فقررت ترك رئاسة المركز غير آسف، والعودة الى التدريس في الجامعة، وقد آليت على نفسي أن لا أتولى منصباً ادارياً مهما كانت الاسباب.

دراسات عليا

وكان مما حسَّن لي هذا الخيار، افتتاح الدراسات العليا لأول مـرة في كليـة التربية، فتفرغت منذ ذلك الوقت لالقـاء المحاضـرات علـى طلبـة الماجسـتير ثـم الدكتوراه، ولم أعد اتولى التدريس في الدراسـات الاوليـة إلا في حـالات نـادرة، فأراحني ذلك وأفادني أيضاً، أما الراحة فلأني تخلصت من مهمة تصليح الأعداد الضخمة من الدفاتر الامتحانية، وهي مهمة شـاقة لا يعرفهـا الا مـن يكابـدها، وأما الفائدة فتتمثل في أني لم أعد أعيد المحاضرة في كل شعبة دراسـية كمـا كنـت افعل من قبل، وصرت ألقيها مرة واحدة فحسب، وهو ما فسـح المجـال لـي لأن اؤلف المحاضرة تأليفا في أثناء إلقائها، أي أني كنت أرتـب أفكـاري وأنـا أرتجلـها مباشرة، وهو أمر كان مريحا لي لأنه ساعدني على ترتيـب افكـاري وكتابتهـا في كتب وبحوث أصدرتها بعد حين.

وكان من أحب ما حاضرت فيه في هذه المدة، لطلبـة الـدكتوراه خاصـة، (تاريخ العراق الاقتصادي في العصر العثماني) و(تاريخ العـراق الاجتمـاعي في العصر العثماني) و(الإتجاهات الفكرية العربية الحديثة) أما لطلبة الماجستير فقـد كنـت أحاضـر لهـم في موضـوعات تتعلـق بمـنهج البحـث التـاريخي، وفهرسـة المخطوطات، وما الى ذلك، ولبثت أحاضر في مثل هـذه المـواد حتـى انتقـالي الى جامعة صلاح الدين سنة 2007.

واعتقد أني استطعت من خلال صلتي المباشرة بطلبتي في الدراسات العليا، او من خلال (السمنارات) الاسبوعية التي كانت تعقد في القسـم في كـل اسـبوع أن أمارس دورا مهما في توجيه أولئك الطلبة الى اختيـار موضـوعات رسـائلهم

وأطاريحهم، وموطن الأهمية أني كنت اشجعهم على اختيار موضوعات جديدة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، بعد أن كانوا يختارون موضوعات يغلب عليها التكرار والمشابهة في التاريخ السياسي، وأذكر ان معظم الموضوعات المفضلة عندهم كانت سير السياسيين وتاريخ الاحزاب السياسية، دون ان يولوا الجوانب الحضارية حظها من عنايتهم، وصرت أدعو الى الاتجاه نحو دراسة مؤسسات غير سياسية لكنها طورت المجتمع، مثل (تاريخ السكك الحديد) و(تاريخ البلديات) و(تاريخ القضاء في العراق في العصر العثماني) و(تاريخ قانون دعاوى العشائر) و(تاريخ الخدمات الصحية) وغير ذلك من الموضوعات التي كانت تعد جديدة تماما في ذلك الوقت، كما أني شجعت الطلبة على الكتابة في تاريخ المدن، بعد أن لم يكن مرغوباً تناولها من قبل، بدعوى أن تاريخ الجزء يتناقض مع مبدأ تاريخ الكل، اي تاريخ العراق كله، فاستطعت أن أقنع، بما حاضرت فيه وكتبت عنه، زملائي وطلبتي بأن لا بأس في دراسة الجزء طالما كان يعبر عن خصائص الكل ويتمثل روحه، وهكذا فقد اخترت لطالبة من مدينة (العمارة) أن تكتب رسالة الماجستير عن مدينتها في العصر العثماني، واخترت لطالب من الحلة أن يكتب عن مدينته في مرحلة مهمة من تاريخها، بل كتب طالب عن (دور القبائل في العراق في العصر العثماني) ثم حدث بعد ذلك انفتاح عجيب على مثل هذه الموضوعات التي طالما عارضت اختيارها لجان الدراسات العليا من قبل، على أساس أنها تتعارض مع (الوحدة الوطنية)، او تثير (النعرات القبلية). ومما وجهت اليه طلبتي ايضا التاريخ للتاريخ نفسه، وهو اتجاه جديد لم يكن أحد قد بادر إليه، فكان أن اخترت أن أشرف على موضوعات مثل (عباس العزاوي ومنهجه في كتابة التاريخ)، و(مجيد خدوري مؤرخا) واقترحت على آخرين الكتابة في موضوعات، منها (رسول حاوي

الكركوكلي) و(سليمان فائق) من مؤرخي العراق في العصر العثماني، أشرف عليها زملاء لي، وبذا فتح باب جديد لدراسة علم التاريخ من خلال دراسة تجارب المؤرخين أنفسهم، حتى أن طالباً نابهاً، من طلبة جامعة صلاح الدين، اختارني أن أكون موضوعاً لرسالته!.

تاريخ القرى

كنت مقتنعاً بأن ما نعتبره تاريخاً للماضي لا يمثل إلا تاريخ المدن فحسب، وأن تاريخ الريف يظل في حاجة الى من يدرسه لتتكامل صورة هذا الماضي، حتى أذكر أني اقترحت على الدكتورة ناجية عبد الله، في بداية الثمانينات، موضوعا لأطروحتها للدكتوراه، عنوانه (ريف بغداد في العصر العباسي) فاختارته فعلا وإن اقتصرت لطول الحقبة على القرنين الأخيرين من ذلك العصر.وحينما طلبت مني إذاعة بغداد في سنة 1985 أن أختار موضوعات أحاديث ألقيها كل مساء في حلقات متتابعة، اخترت أن أجعل كل حلقة تختص بالحديث عن تاريخ قرية من قرى العراق، وكنت استند في ذلك الى ما ورد عن تلك القرى في كتب الرحلات فضلا عن الوثائق التي توفرت عندي وكتب التراث الجغرافي العربي، وقد نجحت فكرة الحلقات، وداومت على كتابة هذه الحلقات وإلقائها بصوتي من الإذاعة بضعة أسابيع، قبل أن أغير موضوعها الى (قراءة في مخطوط لم ينشر) الذي واصلت إلقاءه يومياً عدة أسابيع اخرى من ذلك العام. وعلى اية حال أوحت لي تلك الحلقات أن اقوم بكتابة تاريخ قرى ديالى قرية فقرية على شكل مباحث في دراسة واحدة، فكنت أخصص لكل قرية أحد أيام الجمعة، فأزورها والتقي بمعمريها حيث اجرى حوارات عن تاريخها واتعرف على معالمها القديمة وأصور تلك المعالم، ثم أعزز هذه المادة بما لديَّ من معلومات مستمدة من المصادر التي ذكرتها، ولما كان لابد لي من غطاء رسمي أستطيع ان اتحرك تحته دون ان تلفت جولاتي وحواراتي ريبة السلطة أو تثير تساؤلات أنا في غنى عنها، فقد قررت أن أنشر كل دراسة في أحد أعداد مجلة الف باء الاسبوعية، ومع أن المجلة لم تكن مختصة بمثل هذه الدراسات لكنها

كانت تكفي لأن أحصل منها على كتاب رسمي يفيد بأني أعد تحقيقات تاريخية مصورة لنشرها فيها، وهكذا شرعت بالعمل، وكنت أختار في كل اسبوع قرية لتكون موضوعا لدراسة مستقلة، معدا قائمة طويلة من الاسئلة التي كنت أطرحها على أكبر معمري القرية لاحصل منهم على اجابات تفصيلية عن الحوادث العامة التي شارك فيها ابناء القرية، واسماء من شارك فيها، ومواضع مدافنهم، وعن تواريخ معالمها من مراقد ومشاهد ودور وخانات، وما وجدوه في أرضها من لقى، وما إلى ذلك، ومع مرور الوقت وتعدد الزيارات والبحث في الوثائق، نما عندي كتاب بعنوان (تاريخ قرى ديالى ونواحيها) وكان المفروض أن يجري نشره أولا في حلقات في مجلة ألف باء، إلا أن جانبا مما كتبت عنه من قرى ضاع لدى أحد العاملين في المجلة، وفقد تماماً، أما الجانب الآخر فقد نشر فعلا، وبعض منه شاركت به في ندوات تاريخية أقامها مركز احياء التراث العلمي في ديالى بمناسبات متنوعة، ثم أني نشرت دراسة مستقلة بعنوان (قرى ديالى ونواحيها بحسب الوثائق العثمانية) استخرجت فيها النصوص المتعلقة بهذه القرى والنواحي مما وجدته في سجلات الأوقاف ببغداد، ونشرتها في مجلة الحكمة التي أخذ بيت الحكمة بإصدارها سنة 2004. وكان اتحاد أدباء ديالى، الذي رأسه الصديق السيد عبد الحليم المدني قد وجه إلى دعوة لإلقاء محاضرة في الاتحاد، فاخترت موضوعا بعنوان (الأصول التاريخية لقرى ديالى) تناولت فيه بالتحليل أسماء عدد كبير من تلك القرى، مُعيَّنا مواقعها بدقة وكأني من أهلها، وفي الواقع فإني كنت من أهلها فعلا محبة وولاء. وأذكر ان وزير الثقافة والإعلام لطيف نصيف جاسم سألني مرة، وقد نما إلى علمه خبر ما أكتب عنه: وكيف يفتح لك الناس قلوبهم وعقولهم بحيث تظفر منهم بكل هذه المعلومات، مع أنهم في العادة منطوون على انفسهم، ولا يميلون الى الحديث مع الغرباء؟

قلت: لسبب بسيط ايها السيد الوزير، هو اني أستثير ذكرياتهم المحببة، ومآثرهم الموروثة، ولا اسألهم، كما يفعل كثيرون اليوم، عن امورهم المالية، أطرق الوزير برهة ثم قال: هذا صحيح!

في المجمع العلمي

في سنة 1980 صدر قانون جديد للمجمع العلمي العراقـي، فصـار تابعـاً الى وزير التعليم العالي بدلا من وزير التربية، واختير الدكتور صالح احمد العلي رئيسا له، وتشكلت لجانه الجديدة، وقد انتخبتني لجنة الـتراث العلمـي في المجمـع العلمي العراقي عضواً فيها، فكنت أصغر أعضائها سـنا، وكانـت اللجنـة تعقـد اجتماعاتها في صباح كل يوم ثلاثاء برئاسة الدكتور صالح العلـي، وهـو رئـيس المجمع في الوقـت نفسـه، وعضـوية علمـاء فضـلاء، مـنهم الأسـتاذان طـه بـاقر وكوركيس عواد، واللواء محمود شيت خطاب، والـدكاترة كمـال السـامرائي، و يوسف حبي، وجابر الشـكري، وآخـرون. وكنـت أحـرص علـى حضـور هـذه الجلسات الغنية بالمعرفة، حيث كانت تدور فيهـا حـوارات ذكيـة وهادئـة تقلـب وجهات النظر في طروحات مختلفة، وأذكر أنها أنفقت ذات مـرة أربـع جلسـات متصلة في تعريف كلمة (حكمة)، وكان الدكتور العلي هو الذي يطرح موضـوع النقاش غالبا، ويبدأ الأعضاء بإبداء ما لديهم من آراء غنية، وربما أجّل الحوار الى جلسات اخرى، وفي بعض الاحيان كان يكلف عضو بالقـاء محاضـرة قصـيرة في موضوع محدد ليناقش بعدها باستفاضة، وقد ألقيت عـدة محاضـرات أذكـر منهـا الآن (مشكلة المصطلح العلمي في عهد محمد علـي) وهـو موضـوع كـان يشـغل اهتمامي منذ مدة، وغير ذلك. على أن الأهم مما تعلمتـه مـن هـذه الجلسـات لم يكن العلم نفسه وانما السلوك العلمي، فهذه النخبة من الشيوخ كانت تعـرف ان تناقش أكثر الأفكار مدعاة للخلاف بأسلوب بالغ الحَيـدة والهـدوء، فـلا اعتـداد زائد، ولا صخب، وكنت أقارن بين ما درجت عليه هذه النخبـة وبـين مـا كـان يحصل في سمنارات الكلية من احتداد وتجريح فأجد الفرق كبيرا، ربما كان للسن

دوره في هذا الفرق في السلوك، ولكن السبب الأكثر عمقا هو تغير القيم والسلوك بين جيل واخر.

وأتذكر على سبيل المثال أني تحدثت مرة عن نهر كان يجري من الفرات الى دجلة في العصر العباسي مجتازا الجانب الغربي من بغداد، يسمى نهر (الداوودي) وقد نسب اليه حي واسع في ذلك الجانب ما زال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم، فما كان من الدكتور صالح إلا أن أنكر وجود هذا النهر كليا، وقال أنه درس جميع أنهار الجانب الغربي في بحث نشره في مجلة (سومر) ولم يجد مصدراً واحداً يشير الى مثل هذا النهر، وتحداني في أذكر أنا مصدراً يؤيد وجوده، فاضطرني إنكاره الى أرد على تحديه بأن طلبت منه ان يكلف مسؤول المكتبة، وكان اسمه صباح الأعظمي، أن يأتي بكتاب (حكاية ابي القاسم البغدادي) الذي حققه آدم متز سنة 1901، فأتي به، وهنا طلبت منه أن يفتح الصفحة الثامنة، ففتحها، وإذا بنص يفيد أن رجلا كان يجلس في مجلس ببغداد ساهماً، فإذا ببطل الحكاية يسأله ساخرا: لم أنت ساهم؟ هل غرقت سفنك في نهر الداوودي!

قلت للدكتور صالح: هذا هو المصدر إذن، فهل بعد هذه الحجة من حجة؟ هذا هو النهر، وهذا هو المثل ما زال يتردد حتى الآن، سكت برهة ثم ضحك قائلا: كله كتبته بالورق إلا الزلق في هذا النهر، وانتهى الأمر بكل هدوء. وكان موقفاً أقل من هذا في مكان أخر كفيل بحدوث مشكلة تبقى آثارها الى حين، ذلك أن التوتر، والانفعال السريع، كان قد أخذ يترك آثاره على مجمل الحياة الثقافية بل والاجتماعية في ظل حرب لم يعرف أحد متى تنتهي.

وأذكر أني كتبت في سنة 1998 مقالا في هذا الموضوع بعنوان (حوار لا خوار)، أنهيته بقولي "ما أحوجنا ألى لغة حوار تبني ولا تخرب، وتشجع ولا تحبط، وتحترم الطرف الآخر ولا تسعى لتصفيته، لغة يكون هدفها الحقيقة وحدها، لا شيء وراءها ولا قبلها، لغة مؤدبة، تكشف عن أدب صاحبها، مهذبة تشف عن تربيته. يقول الإمام علي ع "ما جادلني عالم إلا غلبته، وما جادلني جاهل إلا غلبني"! فالقدرة على حوار المثقفين حقا ممكنة، ولها مجالاتها المشروعة، أما الجاهلون الذين يملأون الأرض خواراً، ويزرعونها فتنة، فيتصورون أنهم غالبون، مع أنهم في النهاية عم الخاسرون". (جريدة الاتحاد 7/ 4/ 1998).

استمرت صلتي بالدكتور العلي قوية حتى وفاته، وقد داومت على زيارته، لا سيما بعد احالته الى التقاعد، غير مرة في كل اسبوع، وقد كنت أعجب من وجود مؤلفات له لم يتيسر له نشرها، ثم توفي ولم تر النور، ولا أعلم مصيرها بعده، وقد تعلمت من ذلك أن من خطل الرأي أن يبقي كاتب كتابا له بعد موته، وان عليه ان يبادر الى نشره ما دام حياً، ففي بلادنا لا قيمة للأحياء فما بالك بالأموات.

علماء في حياتي

كان تعرفي بالدكتور كمال السامرائي، صاحب المستشـفى الشـهير المسـمى باسمه، مصادفة ظلت ذكراها عالقـة في ذهـني، ففـي أحـد أماسـي سـنة 1979 اتصل بي هاتفياً رجل يتحدث بأسلوب مرح، رغم أنه لم يتحدث الي مـن قبـل، وقال أنه سمع بأني حققت كتاب (الجواهر وصفاتها) ليوحنا بن ماسـويه، وهـو يرجو أن أخبره باسم المكتبة التي يباع فيها. سررت بطلبـه، وأخبرتـه ان الكتـاب سيصله حالا، وما ان انقضت مدة نصف ساعة، حتى كنت في مكتبه في مستشفاه وأنا احمل اليه نسخة من الكتاب المذكور، سُرّ لسرعة الاسـتجابة، وصـار يتصـل بي بين حين وآخر وازوره في مكتبه أحيانـا، وفي إحـدى المـرات وجـدت عنـده ضيوفاً، فلما انصرفوا عنه، ودخلت اليه، قال: أتعلم من هؤلاء، قلـت: لا، قـال إنهم مُرسَلون من جهة خاصة عليا ليخبروني بأن المستشفى الكبير الـذي أنشـأته وعملت فيه عدة عقود من السنين قد صودر لحساب الدولة، هكـذا ودون بيـان اي سبب. ولم أدر كيف أعزيه في مصابه، وعللت الأمر بانه يمكن أن يكـون فيـه خطأ ما، وتحمل الرجل الصدمة ولكنه ظـل يعـاني بسـببها مـن عقـدة اضـطهاد مريرة، فغدا يتلفت وراءه كلما مشى وحده في الطريق، وأتذكر انه دعاني الى بيته مرات، طالبا مني أن لا أتكلـم الا بصـوت خافـت خشـية مـن أن تسـمعنا آذان خفية، وحينما انتخبنا، أنا وهو، وبأمر واحد، عضوين في لجنة التراث العلمي في المجمع العلمي العراقي، خفف ذلك من قلقه الى حد ما، ولم ينتهي الأمر إلا بعـد عُوض بمستشفى حديث آخر على جزء من ارض مستتشفاه القديم.

ظلت صلتي بالدكتور السامرائي مستدامة، وحينما رأسـت إتحـاد الكتـاب والمؤلفين أقمت له حفلا خاصا لتكريمه، في قاعة المكتبة الوطنية حضره جمـع مـن

عارفي فضله، ومنحته باسم الاتحاد شهادة تقديرية، ورغم بساطة الاحتفال فإنه ترك أثرا جميلا في نفسه، بدليل أنه كتب عنه في مذكراته التي كان قد بدأ باصداره وأهداني إياها تباعا إذ بلغت أربعة مجلدات.

وكنت أكن احتراماً خاصاً للأستاذ كوركيس عواد، وإعجابا بأسلوبه في الكتابة، وزادني إعجاباً وتقديرا ما كنت اسمعه عنه من أخيه الاستاذ ميخائيل عواد، في أثناء فترات الاستراحة التي تجمعنا في المجمع العلمي العراقي. كان الرجل عصاميا تماما، لم يدرس في جامعة، ولكن مؤلفاته أصبحت تدرس في الجامعات، كما كان يتمتع بصبر عجيب على البحث، لا سيما في مجال البيبلوغرافيات الذي برع فيه، كما كان هادئا في تعامله مع الآخرين، وفي أسلوبه في الكتابة أيضا. وفي ذات مرة أهداني نسخة مصورة من مخطوطة في دار الكتب المصرية بعنوان (فهرست مكاتب بغداد الموقوفة) للسيد نعمان خير الدين الالوسي، وكنت قد قرأت عن هذا الفهرس في كتاب (جمهرة المراجع البغدادية) وقد ألفه مشاركة مع عبد الحميد العلوجي وصدر بمناسبة احتفالات بغداد- الكندي سنة 1961. عكفت على دراسة الفهرس المخطوط بشغف، وأكثر العنوانات التي فيه هي لمخطوطات، احتوتها تسعٌ من مكتبات بغداد في القرن التاسع عشر، فاتخذت منها موضوعاً لدراسة بعنوان (أول محاولة لفهرسة المخطوطات في العراق) نشرتها في العدد الاول من مجلة (المكتبة العربية) التي صدرت عن دار الكتب الوطنية سنة 1981-1982، وكان الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد مديرها العام، ثم أني نشرت المخطوطة كاملة في كتاب طبع على طريقة (الاستنسل) وصدر عن مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ايام كنت رئيسا له سنة 1984، واخيرا طبع طبعة انيقة وصدر عن ديوان الوقف السني سنة 2014.

دار الأزياء العراقية

اقتضى قانون دار الازياء العراقية أن يكون لها مجلس إدارة تمثل فيه الوزارات التي لها علاقة بصناعة النسيج، وتجارة الملابس الجاهزة، والأسواق المركزية، وما إلى ذلك، بأعضاء بدرجة مدير عام، ومن العجيب فعلا أني أبلغت ذات مرة في تاريخ لا أتذكره الان، وربما في اواسط الثمانينات، باختياري عضواً في هذا المجلس، وذلك أن قانون الدار كان يشترط أن يكون من بين أعضاء مجلسه (أستاذ متخصص بالتراث)، والظاهر أن بعض المسؤولين قد لفتت نظره ما كنت أنشره من دراسات تراثية، وكوني أتولى رئاسة مركز أحياء التراث العلمي، فوقع اختياره علي لأكون عضواً فيه. وبعد عدد من الاجتماعات، لاحظت مدى فشل هذا المجلس في عمله، فالمفروض، بحكم قانونها، أن تمول ذاتياً من واقع نسبة محددة من أرباح تلك الجهات الممثلة في المجلس مقابل خبراتها في مجال الازياء، إلا أن الأعضاء لم يكونوا مقتنعين أصلا بمهمة الدار، ومن ثم لم يبدوا أي تعاون مع مديرته السيدة فريال الكليدار، وباتت هي في مشكلة حقيقية، فالقانون يلزمها بأن تمول نشاطاتها من خلال تلك النسب المفروضة مقابل خدماتها، وأعضاء المجلس يرفضون أو لا يتعاونون، وسألتني مرة: كيف أفعل، ماذا اتصرف؟ قلت أن أحدهم مر بنفس مشكلتك، قالت: ومن يكون، قلت رئيس الوزراء العراقي الأسبق عبد المحسن السعدون، إذ لخص المشكلة بعبارة مشهورة كتبت على شاهد قبره، قالت: وما هي؟ قلت: الأهالي، يريد الشعب، يريدون الخدمة والانكليز لا يوافقون، قالت: وماذا فعل لحل هذه المشكلة؟ قلت: انتحر!

قصر الثقافة حيث اصوات الموتى!

اتصلت بي في ظهيرة يوم قائض من سنة 1987 سيدة أعلمتني أنها مـديرة قصر الثقافة والفنون، وطلبت مني أن القي محاضـرة عـن تـاريخ هـذا القصـر في موسم ثقافي تعد له، وفي الحقيقة كـان للقصـر تـاريخ طويـل يسـتحق أن يكـون موضوعا لمحاضرة دسمة، إذ كان أولاً مدرسـة تعـرف بالمدرسـة العليـة نسـبة الى منشئها والي بغداد علي باشا، المقتول سنة 1762، وان هذه المدرسة تحولت بأمر من والي بغداد مدحت باشا لتكون اول مدرسة للصنايع في العراق سـنة 1869 ثم تحولت الى قصر للملك فيصـل الاول فمجلـس للامـة ثـم محكمـة عسـكرية خاصة فمتحف عسكري، ثم تم تجديـدها تجديـدا جـذريا لتتخـذ قصـرا للثقافـة والفنـون، وشـرعت في البحـث، وهـدتني زيـاراتي العديـدة الى مبنـى القصـر، ودراستي لأحجام الآجر، الى أن جزءا منه يرقى الى عهد اقدم من القـرن الثـامن عشر، الذي شهد انشاء المدرسة العلية، بينما كشفت الدراسـة الخططيـة عـن أن هذه المدرسة انشئت على جزء من مدرسة قديمة ترقى الى سنة 696 هــ سميـت بالمدرسة العلائية، نسبة الى مؤسسها علاء الدين السكرجي، أخو حـاكم العـراق عبد المؤمن السكرجي، وان النصف الشاطئي منها أزيـل في وقـت متـأخر ليبنـى بآجره سور بغداد من جهة النهر، وهكذا أدت دراسة المكان الى اكتشـاف هويتـه التاريخية. وأتذكر اني أخبرت مديرة القصر عن قصة مقتل مؤسس المدرسة علي باشا وهو يصلي في جامع السراي القريـب، وكيـف سـحلت جثتـه الى المدرسـة لتدفن في باحتها، وختمت حديثي بالقول أن الرجل قتل مظلومـا، فعلقـت هـذه الكلمة في ذهنها، فإذا بها تخبرني بعد حين أنها تسمع، حينما تضطر الى البقـاء في مكتبها الى ساعة متأخرة من نهار اليوم، أصواتا غريبة تنبعث مـن أمكنـة مختلفـة

من القصر، مما أدى بها الى أن تغادر مكتبها مبكـرا، وتصـورت أن هـذه السـيدة تأثرت بما رويته لها من قصة دفن علي باشا، ولكن بعد مرور سنوات عدة علـى هذا الحديث، وتحول القصـر نفسـه ليكـون مقـرا لمؤسسـة جديـدة باسـم (بيـت الحكمة) أخبرني حراس هذه المؤسسة، وهم أشداء مسلحون، أنهم يسـمعون في أرجائها لـيلا أصـواتا وهمهمـات غريبـة دون أن يشـاهدوا شـيئاً ملموسـاً، ممـا اضطرهم الى ترك المبيت داخلها، والانتقال الى (كارفان) في خارجها حيث يبيتون ومعهم أسلحتهم خوفا مما يسمعون !

وعلى أي حال، فقد واصلت العمل في تـاريخ هـذا المبنـى حتـى اسـتوى عندي كتاباً مستقلاً بعنوان (المدرسـة العليـة في بغـداد، قصـر الثقافـة والفنـون) وألحقت به خرائط ومخططات عديدة، وتولت دارالشـؤون الثقافيـة العامـة سـنة 1988 طبعه ونشره.

وزارة الخارجية

أراد طارق عزيز، بعد أن صار وزيرا للخارجية سنة 1983، أن يجدد من دماء وزارته، او يدخل عليها بعض اللمسات التي رآها مفيدة، فكان ان ألف لجنة استشارية من عدد من الاكاديميين، أكثرهم من المتخصصين بالعلوم السياسية، ومنهم اثنان من المختصين بالتاريخ الحديث، كنت أنا واحدا منهما، تتولى مهام متعددة، ذات طبيعة فكرية بحتة، وكان يعلن لنا ان اللجنة هي عقل الوزارة المفكر.

في مثل تلك الأجواء الحربية،لم يستدعي وجودها، فاخترت لنفسي مهمة هي اقرب الى عملي الاكاديمي، وهي وضع ضوابط علمية للبحوث التي يتقدم بها موظفو الخدمة الخارجية، بوصفها من مستلزمات ترقيتهم من درجة الى أعلى، وتقييم هذه البحوث عند تقديمها، وكان عملي هذا مفيدا حيث لم تكن ثمة ضوابط منهجية قبل ذلك،أما من ناحيتي شخصيا فقد أتاح لي هذا العمل الاطلاع على ملفات مهمة تتعلق بعلاقات العراق الخارجية لعقود ماضية، وهي ملفات كانت تصلح لأن تكون مادة دسمة لمئات من البحوث والدراسات فضلا عن الرسائل والأطروحات في مجالي التاريخ المعاصر والعلوم السياسية، وكانت تملأ عدداً كبيرا من الدواليب الحديدية، ولكم أسفت حينما علمت أن أكثر هذه الدواليب دمر أو احرق في أثناء الاجتياح الامريكي لبغداد، ففقد العراق ثروة من المعلومات كان من شأنها أن تفيد الباحثين والمؤرخين لأجيال مقبلة. وأتذكر أن الخارجية كانت تأبي ان تنقل ملفاتها الى المركز الوطني للوثائق او أن تتعاون معه وفقا لقانون المركز حرصا عليها، وها هي قد دمرت فلم يفد منها احد.

ابتلاء وتدبير

لابد لي هنا أن أذكر شيئا من منن الله علي، فمنها انه منحني ذات مرة من سنة 1995عمرا اضافيا لا أدري ان كنت استحقه، ذلك اني كنت مدعوا لحضور المؤتمر الشعبي الاسلامي الذي كانت الدولة تعقده في كل عام في قاعة المؤتمرات الكبرى مقابل فندق الرشيد، وفي الحقيقة لم اكن أحب مثل هذه المؤتمرات، وأشعر أنها كانت تمثل هدرا للمال، ولكن للضرورة أحكامها، فمن الدعوات ما لا يمكن الاعتذار عنه وإلا اتهمت بما لا تحب، فركبت سيارتي القديمة وتوجهت بها الى فندق الرشيد حيث يجتمع المدعوون، وفي الطريق صادفتني سيارة عسكرية مسرعة، فلم يتمكن سائقها السيطرة عليها، بسبب عبور طفل من أمامه، وتوجه نحوي مباشرة ليصدم سيارتي بقوة، وتوقفت السيارة، واستطعت أن أنزل منها بصعوبة، وجلست على الرصيف لأرى ماذا افعل، ووجدت السيارة العسكرية قد انطلقت مبتعدة كما هو معتاد في مثل هذه الحالات، أما سيارتي فقد وجدتها قد كبس نصفها فدخل في النصف الاخر، بل جرى اختصارها الى النصف، ولا أدري كيف سلمت أنا من الاختصار. وفي تلك الدقائق مر رجل الى جانبي وتمتم (عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) واستغربت اختياره للآية الشريفة، وتساءلت: ما علاقتها بالموقف الذي أنا فيه الآن، أما كان أولى بهذا الرجل أن يحمد لي السلامة قبل كل شيء، أما كان أولى به أن يقدم لي عونا، وفي اليوم التالي استقدمت (كرين) لسحب السيارة الى مركز شرطة كما تجري الأصول حتى أحصل على تعويض من شركة التأمين الوطنية بوصفي قد أمنت على السيارة فيها قبل شهر واحد، وفي الطريق فتح سائق الكرين الراديو لنسمع نشرة الاخبار، وإذا بخبر عجيب، فلقد سقط

صاروخان على فندق الرشيد فدمرا صالته السفلى، وان خسائر في الارواح وقعت بين موظفاته هناك، ذهلت، فالفندق كان مقصدي بالأمس، وفي توقيت الصاروخين نفسه، وهذه الصالة ذات النوافذ الكبيرة كانت هي مجلسي الذي سأتخذه حتما، للتهرب من حضور الجلسات في الداخل، ولو لم تصدم السيارة العسكرية سيارتي قبل ذاك التوقيت بنصف ساعة فقط، لكنت الى جواره تعالى مع موظفات الصالة. حمدت الله، وتذكرت ذلك الرجل المجهول الذي أسمعني (وعسى أن تكرهوا.... الاية) ذهب بسرعة، لقد كانت رسالة مباشرة أوصلها لي ومضى. ثم تذكرت أني كنت قد أمّنت على السيارة نزولا عند الحاح شديد من محام صديق، منذ أقل من شهر واحد، فأدركت أن الأمر كله مدبر، وها قد خرجت من الحادث المهلك سليما، بعد أن شغلني عن حضور المؤتمر إشغالاً تاماً، فخلصني من الهلاك المحتم بصاروخين دمرا كل شيء، وها انا اصلح السيارة وأعيد إليها عافيتها، ولقد مد الله في عمري عمرا جديدا، فالحمد لله.

اكتشاف قبر المستعصم

وفي سنة 1989 أهداني الدكتور حسين علي محفوظ نسخة مصورة من مخطوطة قديمة في النسب بعنوان (الأصيلي)، كان قد حصل عليها من بيت احد الساكنين في البقاع في لبنان، وهي من تأليف المؤرخ ابن طباطبا الطقطقي الذي كان حيا سنة 701هـ.

لم أعر المخطوطة في بادئ الأمر اهتماما تستحقه، ثم صادف أن اصطحبتها معي ذات مرة الى الكلية لأقرأ فيها ساعة فراغ لي هناك، وبينما كنت مستغرقا في قراءتها، وإذا بي أفاجأ برواية غريبة لم تلفت نظري من قبل، تعين بدقة موطن مدفن الخليفة الأخير المستعصم بالله العباسي، وكان مدفنه حتى ذلك الوقت لغزا حيَّر الباحثين، ومصدر الرواية هو ابن أنجب الساعي، وهو معاصر لحادثة احتلال المغول بغداد، والمقرب من الاسرة العباسية، فلا نملك سببا للشك في روايته، وقلت في نفسي لو كان ابن الساعي غير دقيق في روايته لما اعتمدها ابن طباطبا وهو معاصر للحدث ايضا، ثم كيف يعتمد رواية غير صحيحة وهو الذي قدم كتابه هدية الى أصيل الدين بن نصير الدين الطوسي، وأبوه، اي نصير الدين، هو الذي اقترح اعدام المستعصم، اذن فسند الرواية صحيح تماماً، أما الرواية نفسها فمفادها أن شمس الضحى شاه لبنى الايوبية أخرجت جثمان الخليفة من حيث غيبه المغول، وأمرت بدفنه في مشهد النذور، ومشهد النذور هذا في الاعظمية ويعرف بأم رابعة، وليست رابعة إلا ابنة شاهلبنى وقد دفنت قرب قبر امها في البقعة نفسها. وكتبت دراسة حول هذا الموضوع الخططي المهم وقدمتها الى وزير الثقافة والاعلام في حينه لطيف نصيف جاسم، ولكن طبول

الحرب سنة 1990 طغت على موضوع الدراسة فأهملت، ثم أني نشـرت هـذه الدراسة في مجلة (الرسالة الإسلامية) التي تصدرها وزارة الأوقاف، سنة 1994، مطالبا بتحقيق ما يأتي:

1- استملاك الدور المجاورة لقبة أم رابعة، وهي في الأصـل وقـف علـى القـبر نفسه، ثم استملكوها شاغلوها ملكاً صرفاً، وتعويضهم عن ملكياتهم وفقاً للقانون.

2- إزالة هذه الدور المستحدثة والكشف عن المنطقة آثارياً، للتوصل إلى أسـس المنشآت التي كانت تشغل الأرض المجاورة ببقية، والـتي نعـرف منهـا ربـاط زمرد خاتون، والمدرسة العصمتية، وإعادة بنائها وفق تلك الأسس ما أمكن ذلك.

3- ترميم قبة الضريح، والقبة المجاورة لها، ترميماً شاملا.

4- وضع شاهد على القبر يوضح هوية صاحبه.

نشرت الدراسة ومضت، ولم تحـرك لـدى الجهـات المعنيـة سـاكناً، ولكـن شاءت الاقدار ان يكون لهذا الموضوع شأن آخر بعد نحو عقد من الزمن.

ففي سنة 1997 تعرض ولدي رؤوف الذي كـان في السادسـة عشـر مـن عمره الى حادث مؤسف، حيث صدمته سـيارة مسـرعة دون أن تتوقـف، ونقـل علـى إثرهـا الى المستشـفى، وأجريـت لـه عـدة عمليـات كـبرى لانقـاذ حياتـه، وأضطررت لملازمة سريره في المستشفى عدة أسابيع، وحينمـا عـدت الى البيـت، أخبرني بعض الجيران أن سيارة سوداء فخمة وقفـت أمـام البيـت، ونـزل منهـا شخصان يسألان عني، ولما لم يجدا جواباً، غادرا المكان، وقد أخبرا اولئك الجيران انهمـا مـن ديـوان الرئاسـة. اسـتغربت للامـر، واتباعـا للأصـول في مثـل هـذه

الحالات، قصدت في اليوم التالي استعلامات ديوان الرئاسة، او القصر الرئاسي، لا أدري اليوم ايهما قصدت، وأخبرت من كان فيها بالأمر، معتذرا بأني كنت ملازماً ولدي في المستشفى، ولم يمض يوم او يومان حتى اتصلوا بي هاتفيا، وطلبوا مني الحضور في صباح الغد لمقابلة الرئيس، ولم يخطر في خلدي سبب هذا الاستدعاء مطلقا، وما شأن الرئيس بي، المهم أني ذهبت في الموعد المضروب الى الاستعلامات، ومن هناك أقلتني سيارة خاصة الى مبنى آخر للانتظار، ووجدت هناك رجلين في الانتظار ايضا، أحدهما كان الدكتور مالك دوهان الحسن، وهو أستاذ قانون في كلية التراث الجامعة في المنصور يومذاك، وقد أصبح أول وزير للعدل في عهد مجلس الحكم الذي اعقب الاحتلال الامريكي، أما الآخر فكان ضابطاً كبيراً لم أعد تذكره الآن، ثم قدم لنا طعام الفطور، وكان كل شيء في الجلسة هذه يبدو مريحاً، وأخيرا أدخلنا تباعاً الى حجرة صغيرة قريبة من مكتب الرئيس، ومنها اليه مباشرة.

استقبلني بود مع ني لم التق به من قبل، وواضح أنه سمع بي، وقرأ لي، وجلست قبالته وأنا انتظر أن أعرف سبب هذا الاستدعاء غير المفهوم في نظري، وإذا به يخرج ورقة كبيرة من مكتبه تبين لي انها تتضمن نسخة مكبرة لمقال تذكرته فورا، وهو يحمل عنوان (الدكتور عماد عبد السلام رؤوف يقول ان العراقيين شاركوا في تحرير مصر من الاحتلال الفرنسي). وجال في ذهني فوراً قصة هذا المقال، مع أني لم أكن كاتبه، وكل ما في الأمر أن صحفياً كان قد طلب مني، وكنت آنذاك في وزارة الثقافة والاعلام، عند نهاية دوامها الرسمي، أن أعلمه بآخر ما أقوم بدراسته، فأخبرته، وأنا أهبط سلم الخروج مسرعاً، إني اقوم حاليا بدراسة في وثائق المحكمة الشرعية، فما كان منه إلا أن هتف متعجبا: المحكمة ؟ وما تحوي محكمة الاحوال الشخصية، وهي المحكمة الشرعية، إلا قضايا

الزواج والطلاق والنفقة؟ أجبته بانها تضم في العصر العثماني وثائق مهمة، منها وثيقتان رأيتهما تشيران الى تشكيل قوة من المتطوعين من ولاية بغداد للمشاركة في الجهد العسكري العثماني من أجل تحرير مصر من الفرنسيين، وكان هذا كل ما في الامر، فما كان من الصحفي إلا أن صاغ هذا الحديث في مقال شغل الربع الاخير من الصحيفة، وهو المقال الذي قرأه الرئيس، ويبدو أنه أثار اهتمامه. وسألني أن ألخص له الموضوع فلخصته، وطلب مني أن أرسل اليه فيما بعد دراسة حول هذه المشاركة مع صورة الوثيقتين، ففعلت ذلك وتم إدخال فقرة بشأنها في كتب التاريخ المنهجية ومنها المقررات الجامعية.

وانتهزت الفرصة فأخبرته بموضوع اكتشافي قبر الخليفة العباسي المستعصم بالله، ولخصت له النصوص والأسانيد التي اعتمدتها في تعيين موضع هذا القبر، واكدت في حديثي على معنيين، أولهما أن المستعصم هو آخر رموز العراق المستقل، وأنه كافح من اجل الدفاع عن العراق ما استطاع ذلك، ولكن الظروف كانت اقوى منه ومن امكانات العراق في تلك اللحظة التاريخية التي كان يمر بها، وثانيهما أن عناية كنته، زوجة ولي عهد الخلافة العباسية، شاهلبنى شمس الضحى الايوبية بإعادة دفن جثمانه، واختيارها ان تدفن الى جانبه، يمثل وحدة البيتين العباسي والايوبي، وأن قبرها يمثل آخر الرموز المادية للسلطان البطل صلاح الدين الايوبي، وختمت حديثي بطلبي أن يجرى اهتمام بالقبرين والمشهد بوحه عام، وأن يصار الى تكليف الهيئة العامة للاثار بعمل (مجسات) في المنطقة للتأكد من وجود القبور على الصفة التي ذكرتها المصادر، ولاكتشاف المنشآت المهمة التي أنشأتها شاهلبنى الايوبية في المنطقة المذكورة، ومنها مدرسة عرفت بالعصمتية، فأيد الفكرة وتحمس لها فعلا، وأمر بالاتصال بكل من الدائرة الهندسية في ديوان الرئاسة ووزارة الاوقاف والهيئة العامة للآثار لاستملاك

الارض المحيطة بالمكان، والقيام بالمجسات الاثارية، وإعداد التصاميم اللازمة للمشهد. وفي الوقت نفسه فانه طلب مني ان ابعث اليه بدراسة اخرى عن هذا الموضوع ففعلت.

وفي 1/ 9/ 1998 نشرت الصحف خبراً بعنوان "القائد يأمر بتعمير قبر المستعصم بالله آخر خلفاء الدولة العباسية" وأوردت فيه أن "وزارة الأوقاف والشؤون الدينية وضعت التصاميم الهندسية اللازمة وستشرع بتنفيذ أمر السيد الرئيس ضمن خطتها للعام القادم ليظهر على النحو اللائق بصاحبه، وشمول المنطقة كلها بالتطوير الشامل.. وكان الدكتور عماد عبد السلام رؤوف قد أعد دراسة مستفيضة عن قبر المستعصم بالله، ورافق بعثة الإتحاد في تحديد مكانه في شارع عشرين في منطقة الأعظمية" (الاتحاد في التاريخ المذكور).

بدأت الاثار بعمل المجسات واستغرق عملها نحو سنة، اكتشفت خلالها أسس ثلاثة قبور كبيرة متجاورة ترقى الى العهد المغولي الايلخاني، أحدها رئيسي يقع تحت قبة المشهد بالضبط، وهو قبر المستعصم،والاخر في جداره، والثالث مقابله. وهذه هي صفة قبور المستعصم وكنته شاهلبنى وابنتها رابعة، وكان مما اكتشفته أيضا مقبرة جماعية تضم عددا كبيرا من العظام البشرية لأجداث وضعت على غير ترتيب، يظهر أن أصحابها ماتوا اثر وباء جارف، أو قتل جماعي لسبب من الأسباب التي سكت عنها التاريخ.

ثم شرعت الدائرة الهندسية بتشييد المشهد على نحو جميل، ولم يتوقف العمل إلا عند الاحتلال الامريكي لبغداد، واستؤنف فيما بعد وأضيف اليه مسجد أنيق متوسط المساحة، فحمدت الله على أن هيأ من الأسباب ما أدى الى كشف هذه الرموز فضلا عن انشاء المسجد المذكور.

الاستاذية

في سنة 1988 اقترحت عليَّ السيدة اقبال الراوي، مديرة القلم السري في كليتنا، أن ارشح نفسي لنيل مرتبة الاستاذية، وكانت المدة الزمنية بعد نيلي مرتبة (استاذ مساعد) قد انقضت، وصرت مؤهلا لنيـل المرتبـة التاليـة، وقـد دهشـت حينما أخبرتها بعزوفي عن التقديم لنيل تلـك المرتبـة الرفيعـة، موضـحا أن هـذا التقديم يستلزم ملء استمارات عديدة جدا، وأنا قد مللت ملء الاستمارات، اذ لم يكن يمضي شهر واحد الا ونضطر الى ملء استمارة جديدة مختلفـة في الشـكل ومتطابقة في المضمون، فيها من المعلومات المطلوبة ما يعجز صـاحبها، فطمـأنتني بأنها ستتولى مساعدتي في ملء اكثر الاستمارات، ولن تترك لي ما أملأه الا ماهو مهم فعلا، وهكذا جرى الأمر، وأرفقت الطلب بستة كتب، ولما كان مـن المعتـاد حتى ذلك الوقت ارسال البحوث الى مقيمين من جامعات في خارج العراق فقد علمت فيما بعد أنها أرسلت الى أساتذة فضلاء في عدد مـن الجامعـات العربيـة، منها جامعة الكويـت وجامعـة دمشـق، وجامعـات اخـرى لم اعرفهـا، وجـاءت الاجابات كلها ايجابية وصـدر الأمـر الـوزاري بترقـيتي في اواخـر سـنة 1988، فكنت اول من نال هذه الدرجة، في كليتنا في مجال التاريخ، حتى ذلك الوقت.

خير جليس في الحرب

أعلمتني السيدة إقبال الراوي في سنة 1989 بأن في مكتبة والدها مخطوطة نفيسة من تأليف السيد محمد سعيد الراوي المتوفى سنة 1936، عنوانها (تاريخ الاسر العلمية في بغداد) فطلبت منها أن تستأذن اباها في أن أتولى تحقيقها، فوافق بعد تردد، وكانت المخطوطة تضم تراجم عدد كبير من علماء بغداد في القرن الثامن عشر واوائل القرن العشرين، وأكثر تلك التراجم يضم معلومات جديدة واسرارا لم تعرف من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية قي العراق عهد ذاك، فزاد ذلك من عزيمتي على تحقيقها تحقيقا علميا لتكون مصدرا جديدا من مصادر تاريخ العراق وتراثه. عكفت على نسخ الكتاب ثم التعليق عليه والتقديم له، ولما كان الكتاب ضخما يتجاوز الخمسمائة صفحة فقد استغرق مني جهدا مضنيا ووقتا طويلا، وكلما مضيت في العمل، كانت نذر الحرب تقترب، وقررت، كما حدث معي في غير مرة، ان لا أدع شيئا يشغلني عن العمل، فاشتغلت في الكتاب بكل همة، تساعدني في ذلك مكتبتي الشخصية التي جمعت فيها من الكتب والمخطوطات والوثائق معظم ما كنت احتاجه في عملي.

اندلعت الحرب فعلا وأخذت الطائرات الامريكية والبريطانية تدك بغداد بالقنابل والصواريخ بينما كنت منصرفا تماما الى تحقيق الكتاب، وكانت المشكلة تكمن في انقطاع الكهرباء، ومن ثم عدم إمكان السهر ليلاً كما كنت قد اعتدت على العمل سابقا، وحاولت أن استعيض عن الكهرباء بوسائل بدائية تعمل على النفط، لكن لهيب تلك الوسائل كان غير كاف للاضاءة المستقرة، مما اضطرني الى ترك الفكرة نهائيا والاكتفاء بضوء الشمس فقط، فكنت استيقظ منذ ان تتسلل

اولى اشعة الشمس الى مكتبي وابدأ بالعمل دون توقف تقريبا حتى المغرب، فاضطر حينذاك الى النزول حيث تجتمع العائلة في صالة المعيشة، ونبدأ بسماع اصوات القصف والانفجارات مع ازيز الطائرات حتى الفجر، وفي الحقيقة كان الانصراف الكلي الى تحقيق الكتاب يمثل نوعا من الهروب من عالم الحرب الى عالم الماضي الوديع، وفي الوقت الذي كان الناس منشغلين بتتبع اخبار الحرب متسمعين ما كانت تذيعه الاذاعات الاجنبية، كنت منشغلا بكتابة هامش في توضيح معلومة وردت في المخطوط، من معلم خططي، او ترجمة لعالم، او تعريف بكتاب، وكأني لا اعيش في العالم التي تدور فيه تلك الحوادث المدلهمة، او كأني فككت اتصالي الى حد ما بذلك العالم. وفي ذات يوم فكرت ان آخذ كتابي وبعض مصادري واذهب الى ملجأ قريب أعرفه حيث أنعم بضوء كهربائي مستقر، وأمان مريح يسمح بالعمل ولو لساعات الليل، وما ان توجهت الى غايتي حتى نقل لي أحد المارين الخبر المفجع، لقد قضت الطائرات الامريكية على هذا الملجأ ودمرته بالكامل، وقتلت كل من فيه، لقد كان الملجأ هو (ملجأ العامرية)، وكان محتوما علي ان اشارك اولئك الشهداء مصيرهم لولا لطفه تعالى.

واخيرا فرغت من تحقيق الكتاب ولم تنته الحرب بعد، فلم اجد ما يشغلني عنها غير كتاب اخر كنت قد بدأت بتحقيقه ثم توقفت منذ مدة، فرأيت ان استفيد من الوقت الضائع بأن اكمل تحقبقه، وسميته (تاريخ ببوتات بغداد في القرن الثالث عشر) تأليف عبد الرحمن حلمي السهروردي، وكان لهذا الكتاب قصته هو ايضا، وقد بدأت حينما اهداني مخطوطته المرحوم صفاء السهروردي سنة 1982، وكان يومذاك مدير الذاتية في مركز احياء التراث العلمي العربي، وقد اهدانيه تفضلا منه لموقف اسديته له، فقد اخبرني ذات مرة انه توجد في

جامع الشيخ عمر السهروردي مخطوطات مفرقة كثيرة من بقايا مكتبة عمه كمال الدين امـام الجـامع، وكانـت المكتبـة قـد صـادرتها مكتبـة المتحـف العراقـي في السبعينات، ولم يبق منها الا هذه الكتب، وهي مفرقـة علـى شـكل (مـلازم) لا يربط بينها رابط، وقد رافقته الى الجامع فوجدت هذه البقايا وقـد فرشـت ارض احدى الحجـرات هنـاك، واقترحـت عليـه ان يبيعهـا الى مكتبـة المجمـع العلمـي العراقي، وتوسطت لدى رئيس المجمع الدكتور صالح العلي لشرائها، واقترحـت مبلغا رضي به السيد صفاء وهو خمسمائة دينار، الا ان الدكتور صـالح رفعـه الى ثمانمائة، وتمت الصفقة ونقلت المخطوطات الى مكتبة المجمع العلمي وضـمت الى قسم المخطوطات فيها حيث افاد منهـا كـثير مـن البـاحثين والحمـد لله، ولم يجـد السيد صفاء ما يعبر به عن امتنانه لي الا ان اهدى الي ذلك المخطوط. ثـم انـي قرأته بعد حين، فوجدته يكشف عن حوادث غير معروفة حدثت في نهايـة عهـد المماليك في بغداد سنة 1247هـ/ 1831م، وفيه تفاصيل مهمة عـن اسـر بغـداد وتبيـان لـدورها السياسـي والاجتمـاعي في خضـم تلـك الحـوادث، وبـدأت باستنساخه بهدف تحقيقه، ولم اجد لـدي مـن الوقـت الا سـاعات (الخفـارة) في الكلية، حيث فرض علينا الوزير عبد الرزاق الهاشمي، نحن الاساتذة ان نتنـاوب على الخفارة اسبوعيا، ولما لم يكن ثمة عمل يؤديه (الخفير) في تلك الساعات، الا عدها، فقد افدت من الوقت المضيع عبثا باستنساخ ذلك الكتاب، حتـى انهيتـه، ثم شغلتني عنه الظروف، حتى اذا قامت الحرب، وبقيت لدى فسحة من الوقـت في اعقابها، عكفت عليه تحقيقا وتعليقا حتى انهيت تحقيقه، ووضعت لـه مقدمـة تتناول اهميته وترجمة لمؤلفه، ولما كان مؤلفه قد اغفل وضع عنوان له، فقد سميته بذلك العنوان المتقدم، وبقي في خزانتي ينتظر فرصة لطبعه في ظل ظـروف بالغـة السوء، وبعد ست سنوات من انتهاء الحـرب، عـرض علـي الصـديقان الاسـتاذ

محمد الخاقاني والصحفي سلام الشماع ان يتوليا طبعه في مكتب للنشر اسمه اولهما في حي الكرادة ببغداد، فوافقت، واضفت اليه ملحقا طويلا تضمن جدولا بأسماء الاسر البغدادية وتواريخها واسماء اعلامها استخرجتها من سجلات الاوقاف التي سأتطرق اليها فيما يأتي، وطبع الكتاب فعلا ونفذت نسخه بعد وقت قصير. وفي السنة نفسها قدمت (تاريخ الاسر العلمية) الى دار الشؤون الثقافية العامة لتتولى طبعه، فطبع، واعيد طبعه ثانية في الدار نفسها سنة 2007.

التاريخ، وآفاق المستقبل

كان من أفضل ما اضطلعت به جامعة الموصل، بعد شهرين فقط من انتهاء حرب الخليج سنة1990، أن عقدت ندوة موسعة لمناقشة واقع الدراسات التاريخية في العراق، وآفاق تطورها، وفي الواقع فأن دواعي عقدها لم تكن اكاديمية بحتة، وانما كانت تعبر عن سؤال بات يتلجلج في الوجدان الوطني عامة، خلاصته: اين نقف نحن اليوم؟ وما الذي ينتظرنا في الافق؟ فالتاريخ لم يكن هنا دراسة الماضي وإنما تعبير عن احساس شديد بالزمن في تغيره، في وقت كانت الثوابت تهتز فيه منذرة بتغيرات مقبلة لا يتوقعها أحد. وقد شاركت في هذه الندوة بدراسة عنوانها (تطورالدراسات العراقية حول تاريخ العراق في العصر العثماني)، تناولت فيه مراحل تطور هذه الدراسات منذ تأسيس الدولة العراقية وحتى تاريخ الفراغ من اعداد الدراسة، وقد اكتشفت من خلال ما كتبت ان هذه الدراسات بدأت بكتب منهجية ارادت تقديم رؤية جديدة لتاريخ الدولة العثمانية بعيدة عن الدولة العراقية، تمثلت بما كتبه ضابط بريطاني هو لونكريك، ثم بمحاولة محلية لانتاج تاريخ (عراقي) يستوعب تاريخ الدول (المتغلبة)، تجلت بمجموعة الكتب التي ألفها عباس العزاوي، ثم برؤية قومية شمولية بادر إليها، في الستينات، أستاذ مصري هو عبد العزيز نوار، قبل ان يتولاها أكاديميون عراقيون في اوائل السبعينات من ذلك القرن، ولاحظت ان دوافع الاهتمام كانت تتغير بحسب تغير الاحوال السياسية للعراق المتعاقبة عليه، وان الحرب العراقية الايرانية كان لها دور أساس في توجيه الإنتباه الى دراسة تاريخ الدولة العثمانية باعتبار أن تاريخ العلاقات بين الدولتين إن هو إلا امتداد لتاريخ المشاكل الحدودية المتراكمة بين الدولة العثمانية والدول التي تعاقبت على حكم ايران خلال القرون الاخيرة.

التاريخ على وفق الأسر

وقادني تحقيقي لكتاب (تاريخ الأسر العلمية) وكتاب (تاريخ بيوتات بغداد) ودراستي لكتب أخرى في الموضوع نفسه، الى ان اطرح على نفسي السؤال الاتي: لِمَ لم يتخذ المؤرخون القدامى من الاسرة (وحدة) دراسة للتاريخ الاجتماعي، او حتى اطارا لتراجم اعلام عصرهم، فلم نقرأ أن مؤلفاً رتب أعلامه على وفق أسرهم، وإنما جرت العادة بترتيبهم على وفق مدارسهم الفكرية، أو تخصصاتهم، أو على وفق السياق الزمني لوفياتهم، أو في الأقل بحسب حروف المعجم. وهكذا وجدتني أؤرخ لمجال جديد في دراسة تاريخ بغداد الاجتماعي برز، دون جذور تقريبا، في الحقبة الممتدة من بداية القرن التاسع عشر، وحتى نهاية القرن العشرين، وهو الذي يعتمد (الأسرة) موضوعاً للكتابة في تاريخها، أو سلكا ينتظم فيه ذلك التاريخ، وذلك في كتابة دراسة بعنوان (بيوتات بغداد في دراسات المؤرخين المحدثين) تناولت فيها أهمية دراسة تاريخ الأسر، وتتبعت ظهور هذا الاتجاه في أعمال كتاب بغداديين، هم على التوالي: عبد الرحمن حلمي السهروردي، وابراهيم فصيح الحيدري، ومحمد سعيد الراوي، ومحمد بهجة الأثري، وابراهيم الدروبي، ثم كتاب أرخوا لأسر في محلات بغدادية بذاتها، منها الأعظمية، والكاظمية، والكرادة الشرقية، والكرخ، وغير ذلك. وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة (أسفار) التي توليت رئاسة تحريرها (عدد تموز 1997) وأعدت نشرها في مجلة (المشكاة) وقد وليت رئاسة تحريرها أيضا (عدد 1، 2004).

ضوابط اخلاقية

يواجه المحقق إشكالا محرجا حينما يعمد الى تحقيق مخطوطة لم يصل بها مؤلفها الى حد الاكتمال، فتجد فيها أحيانا الفاظاً نابية، بل مقذعة، في حق إنسان كان خصماً له في وقت تأليفه كتابه، أو تعريض قاس بأسرته، أو شتم صريح لا مبرر له، وموطن الحرج انه يجد في نشر هذا الكلام من شأنه أن يضر بذرية المؤلف، لأنه سيخلق من الخصومات ما لا ينتهي أثره، إلا بالمحاكم او بغيرها أحيانا، كما يضر بالمعرض به وذريته ضررا بليغا لا يقل عن ضرر خصمه، وأذكر أني رأست ندوة دعوت إليها في اتحاد المؤرخين العرب، حضرها عدد كبير من المحققين، لمناقشة الضوابط الأخلاقية للمحقق اذا ما واجهته مشكلة من هذا النوع، وتوصل الجميع الى أنه يجوز للمحقق،في حالات محدودة، أن يسقط هذه العبارات المسيئة من النص المحقق، على أساس أنها لا تمثل رأي المؤلف الاخير، طالما انه لم يكتبه للنشر، أو لم يخرجه من المسودة إلى البياض، وان لكل عمل ضوابطه الاخلاقية، ومن ضوابط هذا العمل ان لا يكون سببا في تعمد أهانة أحد، والتعريض به وبسلوكه لما يترتب على ذلك من تبعات اجتماعية خطيرة. وصادف أن مرت عليَّ في أحد المخطوطات التي حققتها عبارات قليلة كتبها المؤلف منفعلا كما يبدو، في ثلب، او شتم، بعض الاسر البغدادية دونما مبرر غير وجود خصومة بينه وبين بعض أبنائها، ربما انقضت بعدها، ولكن بقي ما كتبه مثبت فيما كتبه في حينه، فأجزت لنفسي حذفها، وحينما نشر الكتاب، وجد بعض الحاسدين، ممن أعرته نسخة المخطوطة بناء على الحاحه، في حذف تلك العبارات فرصة في قدحي، واستعداء من هم مثله ضدي، وصاروا يتخذون من (الأمانة العلمية) قميصا يسترون وراءه نياتهم الحقيقية في الاساءة لشخصي،

لكني كنت مؤمنا تماما بسلامة موقفي من الناحيتين العلمية والاخلاقية معا، فليس في العبارة المحذوفة أي اضافة معرفية تفيد قارئها، وتبرر نشرها، كما ان نشرها يضر كل الاطراف ويتناقض مع أبسط مبادئ الخلق والدين التي يجب ان يتحلى بها الانسان، اي انسان. وتحملت من هؤلاء ما تحملت لكني لبثت متمسكا بموقفي تماما، فلا عمل بلا ضوابط، وبلا خلق. وكنت موقنا أن مؤلف ذلك الكتاب لو علم أن كتابه سيحقق وينشر، ويصل الى الناس كافة، ومنهم المقصود بشتمه، وقد أصبحت أسرته ذرية كبيرة، لعدل عنا كتبه حتما. وفي الحقيقة فاني لم آبه كثيرا لما حاول هؤلاء الموتورون أن يثيرونه من غبار ضار، لأني صرت أعلم ان دوافعهم لم تكن علمية نزيهة، او موضوعية، بالمرة، وإنما تصفية لحقد او حسد دوافعه شخصية تماما.

مخطوطات تقود إلى أخرى

ومن ناحية اخرى، فإن تحقيق آثار السيد محمد سعيد الراوي غير المعروفة، ادى بي الى الاطلاع على مكتبته الشخصية،، وهي مكتبة غنية بنفائس المخطوطات كانت اسرته تحفظها ببالغ الحرص، وحينما ادركت اهميتها تحركت في داخلي (غريزة) حب المخطوطات، فاستأذنت ولده السيد جميل الراوي بأن اتولى فهرستها فهرسة علمية، فوافق مشكورا، وصرت استعيرها مجموعة بعد اخرى لاتولى فهرستها في داري، حتى فرغت منها، فإذا بالفهرس صار كتابا في 276 صفحة، يضم وصف 187 مخطوطا ومجموعة خطية، ولبث في درج مكتبي مدة من الوقت، واخيرا عرضت على الاستاذة نبيلة عبد المنعم داود رئيسة مركز احياء التراث العلمي العربي، ان يتولى المركز طبعه واصداره ضمن اصدارته العلمية، فوافقت جزاها الله خيرا، وتم طبع مائتي نسخة منه، وزعها المركز على المراكز والمكتبات الجامعية وعدد من المختصين بفهرسة المخطوطات، وكان ذلك في سنة 2002، ثم أني وضعته مؤخرا على شبكة الانترنيت فبلغ عدد المستفيدين منها أضعاف ذلك العدد.

تواريخ مساجد بغداد واثارها

عنيت بتاريخ مساجد بغداد في وقت مبكر من حياتي العلمية، وتحديـدا في المراحل الاولى من دراستي الجامعية، وربما كان اهتمامي بها مـن الـدوافع الاولى التي دفعتني الى اختيار تاريخ القرون الاخيرة مجالا لتخصصي، بعد ان كنت أجـد نفسي في التاريخ الاسلامي اكثر من غيره من مجالات التاريخ، وبلغ مـن شـغفي بهذا المجال الذي يجمع بين التاريخ وبين الاثار والعمارة، أن عزمت علـى تـأليف كتاب في اجزاء يتناول كل جزء عددا من المساجد القديمة، فكنت استقصـي مـن كتب التاريخ والرحلات والوثائق كل شاردة او واردة عـن هـذه المنشـآت، كمـا كانت اقوم بجولات مستمرة اليها، فارسم خرائطها، وأقيس مسـاحاتها، وأصـور ما عليها من كتابات تذكارية، وما الى ذلك، وكان اهتمامي السابق بدراسة خطط بغداد يساعدني في معرفة هوية الارض التي بنيت عليها هذه المساجد في العصور السابقة، ومن ثمار هذا الاهتمام اني الفت الجزء الاول بعنوان (مسـاجد بغـداد تاريخها وملامحها الفنية) تناولت فيه اربعة مساجد قديمة، ومضيت في تأليف مجلد ثان، وعرضت ما كتبته على الاثاري المصري الدكتور أحمد فكري، وكان خدماته يومئذ (سنة 1967) معارة الى جامعة بغداد، فشجعني على المضي في العمل، كما عرضته على الدكتور صالح العلي، فـأبدى بعض الملاحظات التي التزمـت بهـا، وطلب مني أن أمضي في دراسة مساجد اخـرى، إلا انـي لم أسـتمر في المشـروع، بسبب سفري الى مصر للدراسة.

على أني حققت عددا من المخطوطات التي تتنـاول هـذا الموضـوع، أولهـا مخطوطة بعنوان (العقد اللامـع بآثـار بغـداد والمسـاجد والجوامـع) تـأليف عبـد

الحميد عبادة، وهي مخطوطة فريدة بخط مؤلفها، كانت في مكتبة المؤرخ عباس العزاوي، ثم انتقلت الى قسم المخطوطات في مكتبة المتحف العراقي (دار صدام للمخطوطات كما سمي فيما بعد)، وكنت قد قرأت عن هذا الكتاب المهم في بعض مؤلفات عباس العزاوي بوصفه أحد المخطوطات النفيسة التي تحوزها خزانة كتبه الشهيرة، وبت أحلم بالاطلاع على هذا الكتاب، حتى إذا توفي رحمه الله، واستقر في مكتبة المتحف العراقي، وكنت انا اعمل في المجمع العلمي العراقي، طلبت باسم المجمع الحصول على نسخة مصورة منه، فلم تستجب تلك المكتبة للطلب دون ذكر السبب، وفي بدايات الثمانينات اتصل بي رئيس قسم المخطوطات لان أشاركه، هو وزوجته، تحقيق الكتاب، فوافقت بعد تردد، لأنه لم تكن ثمة فرصة للاطلاع عليه الا بالقبول بالعرض، وانهمكت بتحقيق المخطوطة والتعليق عليها حتى أنهيتها تماما، وشرعت أنتظر أن يقوم شريكاي بدورهما في اضافة بعض التعليقات، تبرر وضع إسميهما على غلافه، ومر عقدان من السنين دون أن يتحرك ساكن، مما اضطرني الى أن أعيد تحقيق المخطوطة من جديد، معتمدا على النسخة المصورة التي اعتمدتها أولا، والتعليق عليها مستنداً هذه المرة على مخطوطات ووثائق جديدة لم تكن متوفرة لدي في المرة الأولى، وأخيرا أُنجز الكتاب كاملا، وطبعته على نفقتي الخاصة، وخرج الى الناس سنة 2005 شاغلا نحو اربعمائة صفحة، فأضيف بذلك مصدر مهم، وفريد في معلوماته، من مصادر دراسة تاريخ معالم بغداد في العصر العثماني.

وما أن صدر الكتاب قي سنة 2004، حتى شرعت بتحقيق مخطوطة أخرى حصلت على مصورة منها لدى اسرة السيد محمد سعيد الراوي، الذي حققت من كتبه كتاب (تاريخ الأسر العلمية في بعداد). ولما لم يكن هذا المخطوط يحمل عنواناً فقد اقترح الصديق الباحث السيد زين النقشبندي له عنوانا هو

(خير الزاد في تاريخ مساجد بغداد) وجاءت تعليقاتي على هذا الكتاب أكثر تفصيلا، حيث كنت أقصد كل مسجد او معلم أحققه بزيارة ميدانية اليه، لأقارن بينه وبين ما كتبه المؤلف منذ نحو تسعين عاماً، وكان يصحبني في هذه الزيارات الباحث النقشبندي، لتنتهي بنا كل جولة الى تناول (نفرين) كباب في مطعم شعبي في محلة باب الشيخ، ولكن جولاتنا كانت محفوفة بمخاطر حقيقية بسبب ما كانت تتعرض اليه بغداد من حوادث اغتيال وخطف (صيف سنة 2006) بسبب الفتنة الطائفية التي اندلعت عنيفة آنذاك، ولكن الله لطف بنا، وقدمت الكتاب بعد انجازه الى ديوان الوقف السني فتولى طبعه، وخرج الى الناس في اواخر ذلك العام. وحينما نفدت نسخه أعادت وزارة الثقافة اصداره ضمن ما أصدرته من كتب بمناسبة احتفالات (بغداد عاصمة الثقافة العربية) سنة 2014.ثم أني حققت عددا من الرسائل الخطية التي تناولت تاريخ مساجد بغداد، أولها فصل من مخطوطة بعنوان (نيل المراد في أحوال العراق وبغداد) تأليف عباس بن رجب البغدادي، وثانيها (تكملة مساجد بغداد) تليف محمد خلوصي الناصري، وثالثها محطوطة (بغية الواجد في الجوامع والمساجد) تأليف محمد صالح السهروردي، وجمعتها في كتاب واحد، سميته (مساجد بغداد في كتابات الأجداد)، وطبعته على نفقتي الخاصة في وقت كان الوضع الأمني في تدهور سريع بسبب الفتنة الطائفية المذكورة.

وكان مما عثرت عليه في أثناء عملي في فهرسة مخطوطات المكتبة القادرية، مجموعة من الوثائق النادرة، تمثل عقود (مغارسة) بين والي بغداد سعيد باشا وبعض المزارعين في بساتين الحلة, وموضوع هذه الوثائق مهم فعلا، لأنه يكشف عن شروط نوع من العقود الزراعية في العراق لم يكن معروفا قط من قبل، كما أنه يلقي الضوء على الأحوال الزراعية في الريف في القرن الثامن عشر، فما كان مني الا أن صورتها، وعكفت على دراستها من الناحيتين التاريخية والقانونية، واستعنت من الناحية الاخيرة بصديق قديم، وزميل لي في الدراسة الاعدادية، هو الدكتور عدنان احمد ولي العزاوي، وكان قد نال درجة الماجستير في موضوع (عقود المغارسة)، فجاءت الدراسة أصيلة تماما، نشرت فيها نصوص العقود المذكورة، وقدمت لكل نص بمقدمة ضرورية وعلقت عليها بتعليقات توضيحية، وأخيرا نشرتها في مجلة المورد، وكانت بعنوان (ضوء جديد على العلاقات الزراعية في العراق في القرن الثامن عشر، دراسة في وثائق جديدة).

وكنت قد استنسخت بيدي، في اثناء اقامتي في القاهرة، عددا من المخطوطات من دار الكتب المصرية، كان من بينها مخطوطة بعنوان (التبيان في المكيال والميزان) لابن الرفعة، وهي اول كتاب مستقل في هذا الموضوع المهم من موضوعات التراث العلمي الاسلامي، لأنه كان يبحث مفرقاً في كتب فروع الفقه، ويعد جزءا منها لا على أساس أنه موضوع مستقل، فقمت بتحقيقه والتعليق عليه بكل ما وسعني من جهد وعلم، حتى فرغت منه تماماً، ودفعته الى مجلة المورد فنشر في أحد أعدادها سنة 1981.

ومن المخطوطات التي كنت قد صورتها من دار الكتب بنية تحقيقها، مخطوطة فريدة بعنوان (تاريخ ماردين) تأليف مفتيها عبد السلام المفتي الماrديني، وقد اتخذتها مصدرا لرسالتي للماجستير وأطروحتي للدكتوراه، ثم حالت الظروف دون تحقيقها، حتى قام بنشرها باحثان فاضلان في مدينة دهوك، فانصرفت النية عنها تماما. لكني شجعتني فيما بعد على أن اقترح على إحدى طالباتي في كلية الاداب ان تختار موضوعا لأطروحتها بعنوان (ماردين في عهد مماليك بغداد) فكانت تلك المخطوطة مصدرا أساسيا لها والموحي باختيار ذلك العنوان.

أما الوثائق الخاصة بحكم محمد علي، والتي استنسختها من مركز الوثائق في القاهرة، فقد أفدت منها في عدد مما كتبت من كتب ودراسات، وكانت معيني في اكتشاف تفاصيل جديدة في تاريخ العراق لم تكشفها الوثائق والمصادر المعروفة، ثم رأيت أخيرا أن نشرها محققة سيفيد الباحثين ايضا، فعكفت على تحقيقها والتعليق عليها بما يوضح مبهماتها من المصطلحات العثمانية والمحلية والمواقع والاعلام، وقدمت لكل وثيقة بما يمهد لظروف إصدارها، كما قدمت للمجموعة كلها بمقدمة عن أهمية وثائق محمد علي بالنسبة الى تاريخ العراق في النصف الاول من القرن التاسع عشر، وأخيرا اكتمل العمل من كل جوانبه واستوى كتابا مستقلا، ووضعت له عنوانا هو (العراق في وثائق محمد علي) وصدر عن مؤسسة بيت الحكمة سنة 1999، وقد أوحت لي هذه الوثائق بعنوانات لعدد من الدراسات التي شاركت بها في ندوات علمية او نشرتها في دوريات معروفة.

كانت الوثيقة ضالتي فعلا، وأذكر هنا على وجه خاص أني عثرت صدفة في اثناء عملي في فهرسة مخطوطات دار التربية الاسلامية على وثيقة في ورقة

واحدة ألصقها مجلد على غلاف مجموعة عادية من داخله لغرض تثخينه، وحينما قرأت الوثيقة وجدتها تكشف عن سر من اسرار الامير فخر الدين المعني الثاني امير لبنان (اعدم سنة 1635)، إذ تتضمن جواباً من شريف مكة محسن الى امير لبنان المذكور على رسالة بعث بها الأخير اليه يطلب فيها الدخول في معاهدة سرية بينهما، ويطلب منه تسهيلات ليقوم برحلة سرية الى مكة باسم اداء فريضة الحج بينما هي في الحقيقة لابرام تلك المعاهدة، وواضح من سيرة الأمير المفعمة بالطموحات التوسعية أن المعاهدة كانت موجهة ضد الدولة العثمانية، وأثارت الوثيقة دهشتي، إذ كيف يمكن لهذا الأمر أن يبقى سرا لكل هذه القرون، فلا تكشف عنه إلا هذه الورقة التي أراد بها مجلد المجموعة تقوية غلاف مجموعته بالصاقها على هذا الغلاف من داخله، ورأيت من المفيد تحقيق الوثيقة ودراسة ظرفها التاريخي، وهكذا فعلت، لكني لم أنشرها في حينها، ولبثت لدي مخطوطة حتى نشرتها على بعض المواقع الالكترونية بعنوان (مشروع رحلة الأمير فخر الدين السرية الى مكة).

وشاء القدر أن أزور يوما، من سنة 1998 شيخاً كبيراً في داره في منطقة العلوية، هو المرحوم (ابراهيم ونة) وكنت حريصاً على زيارة أمثاله من الشيوخ لاحتمال احتفاظهم بوثائق يمكن ان تكون موضوعات لبحوث تكشف أسرارا تاريخية، وقد صح ما توقعته فعلا، فقد أخرج لي، بطلب مني، صندوقاً قديماً من الجلد حوى عدداً من الوثائق الأصلية وكراسات مخطوطة، وأدركت على الفور أني أمام كنز من المعلومات الجديدة، فطلبت منه أن يسمح لي بتصوير محتويات الصندوق، فأذن لي، وقمت بتصويرها فعلا، شاكرا له موافقته.

ولما عدت الى داري شرعت اتصفح بتأنٍ ما تحصل لي من الوثائق والكراسات، فوجدت منها مخطوطة كاملة كتبها أديب موصلي اسمه (محيي

الدين) يصف فيها بالتفصيل الغلاء الفادح الذي عم الموصل سنة 1878 وأسعار المواد الغذائية في سوق الموصل في حالي الرخص والغلاء، ويبين أسباب الغلاء والطريقة التي تمت فيها معالجة آثاره.

أدركت وأنا اقرأ هذه المخطوطة اني اقف أمام أول أثر لمؤرخ يؤرخ لظاهرة اقتصادية بحتة، إنه اذن مؤرخ اقتصادي يعنى بالظاهرة الاقتصادية ويسعى الى تفسيرها، دون مئات من المؤرخين العراقيين الذين انحصرت غاياتهم في تسجيل الحدث التاريخي لا اكثر من ذلك ولا اقل. ووجدت في المخطوطة، على الرغم من عدم معرفتي بمؤلفها الا اسمه الاول او كنيته، فوائد كثيرة، فقمت بتحقيقها ودراستها في دراسة بعنوان (قراءة في نص لم ينشر، غلاء الموصل سنة 1878)، ولبثت في درجي حتى واتت فرصة نشرها في العدد الاول من مجلة الحكمة التي تصدرها بيت الحكمة في بغداد سنة 1998 اي بعد عقد من اكتشافي مخطوطتها في ذلك الصندوق الجلدي القديم.

على أن أسرار الصندوق لم تفرغ بعد، ففي قعره كانت ثمة دفاتر قديمة ذات أغلفة جلدية، أشبه بالمذكرات الشخصية، وبعد أن تأملها عرفت انها (مفكرات) كتبها رجل، هو جد اعلى لابراهيم ونه، اسمه (الحاج خليل ونه) ترك بغداد في رحلة طويلة وصل فيها الى الاسكندرية ومنها الى الجزائر، حيث أقام مدة في مدينة قسطنطينة، وقد حفلت تلك المفكرات بعدد كبير من الملاحظات التاريخية والادبية والطبية التي سجلها صاحبها، فقد كان مهتما بهذه المجالات جميعا، فثمة أبيات نظمها في مناسبة ما، وفائدة طبية في علاج مرض خطير، وأخرى في طريقة حفظ مادة غذائية لمدة طويلة، ووصفات روحية او سحرية، ومستحضر في صبغ الشعر، وما الى ذلك من شؤون متنوعة، وتذكرت أني قرأت اسم الرجل في بعض الوقفيات التي تخص اسرته، وارثا او شاهدا،

فضلا عن وجود مجموعة تاريخية له في مكتبة عباس العزاوي فقدت بعـد وفاتـه، وديوان شعر ضائع، فشكلت هذه الموجودات مادة لدراسة بعنوان (خليـل ونـه، سيرته، آثاره، رحلته)، وكأن الضياع كان يلاحق الرجل، فقـد ضـاعت الدراسـة هي أيضا بين اكداس من أوراقي، ولم اعثر عليها الا بعد سنوات طوال، فنشرتها في مجلة تاريخية تصدر في اربيل خشية عليها من الضياع مرة اخرى!

عبث الكتابة في زمن الجهالة

أصبحت الكتابة في عقد التسعينات في العراق، نوعـاً مـن العبـث في نظـر الطبقة الجديدة التي ظهرت بعد (ام المعارك) اي حرب الخليج لسنة 1990، فقد انحط شأن الكتاب في ذلك العقد انحطاطا عجيبا، حتى أني أذكر أن أحد المثقفين العرب، وقد زار بغداد عهد ذاك، أبدى تعجبه من أكداس الكتب الـتي وجـدها تباع على ارصفة شارع المتنبي في يوم جمعة صحبته فيه، فتصـور أن كثـرة الكتـب المعروضة ظاهرة تدل على ارتفاع اعـداد المـثقفين في العـراق، لكـني أخبرتـه أن الأمر بالعكس مما تصوره، فهذه الكتب كان يعرضها المثقفون الـذي اصـبحوا لا يملكون، ليقتنيها آخرون يمتلكون ولكنهم لا يقرأون، فقد أدت تداعيات الحصـار الذي ضرب على العراق وانهيار سعر الدينار العراقي الى إفقار الطبقة الوسطى، وهي الطبقة المنتجة للثقافة والمستهلكة لها، فأصبح الكتاب مجرد سـلعة بـائرة، إن وجدت من يشتريها فلكي يضعها كديكور لا ليقرأها، وأتذكر ان احد اصـدقائي من زملائي القدماء صادفني وأنا أخرج مسرعاً من المكتبة المركزية لجامعـة بغـداد في الوزيرية متأبطاً كتابين استعرتهما من المكتبة بعد يئست من الحصول عليهمـا في مكتبات البيع، فسألني عما أفعله، وأخبرته بسعادتي في ذلك اليوم إذ حصلت على الكتابين، وإذا به يصفق كفا بكف وهو يقول: والله عجيب، شـوف النـاس وين وصلوا وانت بعدك في مكانك من التخلـف، تفـرح بكتـاب وكأنـك تتـأبط كنزا، قلت، وقد اعجبني كلامه لقوة دلالته: لقـد كـان النـاس في السـابق حتـى الأمي منهم يتأبطون كتاباً ليدل ذلك على تقدمهم ومتـابعتهم لمـا يجـري في عـالم الفكر، والان فإن تأبط كتاب لا يدل إلا على تخلف حامله عما يجـري في العـالم من تكالب على المال. فانظر اي مفارقة في هذا. ثم أني رويـت هـذه المفارقـة الى

الدكتور الحارث عبود، وكنت معجبا بحديثه اليومي الاذاعي في كل صباح، فلـم يكن الا أن جعلها حديثاً القاه في يومين، هذا بعد أن خفـف مـن عباراتـه نوعـا ليحتمله المسؤولون عن الثقافة في تلك الايام.

وأتذكر اني رأيت مرة صناديق قد رصت فيها كتـب عنـد كـتبي أعرفـه في الكاظمية، ولما اخذت اتصفح بعضها بادر فأخبرني أنه باعها فعلا بثمن بـاهض، تصورت أنها مخطوطـات او مطبوعـات نـادرة، لكنـه قـال أنهـا في الواقـع أتفـه الكتب، حتى أن منها دليلا لتلفونات بغداد لسنة 1956، وأمثاله مما تقـل قيمتـه العلمية، ولكن القصة وما فيها أن رجلا من اثرياء الحرب الاخـيرة اشـترى بيتـا فخما في حي المنصور الراقي، في صالته دواليب فـاخرة، فـاقترح عليـه مهنـدس الديكور أن يملأها بالكتب، اي كتب، فما كان منه إلا أن كلـف هـذا الكـتبي أن يشحن صناديقه بما يشاء من كتب بغض النظر عن قيمتها، ولكـن بشـرط واحـد هو أن تكون مجلدة بلونين، احمر وأسـود، لتنسـجم مـع لـوني السـتائر المخمليـة والسجاجيد الايرانية، ففعل هذا ما أمره، وقال ضاحكا: والله إن هذه الـدواليب لن تفتح الا بعد موته، فلا يهم الان ما تكون!

وكنت أسمع مقولـة الكتبـيين في السـابق أن مصـر تكتـب ولبنـان يـوزع والعراق يقرأ، فإذا بالعراق، في التسعينات وربما ما بعـدها، لا يكتـب ولا يـوزع ولا يقرأ. وأذكر أني أعرت بعض كتبي، مما الفته او حققته، الى رجل كـان يـتردد الي، وكنت أظنه صديقا، فإذا به – نتيجة حاجته الى المال-يعرضها لدى بـائع في شارع المتنبي، ولم أستعدها إلا بعد أن دفعت الى ذلك البائع ما أَرضاه.

كما أتذكر اني كنت يوما، في سنة 1991 في سوق السنك ببغـداد، حيـث تباع المواد الاحتياطية للسيارات، وترتفع (سر قفليات) المحلات التجاريـة في كـل

حين، فصادفني رجل يظهر أنه يعرفني، وسألني وهـو يشـير الى دكـان صـغير قـد صبغ واجهته بلون فاقع، أتعلم يا دكتور كم ربحت بشراء هذا الدكان وبيعه بعـد طلائه؟ لقد ربحت مبلغ مليون دينار تقريبا، ثم سكت برهـة، واسـتأنف سـائلا: وأنت يا دكتور، هل يمنحك عملك في التأليف والسهر (وتبيـيض العيـون) مثـل هذا الربح السريع؟، وحرت كيف أجيبه، ولكني تذكرت بيتا للامام علي بن ابي طالب عليه السلام فأنشدته: رضينا قسمة الرزاق فينا لنا علم وللجهال مالُ

فسكت قليلا ثم انصرف ولم يجب!

المرأة في التاريخ

وشاء القدر أن تدعوني السيدة منال الالوسي رئيسة الاتحاد العام لنساء العراق، مع الفقيه القانوني الكردي الدكتور مصطفى الزلمي، لحضور ندوة عقدتها عن قوانين المرأة في مقر الاتحاد في الوزيرية، فانتهزت الفرصة لأعرض عليها مشروعا طالما طمحت الى تنفيذه، وهو كتابة كتاب يرصد أعمال الخدمة العامة التي قامت بها النسوة في العراق في التاريخ، وكان طلبي الوحيد لها ان تتوسط لي لدى وزير الاوقاف كي ييسر لي فرصة الاطلاع على سجلات الوقفيات المحفوظة في الوزارة، ولما كان طلبي متواضعا وغير مكلف لأحد فقد وافقت، وكتبت كتابا الى الوزير المذكور لتيسير مهمتي.

وكانت مسألة دور المرأة في التاريخ، وتقدير حجم هذا الدور في حركة التاريخ، قد شغلتني منذ مدة، حتى أني كتبت مرة ضمن عمود لي في جريدة الإتحاد مقالا بعنوان (وللمرأة تاريخ أيضاً) قلت فيه "أن للمرأة في بلادنا تاريخ لم يكتب حتى الآن، أو في الأقل، لم تجمع أجزاؤه لتشكل صورة متكاملة توضح صورة الأدوار التي أدتها، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم ثقافية أم اجتماعية..الخ" (الاتحاد 27/ 10،1998).وكنت قمت مرة بإحصاء الاعمال الخيرية في بغداد والموصل، في العصر العثماني، من بناء المساجد والمدارس والسقايات واعمال الخدمة العامة، فلاحظت أن اكثرها من إنشاء سيدات لا رجال، خلافا للصورة السائدة عن المرأة في تلك العصور، من أنها كانت بعيدة عن المساهمة في الحياة العامة، وقادتني هذه المقدمة لدراسة أعمال الخدمات العامة التي قامت بها المرأة تفصيلا، بالرجوع إلى سجلات الاوقاف، والمعلومات المتوفرة في المصادر والوثائق، وقد بدأت العمل فعلا بان كنت أقضي سحابة كل

يوم من ايام شهري العطلة بين هذه السجلات، اتفحصها وثيقة فأخرى، مستخرجا منها كل ما فيه علاقة بعمل خيري قامت به المرأة، من أعمال الخدمة العامة، هذا فضلا عن مراجعتي المصادر التاريخية الأخرى التي تناولت في ثناياها انشاءها مثل هذه المنشآت النافعة في العصر العباسي، ثم انـي عـززت مادتـه بالسفر الى الى كل من الموصل وكركوك حيث تجتمع أكثر تلك الأعمال النسوية، فأقابل ما سجلته من الوثائق على واقع ما هو موجود فعلا من منشآت، حتى استوى لي بعد حين كتاباً قائما بذاته عنونته (تاريخ الخدمات النسوية العامة في العراق)، وكنت أرجو ان يقوم (الاتحاد العام لنساء العراق) بنشر هذا الكتاب، لكني لاحظت أن هذا الاهتمام فتر تماما حين أخبرت السيدة منال بإنجاز المشروع، وصار جاهزا للنشر، فاكتفت بطبعه بعدد محدود من النسخ، بينما لبثت مسودات الكتاب على مكتبي مدة، تنتظر فرصة نشره نشرة يستحقها.

وشاء القدر أن تتولى كليتنا اصدار كتاب بعنوان (بغداد في التاريخ) ضم مجموعة دراسات جيدة عن بغداد، فشاركت فيه بفصل عنوانه (تاريخ الخدمات النسوية العامة في بغداد) انتزعته من كتابي غير المنشور، ثم أني نشرت فصلا آخر بعنوان (تاريخ الخدمات النسوية العامة في الموصل) في مجلة المورد بعد سنين (المجلد 27، العدد 1، 1999)، أما الفصول الاخرى فلبثت حبيسة المسودة لم تطبع بعد. على ان الهيئة المشرفة على اصدارات بغداد بمناسبة الاحتفال ببغداد عاصمة الثقافة العربية اختارت الفصل الخاص ببغداد فترجمته الى اللغات الانكليزية والفرنسية والاسبانية وجرى صدور هذه الطبعات تباعاً في سنة 2014.

سيرة امرأة قوية

وفي أحد الايام من سنة 1987كنت أتحدث الى الاستاذ الدبلوماسي أمين المميز، في داره الكائن على شاطئ نهر دجلة في محلة الصرافية، عن الخدمات العامة للمرأة في بغداد، فانجر الكلام الى أعمال السيدة المحسنة عادلة خاتون بنت والي بغداد احمد باشا وزوجة خلفه والي بغداد سليمان باشا الاول، وكانت هذه السيدة صاحبة خيرات كثيرات، إذ أنشأت في بغداد وغيرها عددا من المنشات الخدمية النافعة، فاقترح الدبلوماسي الشيخ أن أقوم بتأليف كتاب في سيرتها يتولى هو طبعه على نفقته الخاصة، ذلك أن أسرته تنحدر من ذرية عمتها، ووافقت على الفكرة مبدئيا لكني ترددت في تنفيذها، تصوراً مني اني لن أجد من المصادر والوثائق ما يكفي لتحقيقها، وأتذكر أنه أرسل الي الباحث الصديق زين النقشبندي غير مرة لاقناعي بالبدء في العمل، وأخيرا بدأت فيه فعلا، وشرعت بالكتابة، فتناولت مسألة الكتابة عن تاريخ المرأة لدى المؤرخين السابقين في العصر العثماني، ثم استغرقت في العمل، متطرقا الى ظروف مجيئ أسرتها الى بغداد، ونشأتها، وزواجها، وتدخلها في سياسة زوجها سليمان باشا الاول، وما نسب اليها من مؤامرات بعد وفاته، وأعمالها الخدمية الكثيرة ومنشآتها الخيرية وما الى ذلك من شؤون، وقلت للمميز ان هذه السيدة كانت تتمتع بشخصية ذات طبيعتين مختلفتين، شخصية قوية الى حد انها حكمت العراق من خلال زوجها بيد من حديد، حتى يمكن ان نسميها (مسز تاتشر العراق) تشبيها لها برئيسة وزراء بريطانيا التي خاضت حرب جزر فوكلاند في نيسان سنة 1982، وشخصية رقيقة رحيمة كثيرة الإحسان حتى عرفت بأم الخيرات، فلما انجزت الكتاب قام هو بالانفاق على طبعه، وتولت الدار الوطنية للنشر والتوزيع توزيعه، فنفد.

معالم بغداد



كان اطلاعي على وقفيات بغداد سبباً في أن افكر بتنفيـذ مشـروع جديـد، هو الافادة من الوقفيات والحجج والاعلامـات الشـرعية في تـأليف كتـاب عـن خطط بغداد ومعالمها في القرون الاخيرة، بوصفها منجماً غنياً يحفل بالعديـد مـن الإشارات الى المحلات والمساجد والتكايا والاسواق والخانات والحمامات والمقابر والمشاهد والضواحي في بغداد، وأكثر هـذه الاشـارات لا نجـد مثلـه في المصـادر الاخرى، وكان لابد من القيام بجرد تفصيلي لتلك الوثائق من جديد، فصـممت (استمارة) تنقسم الى عدة حقول: حقل يتضمن اسم الواقف، وآخر يتضمن اسم العقارات الموقوفة، وثالث مخصص لأسماء الشهود علـى الوقفيـة، ورابـع لنـوع العملـة المسـتعملة ومـا الى ذلـك مـن معلومـات، واقترحـت علـى دار الكتـب والوثائق ان تتولى طبع كمية من هذه الاستمارة ففعلت، وشرعت بالعمل حيـث أدخلت هذه المعلومات في حقول الاستمارات، ثم استخرجت أسماء العقـارات الموقوفة ووصفها، من الحقل المخصص، ورتبتها علـى الموضـوعات والحـروف،

ولما لم يكن لدي جهاز كمبيوتر في ذلك الوقت، فقد استعنت بشعبة الكمبيوتر في مؤسسة بيت الحكمة، وأخيرا أنجز الكتاب فسميته (معالم بغداد في القرون المتأخرة في ضوء الوقفيات والحجج والاعلامات الشرعية) وصدر عن بيت الحكمة سنة 2000 في نحو 450 ص، ومن المؤسف ان حالت أزمة الورق في حينها دون تزويده بالفهارس الهجائية اللازمة.

نفد الكتاب في فترة قياسية لم تتجاوز الشهرين وسبب ذلك أنه تضمن كثيرا من المعالم البغدادية التي داعبت أسماؤها ذكريات البغداديين، ولأنه تضمن أيضا أسماء أعداد غفيرة من سراة البغداديين، مما أفاد اولئك الذين كانوا يبحثون عن أصول أسرهم وعقاراتها المنسية. والآن أقوم بإعداد طبعة جديدة منه.

مشاهد ومعالم

لم أكن أدري، على وجه التحديد، الدوافع التي كانت تدعو صدام حسين للاهتمام بتعيين قبور المشاهير والأولياء والصالحين في بغداد أو في خارجها، فمنذ أوائل الثمانينات، كان وزير الأوقاف، وهو يومذاك عبد الله فاضل، يرسل إليَّ كتبا تبدأ بالعبارة (وجَّه السيد الرئيس إلى القيام بدراسة عن قبر فلان) ومن تلك القبور مثلا قبر ابو نواس، وقبر الجنيد، وقبر بهلول، وقبر منسوب الى من يدعى (أبو خلخال) في شمالي تكريت، وقبر منسوب إلى السيد أحمد بن السيد حسن المثنى، في قرية (جبة)، وآخر لشعيب في ديالى، وقبر عمر الأشرف في ذي قار، وغير ذلك. والغريب أن هذه الكتب الرسمية كانت تصلني إلى الكلية وهي في ظرف مغلق كتب على طرفه عبارة (سري، شخصي، على الفور)، وكنت استغرب هذه الألفاظ، فالقبور تزار عادة ومن ثم فلا سرية فيها، وزيارتها عامة، فلا يتوفر فيها جانب شخصي طبعا، وهي موجودة في مكانها منذ أن دفن فيها أصحابها فلا ينتظر منها أن تغير أماكنها مثلا حتى يبرر ذلك عبارة (على الفور) لتوخي السرعة في الإجابة. وزادت هذه الكتب مع الوقت حتى لم يكن يمر شهر إلا وأكلف باعداد دراسة أو تقرير دقيق في مصادره وأسانيده عن هذا القبر او ذاك، ولم يخلو ذلك من جهد ووقت، وتذكرت أن والدي رآني يوماً وأنا اقرأ كتاب (الأخبار الطوال) للدينوري، وقد اشتريته حديثا، وكان امتحان البكالوريا للصف الثالث المتوسط على الأبواب، فأراد أن يصرف همتي عن قراءته الى قراءة الكتب المنهجية الخاصة بالامتحان، فقال: يا ولدي، مهما كانت كتب التاريخ ممتعة فهي لن تجعل منك أكثر من حفار قبور!، فقلت في نفسي: ما أعجبها من نبوءة، فها أنذا (حفار قبور ميري)، ولو جمعت ما قدمته من هذه

الدراسات لشكلت كتابا. وكنت مطمئنا إلى أن الفرصة متاحة لجمعها فهي محفوظة بعناية في وزارة الأوقاف في باب المعظم، إلا أن تدمير هذه الوزارة وحرقها في أثناء الاجتياح الأمريكي لبغداد أودى بتلك الدراسات مع الأسف.

ثم أني قدمت إلى بيت الحكمة عدداً من الدراسات الخططية التي تختص بمشاهد وقبور داثرة، وكنت استهدف منها تعيين مواقع جديدة، أو إحداثيات، على خارطة بغداد، يمكن على تساعد على إغناء معلوماتنا عن خطط المدينة في العصور العباسية، وقد كشفت كل دراسة عن موضوع بذاته، فواحدة عينت فيها موضع قبر المؤرخ الطبري، من خلال دراسة مفصلة عن خطط محلات الرصافة القديمة، وهي الأعظمية اليوم، وقد ترجح عندى في حينه أنه كان يقع في حديقة صغيرة تطل على شارع عشرين، تسمى اليوم حديقة الرحبي، فدعوت إلى إقامة شاخص هناك يذكر الناس بقيمة هذا المؤرخ المفسر العظيم. كما قدمت دراسة أخرى عن تعيين موضع قبر الإمام أحمد بن حنبل، وكان قد دفن في مقابر باب حرب، وتأكد لي أن هذه المقابر كانت تقع في الشمال الغربي من قصبة الكاظمية الحالية، وتحتل موقعها اليوم مقبرة الهبنة، فيسر ذلك تعيين القبر، بافتراض أنه يقع في أعلى نقطة في هذه المقبرة، التي هي النقطة المركزية فيها، ذلك أن قبره كان سببا في كثافة الدفن عنده، وارتفاعها عما سواها من أرض المقبرة الأخرى. ودراسة أخرى توصلت فيها الى تعيين مواضع قبور الخلفاء العباسيين، وذلك بتحديد مقبرة ترب الخلفاء في الرصافة، كما كانت تسمى في عصرهم، وهي تحتل اليوم المساحة الممتدة بين حديقة النعمان في الأعظمية واعدادية الأعظمية للبنات، واقترحت إقامة شاخص تذكر فيه أسماء الخلفاء المدفونين في هذا المكان وتعريف بهم، وغير ذلك من الدراسات، ثم أني علمت أن بعض الكتاب أخذ يعيد نشر هذه الدراسات باسمه دون اشارة إلى ما بذلته من جهد فيها.

وكان سادن القبر المنسوب إلى الإمام ابي حامد الغزالي، في مقبرة الغزالي ببغداد، قد حاول إقناعي بأن هذا القبر له فعلاً، مستنداً إلى أقوال بعض الهنود الذين كانوا يزورونه دون أن يكون لهم أدنى علم بهوية صاحبه، وقد اعتاد أن يثير ضجة بين حين وآخر حول اكتشافه هذا، وأن يحصل على تأييد أي جهة رسمية لادعائه هذا، وقد أفهمته في كل مرة أن حقائق التاريخ لا يمكن أن تغير أو تحرف، بجمع التواقيع، ولو أن كل أهل الأرض وقعوا على باطل فلن تجعله تواقيعهم حقاً، ذلك أن قبر الغزالي معروف تماماً في مقبرة (الطابران) في طوس، وأنه لما يزل قائماً وعندي صورته، ولكن الرجل كان يصر على ادعائه بعناد عجيب، ووصل به إلى محاولة اقناع وزير الأوقاف بها، وكان يومذاك الدكتور عبد المنعم، فما كان من الأخير إلا أن استدعاني إلى مكتبه لحسم هذا الأمر، وفي مكتبه وجدت الرجل صاحب الإدعاء جالساً قبالته، وبادرت فأوضحت للوزير الدلائل والنصوص الكثيرة التي تؤكد دفن الغزالي في طوس، وطالبت المدعي بإبراز دليل واحد على صحة إدعائه، فلم يحر جواباً، ثم قال: أنه رأى مناماً للغزالي يخبره بنفسه أن هذا هو قبره، فقلت له متعجباً: عجيب! فلقد رأيت في المنام قبل أسبوع أن وليا صالحا، هو فلان، وسميته، يخبرني أنه مدفون في وسط شارع الرشيد تماما، عند ساحة الوثبة، وعليه فإني أطالب ببناء قبة كبيرة في وسط الشارع تخليداً لذكراه، وتسهيلا لزيارته، وبالطبع فقد أفحم الرجل وخرج وهو ناقم علي إبطالي لادعائه الغريب. على أنه لم ييأس، إذ ما أن مرت أشهر حتى سعى عند بعض دوائر ديوان الرئاسة لعقد ندوة كبرى تشهد له بصحة ادعائه، وهنا اضطررت إلى أن أنشر مقالا أرد فيه عليه، وقلت "إن مرور بضع سنوات على حسم الجهات الرسمية المسؤولة والعلمية الأمر على ما وضحنا، لا يجيز إحياء الإدعاء نفسه من جديد، وحشد المؤرخين في ندوة لن يؤدي إلى حرف

الحقيقة، أو لي عنق التاريخ، إذ لا يمكن لباحث أن ينفي حقيقة تاريخية وأثرية أكدها جميع المؤرخين على الإطلاق، وعلى مدى قرون متعاقبة، ونحن نطالب الشيخ، طالما جدد دعواه، أن يأتي بمصدر واحد كتبه مؤرخ مختص قبل القرن العاشر للهجرة، أشار فيه إلى أن الإمام الغزالي دفن في مقبرة سوى مقبرة (الطابران)..الخ" (جريدة الإتحاد 1/ 1/ 1999). وقد علمت فيما بعد ان الرجل كان يرجو من ادعائه شيئاً من متاع الدنيا.

وفيما له تعلق ببغداد أيضا، أني ألقيت عدة محاضرات عن جوانب من خططها في نادي الصيد، مدعوا من جمعية صغيرة لكنها فعالة باسم أصدقاء بغداد، وكان أكثرها طرافة محاضرة بعنوان (جولة سياحية في بغداد العباسية)، وقد صحبت فيها الحضور، في خيالهم طبعاً، في جولة سياحية بدأتها بنقطة افتراضية قرب مبنى الكرنتينة (المحجر) القديم في منطقة باب المعظم، ومضيت بهم في بغداد العباسية، مقتربا من دار الخلافة من جهة، ومن جامع القصر من جهة أخرى، وصولا إلى منطقة السنك على دجلة، ثم عدت بهم سالكاً أزقة دار الخلافة للعباسية إلى نقطة الإنطلاق الأولى، وأدركت من خلال شحن الجولة بمشاهد دقيقة من بغداد العباسية، إني نجحت في أن أحملهم بطريقة تشبه ما فعلته رواية (آلة الزمان) لإج جي ويلز، حينما تخيل آلة تنقل الإنسان إلى أي عصر يريد. وبلغ من نجاح المحاضرة في شحذ خيال الحضور أن بعضهم أخبرني أنه قصد الطرق والأماكن نفسها وسار فيها متخيلا أنه يسلكها في ذلك العصر التالد.

كما حاولت من خلال عضويتي الفعالة في لجنة تسمية الشوارع والمحلات في أمانة بغداد، أن أعيد تسمية عدد من هذه الشوارع والمحلات بأسمائها العباسية، أو إطلاق أسماء شخصيات بارزة من العلماء والأدباء والمؤرخين

عليها، وأذكر أني اقترحت تسمية أحد شوارع الكرادة الشرقية باسم (كلواذا) وهو اسمها الآرامي القديم منذ أوائل العصر العباسي، فكان ذلك الاسم موضع استغراب شديد من أهل ذلك الحي، حيث لم يسمعوا به من قبل. وكنت قد اقترحت إعادة تسمية شارع الكفاح باسمه القديم وهو شارع الملك غازي، تخليدا لموقفه الوطني، وقد رفض ديوان الرئاسة هذا المقترح، لكنه عاد فوافق عليه. ولما كان أكثر الشوارع الجديدة لا أسماء لها، وهي تسمى عادة بأي علامة دالة، مثل (شارع المكافحة) لوجود دائرة لشرطة مكافحة الإجرام هناك، وشارع (المشجر) في الغزالية، مع أنه يخلو من شجرة واحدة، وشارع (البدالة) نسبة إلى وجود دائرة بدالة التلفونات في نهايته، فاجتهدت، مع أعضاء كرام في هذه اللجنة، باطلاق أسماء مقبولة عليها، مستمدة من التراث، فالشارع المسمى بشارع مدير الأمن، نسبة الى أحد من سكن فيه، سميته بشارع الحسن البصري، فقد كنت معجبا بأقواله، كما سميت شارعاً باسم الدكتور مصطفى جواد وآخر باسم المؤرخ عباس العزاوي، وهكذا الامر بالنسبة الى غيره من الشوارع. وأقر المجلس الوطني كل تلك المقترحات في جلسة خاصة بتاريخ 6/ 11/ 1989. وقد كتبت مقالا بعنوان (من حق بغداد علينا) أقول فيه أنه كما من حق الابناء علينا أن نختار لهم أسماء ذات دلالات جميلة، فإن من حق بغداد، بشوارعها وأزقتها ومحلاتها، ان نختار لها اسماءا تناسب تراثها التليد (الإتحاد 28/ 8/ 1998).

استشارات غريبة

اعتدت على أتلقى من حين الى آخر انواعا مختلفة من الاسئلة، من جهات عليا، بعضها غريب فعلا، وكان علي الاجابة عنها، فمن تلك الاسئلة مثلا: توضيح قبائل العرب النصرانية في فتح تكريت (1/ 10/ 1999) ومتى ظهر تقليد إطلاق المدفعية قذائفها في الاحتفالات، وما هو عدد ما اعتيد على إطلاقه (15/ 9/ 1999) وهل كان لتقليد اتخاذ أخبار بألوان مختلفة بحسب مستويات المسؤولين جذور في الحضارة الإسلامية؟ وما إلى ذلك. وأذكر أن رجلاً قدم دراسة للرئيس صدام حسين يقترح فيها إلغاء رمز النسر من شعار الدولة، وإبداله بالصقر، فما كان من صدام إلا ان حول الدراسة الى وزارة التعليم العالي، فحولته هذه الى جامعة بغداد، ومنها الى مركز إحياء التراث العلمي العربي، وكنت يومذاك رئيساً له، وقرأت الدراسة فوجدتها مبنية على أساسين، أولهما أن من شأن النسر أن يقتات على بقايا الرمم، على خلاف الصقر، وثانيهما أن النسر طائر غريب عن منطقتنا، لا يزورها إلا مهاجرا أو ماراً يها، ولما قرأتها لاح لي ان كاتبها تنقصه دراية في التاريخ، فاضطرني ذلك إلى استدعائه، وبعد نقاش قصير وجدت ان دوافعه غير علمية، وإنما تدخل في نطاق طلب الشهرة لا أكثر، وقدرت كم سيكلف تنفيذ هذا المقترح من مال إذا ما أبدلت شعارات الدولة، لا سيما في الجيش، فكتبت دراسة مقابلة أثبت فيها أن العقاب، وهو النسر نفسه، لا سيما الذهبي منه، كان رمزا لكثير من الدول الاسلامية بل أنه كان اسماً لإجدى رايات الرسول الكريم (ص) وشعارا للقائد الأيوبي صلاح الدين. ومن الواضح ان دراستي كانت مقنعة إذ ماتت فكرة التغيير مرة واحدة، وخاب أمل مقدمها في الشهرة أو التكريم.

ومن تلك الاستشارات الغريبة أن كاتبا من البصرة، يدعى حامـداً، كتـب في جريدة القادسية، وهي جريدة القوات المسلحة، مقالاً يذكر فيه أن جداً لصدام يدعى (ناصرا) كان أميراً على البصرة، ونسب اليه دوراً مهماً في الدفاع عن هذه المدينة ضد الفرس والعثمانيين معاً، في غضون القرن السادس عشر، ولذلك فهو يطالب بتخليد اسم ناصر المـذكور باطلاقـه علـى أحـد معـالم البصـرة المهمـة، كالجامعة مثلا، فما كان من صدام إلاّ أن طلب من لطيف نصيف جاسم، بوصفه وزيراً للثقافة والاعلام، رأيه في هذا المقال، والواقع كان الأمر محرجاً لكـل مـن طلب منه أن يدلي برأيه، فمثل هذه المقترحات التي تتعلق بنسب صدام كان ينظر إليها بجدية كبيرة، وشاء حظـي أن يقـع اختيـار الـوزير علـيّ وعلـى اثـنين مـن الأصدقاء، هما الدكتور محمد المشهداني وعبد الحميد العلـوجي لنقـدم رأينـا في الأمر. وقد كنت مدركا ان فكـرة (ناصـر) هـذا لم تكـن تقـوم علـى اي أسـاس تاريخي سليم، وأنه لا دليل على وجوده أميرا في البصـرة في ذلـك التـاريخ، وأن بواعثها لم تكن علمية بأية حال، فطلبت أن تيسـر لنـا رحلـة علميـة الى البصـرة لنراجع مكتبة آل باش أعيان التي كنت أصبو الى الاطلاع على مكنوناتها النفيسة منذ عهد بعيد، ولم أجد خيرا من هذه الفرصة لزيارتها، وهذا مـا حصـل فعـلا، فقد قصدنا البصرة، وفتحت لنا المكتبة الـتي لا تفـتح لأحـد إلا نـادرا، وقضـينا يـومين فيهـا اطلعـت خلالهمـا علـى كـل مـا كنـت أرجـو الاطـلاع عليـه مـن مخطوطاتها، لا سيما ما يتعلق منها بتاريخ البصرة نفسها في العصر العثماني، وقد سجلت ملاحظات عديدة أفدت منها، فيما بعـد، في كتـابي (الاسـر الحاكمـة في العراق في القرون المتـأخرة) وفي كتـابي الاخـر (التـاريخ والمؤرخـون في العصـر العثماني) وقد تأكد لي صحة تصوري بانتفاء رواية كاتب المقال من كـل وجـه. وحينما عدنا الى بغداد، طلبت استدعاء صاحب المقال للاستفسـار عـن مصـدره

في هذه الرواية، وحضر فعلا ولم يكن يتوقع إلا أن نشكره ونهنئه باكتشافه هـذا، الا انه فوجئ بي أسأله عن مصادره، ولما لم يبرز شيئا يعتـد بـه، قـال انـه مـؤرخ ومن حق المؤرخ أن يجتهد، وهذا الأمر من اجتهاده، وسألته عن شروط الاجتهاد وأنواعه، فظهر انه لا فكرة لديه عن الاجتهاد كله، وعليه ختمـت الأمـر بكتابـة تقرير يفيد بعدم صحة هذه الدعوى من أساسها، ووقع زميليـي عليـه، وقـدمناه إلى الوزير الذي رفعه إلى صدام، والظاهر أن التقرير كان مقنعاً إلى الحد الـذي لم نعد نسمع شيئا عن الموضوع، وأتذكر أن العلوجي قال ضاحكاً ونحن نخرج مـن الوزارة: أخشى أن يصيبنا ما يصيبنا بسبب تقريرك هذا، على أن شيئا من ذلك لم يحدث، وخابت آمال كاتب المقال في تكريم كان يتوقعه.

وفي ذات مرة قصدني الصديق الدكتور بهنام ابو الصوف لينقل الي حديثا عريبا، خلاصته ان عدي سمعني مرة في حـديث لـي علـى التلفزيـون اقـول: ان مدينة ماردين كانت في عهد مماليك العراق، بين 1750- 1831 جزءا من ولاية بغداد، وانه مهتم بهذه المعلومة ويريد ان ترسم له على خارطة سياسـية، وقلـت له اذا كان (الاستاذ) يرجو ان يطالب من خلال هذه الخارطة بماردين ليضمها إلى العراق فعليك ان تخـبره بأنـه في ذلـك الوقـت كـان العـراق جـزءا مـن الدولـة العثمانية، وهمست في أذنه، وكنت اثق به وأئتمنه، يكفينا ما نحن فيه من ويـلات بسبب المطالبة بالكويت، فما بالك لو طولب الان بجزء من تركيا! وعلى اية حال اخبرني ابو الصوف انه رسم الخارطة المطلوبة وقدمها إلى عدي، ولكن شيئا مـن الإعلام لم يترتب على ذلك والحمد لله.

وفي ايلول من سنة 1999 أراد بابا الفاتيكـان يوحنـا بـولس السـادس أن يزور العراق لـ"يمشي في خطى الأنبياء"- على ما قيـل في ذلـك الوقـت- فكلفـني وزير الأوقاف أن أعد دراسة مركزة عما تبقى من تلك المشـاهد، فانصـرفت إلى

إعداد هذه الدراسة لتشمل مجموعة من الأماكن التي نسبت لبعض أنبياء العهد القديم، وبعضها لم يكن مؤكدا، أو غير صحيح بالمرة، ثم علمت أن أصل هذا التكليف من ديوان الرئاسة الذي كان مهتماً بإنجاح هذه الزيارة وبعدها أعتذر البابا وانتهى الامر.

ندوة عن الحجاج

في سنة 1996 أذاع تلفزيون الشباب الذي كان يشرف عليه عـدي صـدام حسين مسلسلا مصريا، بعنوان (عمر بن عبـد العزيـز) مـن بطولـة الفنـان نـور الشريف، احتلت فيه شخصية (الحجاج بن يوسف الثقفي) مساحة كبيرة ومهمة من حلقاته، ويظهر أن ظهور هذه الشخصية الصارمة، والمكروهة، أثار لغطاً ما.

واتصل بي أحد مساعدي (عـدي)، وهـو عبـاس الجنـابي، وطلـب مـني التوجه إلى مبنى الإذاعة حيث يكون في انتظاري بعـض المـؤرخين، ومـن هنـاك نتجه الى الاستديو لنسجل ندوة عن المسلسل، كان يتكلم بلهجة آمرة وكأنه يملي أمرا لا يطلب طلبا عادياً، وتطيَّرتُ من الأمر، واضطررت الى الاعتذار لـه بـأني لست مختصا بالعصر الأموي، ولا علم لي به، واقترحت بديلا لي هـو الـدكتور صالح العلي رئيس المجمع العلمي، فهو أدخل في اختصاصه، فضلا عن أنه ألف كتاباً في سيرة عمر بن عبد العزيز، وتصورت أنـي نجحـت في اقناعـه، وتنفسـت الصعداء، ولكن ما ان مضت نصف ساعة، حتى اتصل بي بصوته الآمر الناهي، مخبراً إياي أن لا محيص عن المشـاركة في النـدوة المـذكورة، وهنـا اضـطررت الى الذهاب في الموعد المضروب، لأجد بانتظاري عـدد مـن الـزملاء، بيـنهم صـالح العلي، ونزار الحديثي، ويديرها رشيد الجميلي، ولم يكن أحد يـدري علـى وجـه اليقين ما وراء هذه الندوة، ولكن علمنا أن الموضوع مهم، وأن نـدوة سـابقة قـد سجلت ثم ألغيت لأن كـلام المتحـاورين لم يعجـب المسـؤولين، وأخـيرا بـدأت الكاميرا بالدوران، وأخذ الكلام يأخذ مجـرى تبريـر أعمـال الحجـاج علـى أنهـا ضرورة فرضتها رغبته في إقرار الأمن، وحينما وصل الدور لي، أدركت بأني إن

تكلمت بنفس هذا الاتجاه، فسأفقد كل ما بنيته من مصداقية أمام الناس دفعة واحدة، فما كان مني إلا أن انطلقت موضحاً أن الحجاج فرض الأمن بالدم والحديد، وأن فلسفته في حفظ الأمن بهذه الوسيلة وحدها هي المسؤولة عن نشوب الانتفاضات ضد نظامه بمجرد أن توفي، وقلت أنه كان طبيعيا أن يحدث هذا، فوجئ المشاركون في الندوة بهذا الطرح الذي يناقض تماما كل ما قيل من قبل، وحاول مدير الندوة أن يخفف من وطأة الكلام قائلا: ولكنه كان يحفظ الحديث، قلت: لو كان يحفظ حديثاً واحداً هو (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) لما فعل ما فعل، فالمسلمون لم يسلموا من طول لسانه ولا من بسط يده، وهو القائل: إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، ولاحت لي أن وجوه الحاضرين قد امتقعت، وبهت الزميل مقدم الندوة، وأعلن عن انتهائها، وحينما انتهت كنت مدركا تماما أنه لم تبق أرض حرام إلا ودست فيها، وعليَّ أن انتظر مغبّة ما فعلته، وقيل لنا ان البرنامج سيذاع بعد ان يفحص، وحين عدت الى الدار شاهدته، وبعد عرضه أخذت باستقبال هواتف المهنئين على ما قلت، كان أولهم الصديق ياسين الحسيني، وفي اليوم التالي كان ثمة أطفال يشيرون إليَّ بأصابعهم وكأني رجل فضاء، وبعض سواق الاجرة كانوا يرفضون تسلم اجرتهم إكراما لي، وتعجبت عبلة العزاوي حينما رأتني أدخل قاعتها للفنون، وهتفت: هل ما زلت تمشي على رجليك؟ قلت ضاحكا: وهل كنت تتوقعين أن أمشي على رأسي مثلا، قالت: لا، ولكنك تعلم ما قلته البارحة، وزادت شعبيتي لدى اناس كثيرين لم أكن أعرفهم، وتساءلت: إن كان ما قلته خطيرا إلى هذا الحد، فلما سمحوا بعرضه، وعلى اية حال مضت الايام ولم يمسني سوء، وشعرت ان الله تعالى وقف معي بقوة وأنقذني من تهلكة أخرى ما كان لدفعها من سبيل. وأذكر ان الدكتور مؤيد سعيد، مدير الاثار، قال لي مرة

ونحن نحضر مجلس الفاتحة لأحد موظفيه في حي الاسكان: أنت تتمتع بشعبية صامتة يا دكتور!

وبعد مدة استدعاني حامد يوسف حمادي، وزير الثقافة يومذاك، الى مكتبه وفاتحني بموضوع غريب فعلا، إذ طلب مني أن اقدم حلقة تلفزيونية موضوعها حب العراقيين لبناء القصور، وان ما يبنيه زعماؤعم منها هي قصور الشعب، وذلك للرد على (تخرصات) (الاذاعات المأجورة) التي كانت تتخذ من بناء الرئيس لقصور الفخمة مادة للتشهير به، كانت الفكرة غريبة وغير معقولة، وبدا أن فكرة ولع العراقيين ببناء القصور في أيام الحصار ستكون (نكتة)، وتصورت أين ستنتهي مصداقيتي لو ان خرجت على الناس بهذا الكلام، فاعتذرت عن تقديم ما أراد، وألح هو واعتذرت، وزاد الحاحا بينما زدت أنا ثباتا على اعتذاري، وبررت موقفي الرافض بأن بناء العراقيين للقصور في العراق كان في العصور القديمة والاسلامية، وهي ليست من اختصاصي، اما العصر الحديث، وهو اختصاصي، فجميع ما بني فيه من قصور فهي لغزاة ومحتلين، وعبثا حاولت أن أقنعه بأسماء اخرى سبق ان تعاملت مع التلفزيون، ومنها الدكتور بهنام ابو الصوف، المتخصص بالتاريخ القديم، لكنه حينما يئس مني تماماً، أنهى اللقاء، وخرجت من مكتبه أتنفس الصعداء مرة اخرى.

رسائل ودراسات وثائقية

وكان ضمي الى الهيئة الاستشارية لدار الكتب والوثائق فرصة ذهبية للاطلاع على مزيد من الوثائق النادرة، والملفات التي كانت تصل الى الدار من بعض المؤسسات الحكومية تباعا، وكثيرا ما كنت أقترح لطلبتي في مرحلتي الماجستير والدكتوراه موضوعات تتخذ من تلك المجموعات الوثائقية مادة لها، من ذلك مثلا أني اطلعت ذات مرة على نحو خمسين ملفا تخص المزارع الملكية في العراق، فاقترحت على أحد الطلبة أن يتخذها مادة لكتابة رسالة ماجستير، بعنوان (المزارع الملكية في العراق دراسة تاريخية)، واطلعت على ملفات كثيرة تخص لواء الديوانية في العهد الملكي، كانت أغلفتها متهرئة ومليئة بذروق الطيور، مما دل على أنها كانت ملقاة على سطح بعض الدوائر، فاقترحت على طالب ان يكتب رسالة او اطروحة عن (تاريخ قانون دعاوى العشائر في العراق) ذلك ان معظم تلك الملفات كان يتعلق بتلك الدعاوى، وهكذا. وقد عمدت الدار الى عقد ندوات علمية بين حين وآخر، تتناول موضوعات وثائقية محددة، وكان للهيئة الاستشارية الدور الأساس في الاعداد لها واختيار محاورها وتكليف الباحثين بالكتابة فيها، وأتذكر أني شاركت في احدى هذه الندوات بموضوع عنوانه (واقع الوثائق العثمانية في بغداد) تناولت فيه وثائق الأوقاف ووثائق المحكمة الشرعية ووثائق الطابو، بينما اقترحت أن يتولى الصديق الدكتور ابراهيم خليل احمد العلاف، من جامعة الموصل، كتابة بحث عن (الوثائق العثمانية في الموصل) وأن يتولى رجل دين مسيحي كتابة بحث ثالث عن (سجلات العماذ مصدرا للتاريخ الاجتماعي) وهذه السجلات هي التي تدون فيها تواريخ ولادات الاطفال الجدد، وتذكر اسماء ذويهم تفصيلا، مما ييسر على الباحث

تسجيل تاريخ الأسر ومواطنها الأولى وأسماء ذويها لعدة أجيال، وتوجد في العراق سجلات من هذا النوع ترقى الى منتصف القرن التاسع عشر، ولم أجد أحدا أفاد منها ألا باحث أرمني واحد، منذ أكثر من ثمانية عقود، هو (نرسيس صائغيان) في بحوث قليلة نشرها في مجلة لغة العرب ومجلات مسيحية أخرى صدرت في الثلاثينات من القرن الماضي، وكنت معجبا بطريقته في توظيف معطياتها في كتابة بحوث معمقة في التاريخ الأجتماعي لتلك الأسر، وهو ما دفعني الى الكتابة عنه وعن منهجه ومصادره بعد نحو ربع قرن كما سيرد ذكر ذلك فيما يأتي، وقد طبعت هذه الابحاث في دار الكتب والوثائق على الكمبيوتر بنسخ قليلة مع الاسف.

سجلات الطابو

وبمناسبة الحديث عن الوثائق أذكر أني اقترحت مرة على أحد طلبتي في معهد الدراسات القومية والاشتراكية التابع للجامعة المستنصرية عهد ذاك أن يكتب موضوعه للماجستير بعنوان (تسجيل أراضي العراق في عهد مدحت باشا)، ولكي أشجعه على هذا الموضوع أخذته بنفسي الى عمارة الدفتردار المطلة على دجلة في شارع النهر، وأطلعته على الطابق الوسطي من العمارة، وهو يكتظ بنحو مائة (كيس كبير) كبيرة ازدحمت كل منها بملفات الطابو العثمانية، وكثير منها يرقى الى عهد مؤسس دائرة الطابو مدحت باشا، وقد أخبرني المسؤول عنها في العمارة بأن وزارة المالية التي تعود اليها ملكية هذه الوثائق قد ضاقت بها، وهي تفكر باتلافها، او في أحسن الحالات إرسالها الى معمل الورق في العمارة ليجري تحويلها الى عجينة ورقية ويصنع منها الورق الجديد، وقدرت عظم الخسارة التي ستحدث إن تحقق هذا الاتلاف، فذهبت في اليوم التالي الى المركز الوطني للوثائق وقد أدمج بدار الكتب والوثائق، وأوضحت لمديره، الذي لا أود أن أذكر اسمه الان، عن خسارة العراق هذه الثروة من الوثائق الأصلية فيما لو نفذت وزارة المالية وعيدها، وطلبت منه أن يعمل على جلب هذه الكمية الى المركز ليجري فحصها وتصنيفها وحفظها وفقا للقانون، فما كان منه الا أن ابدى ضيقه بالطلب، متشكياً من قلة موظفيه، وقلة المخازن، وقلة الإمكانات، وضعف التخصيصات المالية، وما الى ذلك من أعذار واهية. وهكذا باءت محاولتي للالتفات الى هذه الوثائق المهمة بالفشل وخرجت من عنده خائباً حزيناً، أما الطالب الذي قدته اليها فقد هرب هو الآخر من اختيارها مادة لرسالته.

سلسلة وثائقية

وعلى ذكر الوثائق، كنت قد عرفت أن وثائق البلاط الملكي المحفوظة في دار الكتب والوثائق تحوي مجموعة كبيرة ومهمة مما كان يبعث به ممثلو العراق في السفارات والقنصليات الى البلاط الملكي منذ تأسيس وزارة الخارجية العراقية وحتى سقوط النظام الملكي، وأن هذه الوثائق تتضمن تقارير سياسية ومعلومات مهمة عن الدول التي كان للعراق معها علاقات دبلوماسية، فصرت أطالب بضرورة إعدادها للنشر، وفي إحدى الندوات التي عقدها المركز الوطني للوثائق في دار الكتب والوثائق، كررت مطالبتي هذه، ونبهت الى أهميتها الفائقة ليس بالنسبة لتاريخ العراق المعاصر فحسب، وانما لتاريخ الدول التي وجد للعراق معها تمثيل دبلوماسي.

وصادف أن كان رئيس بيت الحكمة، عبد الأمير معلة، حاضراً، فأيد فكرة نشر هذه الوثائق، وشكل على الفور لجنة دائمة في بيت الحكمة باسم (لجنة السلسلة الوثائقية) برئاستي، على أساس أن أقوم بتنفيذ المشروع، وبالفعل شكلت اللجنة من أساتذة فضلاء، منهم الدكتور طارق الحمداني والدكتور نوري عبد الحميد العاني والدكتور جعفر عباس حميدي والدكتور مؤيد الونداوي، والدكتور علاء الحربي- رحمه الله- والدكتور صبحي ناظم وكامل عاشور رئيس مركز الوثائق في دار الكتب والوثائق، وبدأنا بتصوير نسخة من وثائق البلاط الملكي لبيت الحكمة، وعرضها على بعض اعضاء اللجنة لإعدادها للنشر على وفق خطة محكمة اشتركنا جميعا في وضعها، وأعددت كتابي بعنوان (المملكة العربية السعودية بين الحربين العالميتين، في ضوء تقارير القنصلية

العراقية في جدة) ليكون واحداً من هذه السلسلة من الكتب الوثائقية، ثم جاءت وفاة الاستاذ معلة، وتعيين رئيس جديد بدلا منه، ورئيس جديد لقسم الدراسات التاريخية بدلا من سابقه، لتكون أسباباً في تعثر عمل اللجنة ووضع العراقيل في طريقها، حتى اضطررنا أخيرا الى التوقف عن العمل، بعد أن أصدرنا مجموعة من الكتب الوثائقية المهمة، أما كتابي المذكور فقد تولت دار نشر أردنية اصداره في عمان سنة 2004 وأعيد نشره مرة أخرى فيما بعد.

مجالس ثقافية

عُرفت بغداد في تاريخها كله بالمجالس الادبية والفكرية والتجارية، بل والموسيقية، التي كانت تعقد في بيوت سراتها، فيحضر اليها الناس، كل حسب اهتماماته في يوم معلوم من كل اسبوع يسمى (قبولا)، حتى أن مؤلفاً هو ابراهيم الدروبي كتب كتابا مستقلا في تاريخ هذه المجالس احصى فيها ما يزيد على الثلاثمائة مجلس، على أن ظاهرة المجالس هذه انطفأت فجأة في السبعينات بسبب خوف أربابها وروادها من مغبة ما يمكن أن يعرضهم الى المساءلة إن أسيء نقل ما يقال الى جهة امنية، ومنذ اواسط الثمانينات اخذت هذه الظاهرة تعود ولكن على مهل.

ومن المجالس التي اعتدت على ارتيادها في ذلك الوقت مجلس المحامي حازم المفتي، في بيته في شارع طه مساء كل يوم جمعة، وقد دعاني اليه فصرت مواظباً على حضوره حتى وفاته. كان مجلساً هادئاً أنيقا، اعتادت على حضوره نخبة صغيرة من المثقفين الذين كانت لهم ذكرياتهم الغنية، اذكر منهم الدكتور الطبيب خالد ناجي، والاستاذ مدحت الجادر، مدير الدعاية في الستينات، وغيرهم، وكنت أستمتع جدا بشهاداتهم عما عاصروه من احداث جسام في العراق، وأشفق على تلك الشهادات أن تدفن مع أصحابها ان رحلوا عن هذه الدنيا. ولما كان صاحب المجلس محدثا لبقا، وله تجربة عريضة في السياسة، فقد كنت اشجعه دوما على كتابة مذكراته، حتى أخذ بكتابتها فعلا، وقد سماها (العراق بين عهدين) يقصد بهما عهد ياسين الهاشمي وبكر صدقي، وكان متحيزاً للاول على الثاني، وقد شارك في حوادث ثورة 1941، وبوفاته تفرق

رواد المجلس، وأغلق بابه، ثم أبلغتني السيدة زوجته فيما بعد، أنه أوصاها بأن تؤول مذكراته إلي لأتولى نشرها، فما كان مني إلا أن راجعتها بدقة، وقدمت لها بمقدمة عن الكتاب وصاحبه، ثم اتفقت مع ناشر أعرفه على أن يقوم بنشرها، ففعل، وهكذا ظهرت في كتاب أنيق شاغلة 274 صفحة، وصارت مرجعا للباحثين الذين يتناولون تلك الحقبة المهمة من تاريخ العراق باطاريحهم وكتبهم بوصفها "شهادة حية لرجل عاش الأحداث بكافة تفاصيلها، ونقل شهادات معاصريه في ساعة وقوع الحدث نفسه، وكان قريبا من قادة الحقبة وشخوصها البارزين".

وهنا يجب أن أذكر أني شجعت غير واحد من ذوي التجارب العريضة والذكريات الغنية ان يكتبوا مذكراتهم اسوة بما يفعله امثالهم في العالم، وكانوا يعتذرون، وربما كانوا على حق، بأنهم يخشون يوما يساءلون فيه عما كتبوا، حيث كان الخوف هو الشعور الذي يملكهم كلما دار الحديث عن تجاربهم لا سيما السياسية منها. وأذكر هنا أني تعرفت مرة على المرافق الأقدم للملك غازي، فوجدته يحتفظ بشهادات عيان بالغة الدقة عن مصرع الملك، تؤكد انه أغتيل اغتيالا، ولما عدت اليه في داره في حي القادسية ببغداد، لأسجل هذه الشهادات وجدتها ينكرها بالكلية، بل يدعي جهله بالحادث كله، وعبثا أخبرته انه لا بأس عليه وقد مضى أكثر من أربعين حولاً على الحدث أن يرويه كما رآه، فإن من الواضح انه كان قد أصيب بعقدة اضطهاد حادة جعل خوفه مستمرا لا حدود زمنية له.

على أن عقد التسعينات شهد عودة لظاهرة المجالس في بغداد، ولو في نطاق محدود نوعاً، فصرت أتردد الى مجالس ثقافية مختلفة، منها منتدى بغداد في الكاظمية، الذي كانت تديره أمانة بغداد، ومنتدى الامام أبي حنيفة، ومجلس

الحاج حمدي الاعظمي في مكتبته وكلاهما في الاعظمية، ومجلس آل عبد الـرزاق محيي الدين، وزير الوحدة ورئيس المجمع العلمي السابق في حينه، ومجلس المحامي الدكتور خالد العزي في حي المستنصرية، وقاعة الاورفلـي في المنصـور، ومجلـس الربيعي، ومجلـس آل الشـعرباف في الكـرادة، ومجلـس السـيدة شـرقية الـراوي، وغيرها. وكنت ألقي المحاضرات فيها اذا ما دعيت الى ذلك.

بين التراث والباراسايكولوجي

ومن المصادفات الطريفة التي صادفتني سنة 1981 أني كنت قي محل حلاق أعرفه في حي اليرموك أنتظر دوري في الحلاقة، وتمضية للوقت أخذت أقلب مجلة مصرية أظنها (المصور) كانت موضوعة على طاولة قريبة، فاستهواني مقال عن متنبئ عجيب الاطوار اسمه (نوسترادامومس)، ولم أكن قد قرأت عنه من قبل، وكان محور المقال عرضاً للتنبؤات العجيبة التي سجلها في كتابه (التنبؤات). وقد توصل كاتب المقال الى أن من جملتها تنبؤه بالحرب العراقية الايرانية التي كانت قد اشتعل أوارها انذاك.

استهواني المقال جدا، وانصرفت بعدها الى البحث عن كتاب نوسترادامومس هذا، فعلمت أنه ترجم الى الكثير من لغات العالم إلا العربية، وأنه لا وجود له في أي من مكتبات بغداد، وفي أحد الأيام كنت مدعواً وعدد من الأصدقاء الى بيت الجراح الشهيرالدكتور خالد ناجي في الوزيرية، فحدثته عن هذا المتنبئ ونبوءاته الغريبة، وعن شغفي في الحصول على نسخة من كتابه، وفوجئت بأنه يخبرني بوجود نسخة منه لديه بالانكليزية، فطلبت إعارتها لي ووافق، وأدركت أن الكتاب أهم مما كنت أتوقع، ولم أجد من أحدثه عن ضرورة ترجمته الى العربية إلا الصديق الاستاذ أحمد الموصلي، مدير دائرة الرقابة في ذلك الوقت، وكان مهتماً بعلم الباراسايكوبوجي، ويزمع إصدار سلسلة من الكتب في مجاله، فتحمس له ووعدني بأنه سيعمل على تكليف أحد كبار المترجمين لنقله الى العربية، وبعد مدة غير طويلة أخبرني أن الكتاب ترجم فعلا، وأنه سيصدر

ضمن اصدارات دائرته في سلسلة الباراسايكولوجي التي أخذ باصدارها، ولم تمض مدة حتى اقتنيت الكتاب.

أثار الكتاب منذ أول صدوره اهتمام الكثيرين، الذين أخذوا يربطون بين نبوءاته وبين ما كان يمر به العراق من منعطفات سياسية وعسكرية خطيرة، فنفدت نسخه وصارت تباع، إن وجدت بأضعاف ثمنها، وحينما وقعت حرب الخليج الاولى سنة 1990 إثر غزو العراق للكويت، وجرى على العراق ما جرى بسببها، وجد قراء الكتاب فيه نبوءات صريحة- كما بدت لهم- عن كل ما حدث، ولما انتهت الحرب، قرر المسؤولون أن يَلِجوا هم هذا المجال، فجرى انشاء مركز جديد ربط شكلياً بجامعة بغداد وسمي (مركز العلوم النفسية- الباراسايكولوجي).

أما بقدر تعلق الأمر بي، فقد أثارت فضولي طريقة نوستراداموس في التنبؤ، ووجدت فيها تشابها مع ممارسات شرقية تدخل في باب السحر، ومن هنا وجدت في موضوع السحر مادة تستحق الدرس، ولاحظت أن كثيراً مما كان يدخل ضمن عنوانه أصبح يعد اليوم داخلا في مجالات الباراسايكولوجي، ومن هنا ولدت في ذهني فكرة ان يكون ثمة لقاء بين هذا العلم وبين التراث العربي، ومن هنا اقترحت على الاستاذة الفاضلة نبيلة عبد المنعم، التي تولت رئاسة مركز احياء التراث بعدي، أن يصار الى عقد ندوات مشتركة بين المركز ومركز الباراسيكولوجي يتم فيها إفادة كل طرف بما لدى الآخر من طرائق وخبرات وتجارب.

حبذت الاستاذة نبيلة الفكرة ونقلتها الى الدكتور الحارث عبد الحميد رحمه الله رئيس مركز الباراسايكولوجي، فأيدها هو الآخر، وعقد أول لقاء بين

المركزين، وشرحت أنا فكرة التعاون العلمي في هذا المجال، وقلت أن كـثيرا مـن تجارب الباراسايكولوجي لم يكن جديدا في الحضـارة الاسـلامية، ولكنهـا كانـت تمارس تحت اسم السحر وأسماء اخرى، واقترحـت المشـاركة في نـدوة مشـتركة تعقد لهذا الغرض بدراسة عنوانها (بـين السـحر والباراسـايكولوجي في الـتراث الاسلامي)، إلا أن بعضهم، وأظنه الدكتور الحارث، نبّـه إلى أن رئاسـة الجامعـة ربما لن توافق على عنوان فيه كلمة (سحر) فما كان مني إلا أن أبـدلت العنـوان الى (التأثير عن بعد في التراث الاسلامي). وفي الواقع جاء العنوان الأخـير أكثـر تعبيراً عما كنت أقصده، وكان ممن حضر هذا الاجتمـاع الـدكتور حسـين علـي محفوظ، وآخرون من مركز الباراسايكولوجي لا اتذكرهم الان، وعلى ايـة حـال عقدت الندوة وسجلت نجاحا كبيرا، واستقطبت إهتمام عدد كبير من البـاحثين، واقتنعت الجامعة بالفكرة بعد أن كانت مترددة في قبولها. وفي السنة التالية جـرى عقـد نـدوة أخـرى في الموضـوع نفسـه، وقـد شـاركت فيهـا بدراسـة عنوانهـا (استحضار الارواح في التراث الاسلامي) وفي ندوة ثالثة بدراسـة عنوانهـا (آراء الكشناوي في العلوم السرية) ألقيتها سنة 1996وتحدثت فيها عن اكتشاف رجل يدعى الكشناوي طريقة التنويم المغناطيسي لعلاج بعض الأمراض قبل أن تعرف هذه الطريقة في الغرب بمدة طويلة، وقد عثرت على الكتاب النادر في مكتبة احد الفضلاء في النجف، وهكذا توالت الندوات السـنوية وتوالـت مشـاركاتي فيهـا حضوراً وبحوثا ونقاشا، ولم يتوقف هذا النشاط إلا بعد الإحتلال الامريكي سـنة 2003 واستشهاد الحارث عبد الحميد رحمه الله.

ومن طريف ما يحسن ذكره في هذا السـياق، أن طلبـت مـني الفنانـة عبلـة العزاوي، وقد افتتحت سلسلة من المحاضرات الثقافية في قاعتها الـتي أنشـأتها في حي الغزالية، أن ألقي محاضرة في موضوع اختاره فاخترت أن ألقي محاضـرتي في

موضوع (استحضار الارواح في التراث الاسلامي)، وبالفعل حضـر المـدعوون، وجميعهم كان مثقفاً، وبعضهم كان صحفيا، الى القاعة في الموعد المحـدد، وبـدأت بالقاء المحاضرة وقد شدتهم تماماً بحكم طبيعة ما تتحدث عنه، حتـى اذا وصـلتُ الى عبارة تقول (إن الأرواح تنبه الأحيـاء إلى حضـورها) انفجـر فجـأة مصـباح زئبقي كبير فوق منصتي، فأثار إتفاق العبارة مع الانفجار هلع الحضـور، وجـيء بقدح من الماء إذ امتلأ سابقه بزجاج المصباح المكسور، وشرعت أكمـل المحاضـرة من العبارة نفسها، فإذا بانفجار مصباح آخر من النوع نفسه، وزاد هلع الحضور، وبعد أن هدأ روعهم، عدت لاستكمال المحاضرة، وتعمدت أن أكرر نفس العبارة لأثبت لهم أن لا شيء يستدعي الهلع، وإذا بصوت أوتار عود تتقطع واحدا بعـد الآخر، وتبين أن أحد الشبان قد وضع عوداً له على طاولة قريبة بهدف بيعها الى آخر بعد المحاضرة، فإذا بأوتار العود تتقطع على ذلك النحـو الغريـب، ولم تكـد المحاضرة تنتهي حتى أسرع الحضور مغادرين الى دورهم القريبة، وفي اليوم التالي نشر احد الحاضرين، وكان صـحفيا، خـبرا طريفـا في إحـدى الصـحف بعنـوان (الأرواح تحضر محاضرة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف) !!

عقرقوف في فيلم وثائقي

استدعاني وزير الثقافة، لطيف نصيف جاسم، الى مكتبه عصر أحد الايام، فلما ذهبت اليه، اقترح علي أن أكتب تعليقا يستغرق عدة صفحات لفيلم وثائقي سيجري تصويره لزقورة عقرقوف، ذلك الاثر الكبير الشاخص في منطقة أبي غريب في الجانب الغربي من بغداد، وان طول الفيلم المقدر هو عشرون دقيقة، وقد صُدعت بالطلب، لكنني تساءلت في داخلي: و لماذا يكلفني أنا بهذا الامر، أما كان اولى أن يكلف احد المختصين بالتاريخ القديم فهو أدخل الى اختصاصهم؟ وعلى أية حال عدت الى مكتبي لأرى ما أفعله، وكنت أعلم أن المادة التاريخية المتوفرة عن هذا البرج، رغم ضخامته، قليلة للغاية، لا تزيد على أنه جزء من معبد، في مدينة كانت تسمى (دوركوريكالزو) نسبة الى مؤسسها الملك الكاشي كاركيالزو الاول، لكن المشكلة كانت تتمثل في أن هذه المعلومات لا تغطي، إن هي كتبت وتليت، مدة الدقائق العشرين المطلوبة، ولم أجد ما يملأ الوقت المتبقي إلا أن اقتبس بعض النصوص التي كتبها الرحالون الاوربيون ممن زاروا المكان خلال القرون الاخيرة، وهي نصوص يغلب عليها الطابع الادبي المفعم بالخيال، ورأيت أن تلك الاقتباسات تضفي على الفيلم روحاً اكثر تشويقا للمشاهد، كما انها تضمن إطالة التعليق ليغطي الوقت المطلوب، وفي اليوم التالي كنت أضع التعليق في مكتب الوزير، ولم أدر ما حدث بعد ذلك.

وبعد سنة من هذه الحادثة، صحبت ولدي رؤوف ذات يوم الى البرج المذكور لأفرجه عليه، وصعدنا الى قاعدته المجددة حديثا لنزداد اقتراباً من البرج، وهناك فوجئت بأكداس من صخورالبناء الصناعية المعروفة باسم (ثيرمستون) قد

ردمت بها الفراغات الكثيرة التي نجمت بين جدار القاعدة وبين أصل البرج نفسه، واستغربت لهذا العمل، المدمر على المدى البعيد، لهذا الأثر الشاخص، وقصدت المهندس المقيم في المكان، وتبين أنه يعرفني، وسألته عما إذا كانوا يعرفون معامل تمدد هذا الحجر في ظروف وجوده بين هذا الكم من الطابوق الطيني النيء الذي شيد به جسم البرج، فاجاب لا، قلت إذا كيف تردم به هذه الفراغات المحيطة به، ألا يمكن أن يكون وجوده مدمرا للبرج في المستقبل الى حد يشبه وضع متفجر قربه، قال نعم، هذا صحيح، ولكن للأمر قصة سأرويها لك، أتذكر ذلك الفيلم الذي كتبتَ تعليقه، قلت: نعم! أتذكره. قال: هو السبب! لقد صادف أن شاهده الرئيس صدام فاسترعى انتباهه أن الكاميرا أتت على ثقوب سود كانت واضحة في جسم البرج، فما كان منه إلا أن اتصل بوزير الثقافة سائلا عن تفسير هذه الثقوب، وكما يحدث في هذه الحالات، فقد اصطحب الوزير رئيس الهيئة العامة للاثار، وهو الدكتور مؤيد سعيد، ليجيبه على تساؤله، وهناك أخبره الأخير بأن هذه الثقوب هي فتحات تركها مشيدو البرج من اجل تسريب الرطوبة العالية المختزنة داخله، وسأله الرئيس ولماذا لا تقوم الهيئة بإعادة بناء البرج والبقايا الاخرى للمعبد، فأجاب بأن ذلك يستلزم ميزانية خاصة للانفاق على المشروع، لا تقل عن مليون دينار، فوافق صدام على المبلغ فورا بشرط ان تنتهي أعمال البناء خلال سنة واحدة يدفع المبلغ خلالها على دفعتين. وهكذا بدأت الأعمال، ولا أقول أعمال الصيانة، وإنما البناء السريع للالتزام بالموعد المحدد، وبدلاً من إنتاج نوع من الطابوق الفرشي الملائم لهذا النوع من الأبنية شرعنا باستعمال كل ما هو متوفر من مواد لأجل البناء، ومنها (الثيرمستون) الذي رأيته، دون أي حساب للاثار المدمرة المترتبة عن استعمال هذا التنوع العجيب من المواد، فمن حسن التقدير أن هذا المشروع غير المبرر لم

يكتمل، وختم المهندس المقـيم حديثـه الغريـب ضـاحكا: إن هـي إلا فتنتـك يـا دكتور!

رئيس الاتحاد العام للكتاب

في سنة 1994 استدعى نوري المرسومي، الوكيل الأقدم لوزارة الثقافة والاعلام، أربعة من الكتاب، هم الفقير الى الله، والدكتور كاظم هاشم النعمة، أستاذ العلوم السياسية في جامعة بغداد، والدكتور سلمان الواسطي، أستاذ الادب الانكليزي في الجامعة المستنصرية، والصحفي مؤيد عبد القادر، الى اجتماع في مكتبه، وفي أثنائه طلب منا أن نرشح أنفسنا لنكون أعضاء في الهيئة الادارية لاتحاد للكتاب، وأن التصويت سيجري علينا علنا، في مقابل مرشحين آخرين، فلم يكن امامنا الا الموافقة، ثم طلب مني ان أرشح نفسي لأكون رئيسا للاتحاد، في مقابل مرشح أخر على رئاسة الاتحاد هو هاني وهيب رئيس تحرير جريدة الثورة، وفي القاعة كان الحضور كثيفا، وفوجئنا بعدد كبير يرشح نفسه، وكنا جميعا، عدا مؤيد عبد القادر، اكاديميا مستقلا عن الحزب، بعيدا عن السياسة، وحينما جرى التصويت وفرزت الأصوات على (السبورات) تبين فوزنا نحن الأربعة، وقد حزت ثم الدكتور النعمة معظم الأصوات بينما لم يحز المرشحون الاخرون، وهم أعضاء كبار في الحزب، إلا بالقليل منها.

أثارت النتائج دهشتنا، وكنا قبلها آيسون من الفوز تماما، وفسر الدكتور النعمة الى مراسل إذاعة مونت كارلو هذا الأمر، بأن الرأي العام أصبح يميل الى المستقلين، فأثار هذا الرأي، وهو صائب تماماً، لوم بعض من سمعه من المسؤولين على ما أخبرني في حينه. وهكذا أصبحتُ أول رئيس لاتحاد الكتاب والمؤلفين، وأعطينا شقة في عمارة في (الصالحية) كانت تقابل فندق ميليا منصور، ليكون مقرا للاتحاد. وما أن افتتحنا المقر، حتى تقاطر علينا إناس أكثرهم لم تكن

له أية علاقة بالكتابة، وإنما تصوروا أن عضويتهم في هذا الاتحاد الجديد سوف تمنحهم قدراً اجتماعياً، والأهم تصورهم بأن الاتحاد سيوزع قطع اراض على أعضائه فاسرعوا للفوز بحصتهم من الغنيمة، وعلمت أن بعضهم كان يسرع الى أي جمعية او اتحاد او نقابة فينضم اليها طلبا لمثل هذه المغانم، وكان علي ان أضع ضوابط لهذا الامر، وهو أن يكون لطالب العضوية نتاج كتابي يتمثل في كتابين في الأقل لا يقل عدد صفحات كل منهما عن ستين صفحة، فضج القوم بأنهم لا يملكون مثل هذا العدد، وخفضنا سقف الشرط، بأن اكتفينا بكتاب واحد وعدد من البحوث على شرط أن تكون ذات صفة ابداعية في مجالها، ذلك أننا فوجئنا بكراريس من نوع (كيف تصلح تلفزيونك في بيتك) و(تعليم اللغة الفلانية في اسبوع او ثلاثة ايام) وما الى ذلك من مطبوعات لا ترقى الى ان تكون مسوغات عضوية في اتحاد بهذه الصفة.

وأذكر أني كتبت مرة مقالا بعنوان (ورقة توت) في شأن رجل لجأ الى تزوير هوية الاتحاد ليخفي أميته الثقافية، أقول فيه "ليس عيباً أن لا يكون الرجل مؤلفاً، أو كاتباً، فقليل من الناس من يكون كذلك، إلا أن العيب، كل العيب، إن يدعي صفة لا يمتلكها، وليس له الحق في ادعائها بوسيلة رخيصة، كالتي ذكرنا (وأعني بها تزوير هوية) فليست ثمة أزمة في الثقافة، كما يحلو لبعض المتشائمين القول أحياناً، إنما الأزمة في الخلق الذي لا تكون ثمة ثقافة من دونه، فليس مثقفاً من كان كاذباً، وليس أديباً من لم يكن مؤدباً" (جريدة الإتحاد 2/ 6/ 1998).

استمر الحال على هذا النحو حتى ألغي الاتحاد، أو دمج باتحاد الادباء، فأصبح يسمى اتحاد الادباء والكتاب، وذلك سنة 1997، وكلفني عبد الغني عبد الغفور، وكان وزيرا للثقافة والاعلام في حينه، برئاسة لجنة تحضيرية تقوم بغربلة الأسماء الكثيرة للاعضاء الوهميين، او المتوفين، او الذين لا يعرفون أن يكتبوا

حتى اسماءهم، ممن قبلت عضويتهم في الفترة السابقة، وكانت اللجنة تتالف مني رئيسا، وساجدة الموسوي، والدكتور بدر خان السندي، وعلي الياسري، ورعد بندر رئيس الاتحاد السابق، والشاعر نعمان ماهر الكنعاني، وحسب الله جعفر، وآخرين نسيتهم، وكنا نجتمع في وقت العصر من اكثر أيام الاسبوع في مبنى الاتحاد، وقد نجحت أنا والدكتور السندي في حمل الأعضاء، لا سيما الذين قبلت عضويتهم في ايام رئاسة بندر، على إلغاء تلك العضويات الوهمية.

ولابد من الإشارة هنا إلى أني عملت، في أثناء ترؤسي المؤقت لإتحاد الأدباء والمؤلفين، على تأسيس اتحاد أو جمعية للنسابين العراقيين تنظم شؤونهم، وتدفع عنهم المتطفلين على هذا العلم من مدعيه، ذلك أني كنت ألاحظ مدى حجم التزوير الذي كان يمارسه عدد ممن وصفوا أنفسهم بهذا الوصف، حتى أن بعضهم، وربما كان على حق، يسميهم (نصابين) لا (نسابين)، فرأيت أن تأسيس جمعية أو اتحاد ينتظمهم يجعل من الصعب تمرير ذلك التزوير على جميع النسابين والمهتمين بشؤون النسب، بينما يمكن فعل ذلك إذا بقي الأمر محصوراً في نفر قليل من النسابين المتفرقين الذين قد يستغلون جهل المنتفعين بمنهج البحث في النسب، لا سيما باختراع وثائق وهمية ومشجرات زائفة، وقد دعوت عدداً من النسابين المحترمين الى مبنى اتحاد الأدباء والكتاب لوضع قانون خاص باتحاد النسابين المزمع تأسيسه، على أن المشروع لم يكتمل بسبب الخلافات الشخصية وغياب روح العمل كفريق كما كنت ارجو.

ولما كانت مهمة اللجنة التحضيرية مؤقتة وتنتهي باجراء الانتخابات، فقد انتهت مهمتي باجرائها، وتوالى على رئاسة الاتحاد بعدها كل من هاني وهيب، ثم نجمان ياسين، وكنت عضوا في الهيئة الادارية في عهديهما، وربطت بيني وبينهما صداقات طيبة، رغم المنافسة التي قامت بيني وبين أولهما على رئاسة

الاتحاد كما ذكرت. وأذكر أني رأست تحرير مجلة (أسفار) التي كان يصدرها الاتحاد، فأصدرت منها عدداً واحداً (تموز 1997) حاولت أن انحو فيه منحى آخر غير منحاها السابق، فجعلتها مجلة محكمة، لها هيئة استشارية محترمة، ونشرت فيها مجموعة من الدراسات الجادة لعدد من الكتاب المعروفين، أكثرهم من الاكاديميين، الا أن (الذوق) السائد في الاتحاد عهد ذاك أعاد المجلة بعد ذلك الى ما كانت عليه، مجلة تنشر محاولات الشعراء الشباب.

ومع ذلك فقد ضممت إلى عدد من الهيئات الاستشارية لمجلات ثقافية وأكاديمية مختلفة، منها مجلة (الأستاذ) التي تصدرها كلية التربية، ومجلة (دراسات تاريخية) التي يصدرها قسم التاريخ في بيت الحكمة، ومجلة (آفاق عربية) ومجلة (المورد) الصادرتين عن دائرة الشوؤن الثقافية العامة

مطالع الروح!

كنت قد انصرفت، منذ انتهاء الحرب العراقية الايرانية سنة 1988، إلى تحقيق كتاب مهم جدا في تاريخ العراق وشرقي الجزيرة العربية في العصر العثماني، ذلك هو كتاب (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) الذي ألفه الشيخ عثمان بن سند البصري الوائلي، المتوفى سنة 1826م، وكانت منه نسخة في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد، ولما لم يكن ثمة جهاز استنساخ في المكتبة آنذاك، كلفت إحدى الموظفات في المكتبة بنسخها، ثم شرعت بمقابلة ما نسخته على أصل المخطوطة، ثم شرعت بتحقيق الكتاب والتعليق عليه عسى أن تسمح الظروف بنشره. وقبل شهور من اندلاع حرب 1990 نشطت الدار الوطنية للنشر، وهي دائرة رسمية تابعة لوزارة الثقافة، بشخص مديرها الجديد احمد الموصلي، وقررت أن تتجه إلى نشر الكتب العراقية المهمة، بعد أن كانت مهمتها تقتصر على توزيع الكتب المطبوعة، فتألفت لجنة للعمل على اقتراح الكتب التي ينبغي أن تدرج ضمن اصداراتها. ولما كنت أحد أعضائها، نوهت بأهمية هذا الكتاب، في تسجيله لحوادث العراق وحركة قبائله وما يتصل به من تاريخ شرقي الجزيرة العربية، فنال بالفعل موافقة اللجنة، وتقرر أن أقدم المسودة لتقوم الدار بطبعه، لذا عكفت على إكمال تحقيقه، وكتابة مقدمته، والتعليق على ما هو ضروري من تعليقات موضحة لكثير من الاعلام والمواقع ومصطلحات الحضارة فيه، فلما أنجز، وكانت الحرب على الأبواب والحصار قد بدأ يضرب أسواره على البلد، اعتذرت وزارة الثقافة عن نشره، بسبب توقفها عن طبع الكتب الثقافية، الا الكتب (التي تخدم المعركة) على حد تعبيرها، وأسقط في يدي، ثم أنهم وجدوا الحل، فالكتاب يتحدث، فيما يتحدث، عن غزوات الدولة

السعودية الاولى على تخوم العراق وقبائله في اوائل القرن التاسع عشر، وعليه أمكن توجيه الكتاب على انه يؤرخ لذلك الغزو، الذي يمكن ان يكون ارهاصا للمشكلة التي نشأت بغزو العراق الكويت، والصراع الذي نشب بسبب هذا الغزو بين الحكومتين العراقية والسعودية، وهكذا استثني الكتاب من قرار الوزارة وتقرر طبعه في مطابع دار الحكمة التابعة الى جامعة الموصل، وبدأت بتصحيح تجاربه الاولى، وفي أثناء ذلك اندلعت الحرب وتوقفت طرق المواصلات وانقطع الكهرباء الذي به تدور المطابع، واضطربت الاحوال، وما أن توقف اطلاق النار وبدأت الامور بالتحسن نسبيا حتى أخذت أتردد الى الموصل للاشراف على طبع الكتاب، وكان السفر المستمر في كل اسبوع ومراجعة تجارب الكتاب مع انقطاع الكهرباء بين حين وآخر أمرا متعبا جدا، حتى كنت أسمي الكتاب (مطالع الروح) لا (مطالع السعود)! وأخيرا أنجز طبع الكتاب وجاء في نحو 500 صفحة، وتولت الدار توزيعه فلم يبق في مخازنه الا فترة محدودة ثم نفد. مما اضطرني في سنة 2009 الى اعادة تحقيقه بالرجوع الى اصل مخطوطته، ومقابلته على معطيات الوثائق العثمانية، والمخطوطات التي توفرت لدي بعد صدور طبعته الأولى، وتولت دار نشر في لبنان نشره، فخرج بطبعة أنيقة، كان- في الواقع- يستحقها.

كتاب الحوادث



كنت قد اقتنيت، وأنا في الاعداية، كتاب (الحوادث) الذي نسبه الدكتور مصطفى جواد الى المؤرخ العراقي عبد الرزاق ابن الفوطي، و سماه (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة) على أساس أن لهذا المؤرخ كتابا بالاسم المذكور تناول فيه حوادث القرن السابع للهجرة، وقد اتبع جواد في هذه النسبة رأي يعقوب سركيس، وهو باحث متعمق بحث في الامر وانتهى الى هذا الاجتهاد، ثم أن الدكتور جواد عاد عن هذا الرأي بعد أن حقق الجزء الرابع من كتاب ابن الفوطي (تلخيص مجمع الاداب في معجم الاسماء والالقاب) الذي

وجده في المكتبة الظاهرية بدمشق، وقد اعتمدت على هذا الكتاب في تاليفي اول كتبي (مدارس بغداد في العصر العباسي) سنة 1966، ومع مرور الوقت وازدياد قراءاتي في كتب التراث، صرت أرى أن من الضروري اعادة تحقيق هذا الكتاب تحقيقا شاملا، لا سيما وأن مصطفى جواد لم تتوفر له نسخة مصورة من المخطوطة حينما حققها، وإنما اعتمد على نسخة بخط أحد النساخ في القاهرة، وحينما استطاع الحصول على نسخة مصورة كان قد فرغ من تحقيقه وانتهى الامر، فاكتفى بوضع نماذج منها في مقدمة الكتاب.

وفي سنة 1986 عرضت على الاستاذة نبيلة عبد المنعم داود ان نتعاون على تحقيق الكتاب بمقابلته على النسخة المصورة التي علمت انها قد استقرت في مكتبة الاوقاف، على أن ظروف الاستاذة نبيلة في حينه حالت دون تحقيق تلك النية، وفي عام 1996 فاتحني الدكتور بشار عواد معروف بفكرة التعاون معه في تحقيقه، فرحبت بالمشروع، وتقاسمنا العمل على أساس أن نشترك في مقابلة المخطوط، ثم أتولى انا التعليق على المواضع الخططية والجغرافية والمصطلحات الحضارية وغيرها، ويقوم هو بالتعليق على تراجم الاعلام، وفي الواقع فان قسمة العمل كانت متوازنة، فانطلقنا في تنفيذ المشروع في جو من التعاون والمودة، حتى إذا فرغنا من تحقيق الكتاب والتعليق عليه، دفعه الى دار الغرب الاسلامي في بيروت فأخرجته اخراجا جميلا. ومع أن هذه الطبعة تأخرت عن الطبعة الاولى بما يزيد على ستين سنة، إلا أن أحدا لم يقدم على تحقيقها خلال هذه المدة الطويلة، ولكن ما أن ظهرت طبعتنا حتى ظهرت طبعة جديدة منه، معتمدة على طبعتنا، واعيد نشره بالتصوير في قم بايران، دونما اذن منا ولا من الناشر اللبناني. وقد تذكرت في هذه المناسبة حديثا مؤداه (يُنصر هذا الدين بالرجل المارق) فقلت معقبا (وينشر هذا الكتاب بالرجل السارق)!

ندوة عراقية مصرية

في سنة 1989 جرى الإعداد لندوة مشتركة بين جامعة الزقازيق واتحاد المؤرخين العرب بعنوان (العلاقات العراقية المصرية)، ولسبب افهمه! لم يجر تبليغي بأمر الندوة وتاريخها الا في الأيام الاخيرة قبل انعقادها، وحينما علمت بذلك شرعت بكتابة بحث كان موضوعه يشغل بالي منذ مدة، بل كنت ارجو ان أؤلف فيه رسالة او كتاباً، هو (مصر في كتابات المؤرخين العراقيين في العصر العثماني)، وخلال مدة قصيرة نسبيا كان البحث جاهزا، هذا مع أن جميع مصادري كان من المخطوطات، وبعضها نادر، ولو لم أكن قد استنسخت هذه المخطوطات منذ سنين، وشغلني الموضوع منذ أيام وجودي في مصر، ولو لم أحب مصر منذ طفولتي، ما استطعت أن أنجز البحث على ذلك النحو، وفي ذلك الوقت القصير، وعقدت الندوة في قاعة جامعة الزقازيق، وشاركت بإلقاء بحثي، ونشر في أعمال الندوة، ثم قدمته للنشر في مجلة آفاق عربية التي تصدر في بغداد، فنشر، ولكن بعد حذف غير مبرر لبعض الفقرات، التي فهم منها الاساءة الى الدولة السعودية ايام كانت علاقة العراق بها مزدهرة ويا للعحب!

مع السيراميك

كانت الفترة التي اعقبت حرب 1990 فترة خمول في مجال النشر، صحيح أني حققت كتابين مهمين في أثناء الحرب نفسها، إلا أن الأيام التالية لم تكن بالمستوى نفسه من النشاط، ومن هنا وجدت نفسي أمارس هواية جديدة لم تخطر ببالي من قبل، هي فن السيراميك، فقد شغفت بهذا الفن من خلال مراقبتي للفنانة عبلة العزاوي وهي تعمل في مشغلها المجاور لمنزلي في حي الغزالية، وتعلمت بعض أسرار العمل في الطين، وتلوينه، ووضعه في الفرن الخاص به، وقمت بعمل أشكال عديدة من السيراميك، بعضها يمثل شخصيات تاريخية، وبعضها الآخر يمثل رموزا تراثية، كنت أحاول ان انسى شيئا من همومي الشخصية وإحباطاتي الوطنية في الطين، فكان الطين الذي خلقنا منه وإليه نعود، في تلك المدة، نعم الرفيق الأنيس، والصديق الأليف في تلك المحنة، وكنت اعود اليه بين حين وأخر، وقد عرضت بعض أعمالي في معارض قاعة عبلة، فكتب أحد الصحفيين يقول "قد لا يعرف الجميع أن المؤرخ والخططي المعروف الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، الذي شغلت دراسة التاريخ والخطط كل وقته، هو فنان تشكيلي أيضا، مارس الدكتور عماد الرسم منذ طفولته، حتى صار عضوا في جمعية الفنانين التشكيليين العراقيين في السبعينات من القرن الماضي، واستمر في عضوية الجمعية لسنوات طوال، مشاركاً في بعض المعارض التي تقيمها، ثم واصل الرسم في بيته حتى اتصل في بداية التسعينات من القرن الماضي بفن السيراميك إذ انتج عدداً من القطع الفنية ذات الطعم التاريخي التراثي، مزج فيها تذوقه للفن وحسه بالماضي" ثم قال" إن له علاقات مع فنانين بارزين، منهم: عبلة العزاوي، وخالد الرحال، ومحمد غني حكمت وغيرهم" وختم مقاله بقوله "أنه

ينوي إقامة معرض بمشغولاته الفنية الجديدة من السيراميك، ولكنه لم يحدد إلى الآن التي سيقيم فيها هذا المعرض" (جريدة القاصد 13/ 11/ 2004).

وخطر ببالي أن أؤرخ لهذا الطين من خلال الترجمة لصاحبته، فكان أن أخذت اسجل ملاحظاتي عن سيرتها العصامية منذ ان بدأت (تلعب) بالطين وهي طفلة حتى تلك اللحظة التي اخذت اسجل فيها سيرتها. كانت عبلة في ذلك الوقت قد بلغت السبعين من عمرها، تعيش بين شقتها ومشغلها التي أنشأته سنة 1986، وتشارك في نشاطات قاعتها الفنية، بما كان يقام عليها من معارض ويلقى فيها من محاضرات ساهمت أنا فيها غير مرة. وحينما أنجزت كتابة السيرة أطلقت عليها عنوان (عبلة العزاوي، سيرة ذاتية وفنية، رحلة بين الماء والطين) ولم أكن افكر بطبع الكتاب، إلا انها حينما قرأته قررت ان تتكفل بطبعه، وقد طبعته فعلا وخرج الى الناس في سنة 2005. أثار صدور الكتاب استغراب كثير ممن قرأه، فلم أكن قد كتبت سيرة انسان يعيش في هذه الحياة، وجميع من كتبت سيرته كانوا من سكان القبور، إلا أن الفرق عندي بين الأحياء والأموات لم يكن كبيرا إلى هذا الحد، بل لا يفصل الحياة نفسها عن الموت إلا لحظة، وعلى أية حال، أصبح الكتاب بعد وفاتها في أواخر سنة 2014 الوثيقة الوحيدة المكتوبة عن حياتها.

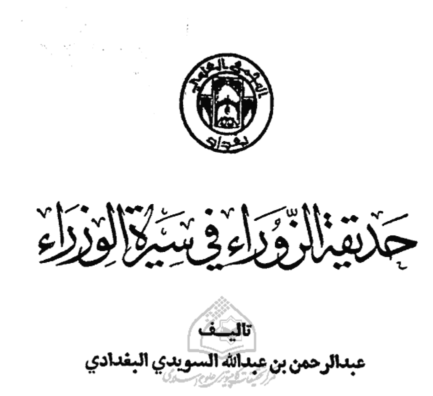


وكتبت مرة عن علاقة الرسم بالتاريخ فقلت 'ان الفنـان التشـكيلي، حـين يرسم لوحة تجده يعيش في تفاصيلها، يكاد يلتصق بها، وتعـيش هـي في وجدانـه قريبة من أعماقه، أو معبرة عنها، وهو في الوقت نفسه تجده يقف بين حين وآخر بعيدًا عنها ليتأمل ملامحها وليكتشف العلاقة بين مكوناتها؛ من خط وكتلة ولون، وإذا كان ثمة فرق بين صنيع التشكيلي والمؤرخ، فهو أن المـؤرخ لا يحتـاج إلى أن يغادر موقعه بين حين وآخر، قربًا وبُعدًا، وإنما هـو يعـيش اللحظـتين معًـا؛ فهـو قريب وهو بعيد في آنٍ واحد، وعلى سبيل المثال، فإنه لو كـان يبحـث في تـاريخ الأحزاب في بلد ما، ووجد نفسه ميالًا إلى أحد هذه الأحزاب، فَقَدَ حيدته؛ لأنـه

لم يعد يرى إلا هذا الحزب الذي انتمى إليه في وجدانه، وللمـؤرخ اسـتعداد لأن يختزل المسافة بين الذات والموضوع؛ فهو يمكن أن يكون ذاتيًّـا وموضـوعيًّا في آن واحد، ذاتيًّا في قدرته على استبطان الموضوع من داخله، ليكون أقرب فهمًـا لـه، وموضوعيًّا في قدرته على رؤية الذات من خارجها ليتبين علاقاتها مـع الـذوات الأخرى، وبحسب قدرة المـؤرخين علـى اختـزال المسـافة بـين الأمـرين، تتبـاين مكنتهم في كتابة التاريخ جودة وضعفًا.

التراث والحرب مرة اخرى

كنت مصمما على أن أحقق وانشر كل ما أمكنني من أصول تاريخ العراق في العصر العثماني، ورأيت أن أبرز تلك الأصول وأولاها بـالتحقيق، مخطوطـة كتاب (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء)



حديقة الزوراء في سيرة الوزراء

تاليف

عبدالرحمن بن عبدالله السويدي البغدادي

حققه وقدم له وعلق عليه

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

الذي ألفه عالم بغداد وأديبها الشيخ عبد الرحمن السويدي، وقـد أرخ فيـه للعراق منذ بداية عهد حسن باشا وحتى وفاة ابنه أحمد باشا، اي خلال النصـف الأول من القرن الثـامن عشـر، وتنـاول مـن خلالـه تـاريخ الحـرب العثمانيـة- الايرانية التي خاضها أولهما في ايران، وعمليات الدفاع عن بغـداد الـتي خاضـها

ثانيهما في أثناء حصار نادرشاه سنة 1743، كما تضمن الكتاب اشـارات مهمـة عن صمود العراقيين في وجه ذلك الحصار، فضلا عن معلومات كـثيرة اخـرى، وقد استطعت أن أحصل، مـن أجـل تحقيقـه، علـى نسـخة المؤلـف المحفوظـة في المتحف البريطاني، وكان الدكتور صفاء خلوصي، الذي كان يعيش في لندن عهد ذاك، قد نشر قطعة من أول المخطوطة تتناول ولاية حسن باشا دونمـا دراسـة او تعليق، في بغداد سنة 1961، وحدث أن التقيت به مرة في اتحاد المؤرخين العرب في المنصور، وأخبرته بعزمي على تحقيق الكتاب كاملا فرحب، وان لم يفسـر لـي سبب توقفه عن اكمال نشر سائره، وترجح لي ان اختصاص الـدكتور في الأدب الانكليزي جعله بعيدا عن تحقيق كتاب في تاريخ العـراق العثمـاني، ومـن تلـك اللحظة بدأت بمهمة تحقيقه الكتاب كـاملا، فاستنسـخته بيـدي علـى ضـخامته، وشرحت غوامضه مـن الأسمـاء والمصـطلحات الحضـارية والاعـلام والمواقـع، وقدمت له بدراسة عن أسباب تاليفه، واهميتـه، ومصـادره، ومـا الى ذلـك مـن شؤون. وبما أن السويدي تفرد في الكلام على عصر لم يشاركه احد من العراقيين في وصفه، إلا قليلا، فقد عمـدت إلى مقابلـة معلوماتـه علـى معطيـات الوثـائق العثمانية مباشرة، وأظن أن أحداً من الباحثين العراقيين لم يسبقني في تحقيق كتاب في تاريخ العراق العثماني على هذا النحو. وأخيراً انجز الكتاب تماما، وقدمته الى المجمع العلمي العراقي لنشره، حيث جرت الموافقة على طبعه في مطبعته. ودارت عجلات المطبعة واخذت ملازم الكتاب تظهر تباعاً، ومع دورانها كانـت طبـول حـرب الخلـيج الثانيـة سـنة 2003 قـد اصـبحت تقـرع فتصـم الآذان بـدويها، وأصبحت أسرع في تصحيح البروفات وحث العمال على الاسراع بـالطبع لـئلا تنشب الحرب في أي لحظة فتتوقف عجلات المطبعة، إلا ان القدر كان يخبئ شيئا آخر، فقد نشبت الحرب فعلا، ودخل الجيش الامريكي بغداد، وكـان قسـم مـن

الكتاب قد طبع فعلا، بينما لبثت ملازم القسم المتبقي مطروحة علـى الارض لم تجمع في كتاب بعد، وكان هذا الامر لا يخلو مـن فائـدة غـير محسـوبة، ذلـك أن السراق الذين دخلوا مبنى المجمع في الأيام الاولى للاحـتلال وسـرقوا كـثيرا ممـا احتواه المجمع من كتب، لم يعبأوا بالملازم المطروحة ارضا لانهم لم يجدوا فيهـا مـا يستحق عناء حملها وبيعها الى مشترى الـورق، فتركوهـا جانبـاً، وهكـذا سـلمت ملازم الكتاب من السرقة، وظهر الى النـاس فـور اسـتقرار الاوضـاع في بغـداد نسبيا، فكان أول كتاب يظهر الى الناس بعد الاحتلال.

تراث علمي

كـان تحقيقـي لكتـاب (الجـواهر وصـفاتها) فاتحـة دراسـات لـي في هـذا الموضوع، ففي سنة 1978 دعيت لالقي محاضرة في موضوع (الأحجـار الكريمـة عند العرب) في الندوة الدولية التي عقدت في جامعة حلـب، وكانـت تلـك أولى مشاركاتي في ندوات في خارج العـراق، فـاخترت أن يكـون موضـوع المحاضـرة دراسة في مخطوطة نادرة وجدتها في المكتبة القادرية ايام كنت أفهرس مخطوطاتها، عنوانهـا (قطـف الأزهـار في خصـائص المعـادن والاحجـار ونتـائج المعـارف والأسرار) لمؤلف مصري من أهل القرن الحادي عشر، اسمـه أحمـد بـن عـوض المغربي. ثم أني شاركت في معظم ندوات مركز إحياء التراث التي كانت تقيمهـا رئيسته الأستاذة نبيلة عبد المنعم بالتعاون مع اتحاد الجامعات العربية، وكـان مـن أهم مشاركاتي في هذه المؤتمرات بحوث في تراث الاحجار الكريمة، وهو الموضوع الأثير عندي، وفي الواقع فأني كنت شغوفاً بهذا المجال، أتصيد كل معلومـة فيـه، وأصور كل ما يمكنني من مخطوطاته في العالم، لا سيما المكتبة الوطنية في بـاريس، حيث صورت منها مخطوطات مهمة هـي (منـافع الأحجـار) لعطـارد الحاسـب، و(خصائص الأحجـار) لحـنين بـن اسـحاق، و(كتـاب الأحجـار) المنسـوب إلى ارسطو وهو ليس له، وغـير ذلـك، وقـررت أن اضـع معجمـا بعنـوان (اسمـاء الأحجار الكريمة ومصطلحاتها عند العرب) فشـرعت اسـتخرج هـذه الأسمـاء والمصطلحات من جميع معاجم اللغة المعتمدة، ومن كتب الأدويـة المفـردة، ومـن كتب الكيمياء، فضلا عن كتب الأحجار نفسها، ومن غـير ذلـك مـن المصـادر، حتى اجتمعت لدي حصيلة كبيرة ربما زادت علـى الألـف بطاقـة مـن بطاقـات البحث، ثم بدأت تواجهني صعوبات في التصنيف والاسـترجاع، بسـبب التزايـد

المستمر في البطاقات، ولم يكن ثمة كمبيوتر شخصي في تلك الفترة، مما جعل المشروع يتعثر تدريجيا، واكتفيت بكتابة بحث عنه بالعنوان نفسه، شاركت فيه في ندوة علمية عقدها مركز احياء التراث العلمي بالتعاون مع اتحاد الجامعات العربية، وأردفته ببحوث أخرى في الموضوع نفسه، منها (ألوان الأحجار الكريمة عند العرب) و(مصادر البيروني في علم الأحجار الكريمة) وغير ذلك، وبعد نحو عقد من السنين عرض علي أحد الناشرين أن ينشر هذه البحوث مجتمعة في كتاب واحد، فجمعتها ونقحتها في كتاب عنوانه (دراسات في علم الأحجار الكريمة عندالعرب) وصدر بعيد انتهاء العمليات العسكرية، اثر الغزو الأمريكي للعراق سنة 2004.

وكنت أعرض ما تجمع لدي من ملاحظات في مجال تحقيق المخطوطات العلمية، في محاضرات أدعى الى إلقائها في الدورات العلمية التي كانت الاستاذة نبيلة عبد المنعم داود، رئيسة مركز احياء التراث العلمي لعربي، تقيمها في كل عام، وخطر ببالي ذات مرة أن أسجل هذه المحاضرة لتوزع على طلبة تلك الدورات، ففعلت، وجاءت المحاضرة في صورة رسالة مستقلة بعنوان (تحقيق المخطوطات العلمية)، تناولت فيها الجوانب التي يختص بها تحقيق هذا النوع من المخطوطات، دون غيره من الأنواع الأخرى، في مجال أسس اختيار المخطوط، وثقافة محققه، ومشاكل مصطلحاته الفنية، وفهارسه، وما إلى ذلك. ولم أكن اتصور مقدار الرواج الذي لقيته هذه الرسالة، فقد نفدت جميع ما طبع منها، واعادت دار نشر في الاعظمية طبع كمية كبيرة منها فنفدت هي أيضاً، واضطررت أن اضعها على بعض المواقع الالكترونية المعنية بالتراث المخطوط، فبلغ عدد قرائها حتى الآن أكثر من ثلاثين الف قارئ.

وقد اسعدني ان احد قراء هذه الرسالة كتب لي على الانترنيت في الموقـع المذكور، اسمه فواز بن عامر، ما يأتي:

" أخي الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد استمتعت بكل حرف قرأته

بل رفع ذلك من همتي

شكرا لك على الموضوع المميز، والطرح الرائع، والتنسيق المتفن

أتمنى لك التوفيق في حياتك والفلاح في الدارين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سرقة جهد

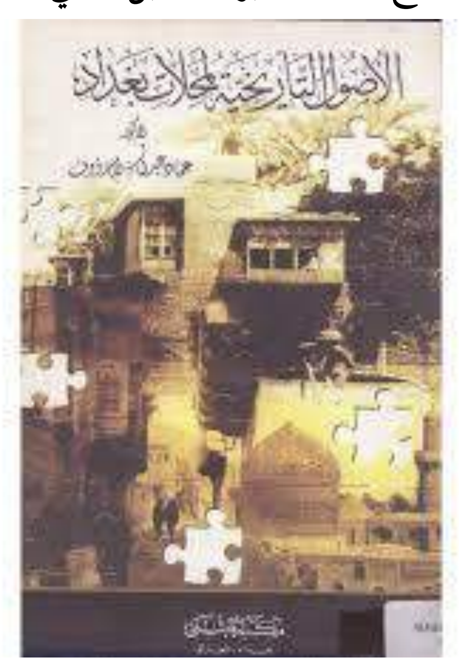
كان التصوف أليفي منذ أيام الدراسة الجامعية، فمما قرأته في تلك المرحلة من حياتي بعض مؤلفات ابن عربي، و مخطوطات عبد الكريم الجيلي ومطبوعه الوحيد آنذاك (الانسان الكامل)، ورسائل لعبد الغني النابلسي وابن زروق وغير ذلك. وقد سبق أن ذكرت أني شغفت بالجيلي منذ وقت مبكر، فكتبت عنه بحثاً نشرته في جريدة البلد، ثم أعدت كتابته بعدما أوسعته تفصيلا في مجلة الاقلام، وسطا عليه أحدهم فأعاد نشره باسمه في مجلة (المورد) كما سبق أن ذكرت، وكنت أرجو في حينها ان أجد من الوقت ما يسمح لي بتأليفىاب عن سيرته وافكاره ومصطلحاته، وهي ثلاثة مجالات غنية في حياته.

وفي أثناء عملي في احدى لجان بيت الحكمة، وهي لجنة التصنيف والتبويب، التابعة لقسم الفلسفة، عرضت أن أقدم كتاباً عنه يتضمن هذه الموضوعات الثلاثة، وبينها معجم بأفكار الحيلي مرتبة على حروف المعجم، وفي الواقع فأن هذا الكتاب كان يمثل ثمرة لجهد استغرق مني سنوات عديدة. وحينما قدمت الكتاب الى رئيس قسم الفلسفة فوجئت بكتابته اسمه على غلافه مراجعاً له، مع أنه لم يقرأه مطلقاً، ولو قرأه لم يفهمه، ولكن أعجبه عنوانه (وحدة الوجود، دراسة في أفكار عبد الكريم الجيلي ومصطلحاته)، وكان رد فعلي ازاء هذا السلوك غير العلمي أن سحبت الكتاب من مكتبه، وعدت به إلى البيت. وعبثا حاول أن يستعيده بعد ذلك. وفي الواقع كان هذا السلوك معتادا لدى بعض رؤساء الاقسام العلمية في بيت الحكمة، وربما في دوائر أخرى، وكنت أراه مجرد استغلال منصب لا أقل ولا أكثر، ومن ثم فهو داخل في نطاق سرقة جهود الآخربن ليس إلا.

اصول محلات بغداد

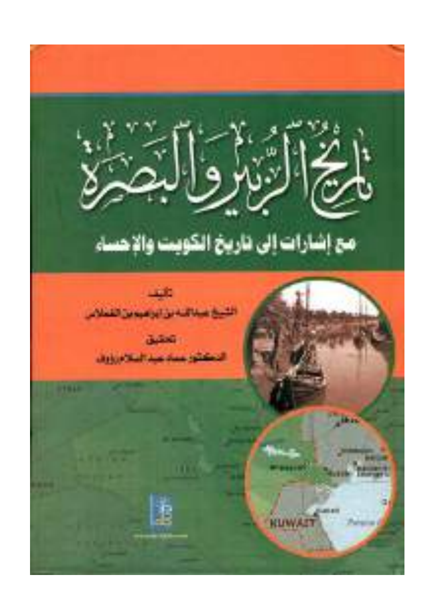
ومن المصادفات المفيدة، أن اتصل بي يوما سنة 1994 أحد أمناء بغداد، وقد نسيت اسمه الآن، وطلب مني الحضور إلى مكتبه في مبنى الأمانة، مساء، فلما ذهبت إليه أطلعني على كتاب رئاسي يتضمن تعليقة بخط احمر أعرفه تتساءل عن معنى أسماء ثلاث محلات ببغداد، هي الكريعات، وجزيرة ام الخنازير، ومحلة أخرى نسيتها، وقال ان هذه التعليقة بخط صدام حسين ولم ندر كيف نجيبه على تساؤله، فأجبته أن الجواب سهل، وهو كذا وكذا، قال نعم ولكن لاحظ كلمة (الخ) الواردة بعد التعليق، فأين تنتهي هذه المحلات، وماذا تشمل، قلت أعطني مدة عشرين يوما وانا سأكتب تقريرا مختصرا ومركزا بشمل 150 محلة كانت تتألف منها بغداد في 1954، فواق على الفور، وشرعت بالعمل وبعد انقضاء المدة بالضبط قدمت التقرير وكان يشمل اسماء المحلات القديمة واصولها واسباب تسميها، فشكرني وانصرفت، وبعد نحو شهر علمت ان الرئيس امر بطبع التقرير في كتاب ليجري توزيعه في مكتبات البيع، وطبع التقرير بصورته التي قدمته عليها، ولم تتح لي فرصة مراجعته والتوسع فيه، فأنا أعلم ان صدام لا يحب الاسهاب في الاجابة، ولذلك لم أطل فيها واقتصرت على ما يريد معرفته فقط. وفي سنة 2004 طلب مني احد الناشرين موافقتي على اعادة نشره، فوافقت بشريطة أن أقوم بمراجعته مراجعة شاملة، وأزيد عليه تفاصيل جديدة عن تطور كل محلة، واهم معالمها بحسب الوثائق التي وجدتها خلال هذه الفترة التي تلت طبعته الاولى، وأزيد في عدد المحلات موضوع الكتاب. وتطور الكتاب وزاد تفصيلا، وطبع طبعا أنيقا في تلك السنة، ثم تكرر طبعه، ولخصت محتوياته في موضوعات على الانترنيت مرات عديدة، وفي حلقات في بعض الصحف،

حتى بات يشبه ان يكون (وقفا خيريا) يأخذ منه من يأخذ دون اشارة الي الكتاب الاصل من قريب او بعيد، بل أعاد ناشر عراقي في بيروت طبعه، دونما اي استئذان او موافقة، مع اني لم اكتب الكتاب للمختصين وانما لجيل من الشباب يجهل تاريخ مدينته وسيزداد الجيل التالي جهلا بها.



الزبير والبصرة

اتصل بي ذات مرة الاستاذ عبد الحميد العلوجي، مـدير عـام دار الكتـب والوثائق، وأخبرني ان امامه مخطوطة مجهولة المؤلف تبحث في تـاريخ البصـرة في أواخر العصـر العثمـاني، ألـت الى الـدار مـن مقتنيـات مكتبـة الـوزير الاديـب مصطفى علي، ويظهـر أن أسـرته أوصـت بهـذه المكتبـة الى دار الكتـب، وقـال العلوجي أن قانون الدار لا يسمح بـأن تحـتفظ بالمخطوطـات وانمـا بالمطبوعـات فحسب، وأنه سيرسل المخطوطة بحسـب القـانون الى دار صـدام للمخطوطـات (المركز الوطني للمخطوطات اليوم)، فطلبت منه أن يسمح لي بـالاطلاع عليهـا، وتصوير نسخة منها قبل أن يرسل بها الى هناك، حيث لا يطلع عليهـا إنـس ولا جان، فوافق بأريحيته المعهودة، وحينما اطلعت على المخطوطـة هـالتني أهميتهـا، وعرفت مؤلفها، فهي من مؤلفات العالم الزبيري ابن الغمـلاس، الـذي تـوفي في ثلاثينات القرن العشرين، وتضم يوميات تفصيلية عن مجريات الحوادث في الزبير والبصرة للنصف الاخير من عصر الدولة العثمانية، انتهـاء بـدخول البريطـانيين البصرة في بدايات الحرب العالمية الاولى. صـورت المخطوطـة ولبثـت عنـدي في مكتبتي الشخصية عدة سنين مركونة في ركن منها، ثم عدت اليها بعد الاحـتلال الامريكي، فوجدتها تستحق التحقيق والنشر، وعكفـت علـى نسـخها وتحقيقهـا بكل نشاط، في وقت كان كل شيء في بغداد سيئا وينذر بمزيد من السـوء، وبعـد عمل متصل استغرق عدة شهور، أتممت تحقيق المخطوطة، وقـدمت لهـا بمقدمـة طويلة تناولت سيرة المؤلف ومؤلفاته، ووصف المخطوطة وبيان أهميتها ومـا الى ذلك، ولما لم يكن المؤلف قد كتب لها عنوانا، فقد وضعت لها عنوانـا شـاملا هـو (تاريخ الزبير والبصرة مع اشارات الى تاريخ الكويت والاحساء)



وصدر الكتاب عن دار نشر أردنية في عمان. ويظهر أن بعض النجديين الذين هاجروا من الزبير الى أنحاء من السعودية والكويت شعروا أن في الكتاب ما يسيء اليهم، إذ قدم المؤلف صورة دقيقة لأسرهم ايام كانت تعيش في الزبير، وربما لم تكن لترضي تلك الصورة أبناء تلك الأسر، وقد تغير بها الحال سعة وجاها ومكانة، حتى أن بعضهم هدد بأنه سيقيم دعوى بهذا الشأن عليَّ بصفتي محقق الكتاب. أثار ذلك الخبر دهشتي، وأخبرت الناشر ضاحكاً: إن الكتاب لا يحمل أية إساءة لأحد، ولكن إن أراد أحد أن يرفع دعوى بهذا الشأن فليفعل، فالمؤلف نجدي كان يعيش قبل نحو قرن في الزبير، ومقيم الدعوى سعودي، والناشر أردني، والمحقق عراقي، لذا أظن أن دعوى كهذا لا تسمع إلا في محكمة العدل الدولية في لاهاي! وعلى اية حال لم يحقق أحد هذه النية، ونفدت نسخ الكتاب بسرعة وأعاد الناشر طبعه مرة اخرى سنة 2011.

مؤتمر تاريخي في بغداد، ولقاءات في تونس

وفي سنة 1981 أيضا انتميت الى جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق، وكانت يومذاك برئاسة الصديق الدكتور نزار الحديثي، وكان معظم الاكاديميين من المختصين في التاريخ والاثار اعضاء فيها، لذا نجحت الجمعية في أعمال عدة ذات أهمية، منها عقد ندوة كبرى شارك فيها مؤرخون من أقطار عربية عدة، وكان موضوعها (الفكر العسكري العربي)، وقد أدهشني اني التقيت بمؤرخين من المغرب والجزائر قد تعرفوا علي من كتب وبحوث نشرتها، منهم الدكتور الدبلوماسي عبد الهادي التازي، مستشار الملك الحسن الثاني، وأذكر أنه سر للقائي بعد أن تعرف الي، وقال انه قرأ كتابي (الاثار الخطية في المكتبة القادرية) الذي اهداه اياه ديوان الوقف القادري، وانه تسلم نسخة اخرى مهداة الى الملك فقدمها اليه، فكان هذا اللقاء بداية لتعرفي على هذا المؤرخ الاكاديمي والدبلوماسي الكبير.

وممن تعرفت اليهم في التاريخ نفسه المؤرخ التونسي الدكتور عبد الجليل التميمي، الذي كان يصدر (المجلة التاريخية المغربية)، وقد بدأت صداقتي الوطيدة به حينما زرته في مكتبه في اثناء سفرة لي الى تونس سنة 1981، ولما كانت زوجتي بصحبتي فقد تعرفت على زوجته، وهي فرنسية مسلمة، وعلمت أنها تساعده في ادارة الأمور المالية للمجلة، وتربي ابنتيها تربية اسلامية قويمة، فالمجلة كانت مشروعاً فردياً يقوم به وحده، وتوطدت صداقتنا فيما بعد. وأتذكر أنه اتصل بي هاتفيا في بغداد، وكان قد وصل اليها في زيارة علمية، وطلب مني أن ألتقي به في فندق أغادير في حي العلوية، وحينما التقيت به عرض علي مسودة

مشروع يقوم بالاعداد له، وهو انشاء جمعية باسم (الجمعية العربية للدراسات العثمانية)، وجلسنا نعد مسودة المشروع، وأتذكر انه جعل للجمعية هيئة عامة، وعين لها اجتماعات دورية في كل سنتين، وأضاف أن لرئيس الجمعية حق استدعائها للانعقاد في الحالات الطارئة التي يراها، فاستغربت من هذه الفقرة، وتساءلت عن طبيعة هذه الدواعي الطارئة، هل تكون مثلا تعرض الدولة العثمانية الى عدوان دولة اجنبية، او تعرضها الى خسائر جسيمة في معركة ما، وشعرت في تلك الجلسة ان الدكتور التميمي يضع نظاما لدولة عثمانية لا لجمعية تعنى بتاريخها، وفي الواقع فانه ككثير من الباحثين المغاربة متحمس للدولة العثمانية وحضارتها حتى أنه أسس فيما بعد مركزا للدراسات العربية عن الدولة العثمانية، على أرض كان يملكها في ضواحي تونس، وبلغ من لطفه أنه ضمني الى الهيئة الادارية للجمعية، وشاركت في مجلته بدراسة بعنوان (احمد بن عوض المغربي ومخطوطته في علم المعادن والاحجار)، وهو نفس البحث الذي سبق أن ألقيته في الندوة الثانية لتاريخ العلوم عند العرب التي انعقدت في معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب في 1978. وحينما عقدت الجمعية أولى مؤتمراتها شاركت بدراسة عن نظام الأصناف في العراق في العهد العثماني، ونشر فيما بعد في المجلة التاريخية المغربية، عدد كانون الثاني 1985، على أني لم أستطع المشاركة في المؤتمرات الباقية بسبب ظروف الحصار الذي فرض على العراق بعد حرب 1990 فلم أعد عضوا في الهيئة الادارية للجمعية المذكورة.

دور الجماهير

ربما كان نفوري الطبيعي من السياسة، لا سيما من السياسيين الذين اعتيد على تسجيل كل انجازات شعوبهم بأسمائهم، وأخطائهم بأسماء تلك الشعوب، هو الذي دفعني الى مزيد من الجهد في اكتشاف دور القوى التحتية في تحريك التاريخ، وصنع الحدث، ومع ذلك لا يذكرهم المؤرخون الا قليلا،، وكلما زادت تجاربي في دراسة التاريخ، صرت أكثر إدراكا إلى إن البحث في عوامل خفية كهذه يشبه ما يقوم به الجيولوجي في البحث عن الحركات التي تحدث في الأعماق السحيقة من باطن الأرض، والتي تنجم عنها تغييرات جسيمة على سطحها، كانفجار البراكين فجأة، أو زوال الجزر، أو تغيير المعالم الظاهرة، وهو أيضاً يشبه عملية التنقيب عن الأسس الخفية من البناء، لا مجرد تبين ملامحه الخارجية.

إن تقديري العميق لدور القوى التحتية، هو الذي دفعني إلى كتابة دراسات مثل (مواقف سياسية لعلماء بغداد في العصر العثماني) وقد نشر في مجلة اسمها (الرواد) العدد 1، 1997، ذلك أن أولئك العلماء لم يكونوا يعرفون، كما رسم صورتهم مؤرخو عصرهم، إلا بوصفهم فئة منعزلة عن جماهيرها، لا تتجاوز اهتماماتها تدريس نفر محدود من الطلبة المتحلقين حولهم، ولكني اكتشفت أن ذلك النشاط المحدود لم يكن إلا الصورة التي أراد إبرازها مؤرخوهم، أما أدوارهم الاجتماعية الحقيقية، بل والسياسية، فلم تبرز ولم تعرف، إلا من خلال وثائق لم تجر دراستها، وهكذا وجدتني أتناول من خلال تلك الوثائق الوجه غير المعروف لأربعة من علماء بغداد، هم: حسين العشاري، وعبد الرحمن السويدي، وعبد الغني آل جميل، وإبراهيم فصيح الحيدري، بوصفهم نماذج على ما كان

تؤديه تلك الفئة من دور في التأثير على حركة مجتمعهم. وحينما دعيت الى المشاركة في ندوة كبرى أقامتها وزارة الثقافة والإعلام في الموصل بتاريخ 25 تشرين الأول 1973م بمناسبة مرور قرنين ونصف على صمود الموصل في وجه حصار نادرشاه سنة 1743 اخترت أن اشارك في بحث بعنوان (دور الجماهير في صمود الموصل)، هذا مع تقديري لدور قائدها الحاج حسين الجليلي، إلا اني لاحظت ان هذا الدور لم يكن إلا معبرا عن الدور الاكبر الذي أدته القوى التحتية في المجتمع الموصلي، بمعنى أنه كان يستمد قوته أولا من دور الجماهير، لا ان تستمد الجماهير قوتها من موقفه، على شجاعة ذلك الموقف وصلابته.

التاريخ والسياسة

كنت أخشى دائما من تدخل السياسيين في كتابة التاريخ تحت شعار (إعادة كتابة التاريخ)، وكم قلت لبعض من أثق بهم: إنهم تدخلوا في كل شيء فأفسدوه، لم يبق إلا التاريخ، وحتى هذا يريدون أن يفسدوه، وأتذكر أن إماما لأحد جوامع هيت سألني: ما علاقة التاريخ بالسياسة يا دكتور؟ فلم أجد في نفسي الرغبة في تفصيل الجواب، واختصرته بعبارة واحدة، خطرت ببالي في تلك اللحظة، هي (من سَيَّس فقد سَيَّس)، وسَيَّس الأولى مفهومة، من السياسة، أما الثانية فتعني بالعامية البغدادية (خف وزنه فجرفه تيار الماء) فقال الإمام أنه سيكلف خطاطا بأن يخطها ليضعها فوق مكتبه.

وفي أحد أيام شهر تموز من سنة 1998، قلت لرئيس بيت الحكمة، حامد حمادي، وبحضور عدد من المعنيين بالتاريخ: أننا لا نحتاج أنه نسيس التاريخ، لأنه – ببساطة– يقف دائما في صفنا، وإنما نريد – بالضد من ذلك– أن نخلصه من أدران السياسة وشوائبها، وإذا برئيس البيت يرد علي قائلا: إن السياسة هي كل شيء في حياتنا الثورية أو ما شابه ذلك من الأقوال التي كانت تتردد في الآجتماعات الحزبية ويجري (التثقيف عليها) لا سيما في سبعينات القرن، وبالطبع لم أناقشه لئلا يسيء فهمه ونقله، وإنما كتبت مقالا في اليوم التالي نشرته في جريدة الآتحاد، ووضعته على مكتبه، وكان بعنوان (التاريخ والسياسة!) وقد قلت فيه بالحرف الواحد "منذ أن ارتفعت أول دعوة إلى إعادة كتابة تاريخ الأمة العربية، وثمة فهم معين يسود بعض الأوساط المثقفة هنا وهناك، مفاده أن إعادة كتابة التاريخ تعني – بالضرورة– (تسييس التاريخ) بأن يكتب الماضي على وفق

رغبة هذا النظام أو ذاك، وأن يسلط الضوء على يلائم الذوق السياسي السائد، أو أن يترك ما يجانبه، وأن تطرح من التفسيرات ما يخدم آرائه وأفكاره، وساعد على تأكيد هذا الفهم أن الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ ارتفعت أولاً من أقطار عربية ذات مواقف آيديولوجية محددة، أو أنها كانت تدعو إلى إصلاح اجتماعي شامل، ففسر الأمر وكأن (التاريخ) في حاجة إلى إصلاح من النظام، مثلما تصلح (جوانب) أو (مؤسسات) في المجتمع، والغريب أن نقرأ من المعنيين بالتاريخ، ومن المؤرخين أنفسهم، فهموا الأمر على هذا النحو، وراحوا يبررونه تبريرات سياسية هي الأخرى بعيدة عن الواقع، وفي الحقيقة ليس شيئاً أخطر على التاريخ وكتابته مثل هذا الفهم المضلل، فليس معنى إعادة كتابة التاريخ أن تتدخل السياسة في التاريخ، وإنما العكس تماماً، إنه بالضبط تخليص التاريخ من آثار السياسة ونوازعها"(جريدة الإتحاد، 7/ 7/ 1998). كان هذا أجرأ ما يمكن أن يقال في ذلك الوقت في الرد على مسؤول بمستوى حامد حمادي، وكان يمكن أن يودي بي إلى ما لا تحمد عقباه، إن تعكر دمه بسببه،، لا سيما وأنه جاء رداً مباشراً على رأيه، الذي صرح به أمام الآخرين، ولكن الله تعالى لطف وسلم، كعادته معي في مناسبات أخرى، ومرت (الواقعة) بسلام.

ومن الدواهي ما كان يردده البعض من أن الديمقراطية ليست لها جذور في بلادنا، وأنها طرأت على تاريخنا من واقع تجارب الآخرين، وإن مؤسساتنا الديمقراطية، كالبرلمانات، لم تكن إلا تقليداً لما هو قائم في أوربا، وانتهى بعضهم إلى استنتاج أكثر خطورة، خلاصته أنه إذا كانت الديمقراطية غير أصيلة في بلادنا، فلماذا لا نطرحها جانباً لنعود إلى تقاليدنا الشرقية الأولى حين لم يكن لهذه (البدعة) أي وجود؟، وكتبت في مقال بعنوان (المدفع الذي لا يصادر) وجهة نظر على الضد من تلك الطرح الغريب، فأثبت من خلال أمثلة عديدة، أن روح

الديمقراطية كانت دائما موجودة في ممارساتنا، فكلكامش كـان يعـد نصـف إلـه، ومع ذلك لم يكن يقطع أمرا إلا بالعودة إلى مجلس المدينة، وفي تاريخنا الإسـلامي كان الخلفاء لا يولون السلطة إلا بعد ببيعتين، خاصة وعامـة، بـل حتـى شـيوخ أصناف الحرفيين لا يتولون مواقعهم إلا باختيار زعماء الصنف، وكذلك زعمـاء القبائل، فهم رغم صلاحياتهم بوصفهم زعماء قبائلهم وقادتها، لا يصدرون عن رأي إلا بعد أخذ رأي مجلس القبيلة، وانتهيت إلى القول بـأن الـذي أفسـد هـذه التجربة هو الاستعمار الأوربي نفسه، وأن الدول الأوربية هي التي كانت تتدخل من خلال ممثليها في أعمال المجالس النيابية حتى أفسدت عملـها تمامـاً، وعـززت ذلك بأمثلة التاريخية، ثم انتهيت إلى القول بأن الديمقراطية الحقة هي المدفع الذي لا يمكن لأعتى (اللجان الخاصة) أن تعطل حركتـه. وكنـت أعـني بهـذه اللجـان لجان الامم المتحدة التي اعتادت على مصادرة مـا كـان يعـرف بأسـلحة الـدمار الشامل، وأظن ان هذه العبارة هي التي مررت المقال للنشر، على الرغم ممـا فيـه من رد على اولئك الذين كانوا يروجون الى ان الديمقراطية مجرد بدعة مستوردة، وأن حكم الفرد هو الاصل الذي تحتاجه البلاد دون غيره.

شجرة الفستق تطرح أسرارها!



عنيت بتصوير المعالم الحضارية التي قامت المرأة بإنشائها، تعزيزا لمادة كتابي (تاريخ الخدمات النسوية العامة في العراق) الذي كنت مشغولا آنذاك بتأليفه، ولما كانت مدينة الموصل حافلة بتلك المعالم، مثل المساجد والمدارس وخزائن الكتب، فقد قصدتها في شتاء سنة 1993 لتصوير تلك المؤسسات. ومن الطريف اني صادفت في أحدى (عوجات) الموصل، أي أزقتها، شيخاً محني الظهر، اسمه داود السراج، أضافني في داره، وشرع يتحدث لي عن أسرته، فلاحظت، وهو منطلق في الحديث، وجود شجرة فستق عملاقة في مقدمة الدار، ولم أكن قد رايت شجرة فستق بهذا الحجم، فسألته عن عمرها، فقال: إن عمرها نحو قرنين ونصف، فسألته وكم عمر هذه الدار اذن، قال:إن عمرها يبلغ ثلاثة قرون، قلت:

وهل توجد لديك وثائق من اي نوع كان؟ عقد شرعي، وقفية، عقد بيع اي شيء؟ فاجاب نعم عندي، وأخرج لي سجلا كبيرا نقل فيه جملة من الوثائق القديمة تتحدث عن انتفاضة كبيرة حدثت في الموصل سنة 1839 ضد الحكم العثماني المباشر، ففرحت بما وجدت، واستأذنته في استنساخ الوثائق المذكورة، وعدت الى مكتبي ادرس ما حصلت عليه، واكتشفت من خلالها أن هذه الانتفاضة كانت بقيادة رجل من زعماء الخزاعل، اعتقله العثمانيون في منطقة الغراف اثر حركات عسكرية جرت هناك، وأنه سجن في الموصل مدة، ثم خرج ليقود انتفاضة واسعة لم يقمعها والي الموصل محمد

اينجه بيرقدار الا باستعمال المدفعية. وتذكرت أني قرأت شيئا عن هذه الانتفاضة في تقرير سري كتبه احد الجواسيس الى ابراهيم باشا ابن محمد علي، أيام الحكم المصري في الشام، وعدت الى التقرير فوجدته يؤكد صحة الوثائق التي عندي، وهكذا اجتمعت لدي مادة وثائقية تكشف عن حدث مهم في تاريخ الموصل سعى العثمانيون الى اخفائه، وكان ثمرة هذه المادة اني كتبت دراسة موثقة عن تلك الانتفاضة بعنوان (ضوء جديد على انتفاضة الموصل المنسية سنة 1839) ونشرتها في مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد 44، الجزء 1، 1997)، وصرت كلما عدت اليها تذكرت صورة شجرة الفستق العملاقة في ساحة ذلك البيت العتيق، لقد تعلمت من هذا الاتفاق العجيب أنه يتوجب على رجل التاريخ ان لا يضيع فرصة في الوصول الى الوثائق فهي ضالته في كل الأحوال، وكنت أقول ضاحكا لطلابي في مرحلة الماجستير خاصة: ان على المؤرخ أن يتمتع بـ(حاسة شم) قوية ليستدل بها على الوثائق المخبأة، إن كانت في الادراج المهملة او حتى وراء الجدران!

وأذكر أني رفعت هذه الدراسة بعد سنين عديدة على الإنترنيت (28/ 1/ 2013)، كتب لي أحد قرائها، وهو أسامة غاندي، رسالة في سطرين، لكنها زاخرة بالمعاني، فقال

"يحتفظ الدكتور عبد السلام رؤوف بالحرفية كونه مؤرخ مجيد ومقتدر , كما يحتفظ بالدأب على ايراد كل التفاصيل معززة ومذيلة بالأدلة. كان هذا المقال إضاءة حقيقية لفترة مهمة من تاريخ العراق والموصل بشكل خاص. أتمنى للاستاذ الدكتور عبد السلام النجاح المطرد".

وحينما أعاد احد المواقع المعنية بتاريخ الموصل نشر هذه الدراسة، علق الكاتب نفسه عليها قائلا "مقال جميل جداً وموثق إلى الحد الذي يبعث على الاطمئنان إلى استنتاجاته، وبقلم مؤرخ ثقة أيضاً.. أجمل ما ورد في المقال إضافة إلى الكشف عن أحداث تاريخية، هو التأصيل لبعض العوائل والأنساب، وهو تأصيل ربما يخدم بعض الباحثين، كما تمت الإشارة إلى بعض محلات الموصل، ودورها وتشكيلها الفكري والثوري، كان الموضوع رائعاً..". (بيت الموصل في 10/ 6/ 2013).

مراكز ثقافية كردية

كنت أهتم في اثناء فهرستي للمخطوطات بأسماء القرى التي تم فيها تأليف الكتاب او شرحه او نسخه، بل أصنع لها ثبتا خاصا في نهاية الفهرس، وخطر ببالي أن أجمع كل ما تيسر لي من أسماء تلك القرى في معجم مرتب على الحروف، فيشكل ذلك اضافة الى معلوماتنا عن مراكز غير معروفة أنتجت الكتاب في ظل ظروف صعبة.

وكلما مضيت في العمل تكشف لي عظم الدور الذي أدته هذه القرى النائية عن العمران، والمنتشرة في قمم الجبال والمتوسدة سفوحها، وثبت عندي وجود استثناء كبير في النظرية التي روّج لها بعض المستشرقين من ان الثقافة لا تجد ازدهارا إلا في المدن حيث توجد المدارس، فإن تلك المراكز كانت لا تزيد على ان تكون مجرد قرى صغبرة متناثرة، لا نشاط لها الا الزراعة، وتخلو من أي نشاط تجاري بل انها تقع في اماكن بعيدة كل البعد عن طرق التجارة. وصادف اني حدثت الصديق الدكتور بدرخان السندي عن الكتاب، وكان يومذاك مديرا لدار الثقافة الكردية، فرحب بنشره وصدر عن هذه المؤسسة في سنة 1997. وكنت أشعر بالحاجة الى مزيد من العمل لاغناء مادته العلمية، ولكن صعوبة الانتقال الى كردستان في ذلك الحين، والتفتيش عن المخطوطات في خزائنها العامة والخاصة كان يجعل من هذه الفكرة مجرد نية حسنة لا أكثر، ولم يخطر في بالي – في حينه- أن ستتوفر لي الفرصة لإنجاز ما تمنيته بعد عقد واحد كما سيأتي.

المذكرات الشخصية

وفي إحدى الندوات العلمية التي كانت تعقد في المجمع العلمي العراقي، تعرفت على الدكتور جعفر ضياء جعفر، وكان عضوا في المجمع، ويتولى مناصب مهمة، منها وزير الكهرباء، ومستشار الرئيس لشؤون الطاقة، وربما مناصب اخرى لا أعرفها، وتحدثنا عن المناصب التي شغلها ابوه ضياء جعفر، ودوره في السياسة النفطية والمالية والتقنية في العراق قبل ثورة 1958 بوصفه قد شغل أربع وزارات هي: المالية، والاقتصاد، والاعمار، والصناعة، وفي الواقع فاني كنت معجبا بسيرة ضياء جعفر من خلال ما اطلعت عليه من وثائقه المحفوظة في المركز الوطني للوثائق، وحدثته عن هذه الوثائق، فاقترح علي أن أؤلف كتابا في سيرته، ووعدني بأنه سيدعمني بوثائق ومذكرات تحتفظ بها اسرته في لندن. ورأيت العرض سخيا فعلا من الناحية العلمية، وشرعت في العمل، مبتدئا بما وجدته سابقا من وثائق وملفات تخص الوزارات التي شغلها، ثم من ملفته الشخصية. ثم أنه أتحفني بوثائق أخرى لا تقل أهمية عن اسرته، وحصلت من خلال أخيه الصديق الاستاذ يحيى ضياء، وكان مديرا لشركة صناعية تقع على شارع ابي نواس، على عدد من المذكرات التي كتبها ابوه مما اودعته الاسرة في لندن، وهي مذكرات في غاية الاهمية، من شأنها أن تغير كثيراً من الحقائق المعروفة عن اتفاقية النفط سنة 1952 ومشاريع مجلس الاعمار، وتوفير أول غطاء ذهبي للدينار العراقي، وهو الغطاء الذي لولاه لما امكن لثورة 1958 ان تخرج العراق من منطقة الاسترليني، وغير ذلك من الاسرار. ومن الطريف اني اكتشفت ان اتفاقية مناصفة الارباح التي وقعتها الحكومة العراقية مع شركة نفط العراق، والتي صارت السبب في نهضته العمرانية المتمثلة بمشاريع مجلس

الاعمار، فقدت تماما، ولم يعد لها وجود حتى في وزارة النفط، ولذلك قمت بنشرها في ملاحق الكتاب معتمداً على نسخة الدكتور ضياء جعفر.

زادتني هذه الوثائق رغبة في انجاز الكتاب، وبعد عدة أشهر فرغت منه تماما، وزاده قيمة ان سمح لي الدكتور جعفر بانتقاء مجموعة كبيرة من الصور الفتوغرافية التي تعد وثائق بذاتها فأودعتها صفحات الكتاب، وكان قد اقترح أن يطبع الكتاب لدى إحدى دور النشر في لندن، فلم أحبذ هذه الفكرة، ذلك ان الكتاب كان يصب في صالح النظام الملكي في العراق، وضياء جعفر نفسه كان وزيرا في ذلك النظام، وصديقا مقرباً الى رئيس الوزراء نوري السعيد، وعضوا في حزبه، وكان نشر مثل هكذا كتاب في التسعينات، وفي لندن بالذات، ربما يفسر بأنه نوع من الدعاية للأسرة الملكية التي كانت تعيش هناك، والتي كان بعض أعضائها يطمحون الى اداء دور ما في العراق بعد زوال النظام فيه. وقد أيدني الدكتور جعفر في هذه الفكرة، وطبعه في مطبعة جيدة في بغداد.

وبعد سقوط النظام، والاحتلال الامريكي للعراق، افتقدت الدكتور جعفر وأخاه يحيى، وضاعت عني أخبارهما، وبعد سنوات اتصل بي يحيى بالهاتف، وكنت يومذاك قد نقلت خدماتي الى جامعة صلاح الدين في اربيل، وعلمت منه، أنه واخاه يعملان في الشارقة حيث كانت لهما ولاخيهما الثالث حميد شركة نفط هناك. وكم سررت حينما وصلتني سنة 2013 دعوة كريمة من الأسرة لقضاء اسبوع في الشارقة، فكانت فرصة لي للقاء صديقي القديم الدكتور عدنان احمد ولي العزاوي، الذي سبق ان ذكرته من قبل حينما استعنت به في دراسة وثائق (المغارسة)، وللاطلاع على النهضة المدهشة التي شهدتها تلك البلاد خلال وقت قصير نسبيا، وحينما رأيت (دبي) وهي تزهو بعماراتها الشوامخ وتطورها

الهائل، تذكرت يوم أوفد والدي اليها سنة 1956 لتأسيس اول بلدية فيهـا، يـوم لم يكن فيها الا بيوت من طين، عدا دار اميرها التي كانت مبنية بالحجر.

وقدر لي في الوقت نفسه تقريبا أن وصـلتني مسـودة كـبيرة مـن مـذكرات لوزير آخر من وزراء العهد الملكي، كان صنو ضياء جعفر في مفاوضات الـنفط، وشغل وزارات عدة، هو عبد المجيد محمود، وكانت تربط أسـرتي بأسـرته علاقـة عائلية متينة منذ أواخر الأربعينات، حتى أن زوجته السيدة ام الحارث حضـرت ولادتي، وكنت أكن لها احتراماً خاصاً لهذا السبب، كما كنت أكن تقـديرا عاليـا لأبي الحارث نفسه، وكان هو يظهر اعجابه بدراستي للتاريخ، وقد أهـداني مـرة كتاب (مجموعة نادي القلم) وهي مجموعة من المحاضرات القيمـة ألقاهـا أعضـاء هذا النادي الذي هو من مؤسسيه. وكانت مسودة المذكرات محفوظة لـدى ولـده (علي) الذي يعيش منذ مدة في الولايات المتحدة، وقد عانيت ما عانيت في فـك طلاسم خط صاحبها، إذ كان خطه رديئـا، واسـتعنت بزوجتـه أم الحـارث الـتي كانت تتميز بقدرتها على قـراءة هـذا الخـط، وعرضـت علـى (علـي) أن اقـوم بتحقيق هذه المذكرات والتقديم لها ونشرها فرحب بالفكرة جدا، وكـان شـرطي الوحيد أن يقوم بطبع الكتاب في حال إنجازه حتى لا يذهب تعبي سدى، وصـور لي نسخة منها، وقمت بعدها بتحرير نسخة منقحة، وصححت أخطاءهـا وهـي كثيرة، وعالجت ما اعتور فقراتها من ضـعف في الصـياغة، ثـم شـرعت باضـافة هوامش توضيحية تعرِّف بالأعلام الكثيرين الـذين تحفـل المـذكرات بأسمـائهم، والمواقع التي دارت وقائع المذكرات فيها، إن كانت في بغداد او لبنان او بريطانيـا او الولايات المتحدة حيث أكمل دراسته، وحصل علـى الماجسـتير في الاقتصـاد الزراعي، حتى إذا ما انجزت تحقيق الكتاب، نكل عن اتفاقنا على نشره، وضرب برغبة أمه عرض الحائط، لسبب لم أفهمه حتى هذه اللحظة، وكذلك فعل أخ لـه

اسمه فيصل، وليس هذا فحسب، وإنما طلبا مني إلغـاء فكـرة تقديمـه الى إحـدى دور النشر، على أني لم أعر طلبهما بالا، لأني كنت مخوّلاً من أمهما بالعمل على نشره، ولم أكن لأضيع جهد سنتين مـن العمـل المضـنى نـزولا لطلـب غريـب لم توضح لي اسبابه، وقدمت الكتاب الى إحدى دور النشر اللندنيـة فنشـر بعنـوان (مذكرات عبد المجيد محمود، الوزير في العهد الملكي في العراق) واحتل موقعه في مكتبة المذكرات العراقية.

ومن المذكرات الاخرى التي عنيت بتحقيقهـا، مـذكرات المهنـدس فخـري الفخري، وهو آخر امين عاصمة لبغداد في العهـد الملكـي، وقـد حصـلت علـى مسودتها من ابنه حسان، الذي تربطنا به صـلة مصـاهرة. وعلـى الـرغم مـن أن الفخري كان من فئة التكنوقراط تماما، ولم تكن له أية اهتمامـات سياسـية الا أن مذكراته كانت مهمة وحافلة بالمعلومات عن تطور الخدمات العامـة في بغـداد في اواخر العهد الملكي، ولما كانت المذكرات غير متصلة من حيث السـياق الـزمني، وفيها ثغرات، فقد عمدت الى إعـادة ترتيبهـا علـى وفـق هـذا السـياق، وقمـت كالعادة بالتعليق عليها بما يوضح خفاياها، وكتبـت سـيرة صـاحبها بـالرجوع الى الوثائق والملفات الخاصة به.

وكنت قد عرضت على أنس قاسم الرجب، وكان زمـيلا لـي في المدرسـة المأمونية، أن أتولى تحقيق مذكرات ابيه الكـتبي الشـهير، وصـاحب مكتبـة المثنـى ببغداد، مما كان ينشره منها في جريدة البلد البغدادية، ثـم في مجلـة (المكتبـة) الـتي اصدرها في اواسط الستينات مـن القـرن الماضـي، ومقابلـة المنشـور منهـا علـى أصولها التي توجد بخطه، وكان شرطي الوحيد، كما فعلت بالنسبة لمذكرات عبـد المجيد محمود، أن يتولى هو نشر هذه المـذكرات، إذ لم يكـن معقـولا أن أتـولى أنـا ذلك، بعد كل الجهد الذي ابذله في تحقيقها وكتابة سيرة صـاحبها، فوافـق أنـس

شاكرا، وبدأت العمل بكل همة ونشاط، حتى إذا أنجزت الكتاب، وكتبت سيرة صاحبه، وقدمت لهذه السيرة بمقدمة عن تاريخ سوق السراي وشارع المتنبي، حيث الكتب والمكتبات في بغداد، نكل عن نشره، بل أغفل الاشارة اليه في الدليل الذي نشره عن اصدارات مكتبته في المستقبل، مما أثار ريبتي من نواياه، ولبث الكتاب لديَّ عدة سنين، ثم صادف أن أقيم معرض للكتاب في اربيل، فاتفقت مع احد الناشرين العراقيين في بيروت على نشره، فنشره بعنوان (مذكرات قاسم محمد الرجب، صاحب مكتبة المثنى ببغداد) وشغل 296 صفحة.

وعلى الرغم مما أظهرته اسرته من غضب لنشره، إلا أنهم سرّوا في دواخلهم، فقد أعادت المذكرات ومقدمتها صاحب مكتبة المثنى الى الذاكرة العراقية بعد مرور نحو نصف قرن مرت على وفاته. وكنت حريصا على أن لا اتقاضى شيئا جزاء ما انفقه من وقت وجهد ومال لتحقيق كتاب المذكرات، إلا أني لاحظت أن بعض الأبناء كان ينكل عن نشرها، او حتى المساهمة في نشرها، بل يضع العراقيل دون ذلك النشر، ويظهر أن أسباب تلك المواقف عميقة تتعلق بأمور خاصة جدا لا مجال لي لفهمها، هذا مع أن اصحاب تلك المذكرات شخصيات عامة تتصل سيرتهم بتاريخ الجمهور لا بتاريخ أسرهم فحسب.

وعلى الرغم من صداقتي للفنان النحات خالد الرحال، التي بدأت في أخر السبعينات، إلا أني لم يخطر ببالي أن أسأله عما إذا كان يحتفظ بمذكرات كتبها، أو وثائق يحتفظ بها، حتى إذا ما توفي رحمه الله (سنة 1986)، سألت ولده محمد، وهو صديق لولدي رؤوف، السؤال نفسه، فأخبرني أن لأبيه مذكرات شخصية كتبها بالإيطالية في أثناء سنوات دراسته في روما، والمهم أنه يحتفظ بمذكرات كتبها جده مهدي بن صالح الرحال، في أثناء مشاركته ضمن الجيش

العثماني، في الحرب العالمية الأولى، فطلبت منه أن أطلع عليها، فلبى طلبي مشكورا، وإذا بالمذكرات قد كتبت في دفتر كبير، شاغلة منه عددا من الاوراق، وحينما شرعت بقراءتها أدركت أني أمام مذكرات فريدة لضابط عراقي شجاع شارك في جبهات السويس، وأدرنه، وغزة، ثم منطقة (جناق قلعة) في (كاليبولي) ثم في الجبهة الأوربية، وأنه بعد اعلان الهدنة، انسحب إلى استانبول فحلب وشارك في جيش الثورة العربية المسمى (الجيش العربي السوري)، وارسل في مهمة خاصة إلى بغداد، ثم مشاركته في تأسيس الجيش العراقي سنة 1921. والمذكرات، على قلة أوراقها، إلا أنها تحتوى على أسرار لم تعرف، وشهادة لم تدون، فصورت منها نسخة ظلت عندي، ثم أنس حققتها، ونشرتها في مجلة (ميزوو) التي تصدر عن جمعية المؤرخين في كردستان (العدد 18، السنة 5، 2011).

ومن ذلك أنه اتصل بي ذات يوم صديق كريم من أهل الكاظمية وأخبرني أنه حصل على مذكرات الدكتور صائب شوكت، طبيب الملك فيصل الأول، وأقرب أصدقائه إليه، واقترح علي أن اقصده للإطلاع عليها، شكرته وذهبت الى داره فوراً حيث أطلعني على نحو عشرين ورقة خفيفة من أوراق الرسائل الأزرق اللون، قد كتب عليها بقلم حبر، سطرا بعد سطر، وقرأت بعض الصفحات فتأكد لي انها لصائب شوكت فعلا، فأسلوبه أعرفه، وكذلك املاؤه، فهو ضعيف وكثير الهفوات، وفيه تأثر شديد باللغة التركية التي كان يتقنها. وسألت الصديق الكاظمي كيف حصل عليها، فأخبرني انه اشترى (مزهريتين) من بائع انتيكات، وحينما أخذها إلى البيت وتفحصها رأى في إحداها لفافة من هذه الأوراق، وعرف انها للدكتور المذكور، وأن بائعها لم يرها عندما باعها إليه، وإلا لزاد في ثمن ما باعه.

صورت المذكرات على الفور، وعدت لأقرأها بتمعن، ولاحظت أنها تكشف أسرارا خطيرة، منها شكه الصريح بالأسباب التي اعلنت في حينه عن وفاة الملك فيصل، فقد ذكر ان الملك لم يكن يشكو من آلام تستحق تسفيره إلى خارج العراق، وأنه يقرر ذلك بصفته طبيبه الخاص، وأنه حينما ذهب لرؤية الملك كالعادة، منع من الدخول اليه بحجة ان الملك لا يريد رؤيته، وان الذي منعه هو الطبيب السوري أمين رويحة، وأن وفاته المفاجئة لم تكن مبررة طبيا. ثم أنه عرَّج على وفاة الملك غازي، وقرر أنها كانت اغتيالا مدبرا، وأن اثنين من صائدي الفراشات الانكليز كانا موجودين في مكان ارتطام سيارة الملك بالعمود الذي اودى بحياته، قبل الحادثة بيوم واحد، فإن العمود كان جديدا نظيفا إذا ما قورن بسائر الأعمدة على الطريق الذي سلكه، وأسراراً أخرى من هذا النحو، وكنت مزمعا نشرها، فأخبرت برغبتي الصديق المحامي علي السويدي، محامي العائلة المالكة في العراق عنها، وكان في زيارة الى بغداد، بوصفه كان صديقا لصائب شوكت، ولما أريته إياها أكد أنها لشوكت على وجه اليقين، وانه مستعد ليكتب مصادقته على هذه الشهادة. وبلغ نبأ عثوري على المذكرات زوجة صائب شوكت، فما كان منها إلا أن انكرتها بالكلية، مع أنها لم ترها أصلا، ثم علمتُ من المحامي السويدي أنها إنما فعلت ذلك لخشيتها من أن تكون هذه المذكرات تضم أمورا شخصية تخص حياتهما المنزلية، فلما تأكد لها ان المذكرات سياسية بحتة ولا علاقة لها بما ظنت، عادت فاعترفت بأنها بخطه وأنها مذكراته فعلا. ومع أني لم أنشر هذه المذكرات، لكني كنت أضرب بها مثلا لطلابي في مادة (الوثائق) خلال مرحلة الماجستير، فأقول ان على الباحث أن لا يصدق دائما القول (الاعتراف سيد الأدلة) لأنه يجوز ان ينكر شاهد شهادته اذا ما

تصور انها تسيء اليه. أما كيف وصلت (المزهرية) الى بائع الانتيكات، فقد علمت أن أحدا من الأسرة باع بعض تحف البيت الى ذلك البائع دون ان يلحظ حقيقة ما باعه.

ومما له تعلق بهذا، أن جرس الهاتف الأرضي رن في داري منتصف ليل أحد ايام 2006، ولما رفعت السماعة جاء صوت الدكتور حسين امين، فاستغربت أن يتصل بي في ذلك الليل البهيم، وقبل أن اسأله عن جلية الأمر، بادر هو فأخبرني أنه فرغ على التو من كتابة مذكراته، وقد أودع فيها خلاصة تجربته في الحياة، وأعلمني أنه اخبر أسرته بأنه يوصي بهذه المذكرات اليّ شخصياً، وأن لي قرار نشرها من عدمه، وعلى وفق الطريقة التي أراها، بل انه كتب تلك الوصية كتابة وأعلم بها أهله. تملكتني في تلك اللحظة رعدة، واحتبست دمعة كبيرة في عيني، فلقد أحسست أن الرجل منحني عصارة خبرته في الحياة كلها، وأدركت مقدار ثقته بي. ومرت السنون، ثم شاءت الأقدار أن نلتقي في السليمانية، بعد سنوات، حيث كنا أعضاء في لجنة مناقشة أحد الطلبة لنيل شهادة الدكتوراه، فأكد لي ما أوصى به، وشكرته، وفوجئت في مساء يوم 24 أيار سنة 2013 بأحد الصحفيين يتصل بي هاتفيا، ينعى لي الدكتور أمين، طالباً مني ان أؤبنه في كلمة لتذاع في الراديو، فهاجت عبراتي، وأمليت عليه- على الفور- كلمة تضمنت كل ما اختزنته في وجداني من مشاعر، ثم اتصل بي بعض الأصدقاء يسألني عن خبر المذكرات، ومتى ستظهر للقراء، فأخبرته بوصية المرحوم، واني انتظر من أسرته أن ترسل بها اليَّ لأتولى العناية بها ونشرها، واتصلت فعلا بالسيدة زوجته، أذكرها بأمر الوصية، فأخبرتني أنها تعمل الان على ترتيب مكتبته، ثم أخبرتني بإنها وجدت المذكرات، وأنها ستقرأها اولا قبل

ان ترسل بها، وكررت طلـبي، فتكـرر اعتـذارها بأسـباب مختلفـة، ثـم احترمـت رغبتها في عدم نشـرها، ولم أعـد أتصـل بهـا، ولم أدر مـا فعـل الله تعـالى بتلـك المذكرات التي أتوقع أن تكون مهمة فعلا في رصد حياة مـؤرخ واسـع التجربـة، وشهادته على عصر امتد على اكثر من سبعة عقود عددا.

تحقيق

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف



وكنت قد صورت من دارالكتب المصرية عددا من المخطوطات المهمة، منها كتاب تضمن تسجيلا لرحلات قام بها رحالة صوفي اسمه (طه الباليساني) منطلقا من قريته باليسان في كردستان فجال في مناطق واسعة من العراق والاناضول وبلاد الشام فمصر وبلاد الحجاز، وقد استغرقت رحلاته تلك اكثر من ثلاثة عقود، وصف خلالها قرى وقلاعا في بلاده كردستان، ومدنا ومعالم مختلفة في البلاد التي مر بها او أقام فيها، وذكر العلماء الذين التقى بهم، وفي الواقع فإنه كان الرحالة الكردي الوحيد في عصره، وقد انتقلت رحلته الى دار الكتب في القاهرة حتى إذا أقمت في مصر للدراسة سنة 1970، صورت هذه المخطوطة، واعتمدتها في رسالتي للماجستير، ولبثت لدي عدة عقود من السنين، وفي سنة 1999 عزمت على تحقيقها، ووجدتها قد حوت نصوصا ادبية بالغة الضعف، وأشعارا فيها ركة ظاهرة، فجردت الرحلة منها، وأبقيت على سائرها، وأشرت الى ذلك في مقدمتها. وكنت مرة احدث عنها الاستاذ خالد خوشناو، مدير الثقافة الكردية ببغداد، فعرض أن ينشرها في مؤسسته، وطبعت بطريقة التصوير وبعدد محدود بسبب ظروف الحصار الذي فرض على البلد عهد ذاك، وصرت أتحين الفرص لإعادة نشرها، حتى واتتني فعلا حين تولت مؤسسة مكرياني في أربيل اصدارها بعد ان نقحتها وذلك سنة 2007.

تحقيق مخطوطة نادرة

وكان احد المتاجرين بالمخطوطات قد أذاع بين المهتمين بالمخطوطات أنه يملك نسخة فريدة كاملة من كتاب بالتركية العثمانية عنوانه (تذكرة الشعراء) تأليف عبد القادر الشهراباني، وهو كتاب مهم فيه تراجم نحو ستين شاعرا برزوا في القرن الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر، وكان الأب أنستاس ماري الكرملي قد نشر مختصرا عربياً ركيك العبارة جدا لهذا الكتاب، بعنوان (شعراء بغداد وادباؤها في ايام داود باشا) وصدر سنة 1936، فأحببت ان أحصل على نسخة من (تذكرة الشعراء) لاقابلها على المختصر المذكور، وأخيرا استطعت أن أحصل على نسخة مصورة منه، وشرعت بمقابلته فتبين أنه يختلف عن مختصره بتفاصيل كثيرة، كما أنه كتب بتركية عالية، بينما كتب المختصر بعربية هزيلة، واتصلت على الفور بالاديب التركماني فؤاد حمدي، الذي كان يعيش في كركوك، وعرضت عليه أن يتولى ترجمة الكتاب الى العربية، لأقوم بتحقيقه والتعليق عليه والتقديم له، فتولى العمل بكل همة ونشاط، وتوليت أنا التحقيق والتعليق، فكنت أبعث اليه اسبوعيا بقطعة من المخطوط المصور، ويبعث هو الي بما عنده بعد ترجمته، فأقوم بتحقيقه، وأرسل به الى كاتبة الطابعة (أم سالار) فتقوم بطباعته على الحاسوب، ثم أقوم بمقابلة المطبوع على المسودة، وهكذا صار العمل يأخذ شكل دائرة مفرغة، حتى تم إنجازه، وكتبت له مقدمة تضمنت الاجابة على كثير من الاسئلة التي رافقت صدور المختصر من قبل. وكان الأديب فؤاد حمدي قد ترجم الشعر التركي الى العربية نثرا، مع ابقائه على النص التركي الى جانب الترجمة العربية، وكان يفترض أن أبقي على نصه الاصلي وما يقابلها من ترجمة، الا أن الامر لم يكن ميسورا في مطبعة المجمع

العلمي التي تولت طباعته، حيث لم يكـن أحـد يعـرف التركيـة ليتـولى تصـحيح النص، وهكذا خرج النص مترجماً، دون أن يرفق باصله التركي، ومع ذلك فإنـه قدم صورة واضحة عـن حالـة الأدب في العـراق في ذلـك العصـر، بينمـا كـان المختصر الذي نشره الكرملي قبل نحو ستين سنة لم يقدم إلا صورة بائسة عنها لا تمثل الواقع بشيء.

المطراقي زاده

زارني في داري سنة 1988 كل من الدكتور حسين علي محفوظ والاستاذ جميل الكاظمي، وآخرون، وقد أسعدني الكاظمي بأن أهداني كتاباً مهماً هو (رحلة العراقين) تأليف المؤرخ والرسام الماهر نصوح افندي مطراقي زاده، ويتضمن الكتاب وقائع رحلته بصحبة جيش السلطان سليمان القانوني الى ايران والعراق سنة 1534، والأهم من ذلك احتواؤه على نحو 132 صورة ملونة بريشة المطراقي تمثل مراحل الطريق الطويل الذي قطعه الجيش من المدن والقرى والجبال والأنهار وغير ذلك، ففكرت أن من المحزن فعلاً أن يبقى هذا الكتاب النفيس حبيس نسخته التركية، ورايت أن من المفيد جداً نقله الى العربية، ولذا اتصلت بالصديق الدكتور صبحي ناظم، ليقوم بترجمته الى العربية ففعل، ثم توليت أنا التعليق على النص المترجم بما يشرح مصطلحاته، ويعرف بالمواقع الكثيرة التي وردت في تضاعيف الرحلة، وبعد أن نجز الكتاب عرضته على الصديق محمد الخاقاني، فاقترح تقديمه الى المجمع الثقافي في أبو ظبي ليتولى طبعه، وقد فعل، فخرج الكتاب مطبوعاً بشكل أنيق سنة 1998.

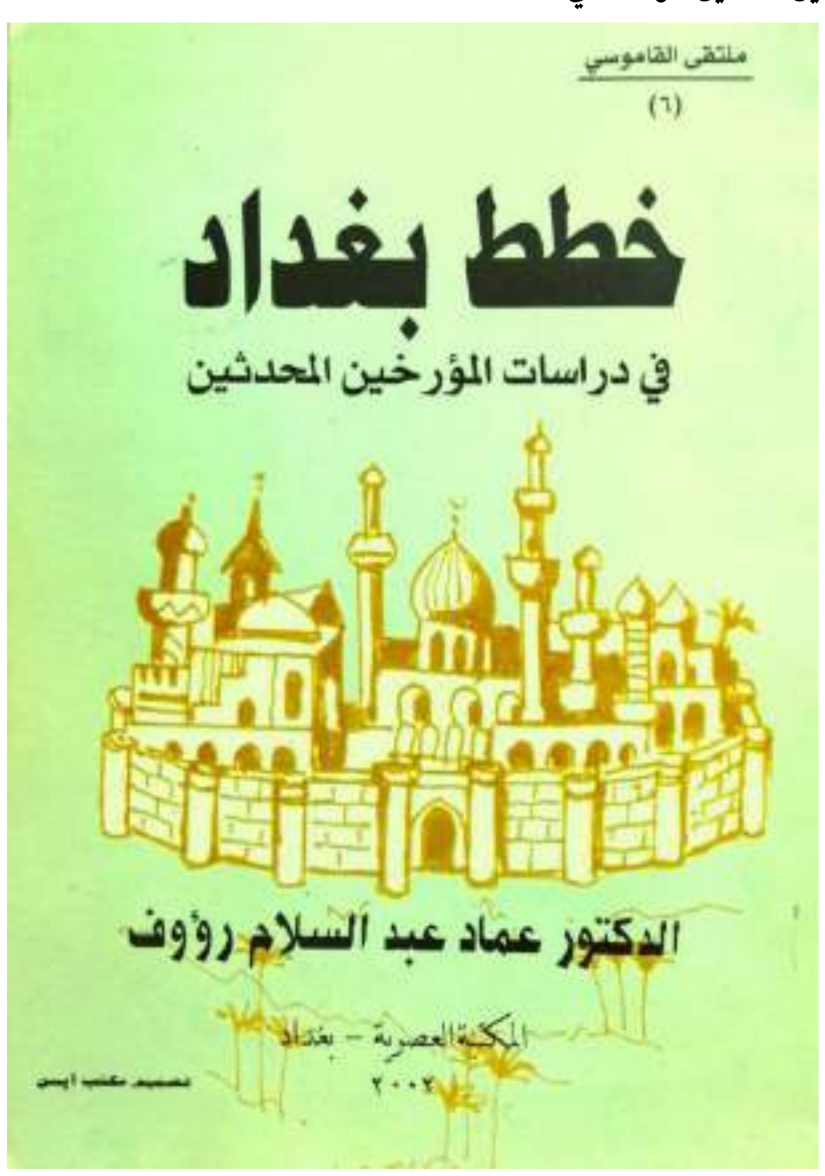
وعلى الرغم من أناقة الطباعة، فاني كنت أشعر أن الكتاب لم يُوفي الصور الدقيقة الملونة ما تستحق من دراسة، لا سيما ما يتعلق منها بالعراق، مدنه وفيافيه ومشاهده ومعالمه المختلفة، وفي سنة 2014 شرعت أعمل على تحقيق مشروع يقضي باعداد دراسة لنحو خمسين صورة من صور الكتاب، رسم فيها المطراقي تلك المعالم باتقان مدهش وألوان خلابة، وجاءت الدراسة بثلاثة أبعاد، بعد تاريخي او خططي، باعتبار أن هذه المعالم تمثل مدنا ومشاهد لها تاريخها، وبعد

آثاري يتعلق بنوع عمارتها وتطور أساليبها البنائيـة ومـا الى ذلـك، وبعـد ثالـث يتصل بالجانـب الفـني البحـت، مـن حيـث ألوانهـا وطريقـة تنفيـذها واسـلوب تخطيطها. وقد تولت طبعه بالالوان مؤسسة الاعلمي في بيروت، فخرج إلى قرائه في 288 صفحة كبيرة. كما أني نشـرت دراسـة مسـتقلة عـن الصـورتين اللـتين رسمهما المطراقي لمدينة كربلاء بعنوان (كـربلاء كمـا رسمهـا المطراقـي زاده) في العدد الثاني لسنة 2016 من مجلة جديدة هي (السبط) يصـدرها مركـز كـربلاء للابحاث هناك.

تطور علم الخطط

التاريخ للتاريخ مجال جديد في كتابة التاريخ في بلادنا، ونظرا لاهتمامي المبكر بعلم خطط بغداد، فقد خطر ببالي مرة ان أؤرخ لهذا العلم، واعني به دراسة تطور المدينة والاستدلال على المندثر منها من خلال ما هو شاخص، وقد سبق أن اشرت الى أني كنت مولعا بهذا النوع من الاستدلال، وحينما عرضت فكرة الكتاب على الدكتور صالح العلي لم يبد اهتماما كبيرا بها، بل تساءل إن كان مقبولا أن نسمي دراسة خطط المدن علما، وقلت له هو علم ما دام يحكمه منهج بحث، فاستمر على عدم اقتناعه، ومع ذلك فقد شرعت بتتبع مراحل البحث في خطط بغداد، بدءا بالمحاولات الأولى التي قام بها مؤرخو بغداد العصر العثماني حتى نهايات القرن الثالث عشر، وأكثرها يقوم على تعيين قبور الأولياء، ثم دراسات المستشرقين في الموضوع نفسه، وأبرزهم ليسترنج وهرزفيد، وما اضافوه من منهج يقوم على الاستدلال بدراسة الأنهار واتجاهاتها، ثم كتابات محمود شكري الآلوسي وعبد الحميد عبادة ومحمد سعيد الراوي، التي تناولت وصف المعالم الخططية الشاخصة، من مساجد وتكايا وسقايات وغيرها، فدراسات يعقوب سركيس ومصطفى جواد واحمد سوسة، التي اعتمدت خريطة بغداد المتأخرة في فهم المعلومات الخططية في النصوص الأدبية والتاريخية، وصولا الى دراسات صالح العلي نفسه، التي نظرت إلى علم الخطط على أنه وسيلة لفهم تنظيم الإدارة ووسائل الاتصال والعلاقات الإجتماعية لأهلها، لا غاية قائمة بذاتها، متتبعا تطور مناهجهم ودوافعهم ونتائجهم، فخرج الكتاب وهو يغطي قرنا كاملا من جهود المؤرخين، وشاء الله ان يتولى (ملتقى القاموسي) وهو احد

المنتديات الثقافية في بغـداد نشـره، فصـدر بعنـوان (خطـط بغـداد في دراسـات المؤرخين المحدثين) وذلك في سنة 2002.



متحف لبغداد

دعوت لمدة عقدين الى إنشاء متحف لبغداد، متحف يستطيع مشاهده أن يتتبع تاريخ المدينة وتطور عمرانها وخدماتها من خلال ثلاثة عشر مجسما كبيرا، قد زود كل مجسم منها بدوائر الكترونية توضح أماكن المدارس والقصور والمستشفيات والقلاع والحصون وغير ذلك في كل قرن، كما أنه يحوي معلومات مصورة ومجسمة لمظاهر الحضارة فيها عبر عمرها الطويل (من ذلك مثلا:متحف لبغداد، جريدة الإتحاد، 21/ 4/ 1998، ومدينة استثنائية، جريدة الإتحاد 15/ 7/ 1998)وقد وضعت دراسة تفصيلية عن هذا المشروع، فكرته، وتقنياته، وغايته، وأسلوب عرضه، وصور متخيلة لاجزائه، عرضتها على أكثر من أمين لبغداد، لاسيما الأستاذ خالد الجنابي الذي تولى منصبه في أواسط الثمانينات، وكان متحمساً لإحياء تراثها، إلا أن نقله من منصبه انهى الفكرة، فأعدت عرضها على الأمناء التالين تباعا، وكانوا جميعاً يعجبون بها، ويتحمسون لتنفيذها، ثم إذا بعزائمهم تفتر عنها وينصرفون.

وأذكر أني كتبت مرة دراسة مفصلة عن الباب الوسطاني، آخر ما تبقى من أسوار بغداد، تناولت فيها تاريخ تأسيسه، وتخطيطه، وتصميم عمارته، وذيلتها بجملة من المقترحات لغرض تحويل هذا الباب العتيد الى معلم سياحي وثقافي بارز من معالم بغداد، وان يصار الى جعله مشروع ضوء وصوت يحكي تاريخ بغداد في عَرض خلاب، تشارك فيه مؤثرات مختلفة، اسوة بمشروع الضوء والصوت الذي شاهدته في أهرام الجيزة بمصر، حيث يتابع المشاهد عرضاً ناطقاً مضيئاً لتاريخ مصر عبر العصور. وكان الباب الوسطاني عهد ذاك قد اصبح

مجرد ملقى كبير للقمامة، وقد تجاوزت الدكاكين والكراجات على أرضه، وعلت أكماته القبور. عرضت المشروع على الاستاذ مدحت الجادرجي، مساعد أمين بغداد، فقرر أن تتبناه الامانة، ثم كان ان غادر منصبه فنسي المشروع، ثم أعدت عرضه على الدائرة الهندسية في ديوان الرئاسة، وعقدت جلسة لدراسته ومناقشته حضرها لفيف من المؤرخين والاثاريين والمهندسين، ولكن المشروع ما لبث أن نسي، وربما طغت عليه اهتمامات أخرى، فلم يذكره أحد حتى احتلال بغداد سنة 2003.

كما دعوت الى إعادة احياء باب الطلسم (باب الحلبة العباسي) ببنائه مجدداً على وفق الأسس التي كشفت عنها الهيئة العامة للاثار في أثناء انشاء الطريق المعلق حول بغداد الشرقي الذي سمي (طريق محمد بن القاسم) قرب ساحة النهضة، ووفقا للصور الفتوغرافية الدقيقة التي أخذت له قبل ان ينسفه الجيش العثماني المنسحب عشية دخول القوات البريطانية بغداد في 17 آذار سنة 1917 _جريدة الإتحاد، طلسم بغداد 8/ 9/ 1998)، وكان يمكن لو أعيد بناء هذا الباب الجميل أن تستعيد بغداد أحد أروع معالمها التاريخية، وأن تتحول المنطقة البائسة حوله الى مقصد للمواطنين والسائحين.

وكتبت مرة مقالا في جريدة الإتحاد بتاريخ 8/ 8/ 1998) بعنوان (ماذا يبقى لأبناء بغداد المقبلين) تساءلت فيه 'أكثيرٌ على بغداد، هذه المدينة التي تحدّت أكثر من إثني عشر قرناً مضت، أن تبقي من أحيائها حياً واحداً، أو محلة واحدة، أو حتى زقاقاً، يحتفظ بنكهة المدينة التراثية الجميلة، ويذكر الأجيال القادمة بما كان يختبئ وراء جدرانها من قيم نبيلة، وما يضوع في أرجائها من أريج مجد تالد، وختمته بعبارة تقول 'لنجعل من محلة بغدادية واحدة، في الأقل، هدية من أهل هذا الجيل، إلى أبناء الأجيال القادمة، فإن لم نفعل، فلن يبق في أيدي تلك

الأجيال من مدينتهم إلا ذكرى لا واقع يقوم عليه، وخيالاً لا جسم يتمثله، وأوصافاً في كتب مع غياب الموصوف نفسه (جريدة الإتحاد 18/ 8/ 1998).وكنت كلما اقترحت شيئا بخصوص تخليد معلم في بغداد او احيائه فترت الهمة عن تنفيذه.

اكتشاف مركز المدينة المدورة

دعوت غير مرة، فيما حاضرت وكتبت، الى أن تقوم الجهات الآثارية بجهد خاص لاكتشاف موقع مدينة المنصور، أو المدينة المدورة كما صارت تسمى من بعد، من ذلك مثلا أني كتبت في جريدة الاتحاد، التي يصدرها اتحاد الصناعات العراقي، سنة 1998، مقالا عن هذا الموضوع بعنوان (أين مدينة المنصور؟) أكدتُ فيه هذه الدعوة، وقلت "لقد شاءت العناية الإلهية أن تبقي على مساحة كبيرة من الأرض التي كانت تقوم عليها مدينة المنصور خالية من البناء حتى اليوم، ومن ثم ليس مستحيلا في عراق لم يعرف المستحيل قط، أن توظف الجهود العلمية، وتوفر الإمكانات الفنية، للقيام بحملة مكثفة، وطويلة النفس، للبحث عن أسس المدينة المدورة، أو عن أي من مرافقها التليدة، وإننا على يقين بأن الأجيال المقبلة ستذكر لأبناء هذا الجيل، بكل فخر، أنه هو الذي نفض التراب عن مدينة الاجداد عبر القرون، وأنقذ رمز بغداد الخالدة من مطاوي النسيان، وأكد، مرة أخرى، على نبل إحساسه بالماضي، ووفائه لبناة حضارته رواد العالم في تلك العصور". وكان مما قلته أيضا "؛إذا ما علمنا أن المدينة بأسوارها الدائرية، ومركزها المتوسط، تتخذ شكلا هندسيا منتظماً، فإنه يصبح ممكناً إذا تم العثور على أي جزء منها، رسم سائر حدودها، ومعرفة شكلها على نحو يطابق ما كانت عليه، أو قريبا منه في الأقل، واعتقد أن اكتشافاً كهذا سيكون له شأن، وأي شأن، في العالم كله".

ولم تكن (الجهات المعنية) معنية بالأمر، فلم تحرك ساكناً، حتى إذا بدأت أمانة بغداد بمشروعها بتكسية شواطئ بغداد بالصخر، سنة 1999- 2000 إذ

اكتشف مهندسوها وعمالها صدفة، في 1/ 10/ 1999 في منطقة (العطيفية) على شاطئ الجانب الغربي من بغداد، أسس لقاعة كبيرة على عمق 6-7 أمتار تحت الارض، قد فرشت ارضيتها بالطابوق الفرشي الكبير، تتصل بنفق عال يتجه نحو الشمال الغربي، ويتخلل سقفه المعقود سلسلة من الفتحات، فجرى الإتصال بالهيئة العامة للآثار، التي أوقفت العمل مؤقتا، وقامت بإعمال تنقيبية سريعة توصلت من خلالها الى ان هذه القاعة تقوم فوق مقبرة فرثية سبق وجودها تأسيس بغداد، كما عثرت على ختم باسم (عبد الله بن محمد) وقطع نقدية معروفة باسم (الدوانيق). وكان سهلا أن يقترن الاكتشاف باسم الخليفة المنصور مؤسس المدينة المدورة، فعبد الله هو اسمه، والدوانيق هي العملة التي شاع ضربها في عهده حتى عرف بالدوانيقي، لكن المشكلة كانت تتمثل في تعيين أي معلم من معالم هذه المدينة كان هذا الذي جرى اكتشافه، وكان الصحفي سلام الشماع قد أذاع خبر الاكتشاف بين عدد من الباحثين، من بينهم الدكتور حسين علي محفوظ، الذي كان يسكن في مكان قريب من موضع الاكتشاف، فتوصل الى أنه ليس إلا قصر الخلد، مستندا على قرينتين، الاولى انه قصر من قصور المنصور، والثانية انه يقع على شاطئ دجلة، وهذا ما اتصف به قصر الخلد بالضبط، وحينما وجه اليّ السؤال نفسه، كانت اجابتي تختلف اختلافا بيناً، فصحيح ان وجود ختم الخلافة وهو يحمل اسم المنصور يدل على أن القصر عائد حتما لهذا الخليفة، لكنه ليس قصر الخلد بأي حال، والدليل على ذلك وجود ذلك النفق المعقود ذو الفتحات العلوية مما أشرنا اليه، وكان قد أنشأه لغرض توصيل المياه من نهر كرخايا، وهو نهر كان يأخذ من الفرات، في الشمال الغربي من بغداد، وأن المنصور نفسه قال ذات يوم أنه أنشأ نفقاً بهذه الصفة يستطيع أن يسلكه إذا ما حوصر في قصره، فيخرج منه على مسافة فرسخين،

وقد قال معاصروه أنه كان يقصد به هذا النفق، فأي دليل أقوى من هذا الـدليل الذي يثبت انه قصر المنصور أول معلم أنشأه في بغـداد؟ أمـا أن وجـود القصـر على نهر دجلة، وقصر المنصور كان يقع في وسط المدينة المدورة بالضـبط، فهـذا لأن دجلة جرف نصف المدينة المدورة تدريجيا فلم يبـق الا نصـفها الغربـي، أمـا النصف الشرقي فما زال يقبع في قعر دجلة، وقد استعنت لاثبات هذا التغيير في مجرى دجلة بدلائل عدة، أهمها صور (التحسس النائي) الـتي التقطتهـا الأقمـار الصناعية لمجرى النهر، وحصلت على دلالاتها مـن خـلال عـون مشـكور قدمـه الدكتور جعفر ضياء جعفر. وكنت أتوقـع أن يسـعد هـذا التعـيين المسـؤولين في الجهات الثقافية، ومنها الهيئة العامة للآثار، فاكتشاف قصر المنصـور سـيؤدي الى اكتشاف المدينة المدورة بأبوابها الاربعة ومرافقها الكثيرة، لكني فوجئـت بغضـب مستتر يسري في كل شيء أحاط بهذا الاكتشاف،وأولها الجهات الاثارية، إذ بدت ملامحه بقيام الهيئة بدفن معالم القصر بالشفلات بسرعة، مُخفية كل اثاره، وتعليل ذلك بأن قانونها يقضي بذلك، وأن المصلحة العامـة تسـتلزمه، لأنـه يحـول دون انتشار البعوض في المنطقة، وفي الواقع فإنه كان سـبباً يـدعو الى الضـحك فعـلا. وحينما راجع الصديق الصحفي سـلام الشـماع دائـرة الاثـار لم يـر إلا وجوهـا عوابس، وتهديدات مبطنة باغلاق الموضوع وعدم طرحه في الصـحافة. وحينمـا أبلغت الأمر الى وزير الثقافة والأعلام لم يكن رد فعله بأفضل من رد فعل دائـرة الاثار، وأشيع في حينه أن موقع القصر كان قريباً من أرض كانت تستحوذ عليها امرأة ذات نفوذ وحظوة، ولم يكن مرغوبـاً أن تجـري أعمـال تنقيـب قريبـة مـن أرضها. وهكذا مات اكتشاف كـان يمكـن أن يكـون أهـم الاكتشـافات الخاصـة ببغداد منذ تأسيسها وحتى نهاية القرن العشرين، ودفن بالشفلات خشية انتشـار البعوض في مدينة السلام!

مسالك الابصار

في سنة 1998 طلبت مني مؤسسة المجمع الثقافي في ابو ظبي أن تقوم باعادة نشر كتابي (الجواهر وصفاتها) لابن ماسويه، ووافقت بالطبع، فالكتاب نفدت نسخه الثلاثة آلاف منذ ان طبعته دار الكتب قبل نحو عشرين سنة، وقد طبع بالفعل على نحو أنيق كسائر مطبوعات هذه المؤسسة، والأهم أنه صار بداية لتعاون بيني وبينها، أثمر إصدارَها عدداً من كتبي، ففي سنة 2002 طلبت أن أتولى تحقيق الجزء الثاني والعشرين من موسوعة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) تأليف أحمد بن فضل الله العمري (المتوفى سنة 746هـ)، وكانت هذه المؤسسة قد سلكت مسلكاً حميداً إذ وزعت أجزاء هذه الموسوعة على عدد من المحققين، ولم تتكل في ذلك على محقق واحد، على أن يقوم كل واحد بتحقيق جزء بذاته، وكان الأستاذ فؤاد سزكين قد نشر تلك الاجزاء بالتصوير كعادته، فأهدى المجمع ذلك الجزء اليَّ وشرعت بتحقيقه، وبعد أن قطعت في عملي شوطاً لا بأس به أدركت أن ابن فضل الله لم يفعل شيئا غير انه لخص موادا على غير ترتيب من كتاب (الجامع لقوى الأدوية المفردة) لابن البيطار، فقمت بمقابلته على هذا الكتاب بدقة، ولكن المشكلة لم تنته عند هذا الحد، لأن كتاب ابن البيطار نفسه لم يكن محققا، ومن ثم من الصعب اعتماد النسخة المطبوعة منه، فاضطررت الى بذل جهد آخر في ترجيح اللفظ الأصح، وزاد الأمر صعوبة أن كثيرا من هذه أصول الألفاظ يونانية، فلم يكن ممكناً ضبط اللفظ إلا بضبط الاسم العلمي للمادة إن كانت نباتاً أو حجراً، هذا فضلا عن الهوامش التوضيحية الأخرى. وقد طبع الكتاب، ضمن اصدارات المجمع الثقافي، سنة 2004، وجاء في 392 صفحة كبيرة.

وشجعني عملي في الكتاب على تحقيق النصوص الجغرافية في كتاب ابن البيطار، وهي نحو أربعمائة نص معظمها يقع خارج المواد التي ترد في المكتبة الجغرافية العربية، وذلك لانها تتناول موادا من العالم اليوناني والروماني التي يندر أن زارها رحالة عربي، ومنها جزر نائية في أنحاء متفرقة من البحر المتوسط. ولما كان ابن البيطار قد اقتبس هذه النصوص من ترجمة عربية قديمة لكتاب (الأعشاب) لديسقوريدس، ولهذه الترجمة نسخ عدة في العالم، فقد اضطررت الى مقابلة هذه النسخ، وأكثرها محفوظ في المجمع العلمي العراقي، مرجحاً اللفظ الأصح بالرجوع الى كتب جغرافية العالم الكلاسيكي، قبل أن أقابل ما انتهيت اليه على كتاب ابن البيطار، وهكذا نجز الكتاب واخترت له عنوانا هو (جغرافيا ابن البيطار)، ولم يكن هذا العنوان يخلو من مفارقة، لأن ابن البيطار لم يُعرف إلا عشاباً لا جغرافياً. وقد لبث هذا الكتاب عندي حتى قدمته الى دار نشر مصرية معروفة في القاهرة، فتولت طباعته ونشره سنة 2005، وخرج في نحو مائتي صفحة.

كسر احتكار مخطوط

بلغني في هذه الفترة أن فلانا من الناس قد حجز مخطوطات مهمة في مكتبة مخطوطات يتولى ادارتها، فلا يريها لأحد تحت حجج واهية، منها أنه يعمل على تحقيقها، أو أنه حققها فعلا، وكنت أكره هذا النوع من الاحتكار، وأؤمن ان الكتاب صدقة جارية لا يجوز الحيلولة دون وصولها الى طالبيها، وكان من تلك الكتب (المعتقلة) كتاب مهم في تاريخ بغداد عنوانه (اخبار بغداد وما جاورها من البلاد) تأليف العلامة السيد محمود شكري الالوسي، وهو كتاب ضخم أشبه بموسوعة في معالم بغداد وتاريخها، فقررت أن أقوم بتحقيقه، واستطعت من خلال عون صادق قدمه الصديق السيد زين النقشبندي الحصول على أصوله الخطية، وعكفت على تحقيقه والتعليق عليه بما يوضح أعلامه ومعالمه، وقدمته الى مؤسسة بيت الحكمة سنة 2004 لتتولى طبعه ونشره، إلا ان التغيرات التي جرت على رئاسة هذه المؤسسة أدت الى الإحجام عن طبعه، فاضطررت الى سحب مسودته، وبقيت عندي حتى انتقالي الى اربيل، وهناك دفعته الى أحد الناشرين العراقيين في بيروت فقام بنشره سنة 2010، ليشغل نحو ستمائة صفحة كبيرة، وجرى من ثم كسر ما أراده البعض من احتكاره وحرمان الناس من الافادة منه.

محاضرات عامة

وفضلا عن المحاضرات الاكاديمية في الكلية، فقد كنت ألقي محاضرات عامة في جامعات اقليمية ومنتديات ثقافية ونقابات في مختلف أنحاء العراق، ولا اتـذكر أني اعتذرت عن إلقاء محاضرة، او ترددت في الإستجابة لحضـور موسـم ثقـافي، وكنت موقناً بأن ذلك الحضور يمثل جزءا من رسالتي العلمية وليس نشاطا زائدا، من ذلك أني ألقيتُ محاضرة في فـرع اتحـاد الكتـاب والمـؤلفين في ديـالى بعنـوان (اصول تسميات القرى في ديالى) حللت فيها اسماء نحو خمسمائة قرية الى اصولها الاولى، ومحاضرة في جامعة بابل بعنوان (ضـرائب صـنف القصـابين في الحلـة في القرن التاسع عشر) ومحاضرة في الكوفـة عـن مـؤرخ نجفـي هـو السـيد حسـون البراقي، وأخرى عن (دور النجف في كتابة التاريخ) استعرضت فيها أعمال عدد من مؤرخي هذه المدينـة في العصـر العثمـاني، كمـا ألقيـت محاضـرة في سـامراء بعنوان (سامراء في القرون المتأخرة)، وغير ذلك مما لسـت أذكـره الان، بـل بلـغ الأمر أني ألقيت مرة محاضرة في مدرسة متوسطة في مدينة (الصويرة)، وأنا أعتـز الآن بكتاب شكر وجهته الي هذه المدرسة ربما اكثر مـن كتـب شـكر لمؤسسـات علمية واكاديمية. وألقيت محاضرة بعد أشهر فليلة من احتلال الامـريكيين بغـداد في أحد جوامع هيت الكبيرة موضوعها (صفحات من تاريخ هيت). واكثـر مـن ذلك انه حينما انتخبـت رئيسـاً لجمعيـة المـؤرخين الجديـدة سـنة 2004 تبنيـت مشروعاً لالقاء مجموعة من المحاضرات في مقاه عامة تتحدث عن تـاريخ المحـلات التي تقع فيها منذ العصر العباسي وحتى العصر الحديث، وذلك من أجل توعيـة انسان تلك المحلات بقيمة الأرض التي يقف عليهـا، وكانـت البدايـة في الكـرخ، حيث ألقيت محاضرة في مقهى كبير على شاطئ دجلة، تحدثت فيهـا عـن تـاريخ

البقعة التي كنا نجلس فيها في ذلك المقهى، وتاريخ ما حوله من المحلات، وأذكر أن الحضور كان كبيرا، بل أكبر مما توقعنا بكثير، مما أكد لي أهمية أن يكون للمؤرخ حضوره لدى الانمسان العادي لا ان يكتفي بحضور الاخرين اليه فحسب. على ان اختلال الاوضاع الأمنية بعد سنة 2005 أدى الى توقف كل تلك النشاطات المفيدة مع الاسف.

ومما أسعدني أخيراً أن صحفياً، اسمه عبد الكناني، كتب في صحيفة يومية تصدر ببغداد، يقول عني "وكان يحرص في جميع تحقيقاته وكتاباته التاريخية على إبراز وحدة الشعب العراقي وبطولاته بمواجهة التحديات الخارجية والغزو والاستعمار الاجنبي،

والصراع بين هذا الانسان وكل ما حوله من تحديات بشرية وطبيعية، يجعله يضع قضية بلاده نصب عينيه والبحث عن كل مايقوي الوشائج والعلاقات بين أطيافه ومكوناته والنحي بكتاباته عن النفس الطائفي والتعصب القومي وكل ما يتحسس منه المواطن العراقي. وكان يجول ادغال التاريخ الوعرة الشائكة للبحث عن دليل اومعلومة تعزز اللحمة العراقية وتشدهم بعضا الى بعض دونما حساسيات أو ما يثير الضغائن والاحقاد" (عبد الكناني، جريدة الصباح، 24/ 2/ 2016).

إرث العلماء المبدد

كانت زياراتي المتكررة لمدينة النجف سبباً في تعرفي على نخبة من علمائها، لا سيما ممن عنوا بدراسة التاريخ، فضلا عن الافادة من خزائن مخطوطاتها الكثيرة، من ذلك أني وجدت طريقي الى مكتبة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطا، الكائنة في أحد أزقة المدينة القديمة، وكنت معنياً في ذلك الوقت بالكتابة في سيرة مؤرخ نجفي مكثر، هو السيد حسون البراقي، وكان معظم ما ألفه ظل مخطوطاً، وبعضه ضاع وفقد بعد وفاته، وقد سعدت إذ وحدت عددا لا بأس به من مؤلفاته في تلك الخزانة القيمة، ولما كانت الخزانة تحتل رفوفاً خشبية عديدة في دار قديمة مهملة، فقد وجدت طبقة من الأتربة تغطي كل شيء فيها، وتحول دون الجلوس على اي من كراسيها القليلة، فاضطرني ذلك الى أن افترش بعض الصحف اليومية على الارض لأقضي الساعات الطوال عليها أتصفح مؤلفاته المخطوطة واستنسخ ما أراه مهماً، أو أن اجلس على عتبة الدار الخارجية التماسا لشيء من الضوء حين ينقطع التيار الكهربائي. وبعد عدة أشهر من هذا النوع من العمل لاحت لي أن الدراسة أنجزت، وخطر ببالي أن أكملها بلمسة أخيرة، هي تعيين مكان قبره، لكن أحد الأصدقاء هناك أخبرني أنه زال بزوال الزقاق الذي دفن فيه، وفي ليلة مطيرة عاصفة رن الهاتف في داري، وإذا بالصديق علي نعمة الحلو يخبرني هاتفاً: وجدته! وجدته!، قلت له: وماذا وجدت؟ قال: قبر البراقي، انه لما يزل موجوداً في داره في زقاق (عجينة)، قلت له: غداً سآتيك، وعلى الرغم من سوء الأحوال الجوية، وغزارة الأمطار، في اليوم التالي، فقد قصدته وذهبنا فوراً إلى تلك الدار، حيث اطلعت على قبره في (سرداب) هناك، كما وقفت على بعض آثاره الخطية. ثم اني ألقيت ملخص هذه الدراسة في ندوة

خاصة عن هذا المؤرخ عقدت في النجف، ودفعتها الى مجلة المؤرخ العربي، التي يصدرها اتحاد المؤرخين العرب، فنشرت في عدد 1996بعنوان (البراقي مؤرخ الكوفة).

وفي التسعينات، تعرفت على أحد علماء الحوزة في النجف، وهو السيد حسين ابو سعيدة، وكان نسابة اشتهر بتحقيق الأنساب، وله عدة كتب مهمة في هذا العلم، ترجم لي في أحدها، وكنت أزوره بين حين واخر في داره (البراني) حيث مكتبه، بينما زارني في بيتي في الغزالية، والمهم أنه قادني مرة، بناء على طلبي، إلى دار قديمة في النجف، قد امتلأت بالكتب وأكثرها مخطوط أو مطبوع نادر، وفيها دواليب ذات (مجرّات) عديدة قد اكتظت بآلاف البطاقات قد اكتزنت بالملاحظات المهمة في التراجم والمخطوطات والأنساب، وكانت تلك الدار مكتبة للشيخ الشهير اقا بزرك (توفي سنة 1389هـ)، وفيها دفن، ووجدت في هذه الملاحظات ثروة علمية يقتضي العمل على تصنيفها ونشرها، واقترحت على السيد أبي سعيدة أن يصار إلى تكليف لجنة من المثقفين النجفيين تتولى هذا الأمر، وعرضت عليه أن أعاونها إذا ما اقتضى الأمر ذلك، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث في حينه، ولا أدري ما حل بها الدهر بعدها.

إن أكثر علمائنا حينما يتوفاهم الله لا يجدون من يعتني بأرثهم الثقافي، فيؤدي ذلك إلى تبدد ذلك الإرث وضياعه، وكم وجدت كتباً مهمة لعلماء كبار تباع على أرصفة شارع المتنبي، لا لأمر إلا لأن ورثتهم لم يهتموا بحفظها، أو ضاقوا بها. وأتذكر أن الشيخ جلال الحنفي (ولد سنة 1914 وتوفي سنة 2006) كان يحوز كميات كبيرة من الملفات التي سجل فيها أنواعا من اليوميات الدقيقة مما جرى في بغداد على مدى سبعة عقود في أقل تقدير، ومشاريع كتب، ومسودات عديدة، وملاحظات ذات نفع كثير، ومذكرات، وحينما توفي، جرى

تأبينه في حفل حضرته، فاقترحت على الحضور أن يصار إلى جمع تلك اليوميات والملفات وأن يعهد بها إلى لجنة تقوم في تصنيفها وتبويبها على نحو يؤهلها للنشر في كتب، ورحب الجميع بالفكرة وأيدوها، لكن ما أن انفض السامر حتى انتهى كل شيء، ولا يدري أحد مصير أرثه الثقافي بعدها.

وكنت أقول دائما أننا نهلل للأحياء، حتى اذا ماتوا انطوى شأنهم ونسيهم الناس، فضاعت آثارهم، أو بيعت بثمن بخس على الارصفة. وأذكر أن الرحالة نيبور، الذي زار بغداد في القرن الثامن عشر، سجل ملاحظة تصب في هذا الاتجاه، إذ قال انك لا تجد في بغداد كتبا تباع ولكن انتظر قليلا حتى يموت عالم، وحين ذاك تجد كتبه، وكلها مخطوطات بالطبع، تباع على الأرصفة بسعر التراب.

الثعبان المحترق

أبلغني الصديق زين النقشبندي أن أمين المميز يطلب لقـائي في بيتـه، لكـي يطلعني على مواد كثير جمعها لتأليف كتاب اختار له عنوانا عربيا هو (الكنـاش)، والكناش كلمة آرامية قديمة تعني الدفتر الذي يُقيّد فيـه الطبيـب مـا يلتقطـه مـن فوائد دوائية متنوعة على غير ترتيب معين، وقد رغب، نظرا لكبر سـنه، إذ بلـغ آنذاك التسعين، أن يعهد إليّ بتلك المواد لأتـولى أنـا تـأليف الكتـاب، فـذهبنا في ظهر أحد ايام الصيف للقاء به، فإذا بمجموعة من المصـادفات الغريبـة تجتمـع في ذلك النهار القائض، وأولها أننا ما أن ولجنا إلى البيـت، وهـو يقـع علـى شـاطئ دجلة في محلة الصرافية، وصعدنا درجات سلمه الرخامية حتـى مـرق مـن بيننـا ثعبان أسود اللون بسرعة خاطفة، واستقر تحت أصيص خال للزهـور، وتملكـتني في تلك اللحظة روح من الشجاعة لم أملكها في حيـاتي، لا سـيما تجـاه الثعـابين والأفاعي، فقد كنت أخشاها خشية الموت، فأمسكت بمقبض طويل لـ(كرك) كان مسندا إلى جدار المدخل، وصرت أدفعها بعنف تجاه الثعبـان مـرات، وهـو يمـرق أمامي بسرعة عجيبة، فلم أتمكن منـه، بينمـا اسـتقر مـرة أخـرى تحـت اصـيص الزهور، ولكن جذوة الشجاعة لم تكن لتنطفئ فيَّ بعد، وصـحت مطالبـاً بسـطلة من النفط، فجيء لي بها، وشـرعت أغـرق الأصـيص ومـا حولـه بـالنفط، ثـم أوقدت فيه ناراً حتى بات كأنه شعلة من نـار، وانتظـرت أن يخـرج الثعبـان مـن مكمنه فلم يخرج، وإنما انكسر الأصـيص بفعـل الحـرارة، ومـا أن أزحـت كسـر الأصيص جانباً حتى رأيت الثعبان وقد التف على نفسه، وفتح فاه وبعد لحظات تيبس تماماً بينما ظل فمه مفتوحاً، والظاهر أن (روحه طلعت) في تلك اللحظـة. دخلنا إلى الدار حيث استقبلنا الدبلوماسي القديم في مكتبه، وقضينا ساعة وهـو لم ينقطع – بما طبع عليه- عن الضحك المجلجل، وقص الذكريات الممتعة، هازئـاً

من بلوغه التسعين، وكأنه في أواسط عمره لا في آخره، وخطر ببالي: ومـن أيـن يأتي الموت الى هذا الرجل؟ وعلى أي حـال فقـد تصـفحت مـا جمعـه، فـإذا بـه رسائل من شخصيات عامة، ومقالات كتبها، ولقاءات كتبها عنه غـيره، وحملـت الملف وخرجنا، معتذرين عن البقاء مدة أطول، على الـرغم مـن إلحـاح السـيدة زوجته لكي نشاركه طعام الغذاء الذي أعدته، وعدت إلى بيتي وصوت صحكاته تدوي في أذني.

وفي اليوم التالي اتصل بي السيد زين ليخبرني بنبأ وفاة المميز، ففوجئـت تماماً، وطافت بي ذكريات الأمس، لا سيما قتل الثعبان وحرقه، وكنت أعلـم أن من معتقدات البغداديين القديمة أن قتل حية البيت يؤدي إلى مـوت رب البيـت، فهل كان قتل ذلك الثعبان سبباً فيما حدث، وعلى أي حال فإن السيدة طمأنتني بأن الثعبان لم يكن (حية بيت) وإنما كان طارئاً على البيت، جاء اليه مـن شـاطئ دجلة القريب.

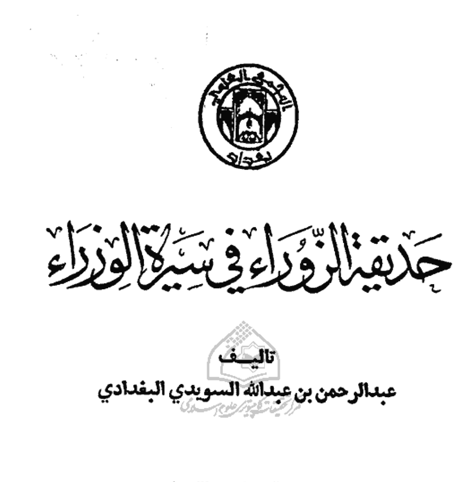


ولما كان نشر أخبار الوفيات في الصحف ممنوعاً في ذلك الوقت فقد اضطررت إلى (حيلة شرعية) نعلن بها عن الخبر لقراء كتب المميز وعارفي فضله ومحبيه، وهم كثر، فكتبت خبرا (بريئاً) عن شروعه بجمع مواد كتابه الجديد (الكناش)، وهو في هذا العمر، ثم أقحمت قبل اسمه كلمة (المرحوم)، فنشرت الصحيفة (الجمهورية في 17/ 6/ 1997) الخبر دون أن تنتبه إلى تلك الحيلة، مما أثار انتباه القراء وطفقوا يتصلون بأسرته حتى شاع الخبر وذاع.

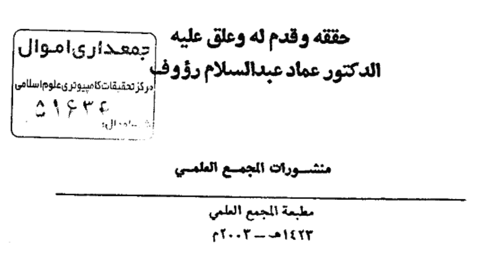
وبعد مدة شرعت بالعمل، ورأيت أن يتولاه السيد زين، فهو أقرب إلى المميز، وأدرى به في تلك الفترة من حياته، واكتفيت بالتقديم له والتعليق عليه، فلما نجز الكتاب تماماً، قدمنا الكتاب إلى دائرة الرقابة في وزارة الثقافة لأخذ موافقتها، وهنا خرج علينا ثعبان آخر، اسمه الرقيب، فقد أحالت الدائرة الكتاب إلى دائرة الأمن لتأخذ رأيها، وكأنها لم تكتف برأي خبيرها الإعلامي، فإذا بالكتاب يتأخر عندها، وتكررت مراجعتنا للوزارة والموافقة تأبى أن تخرج، وطال إنتظارنا، هذا بينما كانت مقدمات (أم المعارك) تنذر بحرب وشيكة، وكنا نرجو أن تخرج الموافقة قبل أن تندلع الحرب، فإذا بالحرب تندلع فعلا، وكانت وزارة الثقافة أولى المؤسسات التي قصفت بالصواريخ حتى دكت دكاً، فلم نعد في حاجة إلى موافقة أحد، فكان أول ما قمنا به بعد توقف الأعمال الحربية أن طبعنا (الكناش) فخرج إلى الناس حرا طليقا، مطبوعا أنيقا، وشعرنا بأننا وفينا للرجل الساخر من زمانه، حقه، ونشرنا آخر عصارات ذهنه. وكنت يومذاك عضوا في الهيئة الإدارية في اتحاد الأدباء والكتاب، فدعوت إلى تأبينه بحفل يقام في قاعته، وحضره كثيرون، وكان ممن أبّنه الدكتور حسين أمين، وزين النقشبندي، وممثل أسرته، وأنا.

هيت الملجأ والتاريخ

قرعت طبول الحرب ثانية في سنة 2003، وكنت يومذاك مشغولا تماماً بالإشراف على طباعة كتابي (تذكرة الشعراء) في مطبعة المجمع العلمي العراقي، والتهيؤ لطبع كتابي الآخر (حديقة الزوراء)


حديقة الزوراء في سيرة الوزراء

تاليف
عبدالرحمن بن عبدالله السويدي البغدادي


حققه وقدم له وعلق عليه
الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي
١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م

كما ذكرت هذا قبل قليل، بل كنت أتمنى أن يتأخر إعلانها شهرا آخر، إذا كان لابد ان تقوم، ريثما أنجز طبع الكتاب الأخير، ولكن قرع الطبول زاد ارتفاعا، وزاد الأمر سوءا اننا أنذرنا بوجوب ترك بيتنا في الغزالية لضرورات

(مقاومة طيران المعتدين) فقد كانت شظايا الصواريخ العراقية المضادة للطائرات تتساقط على الدور السكنية دون أن تصيب الطائرات الامريكية والبريطانية بأذى، واضطررنا الى الانتقال الى بيت الأسرة الكبير في منطقة اليرموك، حيث تعيش والدتي المسنة، وحينما أخذ القصف المعادي يقترب من هذه المنطقة، اضطر اخي عصام الى اصطحاب والدتي وأسرته الى مدينة هيت على الفرات، لانقاذها من خطر القصف،، وكان قد نجح في استئجار بيت هناك، وبقيت أنا وأسرتي ونحن نمسي ونصبح على صوت الانفجارات العنيفة تهز البيت هزا، ولاحظت أن الحي أخذ يخلو من سكانه، ومشاعر التوجس والخوف تسود الجميع، حتى أشدهم بأساً، فقررت في تلك الساعة أن أغادر بغداد، وبحثت عن سيارة تقلنا الى هيت فلم أجد، بعد بحث وانتظار، إلا سيارة أجرة رضي صاحبها بايصالنا الى حيث نريد، غادرنا بغداد اذن مضطرين، وأتذكر أن آخر ما مررنا به ونحن نغادرها، مطعمين كبيرين للباجة، وقد تصاعدت الأبخرة من قدورها، وكأن حرباً لا تجرى في اي مكان في الدنيا، وأخيراً وصلنا هيت ليلا، حيث نزلنا في البيت الذي استأجره أخي وشرعنا باستماع اخبار بغداد.

وعلى الرغم من مرارة ما كنا نسمعه، وما تثيره فينا أخبار تقدم القوات الغازية من هلع، فاني وجدت في البحث عن الماضي الملجأ الوحيد الذي يمكن ان ألجأ اليه بعيداً عما يجري حولي من مآس ومتاعب، إذ ما أن مضى اسبوعان أو يزيد حتى قررت أن أؤلف كتابا في تاريخ هيت، وبدأت بحثي عن المسنين الذين من المتوقع أن أجد عندهم وثائق تفيدني في ذلك، وفي الواقع كان منظري غريبا او طريفا بعض الشيء، فبينما كنت لا تسمع في البلدة الا حديثا عن بغداد والاحتلال والجيش والمعارك واسعار المواد الغذائية وما إلى ذلك، كنت أجد طريقي الى بيوت الاسر القديمة، حيث التقي بمسنيها، ابحث عندهم عن كل وثيقة

متاحة، بل كل معلومة موروثة، وكانت (مشكلة البحث) التي تشغلني هي: كيف كانت هيت تحكم في العصر العثماني، من هي الأسر التي حكمتها، ومن تعاقب على حكمها، وشيئاً فشيئاً أخذت بعض الأسر تكشف لي عن وثائقها، ومنها وقفيات مهمة، وسندات أراض، وعقود مختلفة، كما انعقدت بيني وبين عدد من فضلاء المدينة صداقات حقيقية، فكنا نخرج في يوم للاطلاع على هذا الناعور وذلك البستان، وفي يوم آخر على بقايا قلعتها المخربة، ومواقع أسوارها الزائلة وخندقها المندثر، وبيوت سكانها القدامى، ومساجدها العامرة، وأضرحة اوليائها، وجزرها الجميلة في وسط النهر، وسائر معالمها الأخرى. وكنت أحرص في تلك الجولات أن أصور كل ما يستحق التصوير من تلك المعالم، حتى إذا ما بلغنا نبأ توقف القتال، عدنا الى بغداد لاستأنف العمل في تأليف الكتاب الذي وضعت له عنوانا هو (هيت في التاريخ).

وفي داري، وبين كتبي ووثائقي، أخذت ملامح الكتاب تتوضح، وخطوطه العريضة تتجلى، وشعرت بأن من الضروري الذهاب الى هيت مرة بعد مرة حتى استكمل جوانب الكتاب، وقد فعلت، فكنت أذهب اليها مع أسرتي تارة، ووحدي تارة اخرى، اكمل ما جمعته من مواد علمية، واصور ما فاتني تصويره، وأصف ما سكت عن وصفه، وأخيرا أنجز الكتاب تماما، فكان مشتملا على ثلاثة فصول، الأول في تاريخ هيت منذ العهود القديمة وحتى الاحتلال البريطاني في اثناء الحرب العالمية الاولى، والثاني في أعلام هيت، والثالث في معالمها، وكنت أرجو أن أخرج الكتاب أيضا على قرص C.D لتصوري أن الناشئة في هيت يتفرجون لا يقرأون، وقد نجحت في تنفيذه بحمد الله تعالى، لكني لم انشره على شبكة النت إذ لم تكن وسيلة الاتصال بهذه الشبكة متاحة في ذلك الوقت، لكني نشرت الفصل الاول من الكتاب في مجلة الحكمة

التي اخذت باصدارها مؤسسة بيت الحكمة، وبعثت ببعض نسخ المجلة الى هيت، لاولئك الفضلاء الذين شجعوني على كتابة تاريخ مدينتهم الطيبة.

هجوم امريكي

في إحدى ليالي خريف سنة 2004، كنت في مكتبي في الطابق العلوي من داري في الغزالية، منصرفاً بكليتي إلى تحقيق مخطوطة (خير الزاد في تاريخ مساجد بغداد)، بينما كانت أسرتي متحلقة في الطابق الأرضي، منصرفة الى بعض شأنها، وإذا بصوت انفجار هائل يهز البيت، ويتسبب في تكسر جميع زجاجه، دفعة واحدة، وتمزق الستائر التي لم يمض على وضعها غير أسابيع، بل وانغلاق الباب الرئيسة للبيت نتيجة للضغط العنيف الذي احدثه ذلك الإنفجار، ثم سمعنا أصوات جنود أمريكيين فوق سطح البيت، كانوا قد هبطوا اليه من طائرة مروحية ضخمة تحلق فوقه، وانتقل صوت الجنود إلى الشارع القريب، وبدأنا نسمع أنواع الأصوات، ركل لباب دار قريب، واقتحام جنود له، وضجيج عال، وصوت رشقات رصاص كثيف، وكل ما يبعث على الخوف في تلك الليلة الكالحة. وبعد أن هدأت الضجة، وولى الجنود، خرجنا لنرى جلية الحدث، فإذا بآثار حرب حقيقية، حيث قصد الأمريكيون داراً لا تبعد عن دارنا إلا بعشرة خطوات، كان يسكن فيها ضابط سابق لم أكن قد تعرفت عليه من قبل، ويظهر أن معلومة وصلت إليهم تفيد أن فيها ما يستحق المداهمة، فما كان منهم إلا أن اتخذوا من سطح دارنا منصة لأطلاق قنابل صوتية على تلك الدار، ولاطلاق الرصاص نحوه، بينما لبثت الطائرة المروحية في الفضاء القريب تنتظر إنهاء مهمتهم، فاجتمع دوى القنابل، وأزيز الطائرة، وهدير الرصاص، وصراخ الجنود، فضلا عن تكسر الزجاج، وارتطام الأبواب، ما جعل المشهد مرعبا حقاً، وكان من اللطف الإلهي أن وضعت زوجتي الستائر الثقيلة التي اشترتها على النوافذ الزجاجية العريضة، خلف المقعد الذي أجلس عليه في مكتبي مباشرة،

وذلك بمناسبة عـودتي مـن العمـرة الرمضـانية، فحـال القمـاش المخملـي دون انطلاق شظايا الزجاج على رقبتي المكشوفة، ولولاها ما خرجت سـليماً مطلقـاً، ولربما نحرني الزجاج المتشظي نحرا، ولكن يجعل الله تعالى لكل شيء سبباً فجعـل في تلك الستارة الثقيلة سببا لنجاتي من إصابة خطيرة محتومة.

واضطررنا إلى مغادرة الدار، وقـد صـارت نوافـذه بـلا زجـاج، تلعـب في حجراته رياح الخريف الباردة، وبعد نحو أسبوع استطعت أن أقنع أحد أصـحاب محلات الزجاج، وقد نفق سوقهم نتيجة حوادث مماثلـة، بـالمجيء ووضـع زجـاج للدار كله، فكلفني ذلك مالا، فضلا عما كلفني مـن سـاعات رعـب، وأيـام مـن القلق، ولكن ما أن عدت إلى الدار، وقد أصلحت نوافذه، حتى عدت أعمل من جديد في (خير الزاد) بكل همة وهدوء ممكن، أدفن بين أوراقـه مـا أصـابني مـن هلع ماض، وآت متوقع، واسهر الليل من أجـل انجـازه في ظـل تلـك الظـروف العكرة.

وأذكر أننا دوهمنـا غـير مـرة مـن جنـود الحـرس الـوطني، ومـن الجنـود الامريكيين، فكانت معاملة الأولين حسنة للغاية، لا سيما بعـدما علمـوا هـويتي أستاذاً في الجامعة، وقد استقبلتهم بنفسـي خـير اسـتقبال، أمـا الأمريكيـون فقـد صعدوا أول ما صعدوا إلى مكـتبي، فهـالهم مـا وجـدوا، الجـدران مغطـاة حتـى السقف بالرفوف المليئة بالكتب، والمجلدات الـتي ضـاقت بهـا الارفـف وضـعت على أرضه وفي كل مكان فيه، والملفات والوثائق القديمة تفترش أركانه، فما كان منهم إلا أن نزلوا منه وانسلوا بهدوء خارج الدار، وأظن أنهـم فكـروا بـأن مـن يملك هذا الكم من الكتب والوثائق لا يمكن أن يكون ذا خطر، او أن يكون لديه أي نوع من انواع السلاح، أو أن يشكل تهديدا لأحد مهما كان نوعه.

كلية للبنات في هيت

كانت إقامتي المؤقتة في هيت في أثناء الاحتلال الامريكي للعراق سنة 2003 سببا للتعرف، ليس على تاريخها فحسب، وإنما على واقعها أيضاً، من ذلك اني اكتشفت الأزمة التعليمية التي كانت تعيشها فتيات المدينة، حيث كن يضطررن الى الاكتفاء بالمرحلة الاعدادية ويجلسن بعدها في البيت، وسبب ذلك انه لم تكن ثمة كلية في مدينتهن توفر لهن فرصة مواصلة التعليم، كما لم تكن هناك كليات قريبة، وأقرب كلية اليهن كانت في جامعة الأنبار في الرمادي، ولم تكن تقاليد المدينة المحافظة تسمح بذهابهن الى هذه المدينة كل يوم، أو المبيت في أقسام داخلية بعيدة، فخطرت في بالي فكرة تحل هذا الإشكال وتسمح لاولئك الفتيات بمواصلة تعليمهن الجامعي، وذلك بتأسيس كلية جامعية بفروع عملية متعددة في هيت نفسها، ووقع اختياري على بناية لا بأس في سعتها وفي جدتها كانت سابقاً مقرا للاتحاد العام لنساء العراق، وأصبحت بعد انهيار النظام والغاء الاتحادات والجمعيات خاوية على عروشها، وعرضت الأمر عد عدد من (ختيارية) المدينة فاستحسنوا الفكرة جدا، وشرعت بالبحث عن تدريسيين متقاعدين من أهلها ليكونوا على ملاكها وليتولوا رئاسة أقسامها، وتدريسيين آخرين في وسعهم القاء المحاضرات فيها على وفق تخصصاتهم، وبالفعل تحقق تقدم في هذا المجال، ولم يبق إلا الحصول على الموافقات الرسمية على وفق قانون الجامعات الاهلية، ولكن المشكلة أنه لم تكن ثمة وزارات او حكومة في ذلك الوقت، فانتظرت حتى تشكيل مجلس الحكم للحصول على تلك الموافقات، وكاد المشروع ان يخرج الى النور فعلا، إذ تبنى أحد اعضاء مجلس الحكم تنفيذه، وأخذنا بالتحرك من اجل تكوين ملاكاته من التدريسيين والموظفين، إلا أن كل

شيء توقف فجأة بسبب الانتفاضات المستمرة التي قامت في الفلوجة سنة 2004 و2005 وأدت الى انقطاع الطريق، واضطراب حبـل الأمـن، فلـم يعـد منطقيـاً الاستمرار في المشروع في ظل تلـك الظـروف البالغـة التـدهور والسـوء، وبهـذا كانت نهاية مشروع لو قدر له النجاح لأسهم في رفع مستويات الفتيات في تلـك المناطق النائية، بل وفي تطويرها ايضا.

أم زيدان

حينما جرى احتلال العراق ستى 2003، قرر محتلوه إنهاء خدمات رؤساء الجامعات وعمداء الكليات ورؤساء الاقسام دفعة واحدة، وتعيين غيرهم من خلال انتخابات حرة مباشرة، بشرط أن يكون المرشحون مستقلين، وبما أني كنت على الدوام مستقلا، فقد زارني في عشية يوم انتخاب العميد جمهرة من الزملاء في الكلية مستقلين (باصاً) لغرض اقناعي بترشيح نفسي، واعتذرت، رغم كثرة الحاحهم الناجم عن ثقتهم بي. وفي صباح اليوم التالي، أي قبيل الانتخابات مباشرة، فاجأني عدد كبير منهم يطلبون أن أرفع يدي فقط ليثنوا على الترشيح ويتكفلوا بالباقي، فرفضت بشدة مبررا اعتذاري بأن لي مرشحا سأختاره، فهتفوا: من؟ قلت أم زيدان! وأم زيدان هذه هي فراشة كانت تعمل في القسم منذ سنين طويلة، فأدركوا من جوابي الساخر أني عازف تماما عن شغل هذا الموقع، ولا اشتريه بشيء، مهما كانت مغرياته. وحين جرى توزيع وريقات الانتخاب، انتخبت الدكتور عبد الامير دكسن عميداً، واختاره آخرون أيضا، ففاز بالعمادة لسنوات عديدة وتحمل مسؤوليتها عن جدارة، أما أم زيدان فقد وصلها (ترشيحي) لها، فسُرّت سروراً بالغاً، وقالت: ولم لا، فان راتبي الذي أتقاضاه مساو تماماً لراتب العميد، تقصد بذلك ان ادارة الاحتلال وزعت على جميع منتسبي الكلية في الشهر الذي أعقب توقف العمليات العسسكرية مقداراً واحدا من المال بصفة (إعانة حرب) تساوى فيه راتبها مع راتب العميد نزار الحديثي.

التاريخ الشفوي

شغلني موضوع (التاريخ الشفوي) في وقت مبكر من حياتي الجامعية، فلقد ذكرت من قبل اني كنت أجد لدى الشيوخ من الروايات ما يستحق التسجيل، ولكنهم يرحلون الى رحمة ربهم دون ان يسجل أحد ما يروون، وكنت أكلف طلبتي، في السنوات الأخيرة من دراستهم الجامعية، باعداد بحوث تعتمد أصلا على الروايات الشفوية، وكنت أختار لكل طالب أن يكتب عن قريته او قبيلته، وأكثرهم قد انحدر من قرى وقبائل، وكنت أضع لهم خطة بحث تعتمد على استنطاق شبوخ القبائل ومسني القرى، وجاءت النتائج جيدة فعلا، فبدلاً من تلك الموضوعات المكررة التي اعتاد الطلبة الكتابة فيها، والتي كان أكثرهم يشترونها جاهزة من صاحب نادي الكلية، فانهم انطلقوا الى كتابة موضوعات جيدة عن قرى نائية وقبائل وعشائر متعددة، وهكذا تجمعت عندي معلومات كثيرة استقيت من تاريخ لم يدون من قبل.

وحينما تأسس في جامعة تكريت مركز أبحاث باسم (مركز تكريت) واجهت رئيسه، وهو الصديق عبد المجيد التكريتي، مشكلة قلة الوثائق المحلية الخاصة بهذه المدينة، لتكون قاعدة معلومات تصلح أن تشكل منطلقا للباحثين للكتابة عنها، وأذكر اني اقترحت عليه في حينه أن يلجأ الى التاريخ الشفوي، ولن يحتاج الى أكثر من باحث مدرب على (الاستنطاق) وجهاز تسجيل عادي، فيجرى لقاءات مع أكبر أهل المدينة سناً، من مختلف الاختصاصات المهنية، ثم يجري تفريغ رواياتهم في سجلات خاصة. وقلت إن الوثائق والكتب موجودة وستبقى كذلك، أما الأفراد اي الشهود فانهم سيمضون غدا أو بعد غد،

وستدفن معهم شهاداتهم، وكان هذا بالضبط هو (التاريخ الشفوي). وبدأ العمل على هذا النحو حثيثا، ولم يكن المركز يضم غير جهاز تسجيل ومكتب وعدد من الدفاتر الكبيرة في (دولاب)، ثم أني نسيت الأمر كله فلم أدر ما جرى بشأنه، وصادف أن دعت وزارة الثقافة والإعلام الى كتابة موسوعة عن تاريخ تكريت، ودعيت للمشاركة فيها، فاخترت أن أكتب عن (الحرف والصناعات) و(الثقافة والتعليم) في تكريت في العصر العثماني.

وقصدت تكريت حيث راجعت (المركز) المذكور، وإذا بي أجد الدفاتر الخالية قد امتلأت بشهادات بالغة الاهمية عن مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المدينة أخذت من شفاه فضلاء مسنين انتقلوا الى رحمة ربهم وبقيت شهاداتهم معينا للباحثين، وأنا منهم، يعززون من خلالها بحوثهم، وقد نشر البحثان في الموسوعة التي ظهرت فيما بعد في عدة مجلدات.

ومثل ذلك ما اقترحته على أحد رؤساء مركز الكوفة، التابع لجامعة الكوفة، وعلى رؤساء مراكز جامعية اخرى. وقد دعوت الى إنشاء مركز خاص بالتاريخ الشفوي، أو في الاقل جمعية تاريخية، وقد ألقيت عدة محاضرات في هذا الموضوع، وكنت أعلم أن دولاً أخرى، بل شعوباً تحت احتلال، قد سبقتنا الى تحقيق انجازات كبيرة قي هذا النوع من كتابة التاريخ.

وحينما نقلت خدماتي الى جامعة صلاح الدين واصلت هذه الدعوة، واقترحت على الصديق الدكتور محمد كاكه سور، نائب رئيس الجمعية التاريخية في كردستان تأسيس جمعية مستقلة للتاريخ الشفوي، او في الأقل ترتبط إداريا بجمعية المؤرخين، وقد تبين أن عملا كهذا يستلزم إمكانات لم تكن متوفرة، لا سيما في ظل الظروف المالية التي أخذ يمر بها الاقليم في ذلك الوقت، وعلى أي

حال فقد تولت منظمة اعلامية تسمى (أصوات العراق) تنظيم أول دورة تدريبية في اربيل، وقد أدى هؤلاء المتدربون مهامهم على نحو جيد، واستمعوا الى محاضرات مكثفة ألقاها الدكتور كاكه سور وأنا وآخرون، ولكن نشاط المنظمة توقف عند هذا الحد فيما أعلم، كما دعتني مؤسسة (زين) في السليمانية الى إلقاء محاضرة على عدد من المتدربين، فألقيتها، ولكن لا ادري ما فعلت المؤسسة فيما بعد.

المجمع العلمي واللصوص

استدعاني الدكتور منذر الشاوي، وزير التعليم العالي، الى بناية المجلس الوطني، حيث أخبرني ان (القيادة) بصدد اصدار قانون جديد للمجمع العلمي العراقي، وطلب مني، ومن أستاذ آخر، أن نساعده في اختيار أعضاء جدد للمجمع الجديد، وكان المجمع قد فقد معظم أعضائه بسبب انتقالهم التدريجي الى رحمة ربهم منذ 1980، ولم تكن المهمة سهلة بأي حال، فعضو المجمع عليه ان يتصف بسلوك خاص فضلا عن أن يكون عالما في مجال اختصاصه، وبعد جهد وتقليب للأمر على وجوهه، أتممنا المهمة، واخترنا أسماء عدد من الأعضاء وفق معايير علمية وسلوكية محددة، لا علاقة لها بسلوكهم السياسي، ودرجة ولائهم للحزب، و رفعت القائمة الى (القيادة) فجرى تغييرها حتى لم يتبق منها إلا الأقلون، ولما شكلت لجان المجمع، تم إلغاء لجنة التراث العلمي التي شغلت عضويتها لعشرين سنة متواصلة، وصار اختياري عضواً في لجنة المخطوطات ولجنة التاريخ، ولبثت عضواً فيهما حتى الإحتلال الامريكي وتوقف المجمع عن عمله كلياً في السنوات التالية، ولم أعد أتابع أخباره منذ ذلك الحين.

ومن الطريف ذكره أن بعض اللصوص داهموا المجمع في أثناء ايام الاحتلال الأولى، حين انفلت حبل الأمن تماماً، وصار اللصوص يعيثون في الأرض نهباً وسلباً. وقيل لي أن أولئك اللصوص ركزوا (جهودهم) على المكتبة دون غيرها من أثاث، حيث سرقوا الطبعات النادرة من كتبها، وبعض المخطوطات المصورة، فأثار ذلك استغرابي، فأي لص مثقف هذا الذي يميز بين طبعات ليدن وبولاق القديمة وبين الطبعات الجديدة للكتب نفسها، ويفرق بين

الكتاب النادر والكتاب المبذول في الأسواق، وقلت لمن نقل لي هذا الخبر، وكان عضواً فاضلاً في المجمع: الحمد لله الذي جعل في بلادنا لصاً مثقفاً له هذا الـوعي العالي بشؤون الكتـب، كـان اللصـوص مـن قبـل أميـون، والآن هـم تراثيـون متخصصون بامتياز!



بغداد لم تسقط وانما سقط النظام السياسي والخلط بين الوصفين مقصود

أول مقال بعد الاحتلال

أوجعني ما شاع في وسائل الإعلام ولدى عامة الناس، بعد الإحتلال الأمريكي، من مصطلح جديد هو (سقوط بغداد)، فكان أول مقال لي كتبته بعد الإحتلال الأمريكي بنحو ستة أشهر، يحمل عنواناً صريحاً هو (بغداد لم تسقط وإنما سقط النظام السياسي والخلط بين الوصفين مقصود) وقد قلت فيه "يظهر أن هناك خلطاً خطيراً قد حدث بين أوراق شتى في محاولة تفسير ما حدث في التاسع من نيسان سنة 2003، وتباين هذه الأوراق في تفسيرها بين أن يكون سقوطاً للنظام السياسي، أو سقوطاً لبغداد، أو سقوطاً للدولة العراقية، أو سقوطاً للعراق نفسه. وأظن أن جانباً من هذا الخلط كان مقصوداً، فما حدث في 9/ 4/ 2003 لم يكن إلا سقوطاً للنظام، أما الدولة فلم يكن للنظام دور في إنشائها، لسبب بسيط، هو أنها تأسست في عام 1921أي قبل تأسيس النظام الذي سقط بنحو نصف قرن، ولم يكن أيضا سقوطاً لبغداد، لأن بغداد أنشئت في القرن الثاني الهجري أي قبل ظهور النظام السياسي بعشرة قرون، وهكذا فإنه لم يكن أيضاً سقوطاً للعراق ذلك أن العراق كان موجوداً منذ أمد بعيد، ولم يكن النظام مسؤلاً عن إنشائه بالتأكيد ليسقط بسقوطه، فما حدث لم يكن إلا سقوطاً عسكرياً لنظام تقل سنوات عمره عن كل ما ذكرنا، ولم يكن هو الذي أنشأ أي مفردة مما ذكرنا لتسقط بسقوطه". وكان مما قلته أيضا " أفهم تزوير التاريخ على أنه محاولة متعمدة لتقديم الماضي على نحو مغاير للصورة التي حدث بها، وبذلك فإنه يختلف عن التغاير الذي يحدث بين روايات شهود العيان بسبب تباين وجهات نظرهم وموقعهم من الحدث....الخ" (جريدة الزمان 27/ 12/ 2003).

اتحاد المؤرخين في اربيل

كان من أولى قرارات (بريمر)، الحاكم الامريكي للعراق، إلغاء جميع الجمعيات في العراق، حتى الثقافية منها، وبذلك تم الغاء جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق، ثم أن عددا منهم، أخذ يسعى، بعد عدة أشهر إلى تأسيس اتحاد آخر، فوقع اختيارهم عليَّ لأرشح لرئاسته، ونزولا لرغبتهم فقد رشحت نفسي، وجرى انتخابي، بالتصويت، في مؤتمر تأسيسي عقد في قاعة الجامعة المستنصرية في كانون الاول من سنة 2003، وبمجرد انتهاء المؤتمر أخذنا بالعمل، فاستأجرنا داراً في حي (علي الصالح) وأخذنا نعقد فيه جلساتنا في كل أسبوع، وتزايد عدد الأعضاء، وقررنا أن نقوم برحلة علمية إلى أربيل بهدف اعادة التواصل مع المؤرخين الكرد، لاسيما الجيل الجديد منهم، بعد مرور أربعة عشر عاماً من الانقطاع بحكم الظروف التي مرت على العراق بعد حرب الخليج سنة 1990. وكم كان مفرحا للجميع تلك الحفاوة التي جرى فيها استقبالنا حينما وصلنا أربيل، وقد نقل الدكتور حسن الجاف الينا ترحيب السيد رئيس الإقليم، وأنزلنا في فندق (برج أربيل) ضيوفاً، واستقبلنا رئيس جامعة صلاح الدين حيث عقدنا جلسة حوار مع عدد من الأساتذة في مقر رئاسة الجامعة، وألقى بعض أعضاء الوفد محاضرات تتناول جوانب من تاريخ الكرد، في بعض قاعات الجامعة، وكان الدكتور محسن محمد حسين يتولى ترجمتها إلى الكردية، كما كان ينقل تعليقات الطلبة إلى العربية، وقد جرت حوارات جريئة، لكنها ودية جداً. ودعينا إلى لقاء السيد نائب رئيس الوزراء المرحوم سامي عبد الرحمن، حيث دار حوار بيننا، وأذكر أنه سألني سؤالا مباشرا: لماذا يستنكر الشارع العراقي فكرة الفيدرالية، قلت له: إذا كان المقصود الفيدرالية الكردية فهو لا يستنكرها، لسبب

بسيط، هو أنها أصبحت واقعاً معاشا، وله مبرراته السياسية والقومية واللغوية والثقافية، فمن الصعب إنكارها، ولكنه يخشى من الفيدراليات القادمة، وبمعنى أدق، الفيدراليات التي لا مبرر لها إلا الطائفية وحدها، وسأذكر لك مثالا، اني أسكن حي الغزالية، ولي جاران أحدهما عن يميني من الشيعة، والآخر عن شمالي من أهل السنة، وأنا في وسطهما، ولا إدري إن قامت الفيدراليتان أين سيمر خط الحدود بينهما، أظن أنه سيمر مع (واير التلفون) الذي يربط بيننا. ضحك الأستاذ سامي، وقال: دعوني أصحبكم إلى (بارك أربيل) فهذا المشروع كان منذ ولادته ابناً لي، فلطالما حلمت به، وصممته، ونفذته، فأصبح رئة لأربيل بعد أن كان يشغل مكانه معسكر كبير. ولما قادنا إلى هذا البارك الأنيق، وتجولنا بين أشجاره الباسقة، وحول بركته الرقراقة، وبساطه السندسي، أدركنا معنى ما قال، وكم حزنا حينما بلغنا خبر استشهاده مع نفر من رفاقه في حادث مشؤوم في الاول من شباط سنة 2004.

معهد التاريخ والمهمة الاخيرة

تأسس في اتحاد المؤرخين العرب سنة 1994 معهد باسم (معهد التاريخ العربي) يمنح خريجيه شهادتي الماجستير والدكتوراه، وقد شاركت في معظم نشاطاته العلمية، لا سيما في مجالي الاشراف على الرسائل والأطاريح، ومناقشتها. وكنت منذ بدء العمل في هذا المعهد متحمساً له، إلا أن قبول المعهد لطلبة متخرجين أصلا من كليات بعيدة كل البعد، في تخصصاتها، عن التاريخ جعله موضعا لنقد كثيرين، مما دفع بمؤسسه الدكتور مصطفى عبد القادر النجار إلى إضافة عبارة إلى عنوانه هي (والتراث العلمي) ليتسع نطاقه فيشمل المتخرجين من جميع التخصصات تقريبا. وكان أخطر ما أضيف إليه الضباط من حملة شهادة الأركان، للحصول على شهادة الدكتوراه في التاريخ العسكري، على أساس أن شهادة الأركان تعادل الماجستير، وهذا ما أثار نقدا أوسع من جانبين معاً، أولهما أن خريج الأركان لا يدرس التاريخ مطلقا في أثناء الإعداد لهذه الشهادة، وثانيهما أن دراسة الضباط في معهد كثير من طلابه من جنسيات عربية، أثار قلق المسؤولين من مغبة هذا الاختلاط الذي قد يؤدي إلى إفشاء أسرار عسكرية، وهو ما أدى إلى اغلاق قسم التاريخ العسكري فجأة. وعلى الرغم من سهام النقد الذي أصابت هذا المعهد، فإني أشهد بأن رسائل وأطاريح جيدة قد خرجت منه، ربما كان بعضها أفضل من مثيله في كليات أخرى، وكان أول اطروحة أشرفت عليها في قسم التاريخ العسكري بعنوان (المقاومة الاسلامية للغزو المغولي حتى احتلال بغداد) وقد أعدها عميد ركن نابه هو (صبحي ناظم)، وكانت أطروحته ممتازة فعلا. وقد نشأت بينه وبينه صداقة أدت إلى أن نتعاون في أكثر من مشروع علمي، وحينما رأست (لجنة السلسلة

الوثائقية) في بيت الحكمة، دعوته إلى الانضمام إليها، فأخرج عـددا مـن الكتـب الوثائقية التي تتناول العلاقات العراقية- التركيـة، استمدها مـن وثـائق الـبلاط الملكي، فضلا عن تأليفه كتاباً مهماً عن (الـرئيس عبـد السـلام عـارف) رئـيس الجمهورية الأسبق، اعتمد فيه على مشاهداته الشخصية إذ كان في عهده ضـابطاً في حرسه الشخصي، وممن "أشرفت" عليهم السـيد الـدكتور (جمـال الـدين فـالح الكيلاني) وهو باحث جاد ومؤرخ حاذق أستطاع خلال وقـت قصـير نسـبيا أن يتحف المكتبة العربية والاسلامية بعددا غير قليل من المؤلفات المهمة التي تناولت جوانب متنوعة من التراث الاسلامي لا سيما منه التراث القادري التراث الذي نجم عن الجهود العظيمة التي بذلها السيد الشـيخ عبـد القـادر الكيلانـي المتـوفى ببغداد سنة 561 هجرية واستطاع الباحث ان يعيـد تحقيـق عـددا مـن مؤلفـات السيد الشيخ الكيلاني ويكتب دراسات متنوعة ومعمقة في اعـادة قـراءة سـيرته المعطاء وان يكتب في جوانب من امتدادت الطريقة القادرية في اصقاع الارض لا سيما في جنوب شرق اسيا والصين وهي المناطق الـتي عـاش فيهـا السـيد جمـال الكيلاني حينا من الدهر ودرس فيها واطلع على واقع الطرق الصوفية في تلـك البلاد ربما كان من أبرز مؤلفات الكيلاني كتابه (جغرافية البـاز الأشـهب) هـذا الكتاب حقيقة مهما في فكرته وفي منهجه وفي النتائج التي التوصل اليهـا "موفقـا"، بحث في سيرة الشيخ الكيلاني وتحدث عن موطنه الاول وحاول ان يحقق مكـان ولادته واقامته والى غير ذلك مما له اهمية في دراسة سير العظماء، كما انـه الـف كتابا سماه (هكذا تكلـم الشـيخ عبـد القـادر الكيلانـي) وكتبـا أخـرى في هـذا الموضوع وفي التاريخ الاسلامي وخرج بنتائج مهمة.

وفضلا عنهما فقد أشرفت، في الاقسام الاخرى، على طلبة لم أعد أتـذكر أسماءهم مع الأسف. وكانت مسألة الاعتراف بالمعهد ومعادلة شـهاداته مسـالة

قديمة ولدت بولادته، متجددة على الدوام كلما تولى وزارة التعليم وزير جديـد، وبغية حل هذه المشكلة فقد ألفت الوزارة سـنة 2006 لجنـة مـن الـدكتور عبـد الامير دكسن، عميد كلية التربية ابن رشـد، والاسـتاذة نبيلـة عبـد المـنعم داود، رئيسة مركز احياء التراث، ومني، لحسم قضية معادلة شـهادات المعهـد، فشـرعنا في تفحص جميع رسائله واطاريحه، وما رفـق بهـا مـن شـهادات سـابقة ووثـائق دراسية، وبعد عدة اشهر من العمل المضني، أنهينا مهمتنا بنجاح، وكافأنا الـوزير باضافة (قدم) سنة الى سنوات خدمتنا، وبالطبع لم تكن هـذه (المكافـأة السـخية) تعني لنا شيئا، فجميعنا قد وصل سقف راتبـه وخدمتـه معـاً. وعلـى أيـة حـال، كانت تلك المهمة آخر ما قمت به من خدمات علمية لـوزارة التعلـيم العـالي في بغداد، قبل ان أغادر بغداد نفسها الى اربيل.

مغادرة بغداد

حينما انفجرت الفتنة الطائفية في بغداد سنة 2006 كنت غارقاً حتى أذني في طبع كتبي (العقد اللامع) و(خير الزاد) و(مساجد بغداد في كتابات الاجداد) ولم يكن ذلك يخلو من الخطورة الحقيقية، فأحد هذه الكتب كان يطبع في مطبعة تقع في أحد أزقة حي السعدون، أي في جنوبي بغداد، والآخر يُطبع في حي الصليخ، أي في اقصى شمالي الجانب الشرقي من بغداد، والثالث في شارع المتنبي، وكان التنقل بين هذه الأماكن المتباعدة يقتضي اختراق أحياء شديدة التوتر، وأماكن مفعمة بمشاعر الكره الأعمى، الذي لم يكن يميز بين رحل يشعل نارا، وبين آخر يسعى ليطالع كتاب في التراث، ومع ذلك فان الله قد سترني بستره، وضيقت من نطاق تنقلي بمجرد الفراغ من طبع هذه الكتب، وحبست نفسي في بيتي وبين أوراقي فصرت (رهين المحبسين) بحق، وتذكرت بيتا رأيته على ظهر مخطوط في مكتبة جامع السيد سلطان علي هو:

أدبني الزمان فما أبالي　　　أسار الجيش أم ركب الأمير

على أني كنت أبالي فعلا بما كان يدور حولي، فالوطن قد احتل فعلا، وبغداد التي أحببتها ماضيا وحاضرا تتقطع أوصالها أمامي، ومحلاتها التي طالما درست تاريخها تشرذمت فلم تعد الا (كانتونات) تعزل بينها جدران عالية من الإسمنت الأصم، وصار الذهاب الى العمل مغامرة، وعبور جسر مخاطرة، والمشي في الأسواق مؤامرة. وأذكر اني كنت أسير الى صيدلية قريبة من داري، وإذا بسيارة تقف في وسط الطريق ويخرج منها شاب يحمل بيده مسدساً فضي اللون، ويحمي ظهره رجلان عن يمين وشمال، وإذا به يتقدم نحوي مباشرة،

فوقفت وقرأت الشهادتين، متوقعا اطلاق رصاصته في اي لحظة، إلا أنه مضى متجاوزا إياي وكأنه لم يرني، وواضح ان المقصود كان شحصا آخر، وتوقعت اني سأسمع صوت الرصاصة تصيب ذلك المقصود لكن الله لطف فلم أسمع.

وتكررت حوادث الاغتيال، ومداهمة البيوت، والخطف، حتى باتت الكتابة في مثل هذه الضغوط ضربا من مستحيل، فالأعصاب متوترة، والعيون زائغة، وصفاء البال لساعة واحدة امر يتعذر تحقيقه، وهكذا أخذت فكرة مغادرة بغداد الى حيث المكان الآمن تبدو معقولة، وصادف أن زارني الصديق الدكتور حسن الجاف داعيا إياي الى حضور مؤتمر في اربيل باسم مؤتمر المصالحة، وقلت له مندهشا: ومع من أتصالح؟ أنا لم أخاصم أحدا في حياتي لأتصالح معه ! ومع ذلك فقد سافرت معه الى اربيل نزولا عند رغبته، وفي أربيل حضرت المؤتمر، وكان وراءه نوايا خيرة، لكن النتائج لم تكن بمستوى تلك النوايا. وعلى أية حال كانت زيارتي للمدينة التي لم أزرها منذ اواخر الثمانينات تبشر بخير على المستوى الشخصي، ذلك أني أني زرت كلية الاداب، والتقيت بصديقي الحميم والقديم الدكتور محسن محمد حسين، وحدثته عن أوضاع بغداد ومخاطر الحياة فيها، فطرح عليَّ فكرة طالما راودتني في خلال السنتين السابقتين، وهي العمل في جامعة صلاح الدين أما بصفة مؤقتة ريثما تنجلي الامور، او بصفة دائمة ان سمحت الظروف بذلك. وبعد تردد لدقائق، وافقت مقتنعاً، فقادني الى مكتب رئيس القسم وكان يومذاك الدكتور قادر، ومنه الى مكتب عميد الكلية الصديق الدكتور سلام خوشناو، عارضين عليه أمر النقل الى الكلية، فرحب العميد بأريحية لا تنسى، وأثنى عليَّ من واقع ما قرأه لي من كتب، وسارت الأمور بسرعة، وأحسست ان الله تعالى راض على هذا الانتقال، وأخيرا صدرت الموافقة على العمل بصيغة (عقد)، وفي العام التالي جرى النقل على ملاك قسم

التاريخ ولم يتبق الا استحصال موافقة جامعة بغداد ووزارة التعليم العالي في بغداد، وبعد ذهاب وإياب متعبين، ومراجعات مرهقة صدرت الموافقة على نقلي، فنقلت، وأتذكر اني التقيت صدفة بمساعد رئيس جامعة بغداد، وهو يتولى آنذاك رئاستها بالنيابة، ودهش حينما رآني أتابع معاملة نقلي الى اربيل، وهتف: أين أنت يا رجل؟، كنا نبحث عنك لنوليك رئاسة مركز بغداد، ثم أني، وهذا هو الاهم، لم أكن أتمنى في تلك اللحظة إلا أن يوقع على أمر النقل لأنتهي من رحلة المعاناة، فقلت ضاحكاً: والله لو وليتموني بغداد بأسرها وليس هذا المركز لما قبلت إلا أن أغادرها الى أربيل. وهكذا سافرت بعد أن أنهيت المعاملة الى اربيل، وفي اليوم التالي لصدور الامر (الصادر في 3/ 9/ 2007) باشرت في التدريس في مقر عملي الجديد في قسم التاريخ بكلية الآداب، وكان ذلك اليوم من أسعد أيام حياتي، لا يماثله سعادة إلا يوم مباشرتي في جامعة بغداد قبل نحو ثلاثين عاما، واستأجرت منزلاً صغيراً، لا يبعد عن المكتبة المركزية لجامعة صلاح الدين إلا بضعة خطوات، وأخذت بنقل كتبي الضرورية من بغداد شيئاً فشيئا، وزادت كمية الكتب حتى أخذت تملأ الغرفة العلوية من المنزل، فانتقلت الى دار أخرى في حي قريب، ثم وفقني الله الى ان أشتري بيتا في حي مجاور، وبدت الحياة فيه أكثر استقرارا.

كان نقل المكتبة أكثر المشاكل صعوبة، فعناوين كتبي بلغت ما يقرب من عشرين الف كتاب، احتلت معظم غرف البيت، وفيها عدد كبير من المخطوطات المصورة والوثائق، فأخذت بالتخفف منها بأن أهديت جانبا منها الى مكتبة نادي الصيد العراقي الكائن في شارع الأميرات في حي المنصور، وهذا المكان يوفر للمطالعين فيه جوا هادئا يسمح بالقراءة، كما أهديت جانباً آخر الى مكتبة كانت قد أنشأتها أمانة بغداد في مبنى المحاكم القديم قرب شارع المتنبي في بغداد، وهو

المبنى الذي شغل أرض مدرسة الأمير سعادة في العصر العباسي، بينما احتفظت بالجانب الأكثر مساساً ببحوثي في عدد من أركـان داري في اربيـل وزوايـاه. ثـم تولى ولدي رؤوف نقل كتبي التي في بغداد فيما بعد إليّ اربيـل في عـدة رحـلات مكوكية كما يقال..

ولم أعد إلى بغداد بعدها إلا في أحايين متباعدة لزيارة أمي، التي تركـت إلى جانبها رؤوف ليرعاها، وكانت آخـر زيـارة لـي إليهـا حينمـا حضـرت مناقشـة زوجتي في أطروحتها لنيل شـهادة الـدكتوراه، في بـدايات سـنة 2014. وبعـدها قدمت ورؤوف الى اربيل، واستقرا فيها، وحين سألتني أمـي أيـن تـدفن، أجبتهـا أني أوصيت أسرتي بأن تكون أربيل مقامي، فرضيت بما قررتـه، وهكـذا جـرى دفنها، رحمها الله تعالى، في ذلك العام نفسه.

استئناف البحث

لم يمض على اقامتي في اربيل أسبوعاً واحداً حتى أخذت يدي تحن الى القلم وذهني يتوق الى الكتابة، فشرعت أكتب سلسلة من البحوث الصغيرة في مجلة أنيقة تصدر بالعربية في اربيل عنوانها (الصوت الاخر)، من عنواناتها مثلا (بين العمادية والبصرة) و(السورانيون الاوائل) و(سليمان بيه) و(مدارس العمادية) و(دور الكرد في فتح قبرص) و(ملاحظات عن الكرد في رحلة بيركهارت سنة 1810) وغير ذلك، وكانت معظم هذه الدراسات تستمد مادتها من الوثائق العثمانية، والوثائق المصرية، ومن الوثائق المحلية والمخطوطات، وبعد سنة تقريبا وجدت أن عدد هذه البحوث قد تضخم، وباتت تراودني فكرة أن أجمعها في كتاب واحد، واستأنست برأي الدكتور قادر فاقترح أن أسميه (دراسات وثائقية في تاريخ الكرد) فوجدت العنوان مناسبا فعلا لمضمونه واضفت اليه كلمة واحدة هي (وحضارتهم) ففيه من البحوث ما يختص بالجوانب الحضارية من هذا التاريخ. وقدمت الكتاب الى وزارة الثقافة فتمت الموافقة على طبعه في مطبعتها، وزاد من قيمة الكتاب أن كتب له الصديق الاستاذ فلك الدين كاكه يي، وزير الثقافة آنذاك، مقدمة طويلة تضمنت اضاءات لبعض الزوايا الخفية من تاريخ الكرد، وصدر الكتاب في اربعمائة صفحة، ولم تمض الا اشهر حتى نفدت نسخه، وطالبني اصدقاء وزملاء كرام بأن أعيد نشره، فلم افعل، وانما شرعت باضافة دراسات جديدة اليه، حتى اذا ما تضاعف حجمه، وزادت قيمته، دفعته الى مكتب التفسيرللنشر في اربيل، فتولى نشره بالتعاون مع دار الزمان في دمشق، فخرج الى القراء في حلة قشيبة وبحجم جاوز الستمائة وخمسين صفحة.

طبعة جديدة من كتاب سابق



وتذكرت، منذ الأسابيع الاولى لوجودي في اربيل، أنه آن الأوان لتنفيذ طموحي في اعادة النظر كليا في كتابي (مراكز ثقافية مغمورة في كردستان)، فأنا الآن في قلب كردستان، وهي فرصة تستحق أن تغتنم في الاطلاع على مزيد من المخطوطات عسى أن أجد في خواتيمها اشارات لمؤلف أو ناسخ يذكر فيها اسم القرية التي أنجز فيها عمله، فانطلقت اتفقد الكتب الخطية لا سيما في أربيل، وكنت أقضي الساعات في هذه المكتبة او تلك أسجل الملاحظات عن قرية نسخ فيها كتاب في علم كذا، أو وضع فيها شرح أو حاشية على متن من المتون، حتى اجتمع عندي أكثر من ثلاثمائة قرية، أي ضعف ما احتواه الكتاب في طبعته الأولى.

ولم يكن البحث عن المخطوطات، لا سيما في المكتبات الخاصة، هي المشكلة الوحيدة في عملي، وإنما كانت المشكلة الحقيقية تكمن في عدم وجود دليل، أو معجم، بأسماء القرى الكردية، يعين مواضعها فضلا عن تاريخها، أفيد منه في تعيين تلك القرى حيثما ترد في مخطوط ما، فاضطررت إلى أن أسأل كل من أستطيع سؤاله عن هذه القرية أو تلك، لا سيما المسنين من مقاتلي البيشمركة السابقين، فإن حياتهم في الجبال وتنقلهم المستمر، منحتهم القدرة على تعيين مواقع تلك القرى مستعينين بذاكرة قوية. وأخيرا تم الكتاب وقد ناهزت صفحاته الثلاثمائة صفحة، وتولت مؤسسة موكرياني مشكورة طبعه طباعة انيقة سنة 2008.

نبهني البحث عن أسماء القرى وتعيين مواقعها إلى فداحة النقص القائم بعدم وجود معجم تاريخي- جغرافي يعين الباحثين في التعرف على هذه المعالم، فليس من المعقول أن يسأل باحث عن قرية هذا وذاك من الناس عنها، ومنهم من تخونه ذاكرته أو يخطئ، فلابد إذاً من عمل علمي تقوم به، أو تقوده، هيئة علمية، فما كان مني إلا أن قدمت إلى السيد وزير التعليم العالي، الدكتور إدريس، مشروع كتابة موسوعة باسم (موسوعة كردستان الحضارية)، ووضحت شكلها بأنها تنقسم إلى قسمين كبيرين، مواد كل منهما مرتبة بحسب حروف المعجم، هما: قسم تاريخي، يشمل دراسات مكثفة عن الدول والإمارات والسلالات الحاكمة والأحزاب والجمعيات والقادة والعلماء والصوفية والأدباء والشعراء والفنانين، وقسم جغرافي يتضمن دراسات عن المناطق والمدن والقرى والقلاع والقناطر والمدارس والتكايا والحصون المختلفة، فضلا عن الكهوف الأثرية وغيرها، والجبال والوديان والمضايق والأنهار والعيون والشلالات، وقلت: إن الأغلبية الساحقة من هذه المعالم لا يعرف عنه غير اسمه فقط، فلا

يعلم سبب تسميتها، وعن أماكنها، وتواريخها شيئا. أن في جبال كردستان وشعابها آلافاً من هذه المعالم المهمة يحتاج إلى بحث وتقصي وتصوير، وقد ختمت هذا المشروع بأن من المهم أن تصدر بالكردية أولا، على أن تترجم، بشكل متزامن، إلى العربية والانكليزية.

لم يصلني رد على مشروعي، ولم تحرك الوزارة ساكناً، وبعد أشهر أخبرتني زميلتي في القسم، الدكتورة نشتمان، أن أمراً ورد من الوزارة يقضي بأن أقوم بإلقاء محاضرة عن هذا المشروع في السمنار الاسبوعي للقسم، فلم ألقها، لأني شعرت بأن طريقة التعامل الرسمي مع المشروع كانت دون ما أرجوه من اهتمام يستحقه. وبعد سنوات علمت من الصديق الدكتور سعدي عثمان أن الاكاديمية الكردية تعمل على إنجاز مشروع مشابه من بعض الوجوه، يقتصر على الجانب التاريخي منه، وانها كلفتني بكتابة مادة بعنوان (الحياة العقلية في كردستان في العصر العثماني)، وكتبت المادة فعلا على وفق المواصفات المحددة، ولكنه عاد فأخبرني أن النية انصرفت عن انجاز هذه الموسوعة أصلا.

وعلى الرغم من بعض الصعوبات العادية، فقد كانت الحياة في أربيل سعيدة بكل معنى الكلمة، بل أن مجرد التجول في محلات قلعتها القديمة كان مبعث سرور حقيقي، وقد انتهزت فرصة اخلائها من سكانها تمهيدا لصيانتها وتأهيلها، فصرت أخذ معي كراسة الرسم وأصعد اليها لأرسم ازقتها وبيوتها القديمة، أما بتخطيطها بالحبر، او برسمها بالالوان المائية، لقد ايقظت هذه القلعة العتيقة في وجداني هوايتي القديمة بالرسم بعد ان شغلتني الظروف عنه اكثر من اربعة عقود من السنين عددا.

دعوة ومقترحات

وكنت كثير التأمل لهذه القلعة، أترك لقدمي أن تسير في أزقتها الرثة، فأتفحص قطع الآجر الذي بنيت به، وأحاول أن أحدد عمره من واقع ما أعرفه عن دلالات أحجامه، وأتصور كيف يمكن أن تجري صيانة مئات من الدور فيها، وما الذي يجب أن يصان منها، وكيف، مع غيبة المعلومات عن تاريخ هذه الدور خلال القرنين الأخيرين، وهما القرنان اللذان أحسب أن معظم مباني القلعة تعود إليهما، وأذكر أني كتبت مقالا في مجلة (الصوت الآخر) أناقش فيه هذه الإشكالات، بعنوان (صيانة وتأهيل قلعة أربيل، أفكار صغيرة في قضية كبيرة) وكان أبرز تلك الإشكالات مسألة تجزؤ ملكية الدور في القلعة في العصر العثماني، حتى باتت كل دار تؤلف عددا من الدور الصغيرة، مما خلق مشكلة حقيقية أمام مشروع تلك الصيانة، وأرخت لمشاريع الصيانة السابقة، وقلت أن أسوأها ما قامت به دائرة الآثار حين شيدت تلك الباب الاشورية بدل الباب القديمة، وربما كنت أول، أو من أول، من دعا إلى هدم الباب الحادثة وإعادة بناء الباب الأصلية، فقد قلت " ولسنا هنا في تقويم البوابة نفسها، لكننا نقول أن تصور القائمين على المشروع بأن بوابة مدينة آشورية ينبغي ألا نكون إلا بوابة آشورية، كان تصوراً خاطئاً تماماً، فالمدينة لم تعد تمت للعصر الآشوري بأدنى صلة، وهي بعد مرور عدد من العصور المتطاولة، غدت مدينة تمت بطرز بنائها إلى القرنين الأخيرين في أقصى تقدير، وهكذا أدى التصور الخاطئ إلى نتيجة خاطئة بالضرورة، حيث أقيمت بوابة آشورية على مدينة كردية، في العهود العثمانية، فكان هذا قمة التناشز في الأجواء التاريخية للمدينة، ومن المؤكد أن البوابة القديمة كانت أكثر انسجاماً، وأقوى صلة، من البوابة الآشورية الجديدة،

ومن ثم كان من الأولى إعادة بنائها على وفق أسسها التي لا شك في أنها باقية تحت الأرض، والصور الفوتوغرافية التي التقطت لها قبل هدمها...الخ". ورأيت أنه من الضرورة أولا تحديد عمر كل بيت تجري صيانته، وهو ما يقتضي التوصل إلى التاريخ الحقيقي لإنشائه أول مرة، قبل أن تمسه يد التفتت والتحوير والتشويه، وهي عملية تاريخية قبل أن تكون أثرية"، وفي هذا اقترحت الرجوع إلى سجلات الطابو، والأوقاف، ومصادر أخرى ذكرتها (الصوت الآخر، 11 تموز 2007). وفي الحقيقة فإن دعوتي الاخيرة كانت من واقع تجربة لي في دراسة المناطق التي جرت إزالتها من محلات (باب الشيخ) و(التكارتة) و(سوق حمادة) وغيرها من محلات بغداد، حينما كنت أدعو الى الاستعانة بسجلات الطابو مصدرا تاريخيا لدراسة تلك المحلات الزائلة. وكم كانت سعادتي غامرة حينما سمعت الاستاذ نوزاد هادي، محافظ أربيل، يبشرنا، بعد سبع سنوات من نشري هذه الدعوة، بأنه سيجرى اعادة بناء البوابة القديمة على نفس شكلها السابق قبل ان تهدم.

كلية ازهرية في كردستان



في سنة 2007 راودت المسؤولين في وزارة الآوقاف في كردستان فكرة جيدة، وهي المبادرة الى تأسيس كلية أزهرية في أربيل، تكون فرعاً للجامعة الأزهرية العريقة في مصر، من أجل ان تكون ركيزة للفكر الاسلامي المعتدل في وسط التيارات الفكرية المتطرفة التي باتت تشكل خطرا على الحياة الفكرية والاجتماعية بوجه عام، وجرى تشكيل وفد من ممثل لوزارة الاوقاف، هو الاستاذ عثمان المفتي، المستشار في الوزارة، وممثلين لوزارة التعليم العالي، انا والسيد عميد كلية الشريعة في جامعة صلاح الدين، وممثل لجهة تعليمية أخرى، وفي معيتنا عشرة من الطلبة المتفوقين في المدارس الدينية في عموم كردستان لغرض قبولهم في الدراسة الأزهرية. وسافرنا من مطار السليمانية الى القاهرة في نهاية ذلك العام، وهناك جرى استقبالنا بحفاوة مشهودة، وسرعان ما رتب لنا لقاء بالإمام الشيخ محمد طنطاوي شيخ الأزهر، للغرض المذكور. بدا الشيخ الجليل متواضعاً للغاية، ورحب بالمشروع، ولكنه قال أنه يخشى على هذه المبادرة

من العشرات بسبب الاختلاف بين مستويات الطلبة الكرد عن مناهج الدراسة في الأزهر، فالطلبة الكرد لا يحفظون من أجزاء القرآن الكريم إلا بعضـها، بينما لا يتقدم الطلبة من الامم الاخرى الى الازهر إلا وقد حفظوا معظم أجزائه، فضـلا عن العلوم الاسلامية الاخرى، وسبب ذلك هو أن الدراسة الازهرية لا تبدأ من الجامعة الازهرية، وإنما من المـدارس الابتدائيـة فالمـدارس الاعداديـة والثانويـة، ونصحنا بأن نبدأ أولا بانشـاء مدرسـة أزهريـة إعداديـة لتكـون الدعامـة الأولى لإنشاء الكلية المنشودة، وأمر بتزويدنا بكافة المناهج المتبعة في هذه المـدارس لهـذا الغرض، وتعهد بالمساعدة لتأسيس مثل هذه المدرسة في كردستان، وبدت الفكرة مقنعة فعلا، فشكرناه، ثم أنه رحب بالطلبة الذين في معيتنا كما لو كـان يرحـب بأولاده، وأبدى تعاطفه معهم، واخبرهم ان في وسعهم مراجعته شخصـيا في اي أمر دون استئذان. ثم اننا التقينا بعد ذلك بالسيد رئيس جامعة الازهر، الـدكتور الطيب، وقد أصبح شيخا للأزهر بعد وفاة الامام طنطاوي رحمه الله، فأبدى مـن الطيبة ما يوافق اسمه، وتعهـد بقبـول أي عـدد مـن طلبـة كردسـتان في كليـات الجامعة دونما تحديد، مع اقامتهم مجانـاً في المدينـة الجامعيـة، وتيسـير مهمـة رفـع مستواهم بالعربية وحفظ القرآن من خلال مختبرات الصوت، بل تعهد بأن يلتقي بكل طالب على حدة مـن أجـل مسـاعدتهم علـى اختيـار تخصصـاتهم المقبلـة. وهكذا بدأ هذا المشروع الرائد بكل هدوء وبعيدا عن صخب الاعـلام، وجـرى تأسيس المعهد الأزهري فعلا في اربيل، ليكون خير نواة لـه، واتخـذ لـه مقـراً في جناح كبير من جامع خديجة الكبرى، أحد جوامع اربيل الكبيرة، واسـتقدم اليـه عدد من فضلاء العلماء الازهريين، وصرت كلما مررت به، ترضّيت على الامام الطنطاوي، وذكرت خلفه الطيب، وطافت بي ذكريات تلك الوجوه الخيرة الـتي سهلت هذا العمل المأجور إن شاء الله.

طماي الزهايرة

تداعت وزارة الثقافة في كردستان الى عقد ندوة كبيرة في أربيل، في سنة 2007 للاحتفاء بذكرى المترجم الكردي البارز محمد علي عوني، ودعت إليها ابنته السيدة درية، وابنه الدكتور عصام، مع عدد من الصحفيين المصريين. وقد دعاني الأستاذ كنعان المفتي، الذي كان وراء هذه الفكرة ومنفذها، إلى المشاركة في هذه الندوة ببحث ألقيه فيها، وقد اخترت أن ألقي بحثي بعنوان (صلات ثقافية متبادلة بين مصر وكردستان) تحدثت فيها عن جذور هذه الصلات منذ العصر الأيوبي، والعهود التالية، حتى العهد الحديث، مؤكدا على دور رواق الأكراد في الأزهر، والصلات بين مدرسة قبهان في العمادية والجامع الأزهر في القاهرة، والأسر الكردية التي برزت في المجال الثقافي في مصر، وأبرزها الأسرة التيمورية، وغير ذلك من شؤون، وكان من أفضل ثمرات ذلك اللقاء، تعرفي على السيدة درية، وهي سيدة مثقفة، لها نشاط جم في الصحافة، وعلى الصحفيين المصريين الذين كانوا بصحبتها، وأرادت الوزارة تنظيم جولة للوفد لاطلاعه على ربوع كردستان، فطلب مني القائمون عليها مصاحبة الوفد، فبدأت الرحلة بزيارة معبد لالش، حيث استقبلنا أمير الايزيدية تحسين بك، ثم رئيسها الروحي بابا شيخ، ونظمت لنا جولة الى داخل المعبد، ومن هناك توجهنا الى عقرة، ومنها الى السليمانية، فوصلناها ليلا، حيث بتنا هناك، وفي الصباح ودعنا الوفد الذي غادر الى القاهرة. وكان من أهم ما حصلت عليه من أوراق درية نسخة مصورة عن مخطوطة بخط والدها عنوانها (الرسالة العونية في انساب الاسرة التيمورية) وهي من تأليفه، وتتناول تاريخ هذه الاسرة الكردية العريقة، وتترجم لرجالاتها ونسائها، فقمت بتحقيقها والتقديم لها ثم نشرتها في مجلة الاكاديمية الكردية.

ولم تمض الا شهور حتى كنت في القاهرة، ضمن وفد كردي لتأسيس كلية ازهرية في كردستان، فكان أول ما قمت به زيارة السيدة درية في شقتها في الزمالك، ودارت بيننا أحاديث عن إمكان مجيء طلبة من كردستان للافادة من مكنونات الارشيف المصري في دراسة تاريخ الكرد في اثناء حروب محمد علي، ودراسة عدد من الشخصيات الكردية في مصر وفي مقدمتها محمد علي عوني، بوصفه رئيس قسم الترجمة الذي يعود اليه الفضل في ترجمة جانب كبير من تلك الوثائق. وتعهدت السيدة درية بتسهيل مهام اولئك الطلبة في حال مجيئهم، لا سيما في مجال الحصول على الموافقات اللازمة لدخول دار الوثائق، وقد نقلت هذا العرض الى السيد وزير التعليم العالي، الدكتور ادريس، في حينه، الا أن عدم توقيع بروتوكول ثقافي بين جامعة القاهرة واحدى جامعات كردستان ضيع فرصة التعاون المنشود.

وسألتني درية عما أحب أن أراه في مصر، وفي الواقع فإني كنت قد شاهدت معظمها في اثناء إقامتي فيها، فخطر ببالي أن أسألها شيئا فاتني أن أراه، وأود الآن أن أفعل ذلك، ذلك هو قرية طماي الزهايرة التابعة لمركز السنبلاوين في محافظة الدقهلية، فتلك هي القرية التي ولدت فيها السيدة ام كلثوم ونشأت. ووافقت درية على الفور، ومضينا في طريق زراعي طويل متوغل في أعماق الدلتا، حتى وصلنا القرية، واستمعنا ذكريات بعض مسنيها عن ما قامت به السيدة ام كلثوم من اعمال خير نافعة، ومنها انشاؤها جامعها الكبير، ومشغل للفتيات، ومستوصف، وغير ذلك. وعدنا وقد نال منا التعب كثيرا، إلا أنها كانت رحلة ممتعة تماما، ومن المؤسف انها لم تتجدد الى ان تناهى الينا خبر وفاة هذه السيدة الفاضلة قي سنة 2004.

بطل منسي

كان لقائي بصدام حسين سنة 1997، وقد اشرت اليه فيما سبق من هـذه المذكرات، فرصة لأحدثه عن شخصية كردية نبيلة، هي شخصية بير جب، بوصفه أحد الذين تطوعوا، مع رهط من شجعان قريته عقرة، للحرب ضد الفرنسيين في مصر، وقد أعجبته القصة، ورأى انها تستحق أن تبرز اعلاميا وتعليميا، وأمر سكرتيره على الفور بالاتصال بجهات حددها كيما تذكر ضمن كتب التاريخ المدرسية والجامعية. وقد كتبت في حينها مقالا في جريدة الاتحاد التي كان يصدرها اتحاد الصناعات العراقي (15/ 9/ 1998) بعنوان (بير جب) افتتحته بعبارة تقول "إذا كانت الأمور تقاس بمعانيها لا بمبانيها كما يقول أهل المنطق، وبجوهرها لا بمظهرها كما يرى أهل الفلسفة، فإن ما فعله الرجل البسيط المدعو رجب بن حسن الزيباري الكردي العقراوي يعني الكثير". وحينما انتقلت الى اربيل، قدمت مجموعة من الحلقات لقناة فضائية باسم (حكاية مكان) وكانت عقرة واحدة موضوعا لإحدى تلك الحلقات، فوجدتها فرصة لزيارة بقايا تكيته الكائنة في محلة قديمة على سغح جبلها، وجعلت هذا المكان موضوعاً رئيساً للحلقة، ثم أني كتبت عنه، بعد حين، بتوسع اكبر مما كتبت سابقا، ونشرت ما كتبته في مجلة (الصوت الاخر) التي كنت أنشر فيها معظم بحوثي في تلك المدة. ولم أكتف بذلك وانما ألقيت محاضرة عنه في منتدى ثقافي هناك في عقرة حضره جمع كبير من مثقفي عقرة، والغريب أني أكتشفت أن أكثر الحضور لا يملك أدنى فكرة عن بير جب، فطالبت في آخر المحاضرة أن يقام تمثال لهذا البطل النبيل في مكان بارز من المدينة، وأن يسمى شارع باسمه، إحياء لذكراه، إلا أن شيئاً من ذلك كله لم يحدث مع الأسف. لقد غاب بير جب في جُب النسيان مرة أخرى.

تاريخ بهدينان

وكان من ثمار هذه الاقامة المستقرة، والجو المليء بالمحبة الذي عشت فيـه، محبة الاصدقاء والزملاء ومحبة الجيران بل حتى محبة البقال والخبـاز الـذين كـانوا يراعون غربتي بلطفهم، أن عدت بسرعة الى عالمي الجميـل الـذي اضـطررت الى تركه في الشهور العسرة الأخيرة من وجـودي في بغـداد، وكنـت أطمـح منـذ أن قرأت كتاب (امارة بهدينان العباسية)، الذي أصدره الاستاذ محفوظ العباسي سنة 1969، أن أطلع على مصدره الأساس في تأليف كتابه هذا، وهو مخطوطة نسب امراء بهدينان التي ظلت محفوظة لدى سادات قرية (زيـوه كـا) فعرفـت الوثيقـة باسم بالزيوكية نسبة اليها، فانتهزت فرصة زياراتي الى دهوك لأسأل عنها الاخوة هناك، ثم علمت أن منها نسخة محفوظة في المكتبة المركزية لجامعة دهوك، ولكـني حين ذهبت اليها لم اجد اسمها مدوناً بين مخطوطاتهـا، ولـذلك لم تكـن معروفـة لدى ادارة المكتبة، فكان من لطف مدير المكتبة أن نثر أمامي كـل مـا تحـتفظ بـه المكتبة مـن مخطوطـات عسـى أن أجـد بينهـا ضـالتي، وفجـأة وجـدتني اهتـف: وجدتها! ها هي!. لقد كانت المخطوطة تتخذ شكل لفافـة طويلـة تتضـمن نصـا طويلا جدد على مراحل تاريخية متعاقبة، وفيها معلومات نسبية وتاريخية في غايـة الاهمية عن ظروف نشأة امارة بهدينان، ومـواطنهم الأولى الـتي انحـدروا منهـا، وأمرائهم الأوائل، والصلات النسبية التي تربطهم بالأسرة الحاكمـة في حكـارى، وفي غيرها من قرى بهدينان، وعجبت كيف ظلت هذه المخطوطة المهمة قابعة في هذه المكتبة دون أن تنل حظها من التحقيق والدرس. صـورت المخطوطـة علـى الفور، وعدت لأعمل على دراستها دراسة دقيقة بكل مـا وسـعني مـن علـم في مجال دراسة الوثائق، ثم حققتها وعلقت عليهـا بمـا يوضـح العديـد مـن المواقـع

والأعلام التي تحفل بها، وحينما قدمتها إلى الأكاديمية الكردية لغـرض طباعتهـا، اعتذرت لأسباب احترمها تماما، فتولى مكتب التفسير في اربيل طبعهـا ونشـرها، وبذلك كانت هذه المخطوطة أهم مصـدر عـن نشـوء الإمـارة وأقـدمها، بـل أن اقسامها الأولى كانت الأقدم علـى الإطـلاق، اذ سـبقت مـا ذكـره البدليسـي في كتابه الشهير (الشرفنامة).

وما ان فرغت من الشجرة الزيوكية حتى انصرفت الى تحقيق مخطوطة كنت قد صورتها من مكتبة المتحف البريطاني منذ سنين، وهي بعنوان (روضة الاخبار في ذكر أفراد الأخيار) لمؤلف موصلي عاش في القرن الثاني عشر للهجرة، لكنـه لم يذكر اسمه، وتوصلت بعد دراسة الامر انه للمؤرخ الموصلي ياسين بـن خـير الله العمري، وذلك لخبرتي بأسلوبه، حيث سبق أن حققت كتابـه (زبـدة الاثـار الجلية في الحوادث الارضية) في سبعينات القرن الماضي، وجمعت في مكتبتي جميع مؤلفاته التاريخية، وقد حققته وعلقت عليه، وتولت مؤسسة (زين) في السليمانية طبعه ونشره سنة 2010. ولأن هـذه الطبعـة جـاءت محـدودة مـن حيـث كميـة المطبوع، دون فهارس هجائية، واستجابة لرغبة ناشر في بيروت، فقد أعدت نشره بعد سنتين مزودا بتلك الفهارس. وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه قدم اضافات مهمة الى تاريخ امراء بهدينان، وسـوران، وبابـان، فجـاء الكتـاب مـن ثـم يمثـل مصدرا جديدا وأصيلا للباحث في تاريخ هذه الامارات الكردية.

وفي الواقع فقد كنت مهتما جدا في البحـث عـن الأصـول التاريخيـة لهـذه الإمارات بكل سبيل، من ذلك انـي حينمـا زرت قلعـة العماديـة، مركـز إمـارة بهدينان وقاعدتها، لفتت نظري كثـرة الشـواهد الاثريـة في المقـبرة القديمـة الـتي عرفت بمقبرة الامراء او المقبرة السلطانية، فخطر ببالي أن أقوم بمشروع له اهميته في الكشف عن بعض الحلقات المجهولة من تاريخ الامـارة مـن خـلال قـراءة مـا

على تلك الشواهد من أسماء أمراء بهدينان الاوائل وتواريخ حكمهم، وتكررت زياراتي الى العمادية والى مقبرتها القديمة، فزاد ذلك من عزمي على تنفيذ المشروع، ثم عرضت الفكرة على الدكتورة نرمين علي امين، التدريسية في قسم الاثار في كليتنا لغرض استحصال الموافقات الرسمية اللازمة للعمل، واخيرا قصدنا العمادية في صيف سنة 2010، وبصحبتي اسرتي، وقامت زوجتي بتنظيف الشواهد بكل عناية، ثم قمت بشف الكتابة على الشواهد على ورق خفيف من أجل تفريغه على الورق، وقامت الدكتورة نرمين بوضع الارقام على الشواهد، وساعدنا في كل هذه الاعمال ولداي فؤاد وفيصل، وصورت الشواهد على نحو واضح، وقد اسنغرق العمل عشرين يوما متصلة.

وكنت أعمل، بعد انتهاء العمل في كل يوم على تكبير الشواهد على جهاز الحاسوب من أجل التوصل الى قراءة سليمة لما نقش عليها من اسماء وتواريخ، وحينما عدت الى البيت في اربيل راجعت كل شاهد بغاية الدقة، وأرخت للمقبرة، انجز الكتاب، فأرفقته بصور الشواهد، وبملحق تضمن تراجم وافية لأصحابها، وقدمت الكتاب الى الاكاديمية الكردية فتفضلت بنشره بالالوان، وصدر سنة 2011، فتحقق بصدوره حلم طالما راودني في خدمة تاريخ هذه الامارة، وربما كان أهم ما عثرت عليه شاهد لأقدم امير نعرفة من امراء الامارة الاولين، هو سبف بن محمد، وابنه الامير حسن.

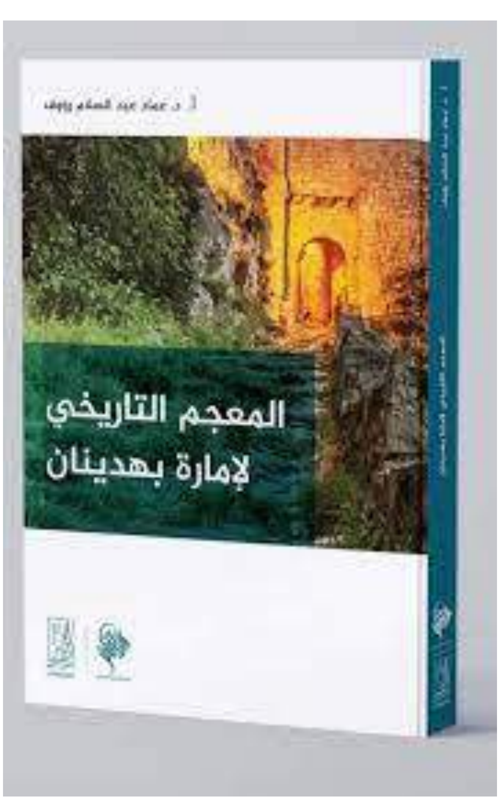
شجعني انجاز هذا الكتاب على القيام بمشروع آخر، قريب من سابقه، وهو تأليف معجم تاريخي تحت عنوان (المعجم التاريخي لإمارة بهدينان) يضم موادا كثيرة مرتبة على حروف الهجاء تمثل امراء بهدينان واميراتها ووزرائها وقادتها وعلمائها ومغنيها وشعرائها ومدارسها ومساجدها وقناطرها وخاناتها ومعالمها الاخرى، فيكون بذلك أشبه بالموسوعة المصغرة لهذه الامارة، ولم تكن هذه المهمة

ميسرة بأية حال، في ظل تفرق المصادر وقلتها، وندرة الوثائق المحلية، مما دفعني الى الاستعانة بمصادر لم تكن قد استفيد منها من قبل في دراسة تاريخ هـذه الامـارة، لا سيما الارشيف العثماني، ومخطوطات نادرة، ومعطيات الجولات العديدة التي قمت بها في انحاء المناطق التي كانت يومـا ممتلكـات الامـارة ومسـرحا لنشـاطها السياسي والعسكري والحضاري. وبعد إتمام الكتاب تولـت الأكاديميـة الكرديـة طبعه بالالوان ايضا، وصدر ضمن اصداراتها سنة 2011.

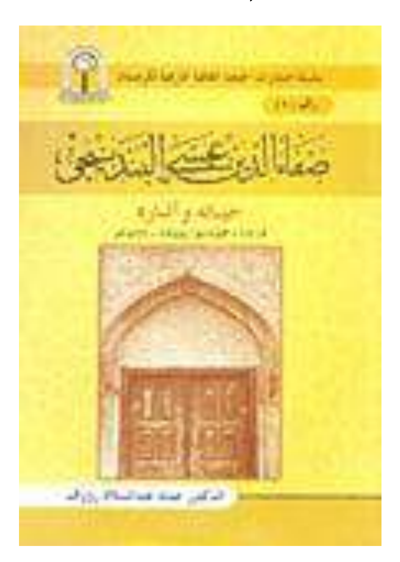
ولكني مع ذلك معلق القلب بحب بهدينان وأمرائها!

ففي سنة 2013 تمكنت من الحصول علـى نسـخة مصـورة مـن مخطوطـة نادرة بخط مؤلفها القاضي محيي الدين عبدالله بـن رشـيد الـدين عبـدالظاهر بـن نَشوان الجُذامي السَّعدي الرَّوْحي المصري، وهو مؤرخ كبير مـتقن مـن مـؤرخي القرن السابع للهجرة، واسم المخطوطة (الألطـاف الخفيَّـة مـن السـيرة الشـريفة السلطانية المَلَكيّة الأشرفية). ويتضمن سيرة السلطان المملـوكي الأشـرف خليـل (666- 693هـ/ 1267- 1293م) وأصل المخطوطة في مكتبة ميونيخ، وبينمـا كنت اقرأها وجدت أن من النصوص الفريدة التي ضمّها هذا الكتاب نصا طويلا يشتمل على أخبار سفارة قام بها من يُدعى الشيخ عبدالحميد مُوفـدًا مـن زعـيم بلاد الهكار الذي يدعى (علاء الـدين الهكـاري) إلى الأمـير سَـنجَر بـن عبـدالله الشجاعي الحلبي نائب السلطان الأشرف في دمشق في شهر ربيع الأول من سـنة 691هـ/ شباط 1292م، ينقل فيها رغبة هذا الزعيم الكردي في عقـد اتفـاق او تحالف بين بلاده وبين الدولة المصرية ضد اي عدوان محتمل. وتسـكت المصـادر عن تعيين هوية علاء الدين الهكاري إلاّ أني توصلت بقـرائن قويـة الى أنـه كـان أميرا للعمادية، يوم كانت هذه المدينة قاعدة لبلاد الهكارية، ومن ثم فمن المحتمل أن يكون من الأجداد الأولين للأسـرة الحاكمـة في بهـدينان. وهكـذا أدت هـذه

الوثيقة الى اكتشاف حلقة مبكرة غير معروفة من تاريخ الامارة التي صارت شغلي الشاغل.



أعلام من الكرد



وفي سنة 2009 طرحت جمعية المؤرخين في كردستان، وقد صرت عضوا فيها، فكرة اصدار سلسلة من الكتب يتناول كل منها سيرة علم بارز من أعلام كردستان، فكان أن قدمت اليها كتابا بعنوان (صفاء الدين عيسى البندنيجي) تناولت فيه سيرة هذا العالم النابه، الذي انحدر من بندنيجين (مندلي حاليا) الى بغداد، حيث بز أقرانه علما وعملا، وصار رئيسا لمدرسي بغداد، وألف عددا من الكتب، وترجم كتاباً مهماً من التركية الى العربية عول عليه المؤرخون والمستشرقون في دراساتهم فيما بعد، وطبع الكتاب فعلا سنة 2009.

واتبعته بكتاب آخر عن عالم كردي كبير، هو محمد سعيد الزهاوي، مفتي بغداد وابن مفتيها، وألحقت به فهرسا لمخطوطاته الكثيرة التي كنت قد فهرستها في دار التربية الاسلامية ببغداد، وطبع الكتاب ضمن اصدارات الجمعية ايضا، وكان الكتاب الثالث بعنوان (السلطان حسين الولي، امير بهدينان) ويعد هذا السلطان المؤسس الفعلي لعظمة الامارة وباني مجدها، وقد ملا الدنيا وشغل

النـاس بسياسـته الحكيمـة، وحملاتـه الناجحـة، واعمالـه العمرانيـة الكـثيرة، والمؤسسات العلمية والدينية التي أنشأها في عموم امارته.

اما الكتاب الرابع فهو بعنوان (ابـراهيم الشـهرزوري الكـوراني)، وكـان هذا عالما مجددا ومجودا، طور الفكر الاسلامي في عهد تـأخره، والـف اكثـر مـن 130 كتابا ورسالة، تفرقت في مكتبات العالم، وكان سبب معرفتي واهتمـامي بـه يعود الى سنة 1973 حينما كنت افهـرس مخطوطـات الجـزء الاول مـن فهـرس المكتبة القادرية إذ وقفت على مخطوطة له بعنوان (الامم لايقاظ الهمـم) تتضـمن قائمة بأسماء شيوخه وأغلبهم من رجال الحديث، وقد أعجبتني هذه الرسـالة في استيعابها عددا كبيرا مـن علمـاء القـرن الحـادي عشـر الهجـري (السـابع عشـر الميلادي) وأثار عجبي اني لم أجد أحدا اتخـذ مـن مؤلفهـا موضـوعا لدراسـة او أطروحة او كتاب، ومضت اربعة عقود من السنين والوضـع علـى حالـه، علـى الرغم من توفر مواد كثيرة صالحة للدراسة من خلال شبكة الانترنيـت، فقـررت أن اتخذه موضوعا لكتاب مستقل، وشرعت بالعمـل، وكلمـا مضـيت فيـه زدت اعجابا بهذا العالم الكردي الفذ، حتى بت أشعر أن صداقة ما تجمعنا، وعدت الى مصـادر ترجمتـه اسـتخلص منهـا كـل شـاردة وواردة، والى اجازاتـه العلميـة، واجازات تلامذته، والى ما يمكن فهمه من مؤلفاته التي اسـتطعت الرجـوع اليهـا من خلال الانترنيت، ثم عكفت على استقصـاء هـذه المؤلفـات او عنواناتهـا في الأقل في فهارس مخطوطات العالم، في العراق ومصر والشام والحرمين والهند بـل حتى جزر الملايو واليابان، وهالني الانتشار الواسع لهذا الرجل، وكثرة من تتلمذ على يده، ومن راسله في قضايا علمية كانت تشغل أذهان الناس في عصره. ومـا أن أنجزت الكتاب حتى قدمته الى الدكتور محمد كاكه سور، نائـب رئـيس جمعيـة المؤرخين، فأبدى اعجابه به لا سيما بمصادره التي اعتمـدتها، ولم يمـض شـهر او

شهران حتى أصبح الكتاب في ايدي قرائه، وبعد سنوات طلب مني مكتب التفسير ان اقوم بجمع هذه السير الأربع في كتاب واحد ففعلت، وصار كتابا كبيرا أطلقت عليه عنوان (أمراء وعلماء في تاريخ كردستان في العصر العثماني) وقد طبع في دمشق طبعاً انيقا، وعرض في معرض القاهرة الدولي للكتاب في هذا العام (2016) ومن المأمول ترجمته الى اللغة الكردية قريبا.

وكانت جمعية المؤرخين تصدر منذ تأسيسها مجلة دسمة بالبحوث تحت اسم (ميزوو) اي التاريخ، وأذكر اني صادفت الدكتور كاكه سور أول مرة وأنا اجتاز شارعا في منطقة (نيشتمان)، وكنت حديث العهد باربيل، فعرض علي، بطيبته المعهودة، أن أنشر بحوثي في هذه المجلة، ولم اكن قد تعرفت عليها من قبل، وكنت أنشر كل ما أكتبه حتى ذلك الحين في مجلة (الصوت الاخر)، ففتحت دعوته لي المجال للنشر في منبر جديد متخصص بالدراسات التاريخية، وهكذا صرت حريصا منذ سنة 2008 على أن أنشر في كل عدد من اعدادها دراسة جديدة. وأذكر ان مما نشرته فيها مثلا (نجيب عازوري والقضية الكردية) وهي دراسة عن أول مشروع لاقامة مملكة كردية في بزعامة آل بدرخان في بداية القرن العشرين وغير ذلك فيما يتصل بتاريخ الكرد ودراسات اخرى.

ومن ناحية أخرى فقد دعاني الصديق الدكتور محسن محمد حسين، عضو الاكاديمية الكردية، ورئبس تحرير مجلتها في ذلك الوقت الى النشر فيها، ففعلت، وصرت أنشر في كل عدد منها دراسة تتعلق بالتاريخ الكردي خاصة، وأذكر أن أول دراسة نشرتها فيها كانت بعنوان (اضواء جديدة على امارة بهدينان في القرنين 16 و17) واعقبتها دراسات اخرى في كل عدد تقريبا حتى اليوم، ومن عنوانات تلك الدراسات مثلا (لمحات عن الحياة العقلية في كردستان في العصر العثماني) و(التكية الخالدية في بغداد) و(الاثار الكردية في المكتبة القادرية)

و(الاثـار الكرديـة في المكتبـة الراويـة) و(الرسـالة العونيـة في تـاريخ الاسـرة التيمورية) وغير ذلك كثير.

مشاريع قوانين

لاحظت، وأنا افتش عن مزيد من المخطوطات لإكمال الطبعة الثانية من كتابي (مراكز ثقافية مغمورة في كردستان)، عدم وجود مركز متخصص بحفظ المخطوطات والعناية بها وتوفيرها للباحثين في كردستان، هذا على الرغم من وفرة المخطوطات المنتشرة في العديد من المكتبات الموقوفة والمساجد والمكتبات الخاصة مما صادفته في أثناء جولاتي وبحثي عنها، فكان أن قدمت مفترحا الى وزارة الاوقاف في كردستان لتقوم بتأسيس مثل هذا المركز، وبينت اهميته في حفظ جانب مهم من تراث البلد، وتشجيع الباحثين على فهرسته، ودراسته، بل وتحقيق ما هو من جدير بتحقيقه، وما الى ذلك من شؤون.

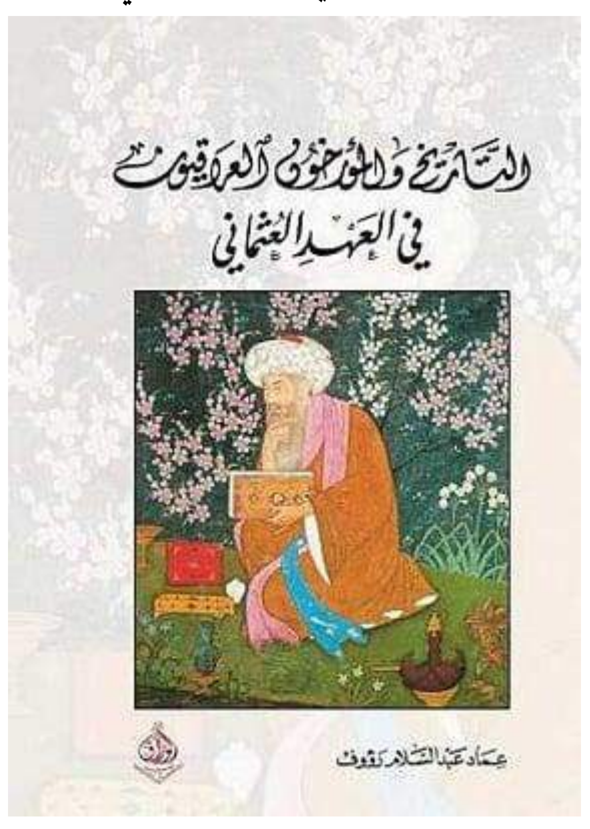
وعلى إثر تقديم المقترح، تشكلت لجنة لدراسته في مجلس الوزراء، تمثل وزارات الاوقاف والتعليم العالي والثقافة، وكلفت باعداد قانون للمركز، الذي سميته (الدار الكردية للمخطوطات)، وجرت دراسة القانون المقترح بتفصيل، وقدمت قوانين اخرى لمراكز مشابهة لغرض المقارنة، ثم فجأة توقف كل شيء، ووضع القانون على الرف، لأسباب لم أعرفها في حينه، وبعد مدة كنت أروي للصديق الدكتور محمد كاكه سور قصة هذا المركز، فاقترح أن تنشر مجلة (ميزوو) نص مشروع قانونه الذي قدمته بوصفه وثيقة تؤرخ لهذه المبادرة المهمة، وقد نشرته فعلا في احد أعدادها.

ومن ناحية أخرى فاني لاحظت أيضاً عدم وجود مركز وطني للوثائق، يعنى بحفظ الوثائق التي تصدر عن المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية بعد انتهاء مدتها القانونية، البالغة ثلاثين أو أربعين سنة، كما هو معمول به في معظم دول

العالم، كما أن من شأنه أن يحصل على نسخ من الوثائق التي تتعلق بكردستان من مراكز الوثائق والآرشيفات العالمية، خاصة في المركز الوطني للوثائق في بغداد، حيث توجد وثائق المحافظات الكردية الصادرة منذ تأسيس الدولة العراقية حتى سنة 1990، وفي الآرشيف العثماني، التي يحتفظ بما لا يقل من مائة وخمسين مليون وثيقة، تشغل أمور كردستان منها عددا لا يستهان به، هذا إضافة إلى الآرشيف البريطاني والفرنسي والروسي والأمريكي، وهي أرشيفات تفيد الباحثين فائدة قصوى في بحوثهم وطلبة الدراسات العليا في رسائلهم وأطاريحهم. ولكل تلك الأسباب قدمت مقترحاً بتأسيس مركز متخصص للوثائق، مع مشروع اولي لقانون المركز المقترح الى رئاسة جامعة صلاح الدين، وعلمت أن الجامعة رفعته الى جهات أعلى لمناقشته واقراره، وأخيرا وصل الى البرلمان حيث تولت لجنة الثقافة فيه مناقشته وإعادة صياغته،ثم اني دعيت ذات يوم الى حضور جلسة في برلمان كردستان حضرها عدد من المعنيين من وزارات عدة لمناقشة مشروع القانون، ووعدنا بجلسة أخرى لاكمال مناقشته، بيد أن هذه الجلسة أجلت الى وقت غير معلوم، فلم أدر مصير المشروع بعد ذلك.

حول الاسرة البرزنـجية

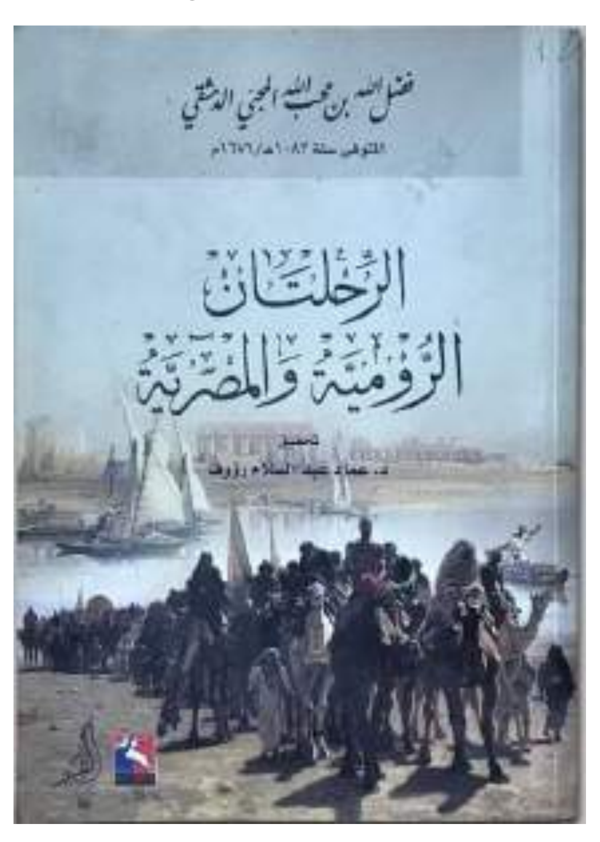
وكان من بواعث سروري اني استطعت الحصول على نسخة مصورة مـن مخطوطة فريدة بخط مؤلفها محمد بن عبـد الرسـول البرزنجـي محفوظـة في مكتبـة الاوقاف في السليمانية، كنت ارجو الحصول عليهـا منـذ أن نوهـت بأهميتهـا في كتابي (التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني)



وهي بعنوان (الفصول في نسب آل عبد الرسول)، وموضع اهتمـامي بهـا انها اول رسـالة تؤلـف في نسـب وتـاريخ السـادة البرزنجيـة الـذين دوى العـالم الاسلامي، وليس كردستان وحدها، بصيتهم العلمي ومؤلفـاتهم الكـثيرة. كمـا

أنها تتضـمن شـذرات مهمـة مـن تـاريخ كردسـتان في حقبـة غامضـة تاريخهـا. وعكفت على تحقيق هذه المخطوطـة بكـل همـة، وقـدمت لهـا بمقدمـة تناولـت اهميتها وما تقدمه من جديد، ومع ذلك فمن المؤسف أن أحـد مـن ينتسـب الى الأسرة ممن اطلع عليها استغرب تحقيقي لها أيما استغراب، وذلك لاحتوائها على كرامات نسبت لاسلاف أسرته يصعب على الانسان المعاصر تصديقها، مـع أنـه لو قرأ الاسطر الاولى من تلك المقدمة لما فاتتـه دوافـع الجهـد والوقـت اللـذين بذلتهما من أجل ان تخرج الى دنيا الباحثين محققة مضبوطة مشروحة على النحـو الذي فعلت.

رحلات ونصوص



استيقظ في حب ادب الرحلات من جديد، بعد أن أعدت نشر رحلة طه الباليساني، فكلفت الصديق زين النقشبندي أن يصور لي مشكوراً نسخة من رحلتين مهمتين ألفهما الرحالة الدمشقي ابن فضل الله بن محب الله المحبي المتوفى سنة 1083هـ/ 1671م وهما محفوظتان في المركز الوطني للمخطوطات في بغداد، وحينما وصلتني هذه النسخة ادركت اني امام نصين بالغي الاهمية من أدب الرحلات، تحدث في أولهما عن البلدان التي مر بها في بلاد الشام، وفي الاناضول، ثم في استانبول، وتناول فيها وصف المعالم والترجمة للاعلام باسلوب بليغ جميل، ووصف في الثانية رحلته واقامته في القاهرة، وأخذه عن علمائها،

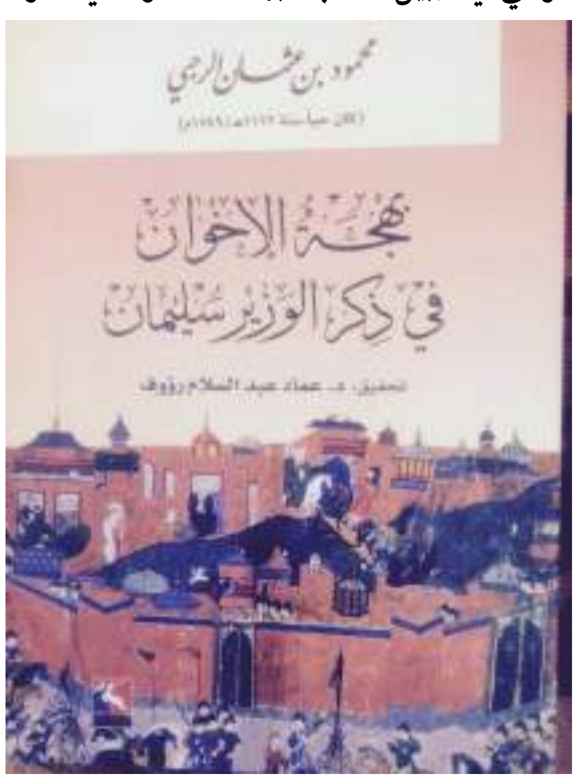
ومشاهدته لمعالمها الاسلامية، لا سيما الازهر، وقررت أن احققهما مجتمعين في كتاب واحد باسم (الرحلتان الرومية والمصرية)، وقد فعلت، واضفت اليه في آخره رسائل مهمة للمؤلف لم تنشر، وجدتها في المكتبة نفسها، وأخيرا صدر الكتاب في دمشق سنة 2012 شاغلا 204 صفحات.

ثم اني انصرفت بعد هذا العمل مباشرة الى تحقيق رحلة اخرى حصلت على نسخة مصورة من مخطوطتها المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، ومع أن الرحلة جاءت خلوا من اسم مؤلفها، إلا أني استطعت ان اتوصل من خلال بعض القرائن الى أنها من تأليف شاب مثقف من اهل بيت المقدس، يدعى محمد ابو السعود المقدسي، وان تاريخ قيامه برحلته هو سنة 18، فانصرفت الى تحقيقها والتعليق عليها والتقديم لها، وإذ لم يثبت لها المؤلف عنوانا سميتها (رحلة من نابلس الى اسلامبول)، وقدمتها الى دار النشر التي سبق ان طبعت سابقه لتتولى طبعه ونشره، وبما ان مطبعة هذه الدار كانت في دمشق، فقد قضت أهوال الحرب الأهلية في سورية ان يتأخر طبع الكتاب بسبب تلك الظروف ثلاث سنوات كاملة حتى طبع سنة 2015. وكم كانت سعادتي حينما اتصل بي عن طريق موقعي على الانترنيت شخص لا اعرفه من مدينة القدس يسأل عن كيفية الحصول على هذه الرحلة ذاكرا أنه من آل ابي السعود، وأن مؤلفها جد له.

وكنت قد دعيت للمشاركة في ندوة عالمية في عمان عنوانها (العمارة العثمانية في بلاد الشام) تعدها الجامعة الاسلامية هناك بالتعاون مع مؤسسة تركية معنية بمثل هذه المجالات، وذلك في 3 آذار سنة 2014وقد اخترت المشاركة بموضوع قريب من اهتمامي الشديد بأدب الرحلات، هو (العمارة العثمانية في بلاد الشام بحسب كتب الرحلات العربية)، استقصيت فيه ما أورده الرحالون من أوصاف المعالم العمرانية من الخانات والمساجد والتكايا والحمامات والقلاع

وغيرها، ومعظم تلك الرحلات مما سبق أن حققته، وهو الأمر الذي أثار اهتمام الحاضرين لأن اكثرهم لم يكن له علم بصدور هذه الرحلات. وكان ممن سررت بلقائهم، بل كنت انتظر هذا اللقاء، الاستاذ الدكتور محمد الارناؤوط، المتخصص في التاريخ العثماني، وقد كنت معجبا بما ألف وترجم في هذا المجال.

ومن المخطوطات التي طالما دار في خلدي أن احققها ولم يتوفر لي من الوقت الا ما تيسر لي في اربيل، كتاب (بهجة الاخوان في ذكر الوزير سليمان)

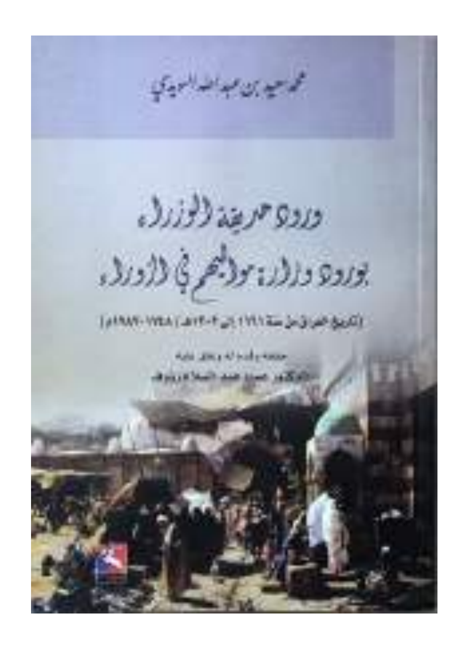


تأليف عالم بغدادي هو محمود بن عثمان الرحبي (كان حيا سنة 1162هـ/ 1749م)، وتوجد هذه المخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني، ومنها نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي، وهي النسخة التي اعتمدتها في تحقيقه، وقد كتبت لها مقدمة مطولة تضمنت دراسة عن نشوء نظام المماليك في

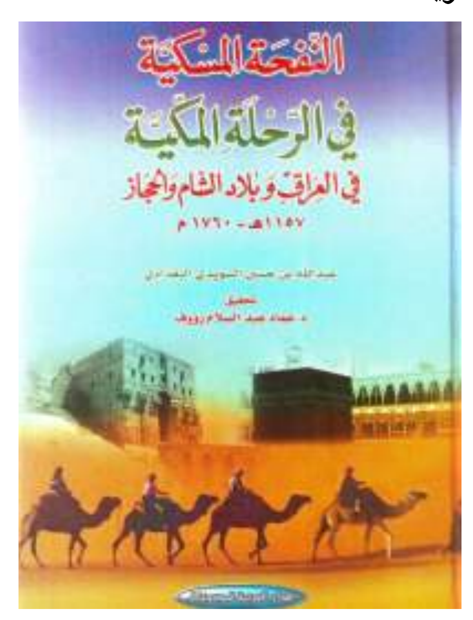
العراق، والظروف التي ادت الى تولي سليمان باشا المعروف بأبي ليلة السلطة في بغداد وتوابعها في سنة تأليف الرحبي لهذا الكتاب، وقدمت الكتاب الى دار النشر التي تولت نشر سابقه، فتأخر نشره للسبب نفسه، وأخيرا صدر في دمشق سنة 2015 شاغلا 112 صفحة.

وشجعني حصولي على وثائق جديدة ومهمة على أن أنظر جذرياً في كتابي السابق (عادلة خاتون صفحة من تاريخ العراق)، فعكفت على إعادة كتابته من جديد مستعيناً بما توفر لي من وثائق ونصوص ومخطوطات لم تكن متوفرة عندي قبل عقدين من السنين، وبعض هذه المخطوطات كنت قد حققته في خلال هذه المدة، كما رفدته بعدد من الصور التي تمثل الأماكن التي ارتبطت بمراحل حياتها، واخترت صورة لسيدة من العصر العثمانية تبدو عليها مخايل القوة والجمال والهيبة لتكون صورة الغلاف، فهذه هي صفات عادلة خاتون كما تجلت لي من خلال دراستي، وأخيرا صدر في دمشق سنة 2015، وقد شغل 165 صفحة.

وفوجئت وأنا اتصفح بعض المواقع المعنية بشؤون نوادر المخطوطات بوجود مخطوطة في مكتبة جستر بتي في دبلن بايرلندا بعنوان (ورود حديقة الوزراء بذكر ورود وزارة مواليهم في الوزراء) تأليف الشيخ محمد سعيد السويدي، ومحمد سعيد هذا هو ابن عبد الله السويدي صاحب (النفحة المسكية) الذي سبق أن حققته، وأخو عبد الرحمن السويدي صاحب (حديقة الزوراء)



وقد حققته ايضا، ولم أكن قد قرأت عن هذه المخطوطة أو سمعت عنها من قبل، فوجدت أن من الضروري أن أحققها لانها تكمل مؤلفات اسرته التي عنيت بها منذ سنين طويلة.



واستطعت ان احصل على نسخة مصورة منهـا، فـإذا بهـا شـهادة عيـان مهمة لمؤلف مثقف عاش سنوات عصره الحافلة بالحوادث المدلهمة، فأدركت أني أمام كنز جديد من كنوز تاريخ العراق في العصر العثماني، وأن مجرد وصوله الى يدي نعمة جزيلة من نعمه تعالى أنعم بها علي، وتوكلت عليه وشرعت بتحقيقه. وما أن بدأت بالعمل حتى واجهتني صـعوبة حقيقيـة في قـراءة الـنص، ذلـك ان كاتب المخطوط، وهو المؤلف نفسه، قد استعمل في كتابته حبراً أضاف اليه شـيئا كثيرا من مادة صمغية، فلما جرى حفظ المخطـوط في مكـان رطـب فيمـا يبـدو التصقت حروف كل صفحة بالتي تقابلها فبات عسيرا على متصـفح الكتـاب أن يقرأه، إلا ويجد هنا كلمة او جزءا منها قد ذهب حبرها، فلم تعد تقرأ، أو التصق حبر سطر بسطر مقابل فغمض لفظـه وطمـس معنـاه، وهكـذا أصـبحت قـراءة المخطوط مهمة عسيرة فعـلا وتسـتدعي جهـدا اضـافيا فـوق الجهـد المبـذول في تحقيقه، وبتوفيق منه تعالى تيسر لي فك معظم طلاسم خطـه، وبـذلت الغايـة في تحقيقه والتعليق عليه، والتقديم له، حتى إذا اكتمل قدمته الى الـدار الـتي تولـت نشر سابقيه، فتمت طباعته وصدر سنة 2012 شاغلا 188 صفحة.

اشراف وتوجيه

اسند لي قسم التاريخ منذ أول اقامتي في أربيل تدريس مادة بعنوان (الوثائق والمخطوطات) وهي مادة محببة لنفسي على نحو خاص، فكان تدريسي إياها مناسبا لاهتمامي منذ ان وضعت قدمي في هذا المجال منذ اربعة عقود تقريبا، وحاولت أن أنقل لطلبتي تجربتي في مجال دراسة الوثائق وطرق توظيفها في البحث، والإفادة منها عملياً في بنائه، ومواطن وجودها، لا سيما ما يتعلق منها بتاريخ كردستان. أما في مجال المخطوطات فقد سعيت الى اطلاعهم على مناهج تحقيقها مستفيدا من تجربتي الطويلة في التحقيق والفهرسة وما اليهما. ثم أسندت اليَّ مواد أخرى كانت أحب الى نفسي، من أهمها (تاريخ كردستان الاجتماعي في القرن السادس عش والسابع عشر) و(تاريخ كردستان الاقتصادي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)، ذلك أني كنت أرى في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي القاعدة التي يمكن ان تفسر التطور السياسي.

وكلفتني كلية الاداب في جامعة سوران بالقاء محاضرات اسبوعية في موضوعات مهمة منها (فلسفة التاريخ)، وهي مادة مثيرة للتفكير الى حد بعيد، لكنها تعتمد على دراسة جهود علماء اكثرهم من الاوربيين، فحاولت ان اعطي مساحة لثلاثة من العلماء الكرد الذين عاشوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكانت لهم اسهاماتهم في تفسير التاريخ، هم على التعاقب: إبراهيم الكوراني، ومحمد بن عبد الرسول البرزنجي، ثم مولانا خالد النقشبندي، بل كانت كادت جهودهم تشكل مدرسة في فهم حركة التاريخ. ثم أن جامعة السليمانية أسندت إلي تدريس مادة لم يسبق أن أسند تدريسها إلى أحد من قبل،

وهي (تحليل النص التاريخي) على طلبة مرحلة الدكتوراه، وقد غيرت عنوانها إلى (تفكيك) لا (تحليل) فالتحليل هو ذوبان الشيء، والتفكيك الوصول إلى أجزائه المكونة لكتلته، والتي يمكن إعادة بناء كتلة جديدة بهذه الأجزاء.

ومن ناحية أخرى أسند إلى الأشراف على من عدد رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه، كنت اقترح عنواناتها على طلبتي في أثناء السنة التحضيرية، وأذكر منها (حسين حزني مكرياني مؤرخا) و(دور العلماء الكرد في الدولة العثمانية) و(المؤرخون الكرد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) و(الاحوال الاقتصادية في امارة سوران) و(مصطفى باشا ياملكي)، كما أشرفت على رسائل في جامعة الموصل ايضا.

مؤرخون سريان

دعيت الى جميع الندوات السنوية التي كانت تعقدها مديرية الثقافة السريانية في عنكاوا، وكنت حريصا عن المشاركة في كل ندوة بدراسة لها نتائج جديدة، من ذلك مثلا دراسة بعنوان و(موقع دير العاقول) و(سليمان الصائغ مؤرخا) و(سريان يؤرخون لحوادث عصرهم)، وفي الواقع فإن كل واحدة من هذه الدراسات اقترحت علي موضوع كتاب مستقل، فأما الاولى فكانت نواة لكتاب اجمع فيه ما كتبته عن معالم بادت، امثال هذا الدير الشهير، وأما الثانية فكانت سببا في تحقيقي لعدد من النصوص السريانية التاريخية كان الاب ادي شير قد جمع مادتها من هوامش كتبة سريان، وهي تؤرخ لعدة عصور متعاقبة، ونشرها في مجلة فرنسية سنة 1910، وقد طلبت من الدكتورة نرمين علي ان تنقلها الى العربية، ففعلت، وقمت أنا بكتابة دراسة عنها، وحققتها، وعلقت عليها تعليقات كثيرة، ونشرتها في مجاة الاكاديمية الكردية (العدد 24، 2013)، وهي تؤرخ لعدة عصور متعاقبة، وتتضمن روايات بالغة الاهمية عن تاريخ كردستان في عهد دولة (الاق قوينلو) وتاريخ العمادية في عهد امراء بهدينان، وأما الثالثة فأدت الى ان اتناول موضوعا جديدا هو تطور منهج البحث التاريخي لدى عدد من المؤرخين السريان الاخرين، هم كل من بطرس نصري الكلداني، وديونسيوس افرام نقاشة، وعبد الاحد جرجي، ونرسيس صائغيان، فضلا عن سليمان الصائغ نفسه، وقد وجدت ان القاسم المشترك بين هؤلاء المؤرخين هو تقصيهم الدقيق للوثائق في مختلف الاديرة، وقدرتهم الفائقة في تحليل معطياتها، وتوظيفها في دراساتهم، وحينما انجزت تأليف الكتاب تولت ثلاث دور نشر في بغداد وبيروت وكندا نشره، مما ادى الى تحقيقه انتشارا حسنا.


دراسات
مؤرخون سريان محدثون
دراسة في تطور منهج البحث التاريخي
د. عماد عبد السلام رؤوف
OPUS

مخطوطات جديدة

وكان من محاسن المقادير أن صديقاً لي من بغداد هو (محمود عبد الصاحب العباسي) أرسل لي في اوائل سنة 2014 نسخة مصورة من مخطوطة تحمل العنوان الاتي (نزهة الأدباء في علماء وأدباء دار السلام الزوراء)



تأليف الشيخ محمد أمين بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السهروردي، وعبد الرحمن ابوه هو مؤلف الكتاب الذي سبق أن حققته بعنوان (تاريخ بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة)، أما (نزهة الادباء) فهو يترجم لمجموعة من العلماء والأدباء والشعراء وزعماء القبائل بل وبعض الموسيقيين، ومنهم من لم يترجم لهم أحد من قبل، لذا رأيت أن من المفيد تحقيقه ونشره، فعكفت على ذلك مقابلا إياه على مؤرخي عصره حتى نجز تماما، ولعله يطبع في قابل الأيام.

وصادف أن اتصل بي الصديق الدكتور زرار توفيق قائلا أنه حصـل علـى نسخة مصورة من مخطوط محفـوظ في المكتبـة الوطنيـة في بـاريس، تحمـل عنوانـا مطولا هو (تذكرة المقتفين إثر أولي الصفا وتبصرة المهتـدين لطريـق السـيد أبـي الوفا) تأليف شهاب الدين أبوالهدى أحمـد بـن عبـد المـنعم الشـهير بالشربيسـي الواسطي (كان حيا سنة 777هـ) مقترحا علي ان نتعاون على تحقيقها، وحينمـا ارسل الي هذه النسخة قرأتها بعناية، فلاحظت انها من الأهمية بمكان، لان مـن شأنها ان تكشف البـدايات الاولى لانتشـار التصـوف في كردسـتان، مـن خـلال ترجمتها لرواد الصوفية من الكرد، كمـا تضـمنت معلومـات مهمـة عـن القبائـل الكردية وتقاليدها الاجتماعية وما إلى ذلك من أمور. اجبت الدكتور زرار علـى الفور، وشرعنا بالعمل متعاونين، حتـى أنجزنـاه، وقـدمنا الكتـاب الى الاكاديميـة الكردية لنشره ضمن اصداراتها ان شاء الله.

ندوات في كردستان

دعيت للمشاركة في ندوات عديدة في كردستان وخارجها، أذكر منها ندوة عن تاريخ العمادية شاركت فيها ببحث عنوانه (مدارس العمادية في عهد امارة بهدينان) وفي ندوة دولية عنوانها (محمود الحفيد ملك كردستان) عقدت في السليمانية سنة 2008، وندوة أخرى فيها أيضا بعنوان (مولانا خالد) شاركت فيها ببحث عنوانه (التكية الخالدية في بغداد)، وقد ألقيت فيه الضوء على هذه التكية التي اتخذها الشيخ خالد النقشبندي مركزا لنشاطاته الروحية والأجتماعية في بعداد في اثناء اقامته فيها، كما شاركت في الندوة الدولية عن تاريخ الكرد في العصر العثماني ببحث عنوانه (المشروع السوراني بحسب وثائق الارشيف المصري)، وقد اعتمدت فيه على عدد من الوثائق المهمة غير المنشورة التي كنت قد إطلعت عليها في دار الوثائق في القاهرة بين أوراق محمد علي باشا. وفي الندوة الدولية التي عقدتها كلية التربية في مدينة عقرة كان لي بحث بعنوان (عقرة في رحلة طه الباليساني) تناولت فيه بالدراسة الفقرات التي أوردها هذا الرحالة في رحلته التي سبق ان حققتها، والمهم أن إحدى تلك الفقرات دلتني الى موقع مقبرة الامراء التي طالما بحثت عنها من قبل، وكنت قد تابعت فيها خطى الرحالة خطوة خطوة حتى اكتشفت أن موقعها الان يشغله بستان يعرف بـ(رزه مير)، اي بستان الأمير. إن اكتشاف هذه المقبرة من شأنه ان يكشف بعض أسرارها، إذا ما تم العثور على شواهد أمرائها، وهذا هو موطن أهمية الاكتشاف. وعلى اية حال فقد نشرت الدراسة في مجلة الاكاديمية الكردية وفي سنة 27 ايار 2013 عقدت مديرية الثقافة السريانية في دهوك ندوة في سرسنك القيت محاضرة عن كنائس بهدينان في القرن السادس عشر، بحسب وثيقة خطية ترقى الى عهد

السلطان حسين الولي، وقف فيها السلطان المذكور مبالغ من القروش المفروضة على تلك الكنائس لتكون مورداً للإنفاق على مدرسة قبهان التي جددها ووسعها قرب العمادية، وقد شاركني في تلك الندوة كل من الدكتورة بروين بدري، والدكتورة نرمين علي.

لقاءات تلفزيونية

كان التلفزيون صديقا قديما لي، فقد ظهرت على شاشته منذ سني تأسيسه الاولى، في برنامج عن الفن التشكيلي، ضمن فريق من زملائي تلامذة المدرسة المأمونية، سنة 1959، وما زلت أتذكر ذلك الاستوديو الاول المشيد على عجل في مبنى الاذاعة العراقية كما كانت تسمى، والمسقف بصفائح (الجينكو)، وصوت قطرات المطر وهي ترتطم به، إذ كان الجو يومذاك ماطرا. على ان لقاءاتي بهذه الاداة الاعلامية المهمة تعددت وتكررت في السنين اللاحقة، ففي سنة 1974 استضافني كامل الدباغ في برنامجه (العلم للجميع) للحديث عن رسالة كنت قد حققتها للبيروني وعنوانها (رسالة في استخراج العمر)، واستضافني مرة اخرى سنة 1984 لأتحدث عن المؤلفات العربية الاولى في علم الاحجار الكريمة، وبخاصة (كتاب الجواهر وصفاتها) ليوحنا بن ماسويه، الذي حققته. وفي اواخر ذلك العقد، تكرر ظهوري من خلال برنامج (حضارة العراق) الذي كان يقدمه الدكتور علاء نورس، ثم في سلسلة حلقات برنامج ناجح، كان يعده الصحفي سلام الشماع، كنت أتحدث في كل حلقة منه عن معلم من معالم بغداد التراثية، فحلقة عن الباب الوسطاني، وثانية عن جامع الخلفاء، وثالثة عن المدرسة المستنصرية، ورابعة عن اسوار بغداد، وخامسة عن موقع دار الخلافة العباسية، وهكذا، وكنت أشعر بأن هذه الموضوعات قريبة من ذوق المشاهدين، فهي تذكرهم بكل ما هو أليف ومحبب وتليد من ماضيهم، في وقت كانت اوقات البث مزدحمة ببرامج سياسية وعسكرية وبيانات وصور من المعركة. ومما يؤكد هذا أن قناة فضائية عرضت علي في سنة 2006 ان اقدم برنامجا مسلسلا بعنوان (حكاية مكان) لأتناول في حلقاته معالم مختلفة من بغداد،

الا أن انهيار الوضع الأمني الذي حدث في أواخر ذلك العـام اوقـف المشـروع، ولكن ما أن انتقلت الى أربيل حتى استأنفت العمل في ذلـك المسلسـل، فـأنجزت منه عشر حلقات، شملت معالم تاريخيـة في كردسـتان، منهـا حلقتـان عـن قلعـة اربيل، وثالثة عن عقرة، ورابعة عن كويه وحلقتـان عـن العماديـة وغـير ذلـك. وأظن انها لقيت قبولا حسنا في بغداد ومدن عراقية أخرى، فهذه المعـالم لم تكـن معروفة الا في كردستان، بسبب حالة الانقطاع الطويلة بـين الاقلـيم وبـين سـائر انحاء العراق، بعد سنة 1990، وتوقف السياحة الى كردستان بطبيعة الحال.

ولم ينسني التلفزيون بعـد ذلـك، فتكـررت اللقـاءات مـع قنـوات فضـائية متعددة، منها مثلا (الشرقية) و(العراقية) و(بغداد) و(عشـتار) وغيرهـا، وكانـت معظم اللقاءات تتناول جوانب مما عنيت بدراسته في حياتي، مثـل تـاريخ المـدن، وتواريخ محلات بغداد، وتاريخ الامارات الكرديـة، آراء في ماهيـة التـاريخ، وفي كتابته، وما الى ذلك.

وأذكر أن إحدى هذه القنوات عرضت علي في سنة 2003 أن أتحـدث في عشرين حلقة من برنامج، أختار عنوانه، وأتناول في كل حلقـة منـه مرحلـة مـن مراحـل تـاريخ العـراق، علـى ان يجـري تسـجيلها في اسـتوديوهاتها في عمـان، فوافقت على المشروع، واخترت له عنوانا هو (الجذور) ومضمونه هو تحليل أهم الظواهر التاريخية في العراق وكردستان في الحقبة الممتدة من الاحتلال المغولي في سنة 1258 حتى ثورة تموز سنة 1958. أما هدف البرنـامج فهـو التأكيـد علـى العوامل التي صنعت هوية البلاد في عهد اهتزت فيه هذه الهوية وفقدت ألوانهـا. وفي عمان انجزت الحلقات المطلوبة، ويظهر أنها نالت قبولا واسعا من مشاهديها بدلالة اعادة بثها غير مرة.

وكانت مجلة (الصوت الآخر) قد طلبت من أحد كتابها البارعين أن يجري حواراً معي، في صيف 2008، فكان أن افتتح حواره بالسؤال الآتي: لم تهتم الشعوب بالتاريخ؟، فأجبته: أن أهمية التاريخ تكمن لدى الشعوب في أنه يقدم صورة الجذور التي يقف عليها ذلك الشعب، إذ حينما تختل المفاهيم لا يبق إلا التاريخ هوية ثابتة له، فالأمة التي تجهل تاريخها، أمة بلا هوية، ومن لا هوية له، أمكن أن يقع ضحية الآخرين، ويسقط تحت تأثير التحديات المستمرة، وربما اختلت قناعاته وسلك مسلكاً يضر بمصالحه الوطنية والقومية. والتاريخ لا يمثل بالضرورة حافزاً لأمة ما لكي تنهض بواقعها, وربما كان العكس صحيحاً أيضا، فيكون التاريخ عبئا على هذه الأمة، يعيق حركتها، ويضيق عليها سبيلها إلى التقدم، وفي هذه الحالة يكون التاريخ متكئاً تتكئ عليه وتجتر ما قدمته من إنجازات ماضية، وربما خلق هذا في نفسها قناعة أنها أدت الكثير، وأن هذا الكثير يكفيها مجداً وأهمية، دون أن توظف التاريخ توظيفاً حسناً بحيث تضيف إليه ما يكمله، وما يمتد به إلى واقعها الذي تعيشه، فحينما تتوقف الأمة عن ملاحقة التقدم تتخلف وتتأخر، وعند ذلك لا يكون في جوفها إلا تراثاً ماضياً، والتاريخ إن وظف توظيفاً جيداً كان قوة دافعة وهوية ثابتة تدفعها إلى الأمام، وإن وظف على غير هذا النحو سيكون عبئاً عليها، لأنه سيكون شيئاً زائفاً، وربما خادعاً لها، كما فعلت أمم كثيرة، تغنت بماضيها فنسيت حاضرها...الخ (الصوت الآخر 23 تموز 2008).

مطبوعات في مصر

وكنت قد شغفت منذ مدة بكتاب غريب في فكرته وفي منهجه، بل وفي عنوانه، وهو (هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف)، تأليف أديب مصري من مدينة شربين في دلتا مصر، اسمه يوسف الشربيني، عاش في القرن السابع عشر، الفه على شكل شرح لقصيدة طويلة على لسان شخصية وهمية سماها أبا شادوف، ويتضمن مقدمة طويلة وصف فيها أحوال الريف، وحياة الفلاحين، وملتزمي الأراضي الزراعية، وطباع أهل الريف، وأخلاقهم، وأسمائهم، وملابسهم، وأشعارهم، ونسائهم، وفقهائهم، وغير ذلك. اما القصيدة نفسها فهي أرجوزة طويلة في 193 بيتًا، لخص فيها أحوال الريف تلخيصًا بديعًا، وبأسلوب ساخر، أما سبب شغفي بالكتاب فهو لانه يحتوي على ثروة من الألفاظ والمصطلحات الريفية المصرية في ذلك العصر، فخطر ببالي ان استخرج هذه الالفاظ وأدرسها مقارنا إياها بأشباهها في أقطار عربية أخرى، فصنعت معجما من تلك الالفاظ سميته (الفاظ ريفية مصرية من القرن السابع عشر)، ودفعته الى ناشر مصري فصدر في سنة 2014، وعرض في معرض القاهرة الدولي للكتاب في كانون الثاني من السنة التالية.



وبينما كنت اتصفح فهارس المخطوطات المحفوظة في جامعة الامـام محمـد بن سعود في الرياض، استلفتت نظري مخطوط فريد من القرن التاسـع للـهجرة، بخط مؤلفه، بعنوان (أعمال بلاد الديار المصرية)



وقد سقط اسم مؤلفه، ولم أجد سبيلا للحصول على نسخة من هذا المخطوط إلا بالاستعانة ببعض المواقع الالكترونية التي اعتدت على النشر فيها، وقد سعدت فعلا حينما وصلتني النسخة المنشودة، فوجدتها تمثل نصاً مهماً في إدارة مصر في عهد المماليك، ومعجما غير معروف بأسماء المدن والقرى فيها، فما كان مني الا ان حققتها وعلقت عليها، متتبعاً مواقع تلك المعالم على الخارطة الحديثة، ودفعت الكتاب الى الناشر نفسه، فصدر في السنة المذكورة وعرض في معرض القاهرة الدولي ايضا.

وحدث أني جردت، في صيف سنة 1989 مجلدات جريدة الزوراء المحفوظة في المكتبة الوطنية، والتي صدرت خلال الفترة بين من سنة 1869 الى سنة 1916، فلاحظت ان هذه الجريدة الرائدة لم تكن تعنى بتتبع أخبار العراق فحسب، وإنما كانت تتابع مختلف الشؤون العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لمنطقة الخليج العربي وشرقي الجزيرة العربية واليمن، من خلال مراسليها الذين كانوا بصحبة حملة مدحت باشا في الخليج سنة 1869 وحملات العثمانيين في نجد واليمن، فقررت أن أتخذ هذه التقارير موضوعاً لبحث أشارك به في مؤتمر خليجي سيعقد في مسقط، الا ان اندلاع حرب 1990، جعلني انصرف عن انجاز ذلك البحث، وبقيت مواده مركونة لدي، ثم التفت إليها مؤخرا، فعمدت الى نسخ تقارير اولئك المراسلين الرواد، وقمت بدراستها وتحقيقها وشرح ما غمض من ألفاظها، وقدمت لها بدراسة عن أهميتها واسلوبها، فلما استوت كتابا مستقلا وضعت له العنوان الاتي (الخليج العربي في تقارير مراسلي جريدة الزوراء) وعمدت الى نشره من خلال الناشر نفسه في القاهرة.

في التاريخ العسكري

ومن ناحية اخرى، فقد قرأت نسخة مصورة من مخطوطة طريفة العنوان هي(تعليم البلطجية)

ولما كانت محفوظة في مكتبة الامام محمد بن سعود ايضا فقد تمكنت من الحصول على نسخة منها بالطريقة نفسها، والمخطوطة عبارة عن كراسة تعليمية اصدرها اعدت لتدريب صنف البلطجية في جيش محمد علي في مصر، وتختص مهام هذا الصنف بحفر النفاق المؤدية الى القلاع واسوار الحصون من أجل دكها، فضلا عن اعمال اخرى، وهذه المهام لا صلة لها بمفهوم البلطجة الذي شاع في الاعلام العربي المعاصر بالطبع. وأهم ما في هذا المخطوط كثرة المصطلحات الاصلية والمعربة، فكان أن حققت المخطوطة ووضعت دراسة عنها نشرتها في أحد المواقع الالكترونية بعنوان (قراءة في مخطوطة تعليم البلطجية).

وصادف أن دعتني جامعة سوران، وهي جامعة أثيرة الى نفسي، لأن معظم مدرسيها ومدرسيها المساعدين هم من طلابي في جامعة صلاح الدين، الى المشاركة في اول ندوة كبرى تعقدها عن تاريخ رواندوز، لا سيما في عهد اميرها القوي محمد باشا ميركور، ولما كان هذا الأمير رائداً في صناعة المدفعية الثقيلة في عصره، سبق فيها معاصريه محمد علي باشا في مصر، وداود باشا في العراق، فقد اخترت ان أكتب دراسة في هذا الشأن بعنوان (ضوء على صناعة المدفعية الثقيلة في رواندوز)، ولم أشأ أن أكرر الفقرات القليلة التي اعتيد على كتابتها كلما تطرق أحد إلى هذا الموضوع، وإنما حاولت استقصاء الجوانب الفنية البحتة من هذه الصناعة، فقصدت ما تبقى من تلك المدافع، وتفحصت المكان الذي أنشئ

فيه مصنعها، ووقفت على خامات الحديد المتبقية فيه، وأجريت قياسات دقيقة للمدفع موضوع الدراسة، وقارنت بينه وبين المدافع التي صنعت في عصره نفسه، وما إلى ذلك من شؤون، وأدركت أن حبي للتاريخ العسكري قد استيقظ في داخلي فجأة، وكم تمنيت أن أستأنف هذا الحب في دراسات مقبلة، تتناول جوانب أخرى من هذا التاريخ الحافل بكثير من الأسئلة التي تنتظر من محبيه إجابات.

تكريم

لم أكن لأهتم بتكريم أحدٍ على جهد بذلته، بل ربما كنت أتحاشى ذلك أحياناً، وليس ذلك تواضعاً فحسب، وان كان هذا صحيحاً الى حد ما، وإنما لأن التكريم بحد ذاته يمكن أن يكون سبباً للحسد، او الإتهام بأنه ثمرة لممالأة السلطة، وكنت سعيداً بأني ظللت بعيداً عما كان كثير من الناس يتهافتون عليه، الى أن أتيحت لي مرة فرصة الإطلاع على ملفتي الشخصية في ذاتية الجامعة، فإذا بها قد ازدحمت بأكثر من خمسين كتاب تقدير وشكر، بينما خلت من كتاب (تنبيه) واحد، فحمدت الله على أني لم أسع الى واحدٍ منها، وإنما هي ثمرة شرعية لما بذلته من جهد ليس إلا.

وكان أبلغ ما حصلت عليه من تكريم في حياتي الاكاديمية اختياري من قبل مجلس الجامعة، ويضم عمداء كلياتها، أستاذاً أقدم على الكليات الإنسانية، وأستاذاً أقدم على كليتي، سنة 1997، فضلا عن عدد كبير من الشهادات التقديرية لمشاركاتي المستمرة في الندوات والمؤتمرات العلمية التي كنت أدعى اليها في جامعات بغداد والجامعات الاقليمية الأخرى، أما المكافآت المالية فكانت، بحمد الله، تضل سبيلها إليَّ!

وأذكر أن بائعاً للكتب كان يفترش بكتبه رصيف شارع المتنبي، سألني ذات مرة وهو يؤشر بيده الى عدة كتب لي كانت معروضة على (البَسْطة)، عما أحققه من أرباح نتيجة عملي في تأليفها، فأجبته: لا شيء يذكر، لأن معظم ما كنت أحصل عليه أعود فأنفقه على كتب أخرى، فتساءل مستغربا: ولم تؤلفها اذن؟ قلت متجاهلاً سؤاله: هل لديك أولاد؟ فنسي سؤاله في لحظة، وأجاب بأن لديه

ثلاثة منهم، فسألته عن أحوالهم، فشكى من عبء تربيتهم والعناية بشؤونهم، وسألته: وهل تقصر في حقهم؟ قال: لا، بل اسهر على إطعامهم وإسعادهم، فسألته: ولم؟، قال: لأني أؤدي رسالتي وحسب. قلت: لقد أجبت الآن على سؤالك، فأنا أسهر وأتعب وأنفق مثلك بالضبط لأن العلم رسالتي وحسب.

ومع ذلك فقد فوجئت يوماً، سنة 2011 وأنا أعمل في جامعة صلاح الدين، بدعوتي إلى حفل تكريم لي في المنطقة الخضراء ببغداد، ولم أكن قد دخلتها منذ الاجتياح الأمريكي للعراق، ولا أحب دخولها، ففكرت في الإعتذار، ثم اضطررت إلى الحضور، وهناك سلمني الدكتور ابراهيم الجعفري جائزة باسم (شيخ المؤرخين)، فتسلمتها، وخرجت من القاعة وأنا أحمد الله على السلامة أكثر من شكره على نيل تلك الجائزة. وفي سنة 2014 أراد اتحاد المؤرخين العرب تكريم عددٍ من المؤرخين، فكنب أحد هؤلاء، فكان أن أرسل مندوبين عنه إلى أربيل، وفي حفل اقيم في كلية الآداب، منحت وسام الاتحاد أو درعه أو شيئاً مثل ذلك.

وكنت أؤمن دائما بأن خير تكريم لي، ولأمثالي، هو أن يدعوننا نعمل بهدوء دون أن يمد احد أمامنا عصا تكون سببا لأن نعثر بها فنسقط، لأننا – ببساطة- لن نجد سعادة في العالم اكثر مما نحن فيه.

لي عدو!

لابد لي من الاعتراف أخيراً، أنه لم يكن لـي طيلـة حيـاتي مـن يمكـن أن أسميه عدواً، فلقد كنت أحب زملائي، وأقدر حتى أخطاءهم نحوي، إن كان ثمة أخطاء أصلا، ولا أحب أكثر منهم إلا طلابـي، الـذين كنـت أحترمهـم وأشـفق عليهم، وحينما رقيت إلى مرتبة الأستاذية، أقـام القسـم حفـلا صـغيرا، حضـره الزملاء جميعا، وطلبة الدراسات العليـا، وطلـب مـني أن ألقـي كلمـة بالمناسـبة، فاخترت أن أوجهها إلى الطلبة دون غيرهم، بوصفهم – كمـا قـدرت- الأحـوج إلى سماعها. قلت لهم: أننا علمناكم ما تعلمناه، ولم يبق إلا أن تتعلموا منـا مـا لم نعلمكم إياه، انها المحبة، المحبة الـتي لا يمكـن أن تكـون موضـوعا لمحاضـرة تملـى، ولكنها تقتبس اقتباسا كشعلة من نور، فتشع في قلوب المحبين، ها نحن أساتذتكم، تجمعنا من روابط المحبـة مـا لا تجدونـه إلا في الأشـقاء، لا نتنـافس في أمـر، إنمـا نتعاون في شؤون البحث كما نتعاون في شؤون الخـير، ونريـد مـنكم أن تكونـوا هكذا وأفضل، تحـابوا، تعـاونوا، تجـدون كـل شـيء قـد أصـبح أجمـل، وأدعـى للسعادة، تباغضوا لن تجدوا الأشياء إلا سوادا حالكاً، وأدعى للحزن. لقد كنت مخلصا في كل حرف قلته، وأظن أن احساسي الصادق هذا وصل إلى قلوبهم لأن بعضهم ذكّرني به بعد عدة عقود من السنين.

ولا أنس أن سـائق سـيارة أجـرة، (شـرّاني الخِلقـة)، كـان يقلـني في حـي الغزالية حيث أقيم، في مساء أحد الأيام التي تلت الإحتلال الامريكي، قـال لـي فجأة: حجّي، حجّي! عندك عدو تريـد أن تـتخلص منـه؟، فوجئـت بالسـؤال، وأجبته بالنفي، فألح بأنه لابد أن يكون لي عدو، ولـذلك فانـه سيخلصـني منـه

بأجر معقول (تنزيلات)، وادركت أنه كان جاداً لا هازلاً، كما خُيِّل لي أول لحظة، وأنه مجرد قاتل محترف يقتل بأجر، وأنه يبحث عن زبائن يدفعون له لقاء (خدماته) هذه. وبعد إلحاح منه غير مُجد، واعتذار مني غير مقبول، قلت له: والله تذكرت الآن، قال: خير؟ قلت: لي عدو فعلا، ولا أدري كيف أتخلص منه، وسأدفع لك إن كانت نهايته على يديك. قال: أما قلت لك انه لابد للانسان من أعداء، فمن هو؟ قلت: اسمه الشيطان الرجيم، فأنا ارجوك أن تخلصني منه و(أصير لك ممنون)، سكت لحظات وكأنه يفكر، وقال: لا، (هذي ثخينة) أي بالغة الصعوبة.

ملحق1

من هو المؤرخ؟

1 - بذل المؤرخون وفلاسفة التـاريخ، منـذ أن عـرف الإنسـان كتابـة التـاريخ، جهودًا جمة في مجال تعريـف (التـاريخ) وتوضـيح حـدوده، وتعـيين هويتـه ووظيفته، ومع ذلك فإن جهدًا مماثلًـا لم يبـذل في تعريـف (المـؤرخ) نفسـه، وهو الكاتب للتاريخ، من هو؟ ما صفاته؟ ما تميزه؟ ما هـي الاسـتعدادات الواجب توفرها فيه قبل أن يكون مؤرخًا؟ مع أن التـاريخ، بوصـفه علمًـا، هو نتاج عمل المؤرخ، وثمرة جهده، وممـا زاد هـذه الإشـكالية إشـكالًا أن مصطلح (المـؤرخ) - أي: رجـل التـاريخ - ينصـرف إلى معنـيين لا معنـى واحد، أولهما: أنه من يقوم بتسجيل الحدث سـاعة وقوعـه، والثـاني: مـن يكتب التاريخ مستندًا إلى شهادات أولئك (المسـجلين)، ولا يتسـع تعريـف المؤرخ للمعنيين معاً؛ فالمؤرخ بمعنى (المسجل للتاريخ) هو شـاهد عيـان، لا أقل ولا أكثر، يكتب شهادته عما رآه أو سمع به ويمضي، والمـؤرخ بـالمعنى الآخر هو باحث في شهادات غيره، لا يحـق لـه أن تكـون لـه شـهادته بـين الشهود؛ فهو قاضٍ يقضي مستندًا إلى ما بين يديه من شهادات، ولا يحق له أن يترك منصته فيفقد حيدته حين يدلي بشهادته مثـل سـائر الشـهود، ولـو فعل لما أصبح قاضياً أصلاً، أو بمعنى آخر: لا يصبح مؤرخـاً بـذلك المعنـى الذي ذكرنا.

2 - إن اتساع مصطلح المؤرخ ليشمل نـوعين مـن المـؤرخين يختلـف دور كـل منهما عن الآخر، من شأنه أن يخلط بين الدورين خلطاً عجيباً، من ذلك أن

جميع من كتب عن علم التاريخ حدد مواصفات المؤرخ (الشاهد) على نحو لا يمكن أن ينطبق إلا على المؤرخ (الباحث) دون غيره؛ فهم يطلبون منه أن يكون محايدًا حيدة مطلقة تجاه الحدث الذي جرى تسجيله، نزيهًا عن الغرض، سليمًا في حواسه وفي ميوله، ودقيقًا في وصفه، متحليًا بخُلق عالٍ قد لا يوجد إلا في الأنبياء والندرة النادرة من أهل التقى والصلاح، وهذه الأوصاف لا يمكن أن تنطبق على الشاهد، ولا ينبغي أن تنطبق عليه؛ لأنهم يتناسَوْن أنه قبل أن يكون شاهدًا هو مجرد إنسان انفعل بحدث يعنيه فسجله، ولو لم ينفعل به لما سجله أصلًا، والانفعال يعني - ضمنًا - التحيز لطرف أو لأطراف فاعلة للحدث، وأن يتأثر بها وبموقفها، بل أن يكون مشاركًا في صنع الحدث نفسه؛ فالتاريخ علم الإنسان، أو علم ماضي الإنسان، وكل منهما نتاج لانعكاس صورة الآخر عليه، فلا يمكن أن يكون الشاهد قاضيًا محايدًا بأية حال، وإلا يكون خارج إطار إنسانيته، وهو محال.

3 - أما المؤرخ الباحث في التاريخ، فهو قاضٍ يقف خارج الحدث بمسافة زمنية تقيه من مغبة التحيز إلى أيٍّ من أطراف الحدث، وهو كالقاضي عليه أن يترجل عن منصة القضاء إن وجد نفسه، أو وجده الناس، متحيزًا غير منزهٍ في متابعة القضية المطروحة أمامه، وعلى خلاف ما أبيح للشاهد، فإن القاضي، أو الباحث هنا، باحث عن الحقيقة؛ فهو الذي عليه أن يطالب بالحيدة والنزاهة والصدق.. إلى غير ذلك من صفات القضاة الحميدة، إنه يستقصي شهادات الشهود، أصحاب الروايات المعروضة أمامه، يقارن بينها، ويتأمل جزئياتها ببرودة أعصاب، ليتوصل إلى الحقيقة، فلا يختلف عمله هنا عن عمل القاضي إلا بفارق واحد، وهو أنه يتعامل مع شهادات مات أصحابها، فلم يعد ممكنًا مراجعتهم فيما شهدوا به، ولكنه مع ذلك

قادر على أن يتفحصها، ويتعرف على ما هو صحيح أو أقرب إلى الصحة منها، أو نبذها أحيانًا، إن اتبع في ذلك قواعد علم التاريخ، أو ما سُمِّي منهج البحث التاريخي، وهو مثل القاضي، يستطيع أن يفتح ملف أي قضية تاريخية، إذا توفَّر له من الوثائق والمصادر الجديدة ما من شأنه أن يغير نتائج الأحكام، أو القناعات السابقة.

4 - الباحث في التاريخ، بعد رحيل الشهود، هو ما نحتاج إلى التعرف على هويته، وخصائصه، وملكاته الموهوبة، أو استعداداته الفطرية؛ لأنه هو الذي يقرر الأحكام، وحين يقال: إن فلانًا أو فلانًا هو في ذمة التاريخ، فالمقصود أنه في ذمة القضية التي ينظرها المؤرخون بعد حين لا نعرفه، فيستنطقون الشهادات، ويقارنون بينها، ويستعينون بقواعد العلم؛ علَّهم أن يصلوا إلى ما يقرب من حقيقة ما حدث فعلًا، ومن المؤكد أن رجلًا يتولى هذه المهمة لا بد أن تجتمع فيه من الخصائص والمواهب والاستعدادات ما يستحق البحث، وهو ما نعتقد أنه ما زال في حاجة إلى مزيد من الجهد، يساوي الجهد الذي بذل في درس التاريخ نفسه.

5 - من هو هذا المؤرخ إذًا؟ إنه في نظرنا ليس رجلًا درس التاريخ، أو حتى قضى عمره في دراسته، وكفى، إنما هو رجل ملك من الاستعدادات النفسية ما جعله مؤهلًا للكشف عن خفاياه، وتقرير أحكامه، إن المؤرخ هنا (تكوين خاص) لا يشبهه فيه أحد من أولي الاختصاصات الأخرى، وإن هذا التكوين في أساسه فطري، موجود فيه قبل أن يتجه إلى درس التاريخ على أي مستوى من مستويات الدرس، وأتذكر أن أحدهم سأل أستاذه: ماذا أفعل لأكون مؤرخًا؟ فقال له ذلك الأستاذ: عليك بقراءة كذا وكذا من كتب المؤرخين، مع أننا نعلم أن السائل لو فعل ذلك، وقرأ كل كتب

المؤرخين السالفين، ما صنع ذلك منه مؤرخًا بأي حال، وكان الأولى بالأستاذ أن يسأله قبل كل شيء: وهل تملك استعدادًا فطريًّا لكي تكون مؤرخًا؟ هذا حتى يجنبه تضييع وقته وتبديد جهده في قراءة الأسفار المطولة دون جدوى.

6 - إن أول هذه الاستعدادات أو المواهب أن يكون الباحث في التاريخ ذا رؤية أو بصيرة نافذة، قادرة على النفاذ إلى الماضي؛ فالتاريخ ليس إلا علم دراسة الماضي، ومن يعجز عن تحقيق ذلك النفاذ لن يكون مؤرخًا مهما فعل، إنه يستطيع أن يجمع الروايات التاريخية، أو شهادات الشهود، في بحث أو كتاب، لكنه لن يتجاوز ذلك الجمع إلى فهم ما وراءه، ومن ثم لا يستطيع التوصل إلى أي قناعة، أو تقرير أي حكم، وبالطبع فإن المؤرخ، كسائر البشر، محدود بزمانه، فتجاوزه حدود زمانه إلى زمان مضى ليتصوره ويتخيله، لا بد له من قدرات فائقة لا تتوفر لدى غيره من الناس.

7 - ربما كانت كلمة (الماضي) توحي بمضي الحادثة الماضية (والحادثة هي الوحدة الصغرى في التاريخ)، فمضي الشيء ذهابه وزواله، ولكن الماضي من الحوادث لا يذهب ولا يزول، مهما باعدت المسافة الزمنية بيننا وبينه، إنما هو يتوارى وراء الواقع من الحوادث الحاضرة، التي تتراكم عليه لحظة بلحظة حتى لا يعود يرى، والماضي لا يمضي، وإنما يبقى حاضرًا من خلال ما يعقبه من حوادث، بمعنى أنه يعطينا شكلنا وسلوكنا، بل ويحدد اتجاهات مستقبلنا؛ ذلك أنه كامنٌ فينا، بل كامن في كل شيء حولنا، لا تحجبه عنا إلا قشرة رقيقة من (الحاضر)؛ فالحاضر لا يكون حاضرًا لو لم يستند إلى ماض، وهذا الحاضر نفسه سيكون (ماضيًا) في كل لحظة تمر بنا، ومهمة

المؤرخ هي إزالة هذه (القشرة) لينفذ بنظره إلى مـا تسـتند إليـه مـن مـاضٍ كامن.

8 - ليس من فرق إذًا بين الماضي والحاضر سوى (لحظة) من زمن، وحتى هذه اللحظة ليست متولدة من داخل التاريخ؛ أي: ليست نتاجًا لـه، وإنما هـي نتيجة الساعة الخارجية للزمن؛ فالتاريخ بماضيه وحاضره ومسـتقبله أيضًـا، تجربة واحدة لا تنقسم ولا تتجزأ، وهو موجود فاعل مؤثر، حتى لو لم يعـد الناس يرونه.

9 - يستطيع المؤرخ إذًا أن يرى ما لا يراه الآخرون؛ لأن أي قشرة من الحاضر لا تعجزه عن إنفاذ بصيرته إلى ما وراءها، قـرُب مـا وراءهـا عنـه أو بعُـد، وربما قال بعضهم: إن أي إنسان يسـتطيع أن يفعـل ذلـك إذا أحـاط علمًـا جيدًا بالماضي، عن طريق استقصاء (شهادات) الماضين ودراستها على وفق منهج البحث التاريخي، ونقول: إن جزءًا من هذا القول صحيح فعلًا؛ إذ لا بد للمؤرخ أن يبدأ عمله متبعًا قواعد هذا المنهج، بـل لا طريـق لـه سـواه؛ فهذا المنهج قد استقر عبر تجارِب المئات من المؤرخين، ولكن سلوك الطريق لا يؤدي إلى غايته، إلا إذا توفر شيء يختص به المؤرخ، ويوجد فيـه وحـده الاستعداد له.

10 - وأول هذه الاسـتعدادات أن يكـون ذا خيـالٍ واسـع، وقـد تصـدم هـذه الكلمة القارئ؛ لتصوره أن انضباط المؤرخ بالنص - أي: شهادات الشهود التي بين يديه - يتقاطع مع انطلاقة الخيال، ولكنه هنا خيال منضـبط تمامًـا، خيال مختلف عن الخيال السـائب؛ لأنـه لا ينطلـق إلا بعـد اسـتنفاذ مـنهج البحث قواعده؛ من درس دقيق لكل تفاصيل الحدث، فينطلق ليرى الحيـاة

قد دبت في الصورة الجامدة للماضي، مما توصل إليه عبر ذلك المنهج، وإن لم يرَ مؤرخٌ الحياة وهي تتحرك في شخوص الماضي، فلن يستطيع أن يرى الماضي وهو يتحرك، ومن ثم يبقى ما جمعه مجرد معلومات، حتى لو كانت صحيحة في ذواتها، لكنها تفتقر إلى اللحمة، أو العلاقات، التي تصل بينها وبين بعضها لتكون صورة مفعمة بالحياة، قابلة لوصفها وتسجيلها، الحياة إذًا هي الغاية التي يسعى المؤرخ لإدراكها في الصورة التي يتوصل إليها من خلال اتباعه المنهج، ولكن هذا المدرك يبقى بعيدًا؛ لأن هذه (الحياة) أمر لا يمكن أن يدرك إلا بقوة خيال نافذ ينطلق إلى نص لا حِس فيه، فتتمثل شخوصه أحياء يتحابون ويكرهون، يتعاونون ويتباغضون، وتحركهم سائر النوازع الإنسانية، فيفهم حين ذاك مبررات أفعالهم، وردود أفعالهم، بل وسلوكهم كله، فيؤدي به هذا إلى فهم حركة التاريخ، أو إن شئت: روح التاريخ لا قشرته، وإذا كان الخيال ضربًا من (الخلق)، كما قال بعض الصوفية المسلمين (1)، فإن المؤرخ بتخيله للماضي يقوم بإعادة (خلق) شخوصه، وظروفه، وعلاقاته؛ لأنه لو لم يفعل، لا يمكنه أن يرى، وأن يصف ما يراه، وكلما تمتع مؤرخ بخيال أكثر قوة وتركيزًا، أصبح أكثر قدرة على رؤية موضوع درسه، فيكتب عنه وكأنه حاضر أمامه، وبذا يستطيع أن ينقل صورته إلى قرائه، وإن لم يفعل تلاشت هذه الصورة، أو بدت باهتة في أحسن تقدير؛ لأنها ستكون مفتقرة إلى الحياة نفسها، وبتعبير آخر لا روح فيها، وإذا كانت الطائرات لا تقلع إلا بعد أن تستنفد آخر متر في (مدرجاتها) ثم تنطلق محلقة بعده، فكذلك هو المؤرخ، إنه يستنفد قواعد المنهج كله حتى آخر قاعدة فيه، فيجمع ويقارن وينقد ويحلل ويجتهد ويستنتج ويصوغ، ثم يجلس ليتأمل بهدوء ما فعله، فإذا ما حلق عاليًا،

انقشعت أمام بصيرته حجب الزمن، فيرى ما درسه وهو ماثـل أمامـه، ولا يكون ذلك إلا بقدرة هائلة على البصر، وذلك مـا يتمتـع المـؤرخ بـه دون الناس جميعًا.

11 - فإذا ما تراءى له الماضـي حيًّـا متحركًـا أمامـه، أمكنـه أن يتجـاوز مجـرد (الرؤية) إلى (الإحساس) بهذا المرئي، وهذا بدوره موهبة، أو استعداد آخر يختص به؛ إذ كيف يمكن لإنسان حاضر أن (يُحِسَّ) بماضٍ يبدو أنه قضـى، ما لم تتوضح صورته أمامه حتى تبدوَ وكأنها تتنفس الحياة؛ فالمؤرخ له قدرة على الإحساس بالأموات وكأنهم أحياء أمامه، لسبب بسيط، هو أنه تجـاوز موتهم إلى حياتهم؛ فالفرق بين الحياة والموت عنـده فـارق ضـئيل لا يكـاد يحس، وهو حين يدرس شخصية قائـد أو عـالم أو مجـرم أو إنسـان عـادي، مات منذ عشرات أو مئات السنين، فإن صورة هذا الإنسان تنهض (حيـة) أمامه وكأنـه قـد عـاش معـه، أو كأنـه لم يفـارق الحيـاة إلا قبـل دقـائق أو ساعات، وبمعنى آخر: تلاشت أمامه حجب الـزمن لـيرى مـا وراءهـا مـن حياة دافقة، وحينئذ فقط يستطيع أن يفهم ذلك الإنسانَ على نحوٍ قريب من حقيقته، وما اتصل به من حوادث على نحو أقرب إلى ما جـرى، فـنحن لا نتصور أن يفهم مؤرخ إنسانًا أو حدثًا ما لم يكن قد حقق نوعًا مـن الرؤيـة له، تصل أحيانًا إلى حد (الإحساس) بـه، فـإذا كتـب عـن الحيـاة في مدينـة بغداد مثلًا في العصر العباسي، توضحت له، بعد درس دقيق وتأمـل نافـذ، دروبها وقصورها ومساجدها ومدارسها، وأحس بحركة الناس يسعون بـين معالمهـا، وسمـع أصـوات الخلفـاء في قصـورهم ومحافلـهم، والعلمـاء في مدارسهم ومجالسهم، بل والباعة في أسـواقهم، وإذا كتـب عـن القـاهرة في عهـد المماليـك، توضـحت لـه هـذه المدينـة بخططهـا وحاراتهـا، وأبوابهـا

وأسواقها، وتجلى أمام ناظريه المماليك وهم يمتطون شامخين صهوات جيادهم، وتلامعت أمامه زينات أزيائهم الفخمة، ووصل إلى سمعه أصوات سنابك الخيل وهي تضرب على أديم المدينة، وتراءت له في الوقت نفسه فئات من طبقات السكان الأخرى، تجارًا وعلماء وصناعًا وشحاذين، يتحدثون ويتجولون ويمارسون حياتهم العادية، فـ(يتجلى) أو (يتمثل) شيء مما أحس به من هذا كله في بحثه، وإلا سيكون ما يكتبه إثباتًا لنصوص جامدة لا حياة فيها، ومن ثم تبقى ناقصة؛ لأنها تفتقر للحياة.

12 - وإذا كان للمؤرخ قدرة على الاقتراب من الصورة التاريخية إلى هذا الحد، فإن له قدرة عجيبة على أن يبقى بعيدًا عن تلك الصورة؛ لئلا يصل به القرب إلى حد الاندماج بها، فيكون طرفًا فيها، وهذا ما يمكن أن يتحقق لدى القارئ العادي؛ فالخيال قد يؤدي بهذا القارئ، الخالي من الاستعداد الفطري للمؤرخ، إلى أن يُسقِط عصرًا رآه بخياله وحِسه على العصر الحاضر الذي يعيش فيه، عادًّا نفسه أحد الموجودين في ذلك العصر، تاركًا لنفسه أن تتشرب قيمه ومفاهيمه، وربما شكله ومظهره، فتراه يتحمس لما انحاز إليه تحمسًا هائلًا، ويعادي من لم يجد نفسه منحازًا إليه، نظير ما صوره لنا الأديب الإسباني سِرفانتس في رائعته (دون كيخوته)، وهذا ما نسميه (إسقاطًا)، وهو ليس إلا سوءَ فهمٍ قبيحًا للماضي، حتى لو حقق شيئًا من الاقتراب منه، أما المؤرخ فهو وإن كان قادرًا على النفاذ إلى ذلك العصر والاقتراب منه والإحساس به، كما مر بنا من قبل، فإنه، وهذا استعداد آخر فيه، قادر على ضبط المسافة بينه وبين موضوع درسه؛ أي ألا يصبح جزءًا من الصورة التاريخية، إنه يرى الصورة بوضوح، ويحس بها مفعمة بالحياة، لكنه لا يستطيع أن يكون مجرد جزء منها، أو طرف فيها، لسبب واحد، هو

أنه لو أصبح جزءًا منها، لما استطاع أن يرى إلا ما أمامه من جزء، ولانحاز إلى هذا الطرف أو ذاك، فيفقد قدرته على الإحاطة بالعلاقات التي تصل بين سائر أجزائها، ومن ثم رؤية الصورة رؤية شاملة محيطة بخطوطها وكتلها وألوانها، كما يقول التشكيليون، إنه سيرى لونًا دون سائر الألوان، وخطًّا بعيدًا عما يشتبك به من خطوط، وكتلة لا صلة لها بما يتداخل معها من كتل، وسيحرم – من ثم – من فهم الصورة كلها، أو جزء منها.

13 – وإذا كانت المسألة تبدو معقدة، وربما مستحيلة، لدى الناس العاديين، فإنها ليست كذلك لدى المؤرخ؛ لأنه كالقاضي يستطيع أن يحقق اقترابًا متفهمًا من كل من يمثل أمام منصته من المتهمين والشهود، وفي الوقت ذاته في وسعه أن يحتفظ بنفسه بعيدًا عن الانحياز إلى أي طرف ماثل أمامه، على أن المؤرخ – فوق هذا – قادر على أن يغوص في الصورة التاريخية، فتعيش فيه ويعيش هو فيها في نوع من اتحاد صوفي، وفي الوقت نفسه، تجده يحلق فوقها بارتفاع يمكنه من الاحتفاظ برؤية واضحة ومستوعبة للصورة بكل أبعادها، إنه يختزل هنا المسافة بين القُرب والبُعد، ولا يشبهه في ذلك إلا الفنان التشكيلي، فهو حين يرسم لوحة تجده يعيش في تفاصيلها، يكاد يلتصق بها، وتعيش هي في وجدانه قريبة من أعماقه، أو معبرة عنها، وهو في الوقت نفسه تجده يقف بين حين وآخر بعيدًا عنها ليتأمل ملامحها وليكتشف العلاقة بين مكوناتها؛ من خط وكتلة ولون، وإذا كان ثمة فرق بين صنيع التشكيلي والمؤرخ، فهو أن المؤرخ لا يحتاج إلى أن يغادر موقعه بين حين وآخر، قربًا وبُعدًا، وإنما هو يعيش اللحظتين معًا؛ فهو قريب وهو بعيد في آنٍ واحد، وعلى سبيل المثال، فإنه لو كان يبحث في تاريخ الأحزاب في بلد ما، ووجد نفسه ميالًا إلى أحد هذه الأحزاب، فَقَدَ حيدته؛

لأنه لم يعد يرى إلا هذا الحزب الذي انتمى إليه في وجدانه، وللمؤرخ استعداد لأن يختزل المسافة بين الذات والموضوع؛ فهو يمكن أن يكون ذاتيًّا وموضوعيًّا في آن واحد، ذاتيًّا في قدرته على استبطان الموضوع من داخله، ليكون أقرب فهمًا له، وموضوعيًّا في قدرته على رؤية الذات من خارجها ليتبين علاقاتها مع الذوات الأخرى، وبحسب قدرة المؤرخين على اختزال المسافة بين الأمرين، تتباين مكنتهم في كتابة التاريخ جودة وضعفًا.

14 - ولا يمكن للمؤرخ إلا أن يكون هادئًا بطبعه، بعيدًا عن الانفعال، وهذا الهدوء هو في حقيقته استعداد آخر في شخصيته لدرس التاريخ، وفي اتخاذ أحكامه، وفي فهمه للجزئيات التي تتجمع أمامه؛ فالتاريخ علم إنساني، ومجرد فهمه يعني أن على المؤرخ أن يكون قريبًا من تجربة الناس الذين يكتب عنهم، فهذا القرب شرط لاحترامه إياهم، والاحترام بدوره شرط لتفهم سلوكهم في الماضي، ومن ثم كتابة تاريخهم، وكما أن القضاة يتفهمون السلوك الذي أدى بالمذنب ليرتكب ما ارتكبه، فإن المؤرخ يتفهم - بيُسرٍ ملحوظ - سلوك شعب في لحظة من تاريخه بما أدى به إلى نصر محقق أو هزيمة منكرة، فلو كتب مؤرخ تاريخ الصين مثلًا، كان عليه أن يدرس البوذية والكونفوشيوسية؛ لأنه دون فهم هاتين الديانتين لا يمكن أن يحقق اقترابًا من سلوكيات الإنسان الصيني في الماضي، وهكذا الحال إذا درس أي شعب في العالم، على أن استعداده كمؤرخ يأبى عليه أن يكون طرفًا، ضد أو مع، هاتين الديانتين؛ فاقترابه هذا لا يعني أن يكون له موقف شخصي من أتباع هذه الديانة، وذلك الشعب، وإنما مجرد فهم أعمق لسلوك كل منهما؛ولذلك كان المؤرخ بطبيعته بعيدًا عن التحيز والتطرف، وهو أميل إلى الهدوء في اتخاذ الأحكام، والاتزان في تكوين القناعات، وقد

ينسحب هذا الهدوء والاتزان على سلوكه في حياته، كما ذكرنا، ربما كان الإعلاميون والسياسيون أكثر الناس انفعالًا في أحكامهم؛ لأنهم يعيشون في الحاضر وحده، بأزماته وحروبه وصراعاته ومشاكله، إلا أن المؤرخين هم أهدَؤُهم، وأبعدهم عن التعصب؛ فهم لا يبحثون في الحدث وقت حدوثه، ومن ثم لا ينفعلون، ولا يتأثرون، وإنما يصبرون عليه حتى إذا ما برد تمامًا، ولم يعد له تأثير على حاضرهم، تناولوه بالبحث بأيدٍ هادئة، وتدبروه على وفق منهج علمي محدد، ثم مضَوْا في تأمله بهدوء أيضًا للنفاذ إلى حقيقة ما حدث، لا أكثر ولا أقل؛فالإنسان العصابي أو الانفعالي لا يمكن أن يكون مؤرخًا بأي حال.

15 - وعلى الرغم من الهدوء الذي يتحلى به المؤرخ، فإنه ميالٌ إلى الشك فطرة فيما يقرأ ويسمع، فهو بخلاف كثيرين لا يميل إلى تصديق كل رواية، والأخذ بكل نص، والشك بوجه عام يسعده؛ لأنه سبيله إلى إحساسه بذاته أولًا، فثقته بذاته لا تتحقق إلا بنقص ثقته بما يرويه الآخرون، مما يشكل دافعًا أساسيًّا لنقدِهِ مصادرَه؛ فهو لا يتورع عن اتهام شاهد بالكذب، أو التزوير، أو الجهل، وهذا ما سماه المعنيُّون بمنهج: البحث بالنقد التاريخي، وصحيح أن مصطلح النقد ظهر في الدراسات التاريخية قبل قرنين، ووصل إلى بلادنا في مطلع القرن الماضي فقط، إلا أن النقد نفسه كان موجودًا منذ أن بدأت كتابة التاريخ، أخذ به المؤرخون عمليًّا في كتاباتهم في كل العصور، ودليلنا على ذلك أن اقتصارهم على تسجيل روايات بذاتها كان لثقتهم برواتها، ويعني هذا أنهم تركوا غيرها مما لم يثقوا به وبرواته، فلا يكون المؤرخ مؤرخًا ما لم يكن يملك من الجرأة ما يدفعه إلى طرح رواية لشكه بقائلها، أو أن ينتخب منها ما يراه صدقًا ويلقي ما عداه؛ لقلة ثقته

بذلك، ونعتقد أن النقد يمثل أحد الاستعدادات الفطرية لدى المؤرخ، فما أن تروي رواية إلا فاجأك بسؤال يعلن فيه عن شكه، مثل: ومن قال لك ذلك؟ وكيف لك أن تعرف ذلك؟ فالشك مجبول في طبيعته، وهو يمارسه في عمله طالما أن عمله سينتهي إلى إصدار أحكام، وتوصل إلى قناعات.

16 - ونظرًا لأن المؤرخ يميل إلى الهدوء والحيدة في أحكامه، فهو كالصوفي لا يفرحه ولا يحزنه ما جرى أمامه من حوادث الماضي، ولا تهمه النتائج إلا بوصفها مقدمات لنتائج أخرى تنبني عليها، إنما تكمن سعادته بتتبعه حركة التاريخ بحد ذاتها، وربما اعتراه وهو يتابع هذه الحركة - اقترابًا تارة، وبُعدًا وتحليقًا تارة أخرى، تسارعًا مرة وتباطؤًا مرة غيرها - ما يُشبه حالة من الوجد الصوفي، حالة استغراق ممتع، يقطعه عما حوله من حاضر، وهو في ذلك يشبه المتابع لفيلم يشاهده، يستهويه ويبهره، بغض النظر عما في الفيلم من مشاهد تدعو إلى الفرح أو إلى الألم، إنها نشوة نادرة ربما لا يحسها إلا المؤرخ وحده، وهذه النشوة هي المكافأة السخية التي يحصل عليها لما يبذله من جهد مُضْنٍ في مجال عمله الذهني.

17 - والمؤرخ لا يكتفي بأن (يرى) الماضي المختبئ وراء قشرة الحاضر فحسب، وإنما هو يسعى - سعيدًا- إلى إشراك قارئه بهذه الرؤية، بتقديم ما رآه على هيئة (صورة) يمكن أن يراها أي قارئ؛ ولهذا فهو هنا يمتلك استعدادًا خاصًّا لأن يكون (تشكيليًّا)، بغض النظر عن طبيعة ما يشكله، فهو قادر على أن يعيد تشكيل شخوص الماضي، بل الماضي نفسه، دون أن يتعارض هذا مع تقيده بمنهج البحث التاريخي، بل ينسجم معه إلى حد بعيد؛ لأننا ما دمنا كنا نتحدث عن صورة تاريخية، فإن هذه الصورة لا تتكون إلا بإعادة تشكيل الشخوص المكونة لها، والفارق الوحيد بين عمل

الفنان التشكيلي وعمل المؤرخ: أن الأول يرتب ألوانه على لوحة خاصة بيده، ويشرع بمزج الألوان على النحو الذي يريد أن تظهر فيه الصورة الفنية التي يرسم، أما المؤرخ فإنه يمزج بين الحقائق التي دله عليها منهج البحث؛ أي: يكتشف العلاقات بينها، ليشكل منها الصورة التاريخية التي يكتب، فهذا المؤرخ لا يملك استعدادًا فطريًّا لأن يكتشف العلاقات المركبة بين مكونات الماضي فحسب، لكنه يمتلك استعدادًا آخر ليعيد تشكيل هذه المكونات بجرأة الفنان وهو يضرب بفرشاته على قماش لوحته متوخيًا أن تأتي الصورة على وفق رؤيته للواقع الذي يراه، بأي صورة من صور الرؤية، فالجرأة في (التشكيل) تمثل واحدًا من أهم استعدادات المؤرخ الفطرية، ومن دونها لا يستطيع أن يشرك الآخرين، وهم قراؤه، في رؤية ما يراه هو، وما يحسه، ومن هنا فإنه يمتلك استعدادًا كامنًا لتصور أكثرَ من بداية للحدث، وأكثرَ من نهاية، وأكثرَ من مسار واحد، وبذا فإنه يمتلك قدرة على إعادةتشكيل الصورة التاريخية الواحدة غير مرة، وهو هنا يقرب من أن يكون كاتب سيناريوهات عدة لقصة واحدة، وهو يقدم في النهاية لقرائه السيناريو الأكثر إقناعًا بأنه القريب مما حدث فعلًا.

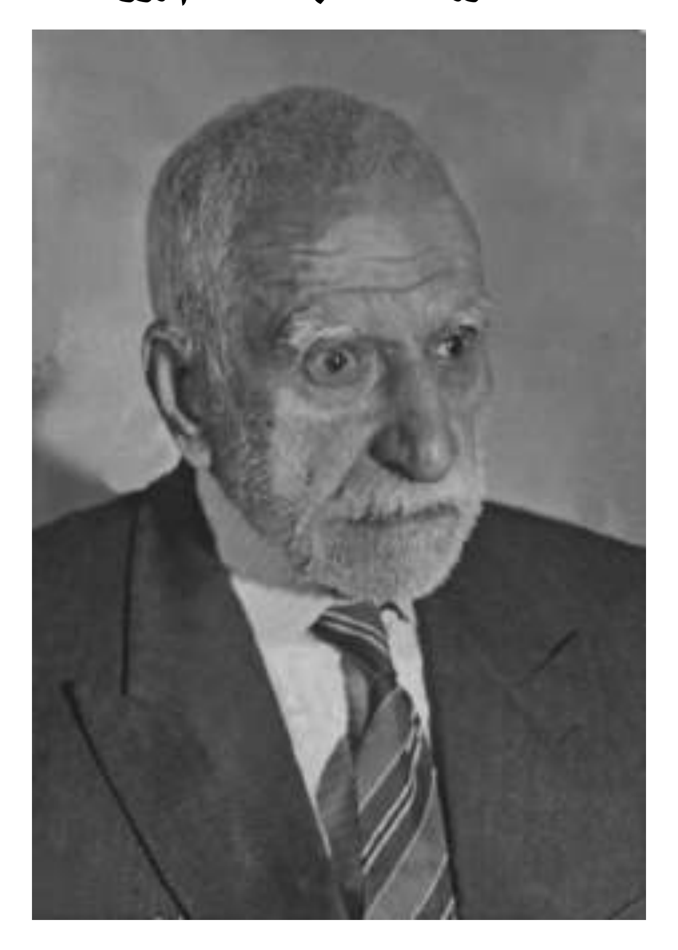
18 - وبالطبع، ليس كل إنسان له استعدادات مما ذكرنا، هو بالضرورة مؤرخًا، ولكن بدونها لا يصبح الإنسان مؤرخًا، ولا يتفاضل المؤرخون إلا بها، وعلى الإنسان أولًا أن يكتشفها في نفسه قبل أن يفكر بأن يكون مختصًّا بهذا النوع من الدراسة.

---

(1) يجب ألا يختلط هذا الاصطلاح بالمفهوم القرآني للخَلق الذي يختص به تعالى وحده

صور

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف



المحامي والاستاذ رؤوف العطار جد المرحوم الدكتور عماد وهو من مواليد 1878 / توفي 1965 في محلة باب النبي بالموصل كان مدير المدرسة الثانوية بالموصل ومدير معارف المنطقه الشمالية الموصل اربيل كركوك السليمانية وبعدها مدير معارف البصرة وتضم العمارة والناصرية والديوانية وعمل في المحاماة



الاستاذ المحامي عبد السلام رؤوف والد الدكتور عماد شغل منصب مـدير الحسابات والميزانية في وزارة الداخلية وكان ايضا مهندس تخطيط مدن حيث هو اول من اسس بلدية دبي بايفاد من الحكومه العراقية سـنة 1956 كخـبير دولـي وانشاء اول قانون خاص للامارات العربية غير عن القانون العراقي او المصـري في حينها



وزارة الشؤون البلدية والقروية

ديوان الوزارة

الاسم عبد السلام موفق العطار

الوظيفة مدير الحسابات والميزانية

العنوان حي الداخلية

توقيع صاحب الهوية وزير الشؤون البلدية والقروية



اخوة الدكتور عماد على اليمين اللواء الركن نزار والاستاذ الحاج عصام



على اليسار الجالس جد الدكتور عماد اب والدته سعيد افندي رئيس كتاب وزارة المالية من مواليد 1874 وخال الواء الركن امر الكلية العسكرية عبد القادر والاستاذ يوسف و الخال منير استاذ في الكلية الحربية الملكية



دفعة تخرج كلية الاداب سنة 1969 ـ 1970



الدكتور عماد مع مجموعة من المؤرخين والعلماء في كلية الاداب



في احدى مناقشات الدراسات العليا



الدكتور عماد مع فضيلة امام وخطيب الجامع الازهر 2008 وعلى اليمين الاستاذ عثمان المفتي مستشار وزارة الاوقاف



الدكتور عماد عبد السلام مع الدكتور جمال الدين الكيلاني

مقدمة

ليست مهمة الكتابة في سيرة فذة، متعددة الجوانب، كسيرة السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني - قدس الله سره العزيز - ميسورة، ممهدة، مهما أوتي المتصدي لها من أسباب القدرة والمُكنة، فهذا! الانسان الكبير استطاع - بخلق وعزم نادرين - أن يتحدى عصراً بكامله، يموج بأنواع من التناقضات الاجتماعية، وضروب من الاضطرابات النفسية والسياسية والاقتصادية، فقدم لمريديه وتلامذته البديل الأفضل لمتناقضات ذلك العصر ومشاكله العديدة، ودلّ أبناء عصره، والعصور التالية، على طريق السلامة والنجاة من أدران الواقع وأشواكه الخطرة.

ولم تكن عظمة الشيخ تكمن في مبادئ مثالية مطلقة كان يدعو اليها فحسب، وانما في فهمه العميق لمجتمعه، وللمجتمع الانساني بوجه عام، وإدراكه جوهر المشاكل الأساسية التي يعاني منها ذلك المجتمع، فهو على رغم زهده وقناعته الكاملة، لم يقف موقف الضدّ من الحياة، بما تستوجبه من سعي في سبيل الرزق، وسيطرة على أسباب الدنيا، بل انه أكد على ضرورة العمل من أجل ان يضع الانسان (الدنيا بين يديه) ولكن مع ملاحظة الا تنتقل الى قلبه فتفسد ذلك القلب، وتقطع أسباب اتصاله بالله سبحانه وتعالى، وهذا - لعمري - فهم للاسلام صحيح، وادراك عميق لجوهره ومعانيه.

ولقد توضح لدى الناس، منذ أن غادرهم الشيخ ملتحقاً بالرفيق الأعلى، ضرورة تسجيل معالم سيرته الطيبة، لتكون نبراساً تفيد منها الاجيال، وقدوة يتأسى بها السالكون في طرق الحياة، فانبرى عدد غير قليل من المؤلفين والمصنفين الى جمع أخباره، والتقاط شوارد مواقفه وأحواله، ليؤلف صنيعهم كتباً ورسائل مهمة تناقلها الناس وكانت موضع احترامهم وتقديرهم، بل وجدنا في كل عصر من ينبري الى إعادة كتابة سيرته وجعلها موضوعاً يفيد منه أهل ذلك العصر.

وفي العقود الأخيرة من السنين أصبحت سيرة الشيخ محوراً لعدد من الرسائل الجامعية تناول أصحابها فيها جوانب حياته الثرة، بما تضمنت من دين وفكر وتعليم وأدب.

والكتاب الذي بين أيدينا يقف شاهداً آخر على إعجاب الجيل الجديد من أبنائنا بهذه السيرة الوضاءة، واحساسهم بأهمية تعاليم صاحبها في هذا العصر أيضاً.

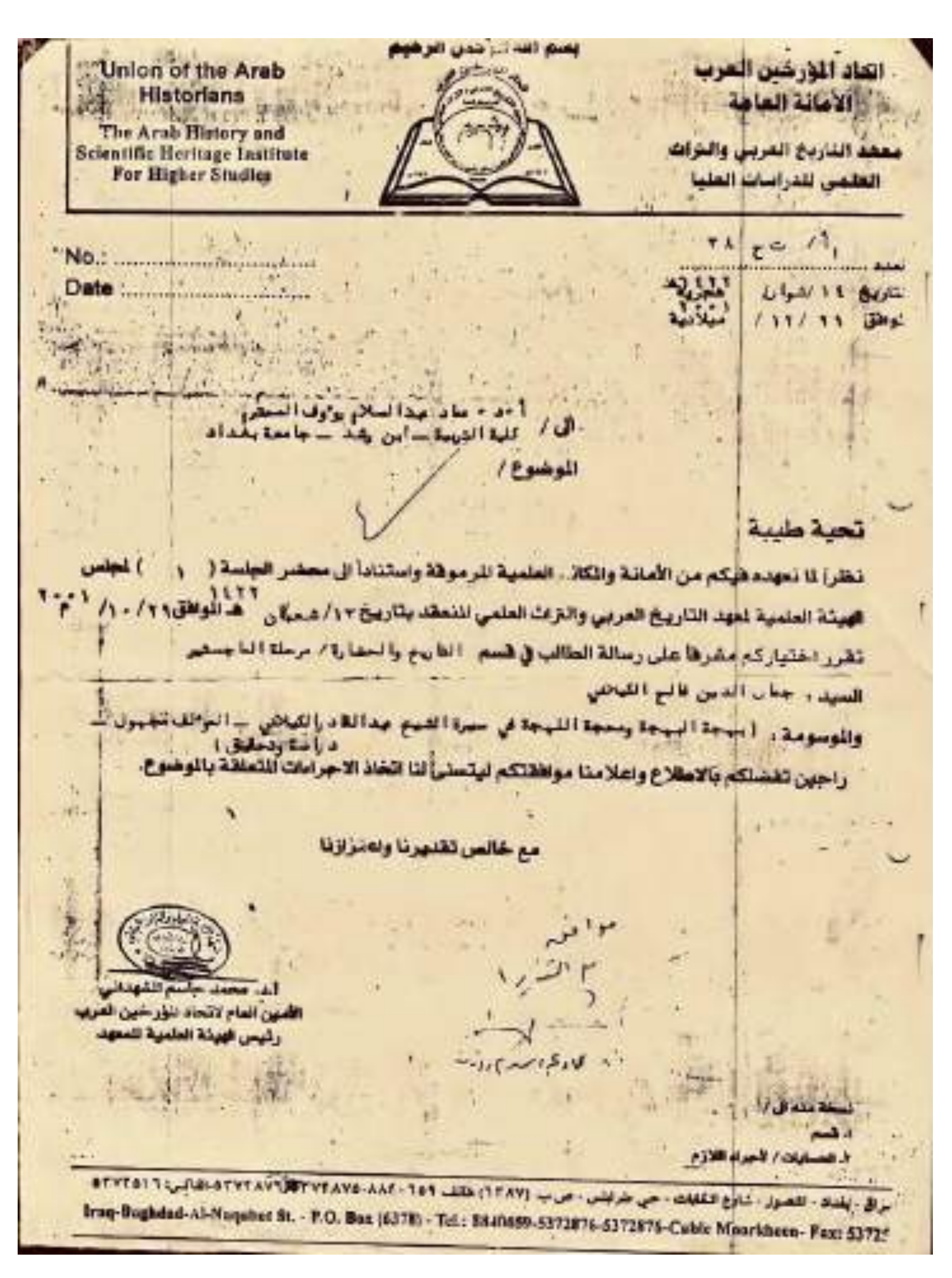
والسيد جمال الدين فالح الكيلاني، وهو الذي ينتسب الى السيد الشيخ عبد القادر دماً، فضلاً عن انتمائه اليه فكراً وعملاً، عبّر عن قوة هذا الاعجاب، وتدفق ذلك الاحساس، بتأليفه كتابه هذا، وهو يرجو، كما أرجو، أن ينال به رضا ربه وثوابه، فجزاه الله خير الجزاء.

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

استاذ التاريخ

جامعة بغداد - كلية التربية ابن رشد

مقدمة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف لكتاب الشيخ عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة! بخط يده رحمه الله تعالى1998. النسخة الأصل محفوظة في المكتبة القادرية ببغداد(تأليف د .جمال الدين فالح الكيلاني)



بسم الله الرحمن الرحيم

اتحاد المؤرخين العرب
الأمانة العامة
معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا

Union of the Arab Historians
The Arab History and Scientific Heritage Institute For Higher Studies

No.:
Date :

العدد ١/٩ ت ح ٢٨
التاريخ ١٤ /شوال ١٤٢٦ هجرية
الموافق ١٦ / ١١ / ٢٠٠٥ ميلادية

الى / أ.د. عماد عبد السلام رؤوف المعمري
كلية التربية – ابن رشد – جامعة بغداد

الموضوع /

تحية طيبة

نظراً لما نعهده فيكم من الأمانة والكفاءة العلمية المرموقة واستناداً الى محضر الجلسة (١) لمجلس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي والتراث العلمي المنعقد بتاريخ ١٣/ شعبان ١٤٢٦ هـ الموافق ٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٥ م تقرر اختياركم مشرفاً على رسالة الطالب في قسم التاريخ والحضارة/ مرحلة الماجستير السيد : جمال الدين فالح الكيلاني

والموسومة : (بهجة البهجة وبهجة اللهجة في سيرة الشيخ عبد القادر الكيلاني – المؤلف مجهول – دراسة وتحقيق)

راجين تفضلكم بالاطلاع واعلامنا موافقتكم ليتسنى لنا اتخاذ الاجراءات المتعلقة بالموضوع.

مع خالص تقديرنا واعتزازنا

موافق
[توقيع]

أ.د. محمد جاسم المشهداني
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب
رئيس الهيئة العلمية للمعهد

نسخة منه الى /
- د. قسم
- الحسابات / لاجراء اللازم

العراق – بغداد – المنصور – شارع الكفاءات – حي طرابلس – ص.ب (٦٣٧٨)
Iraq-Baghdad-Al-Naqabat St. - P.O. Box (6378) - Tel.: 8840659-5372876-5372875-Cable Moarkheen- Fax: 5372...

موافقة الدكتور عماد عبد السلام على الاشراف اطروحة الـدكتور جمـال الدين الكيلاني



الدكتور عماد مع الفنان حسين فهمي الدكتور عماد في زيارته لدبي

لتقديم مسلسل تاريخي عن اربيل



الدكتور عماد مع فضيلة شيخ الازهر بالقاهرة عقب اداء صلاة الجمعة



الدكتور عماد مع الاستاذ نيشروان اثناء تقـديم اطروحتـه (مـنهج الكتابـة التأريخية عند المؤرخ عماد عبد السلام رؤوف)



الدكتور عماد والدكتورة بروين واللجنة المشـرفة علـى اطروحـة الاسـتاذ نيشروان



الدكتور عماد مع فضيلة شيخ الازهر



الدكتور عماد والدكتورة نبيلة عبد المنعم والدكتورة بروين بدري والاستاذ زين النقشبندي



الدكتور عماد في محاضرة الدكتورة بروين بدري عن الاديرة



الدكتور عماد مع الاستاذ زين النقشبندي



الدكتور عماد و د بروين احتفال اقامة تمثال للاستاذ د محسن محمد حسـين في اول مدرسة في اربيل تكريما له



الدكتور عماد مع رئيس مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة 2008



حضور والدي في احدى معارضي الشخصية في الافتتاح

ما معنى أن يهب الله انساناً مرتين ، مرة للحياة ، بعد أن كاد الموت
يختطفه ، ومرة للفن ، بعد مكابدات جمة ، الا ان يكون تعالى قد ربط بين
حياة هذا الانسان وفنه برباط أبدي لا فكاك منه ، فليس عجباً بعد
هذا أن ينطق الحجر ، وتشدو قطعة الفحم ، ويغني اللون ، ليعبر الجميع
عن فكرة دفينة ، او احساس محقق بما هو مجهول . ان فن رؤوف اذن
هو تعبير عن نوع ما ارتضاه الله له من حياة ؟

د. عماد عبد السلام رؤوف

٢٠٠٠/١١/٢٠

كلمة والدي لي من قبل اكثر من عشرون عام في اول معرض لي بعد تعرضي لحادث اوشكت به على الموت



الدكتور عماد عبد السلام رؤوف يقدم شهادة تقديرية الى الاديـب الفنـان خسرو الجاف



الدكتور عماد في مطار السليمانية مع الاستاذ عثمان المفتي و دكتـور احمـد مصطفى وطلبة العلوم الدينية المتوجهون للدراسة في الازهر



حفل تأبين الدكتور عماد عبد السلام رؤوف في بيت الثقافة والفنون



اخر صورة لي مع والدي الرحمة والخلود لذكراك

بعض من
شهادات الدكتور
عماد عبد السلام رؤوف



يوم الخريجين

دفعة ١٩٦٩ - ١٩٧٠

يسر أسرة كلية الآداب في يوم الخريجين أن تعرب عن التهنئة والتقدير
الى الزميل عماد عبد السلام .
متمنية له دوام التوفيق في خدمة مجتمعنا الاشتراكي وتحقيق
الآمال التي يعقدها الوطن على الشباب الجامعي .

عميد الكلية



ندوة تحصين الموصل

بمناسبة ذكرى مرور قرنين ونصف على محاصرة الموصل
وانتصار العراقيين الأماجد على جيوش نادر شاه عام ١١٥٦هـ (١٧٤٣م)

السيد الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف



جمهورية العراق
الاتحاد العام للكتاب والمؤلفين
في العراق

العدد
التاريخ

شهادة تقديرية

إستناداً الى قرار المجلس المركزي للاتحاد العام للكتاب والمؤلفين في العراق
تقرر منح الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف / رئيس الاتحاد
هذه الشهادة تقديراً لجهوده العلمية الرصينة في إغناء الحياة الثقافية
وتوثيقاً لإسهاماته المعرفية المتميزة.

بغداد ٩ / شعبان / ١٤١٦ هجرية
١ / ك١ / ١٩٩٥ ميلادية

رئيس الاتحاد العام



يوم المؤرخ العراقي

«الذكرى الثانية»

الى / الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام .... المحترم

مع اعتزاز وتقدير الهيئة الادارية لجمعية المؤرخين والآثاريين وتمنياتها بالنجاح الدائم ...

أ. د. عبد المناف شكر النداوي
رئيس الهيئة الإدارية

صدرت في بغداد ٢٤ جمادي الآخرة ١٤٢٢هـ
الموافق ١٢ أيلول ٢٠٠١م



مركز البحوث النفسية
"البارسيكولوجي"
شهادة تقديرية
بناء على قرار اللجنة العلمية في المركز بمنح
الاستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف



جائزة شيخ المؤرخين
حسين امين

الاستاذ الدكتور عماد عبد السلام المحترم

استحقاقاً منكم وتثميناً منا لجهودكم الواضحة في تحقيق المخطوطات التاريخية نمنحكم جائزة شيخ المؤرخين حسين امين ، فأنكم امتداده وفيضه المبارك .. وفقكم الله الى المزيد خدمة للبلد العظيم : العراق الجديد

عضو	عضو	رئيس اللجنة
أ.د. اسامة عبد الرحمن الدوري	أ.د. ناجي حسن هادي	أ.د. جواد مطر الموسوي

مباركة شيخ المؤرخين	مباركة دولة
الاستاذ الدكتور حسين امين	الدكتور ابراهيم الاشيقر الجعفري
/٣/ ٢٠١١	٢٨/ ٢/ ٢٠١١



جامعة بغداد

مركز احياء التراث العلمي العربي

شهادة تقديرية

الأستاذ الدكتور **عماد عبد السلام رؤوف** المحترم

بمناسبة يوم المركز وتثميناً للجهود التي ساهمتم بها في إنشاء المركز وإدارته وتحقيق أهدافه بالتراث المركز نمنحكم هذه الشهادة متمنين لكم الموفقية والنجاح الدائم والمزيد من العطاء بما يسهم في خدمة الأمة والمعرفة والتراث .

نبيلة عبد المنعم داود
رئيس المركز

بغداد في ١٩ ذي الحجة ١٤١٧ هـ الموافق ٢٦ نيسان ١٩٩٧ م



بسم الله الرحمن الرحيم

شهادة وسام المؤرخ العربي

جامعة الدول العربية
اتحاد المؤرخين العرب
الأمانة العامة

رقم الشهادة : ٩٧٩

بناءً على قرار الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

يمنح الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف من القطر العراقي

وسام المؤرخ العربي

تقديراً لدوره المتميز والبارع في خدمة تاريخ وتراث الأمة عبر تاريخها المجيد

كتب بتاريخ [illegible] من شهر محرم سنة ١٤٣٦ هجرية

الموافق [illegible] من شهر تشرين الأول سنة ٢٠١٤ ميلادية

الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب


أ.د. عماد عبد السلام رؤوف المحترم
شكر وتقدير


تثميناً لمشاركتكم المثمرة وجهودكم الفاعلة في
المؤتمر السنوي الدولي الثاني
لحفظ التراث المخطوط وإحيائه
المنعقد تحت شعار :
(احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها)
والمعنون بـ
(التراث المخطوط فكر وحضارة)


جامع أبي حنيفة النعمان
قرون علمٌ وعطاء
يوم الوفاء للمدرسة الحنفية
أ . د . عماد عبدالسلام رؤوف


بسم الله الرحمن الرحيم
يرفع الله الذين آمنوا منكم
والذين أوتوا العلم درجات
والله بما تعملون خبير
بغداد

اهم
مؤلفات الدكتور
عماد عبد السلام رؤوف

1- زبدة الاثار الجلية في الحوادث الأرضية لياسين العمري، النجف 1974

2- الدرر المنظومة والصرر المختومة لخليل البصيري، بغداد 1975

3- ديوان العشاري. بالمشاركة مع الحاج وليد الأعظمي، بغداد 1977

4- الجواهر وصفاتها وفي أي بلد هي وصفة الغواصين والتجار. القاهرة، دار الكتب المصرية 1976 وأبو ظبي، المجمع الثقافي 1997

5- الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية لعلي البازركان، الطبعة الثانية (تحقيق وتقديم)، بغداد/ مكتبة النهضة العربية 1991

6- مطالع السعود بطيب أخبار الوزير داود باشا (والي بغداد). دراسة وتحقيق. ط1: الموصل، دار الحكمة 1991 وط2: بيروت، العربية للموسوعات 2009.

7- تاريخ الأسر العلمية في بغداد للسيد محمد سعيد الراوي. دراسة وتحقيق. بغداد، الشؤون الثقافية ط1: 1997، ط2: 2008.

8- بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة لعبد الرحمن حلمي العباسي السهروردي. دراسة وتحقيق. بغداد مكتب الجواد 1997.

9- كتاب الحوادث المسمى بالحوادث الجامعة المنسوب لابن الفوطي، دراسة وتحقيق، بالمشاركة مع بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1997

10- العراق في وثائق محمد علي، بغداد، بيت الحكمة 1999

11- مطالع السعود بطيب أخبار الوزير داود. دراسة وتحقيق. ط1: الموصل، دار الحكمة 1991 وط2: بيروت، العربية للموسوعات .2009

12- مذكرات فخري الفخري، دراسة وتحقيق. بغداد، مط المثنى 2000

13- الإيضاح والتبيان في المكيال والميزان لابن الرفعة.دراسة وتحقيق. بغداد، الشؤون الثقافية 1980

14- ديوان عبد الرحمن السويدي. بالمشاركة مع وليد الاعظمي. بغداد، دار الرجاء 2000

15- المملكة العربية السعودية بين الحربين العالميتين، في ضوء تقارير القنصلية العراقية في جدة. عمان، دار دجلة 2006

16- تاريخ الزبير والبصرة لابن الإملاس. دراسة وتحقيق، عمان دار دجلة 2006

17- حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، لعبد الرحمن السويدي، دراسة وتحقيق، بغداد، المجمع العلمي 2002

18- تذكرة الشعراء لعبد القادر الشهرباني، الأصل الكامل، دراسة وتحقيق، بغداد، المجمع العلمي، 2002

19- دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المتأخرة. إعداد وتقديم، جزآن، بغداد، الشؤون الثقافية 2002

20- تاريخ القراغول. بغداد، مط انوار دجلة 2006

21- رحلة المطراقي زاده دراسة وتحقيق، أبو ظبي، المجمع الثقافي 2005

22- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. الجزء 22، أبـو ظـبي، المجمـع الثقـافي 2005

23- النفحة المسكية في الرحلة المكية لعبد الله السويدي. دراسـة وتحقيـق، أبـو ظبي، المجمع الثقافي 2004 وط2: بيروت، العربية للموسوعات 2012

24- الدر المنتثر في مؤلفات مجدد القرن الرابع عشر. بغـداد، مـط أنـوار دجلـة 2004

25- العقد اللامع في آثار بغداد والمساجد والجوامع لعبد الحميد عبادة. دراسـة وتحقيق، بغداد، مط أنوار دجلة 2004

26- مساجد بغداد في كتابـات الأجـداد. دراسـة وتحقيـق، بغـداد، دار الرجـاء 2006

27- مذكرات عبد المجيد محمود، الوزير في العهد الملكي في العـراق. لنـدن، دار الحكمة 2008

28- خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد لمحمـد سـعيد الـراوي. دراسـة وتحقيق. ط1 بغداد، الوقف السني 2006 وط2 وزارة الثقافة 2014

29- رحلة طه الكردي الباليساني في العراق والأناضول وبلاد الشام ومصر والحجاز. دراسة وتحقيق. ط1: بغداد، الثقافة الكردية 2001، وط2: موكرياني أربيل 2007

30- أخبار بغداد وما جاورها من البلاد للسيد محمود شكري الآلوسي. ط1 بيروت، العربية للموسوعات 2008وط2 وزارة الثقافة 2014

31- مذكرات قاسم محمد الرجب. دراسة وتحقيق. بيروت، العربية للموسوعات 2008

32- الشجرة الزيوكية، وثيقة نسب أمراء بهدينان وتاريخهم. أربيل، مكتب التفسير 2009

33- روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار. السليمانية، زين 2010، وط2 بيروت، العربية للموسوعات 2011

34- الرحلتان الرومية والمصرية. تأليف فضل الله المحبي. تحقيق. دمشق، دار الزمان 2012

35- ورود حديقة الوزراء تأليف محمد سعيد السويدي. تحقيق. دمشق، دار الزمان 2012

36- بهجة الإخوان في ذكر الوزير سليمان. تأليف محمود الرحبي. تحقيق. دمشق، دار الزمان 2015

37- رحلة من نابلس إلى اسلامبول. تأليف عبد القادر أبو السعود المقدسي. دمشق، دار الزمان 2015

38- أعمال بلاد الديار المصرية لمؤلف من القرن التاسع للهجرة. تحقيق. القاهرة، المكتب العربي للمعارف 2015

39- تذكرة المقتفين. بالمشاركة. تحقيق. الاكاديمية الكردية. اربيل، مط جامعة صلاح الدين2016

40- نزهة الادباء في تراجم علماء ووزراء واشراف مدينة السلام بغداد. تحقيق.دمشق، دار الزمان 2016.

41- مدارس بغداد في العصر العباسي، بغداد، دار البصري 1966

42- ولاية الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي، النجف مطلعة الاداب 1975

43- دعوة ابي هاشم وحزبه دراسة في فجر الدعوة العباسية. بغداد دار الجاحظ 1978

موسوعة"الاثار الخطية في المكتبة القادرية". خمسة أجزاء:

44- الجزء الأول، علوم القرآن والحديث بغداد مطبعة الارشاد1973

45- الجزء الثاني، الفقه بغداد دار الرسالة 1978

46- الجزء الثالث، بغداد دار المعارف 1979

47- الجزء الرابع، بغداد دار المعارف 1980

48- الجزء الخامس، المجاميع بغداد دار المعارف 1980

49- الحدود الشرقية للوطن العربي، بالمشاركة، بغداد دار الحرية 1981

50- التاريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي، بالمشاركة، بغـداد وزارة التربيـة 1981

51- التفريس اللغوي في الاحواز، دراسة وثائقية، بغداد دار الحرية 1982

52- إيران منظور تاريخي، بغداد دار الحرية 1982

53- إمارة كعب العربية في القرن الثامن عشر، بغداد دار الحرية 1982

54- التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثمـاني، الطبعـة 1، بغـداد دار واسط 1983، والطبعة 2، منقحة ومزيدة، لندن، دار الحكمة 2009. قام الدكتور عبد الوهاب شانغ من مركز الدراسات الاسلامية بجامعة لانجـو، بترجمة فصول من كتاب التاريخ والمؤرخون في العهـد العثمـاني إلى اللغـة الصينية، اختارها الدكتور جمال الـدين الكيلانـي، ونشـرت بمجلـة ولايـة قانسو تباعا مع ترجمة وافية بالمؤلف .2016.

55- لمحات من تاريخ العرب الحديث. بغداد، منظمة العمل العربية 1983

56- الآثار الخطية في جامع السيد سلطان علـي ببغـداد. بغـداد، مركـز إحيـاء التراث العلمي 1984

57 – معركة عين جالوت. بغداد، دار الحرية 1986

58- كانت، ملامـح عـن حياتـه وأعمالـه الفكريـة. بغـداد، الشـؤون الثقافيـة 1982. ترجم إلى اللغة الكردية بعنوان: كانت، نموونه يه ك زيـان وكـاره فييكرييه كاني، أربيل .2005.

59- المدرسة العلية في بغداد، بغداد دار الشؤون الثقافية 1986

60- تاريخ الخدمات النسوية العامة في العراق، بغداد، الاتحاد العام لنساء العراق 1986

61- كتابة العرب لتاريخهم في العصر العثماني. بغداد، الشؤون الثقافية 1988

62- من رواد التربية والتعليم في العراق، محمد رؤوف العطار، بغداد، مط أسعد 1988

63- عبد الله السويدي، سيرته ورحلته. بغداد، الشؤون الثقافية 1986

64- الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة. بغداد مط دار الحكمة .1991

65- فهرس مخطوطات السيد محمد سعيد الراوي في بغداد، بغداد، مركز احياء التراث العلمي العربي 1993

66- الأصول التاريخية لأسماء محلات بغداد. بغداد، أمانة بغداد 1994

67- ضياء جعفر، سيرة وذكريات. بغداد، مط الأديب 1997

68- عادلة خاتون، صفحة من تاريخ العراق. ط1 بغداد، مكتب الجوادين 1998.

69- مكتبة الشرق، تاريخها ومخطوطاتها، بغداد، دار الرجاء 1998

70- الأصول التاريخية لمحلات بغداد. بغداد ط 1 مط المثنى 2004 وط2 وزارة الثقافة 2014

71- معالم بغداد في القرون المتأخرة. بغداد، الطبعة الاولى بيت الحكمة 2000، والطبعة الثانية، موسعة، الوقف السني بغداد 2016

72- تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد. بغداد، دار الشؤون الثقافية 2001

73- تحقيق المخطوطات العلمية. بغداد 2006

74- دراسات في علم الأحجار الكريمة عند العرب. بغداد، مطبعة المثنى 2005

76- مراكز ثقافية مغمورة في كردستان. ط1: بغداد، دار الثقافة الكردية 1998، ط2: موسعة، أربيل، موكرياني 2008

77- هيت في التاريخ. بغداد 2004

78- عبلة العزاوي، رحلة بين الماء والطين. بغداد، 2005

79- شيخ الإسلام سلطان بن ناصر الجبوري. أربيل 2008

80- دراسات وثائقية في تاريخ الكرد الحديث وحضارتهم. ط1 أربيل، وزارة الثقافة 2008

81- رحلة القائد التركي سيدي علي ودراسات أخرى. بيروت، العربية للموسوعات 2009

82- صفاء الدين عيسى البندنيجي، سيرته ومؤلفاته. أربيل، مط منارة 2009

83- محمد سعيد الزهاوي، سيرته ومخطوطاته. أربيل، مط منارة 2009

84- السلطان حسين الولي أمير بهدينان. أربيل، مط منارة 2009

85- المعجم التاريخي لإمارة بهدينان. الاكاديمية الكردية. اربيل، مط هاشم 2011

86- إبراهيم الكوراني الشهرزوري. أربيل، مط منارة 2010

87- شواهد المقبرة السلطانية في العمادية. الأكاديمية الكردية. أربيل، مط هاشم 2011

88- عبد الكريم قاسم في إضبارته الشخصية. مؤسسة زين، السليمانية 2012

89- دراسات وثائقية في تاريخ الكرد الحديث وحضارتهم. طبعة مزيدة بدراسات جديدة. دمشق، دار الزمان2012

90- فهرست مكاتب بغداد الموقوفة. بغداد، ديوان الوقف السني 2013

91- العراق كما رسمه المطراقي زاده. بيروت، مؤسسة الاعلمي 2014

92- عادلة خاتون صفحة من تاريخ العراق. طبعة مزيدة بوثائق حديدة. دمشق، دار الزمان 2015

93- مؤرخون سريان محدثون، دراسة في تطور منهج البحث التاريخي. بيروت، دار الرافدين- كندا 2015

94- ألفاظ ريفية مصرية في القرن السابع عشر. القاهرة، المكتب العربي للمعارف 2015

95- الخليج العربي في تقارير مراسلي جريدة الزوراء. القاهرة، المكتب العربي للمعارف 2015

96- جغرافيا ابن البيطار. القاهرة، المكتب العربي للمعارف 2015

97- أمراء وعلماء من كردستان في العصر العثماني. دمشق، المكتب العربي للمعارف 2016

98- مـن تـاريخ الخـدمات النسـوية العامـة في بغـداد، تـرجم إلى الإنكليزيـة والفرنسية والأسبانية، دار المأمون في بغداد 2014، ونشـر بالعربيـة علـى الانترنيت، شبكة الالوكة 2015

99 - وقف الكتب في بغداد. نشر على الانترنيت، شبكة الالوكة 2015

100- جوانب دبلوماسية وثقافية من تاريخ الكرد في العصر العثماني، دمشـق، دار الزمان

101- دراسات في التاريخ والتراث، جزآن، مكتبة التفسير، أربيل .2019

102- تقديم ومراجعة كتاب جغرافية الباز الأشـهب - للمـؤرخ جمـال الـدين فالح الكيلاني، دار الإسلام بلاهور،2019.

رحلة طه الكردي الباليساني

في العراق وبلاد الشام والأناضول ومصر والحجاز

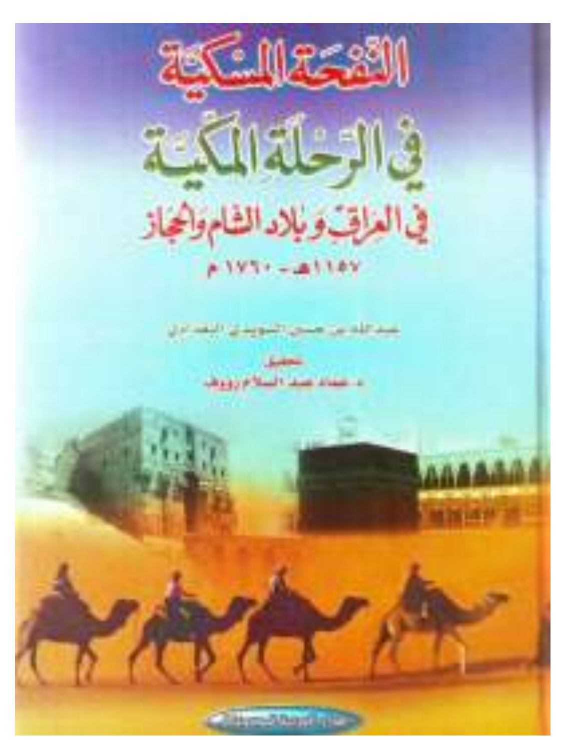
تحقيق

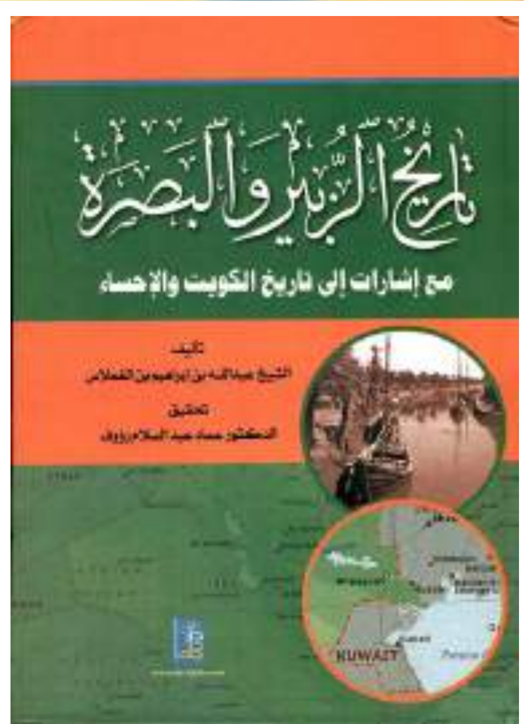
الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف



٢




النفحة المسكية
في الرحلة المكية
في العراق وبلاد الشام والحجاز
١١٥٧هـ - ١٧٦٠م


تاريخ الزبير والبصرة
مع إشارات إلى تاريخ الكويت والإحساء
KUWAIT

المملكة العربية السعودية

بين الحربين العالميتين

السلطة والتغيرات السياسية والاقتصادية

في ضوء تقارير المفوضية العراقية في جدة

تأليف

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف



في العهد العثماني

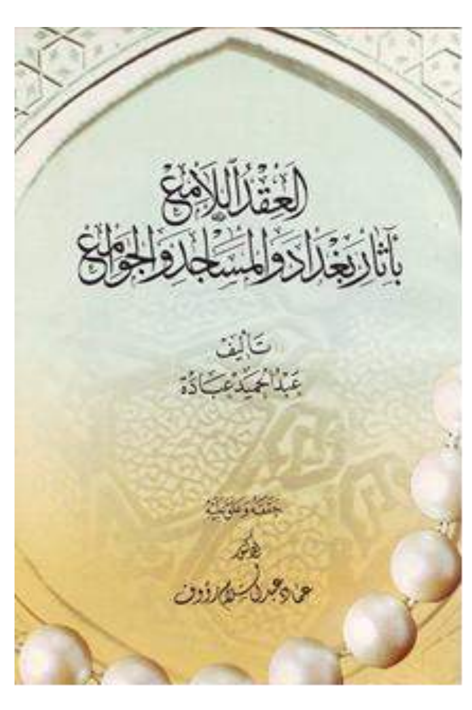
فترة الحكم المحلي

١١٣٩ - ١٢٤٩هـ

١٧٢٦ - ١٨٣٤م

عماد عبد السلام رؤوف


امارة كعب العربية
في القرن الثامن عشر على ضوء
الوثائق البريطانية

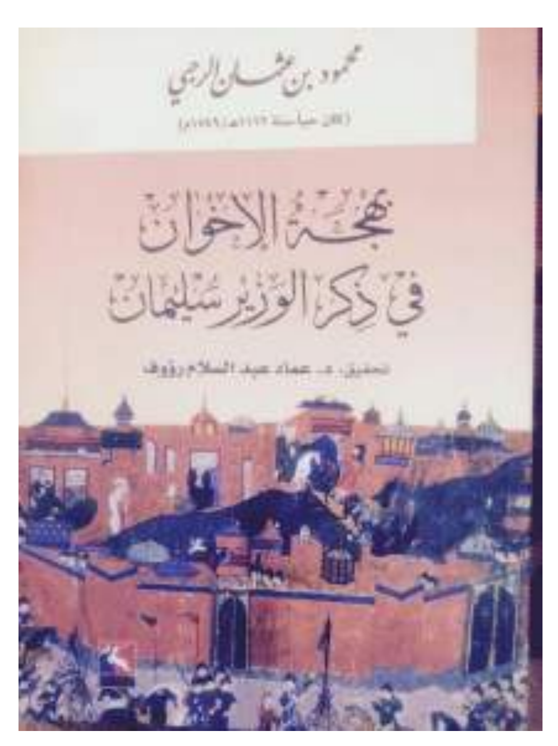

العقد اللامع
بآثار بغداد والمساجد والجوامع
تأليف
عبد الحميد عبادة
حققه وعلق عليه
الدكتور
عماد عبد السلام رؤوف


ديوان
عبد الرحمن السويدي
حققه وعلق عليه
الدكتور


فهرس
مخطوطات
العلامة السيد محمد سعيد الراوي
تأليف


تاريخ الأدب العربي
في العراق
تأليف
عباس العزاوي
مراجعة وتعليق
الدكتور عماد عبد السلام رؤوف


دراسات وثائقية
في تاريخ الكرد الحديث وحضارتهم
الدكتور





تاريخ الأدب العربي

في العراق

— ١ —

من سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م

الى سنة ٩٤١هـ - ١٥٣٤م

يبحث أخبار الأدب في اللغة والعلوم العربية والنثر والنظم والنقد الأدبي مع صلاته بالأقطار العربية والإسلامية

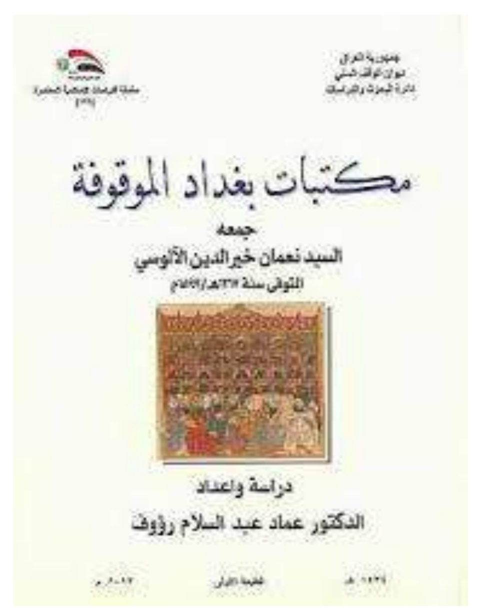
للمحامي

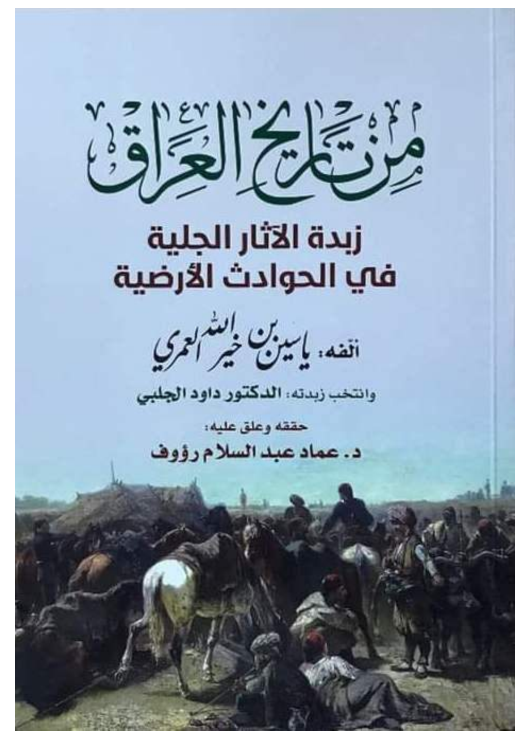
عباس العزاوي

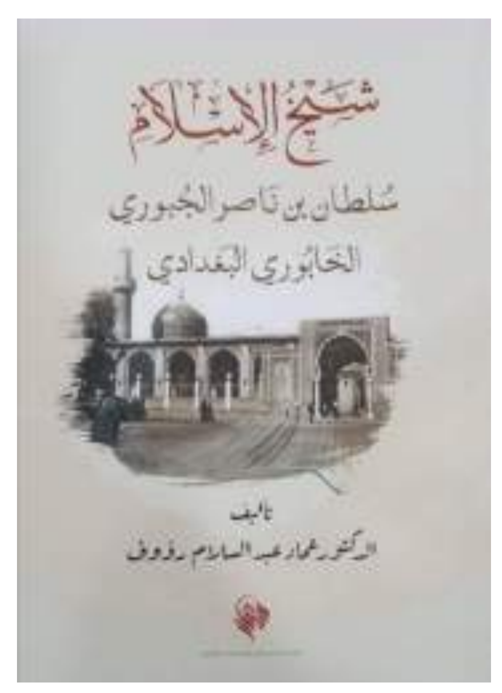
مراجعة وتعليق

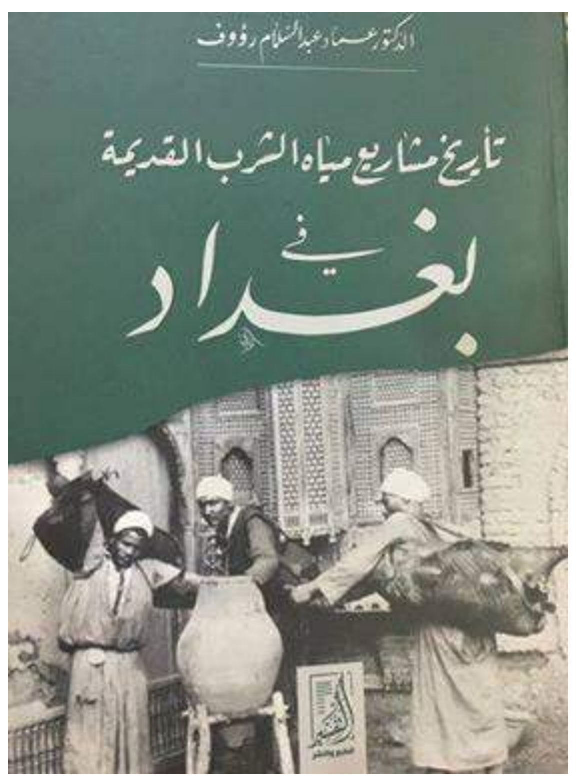
د. عماد عبد السلام رؤوف

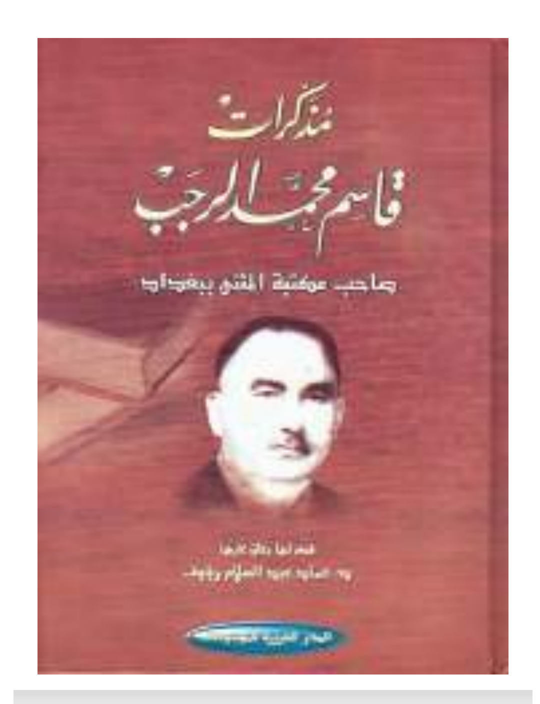
الطبعة الأولى - ١٩٩٦


جمهورية العراق
ديوان الوقف السني
دائرة البحوث والدراسات
مكتبات بغداد الموقوفة
جمعه
السيد نعمان خير الدين الآلوسي
دراسة وإعداد
الدكتور عماد عبد السلام رؤوف


من تاريخ العراق
زبدة الآثار الجلية
في الحوادث الأرضية
ألفه: ياسين بن خير الله العمري
وانتخب زبدته: الدكتور داود الجلبي
حققه وعلق عليه:
د. عماد عبد السلام رؤوف


شيخ الإسلام
سلطان بن ناصر الجبوري
الخابوري البغدادي
تأليف
الدكتور عماد عبد السلام رؤوف


الدكتور عماد عبد السلام رؤوف
تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة
في
بغداد





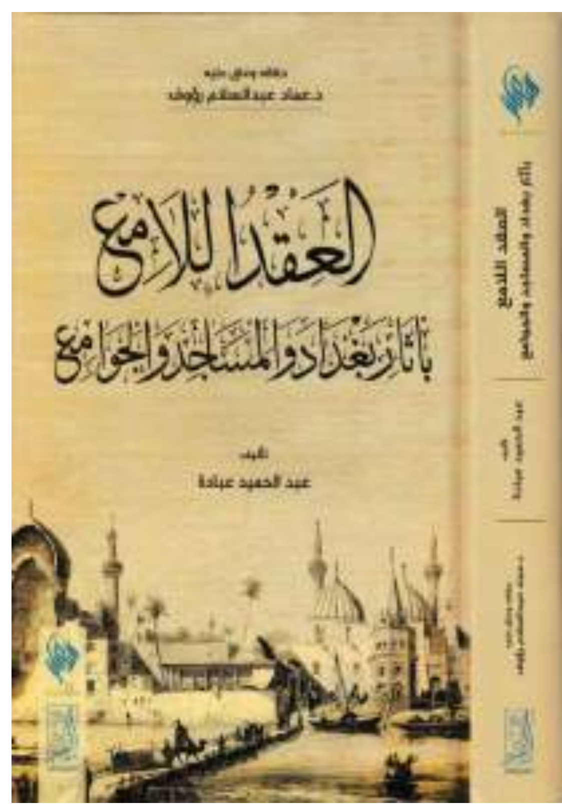
في تقارير مراسلي جريدة الزوراء

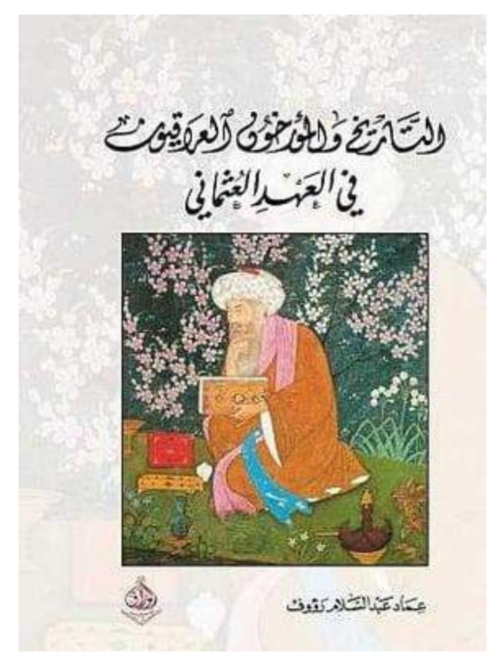




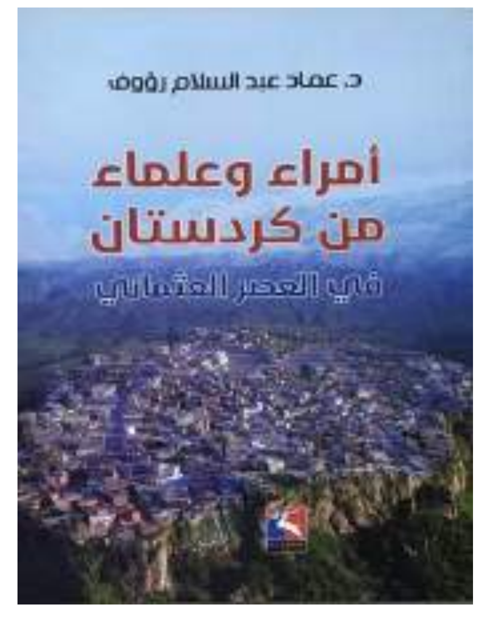
الدكتور/ عماد عبد السلام رؤوف

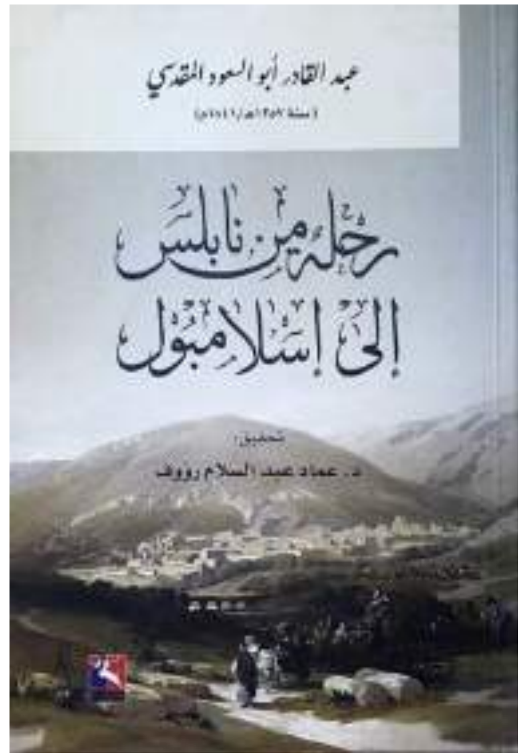

د.عماد عبد السلام رؤوف
دراسات ووثائق
في تاريخ
الخليج العربي الحديث

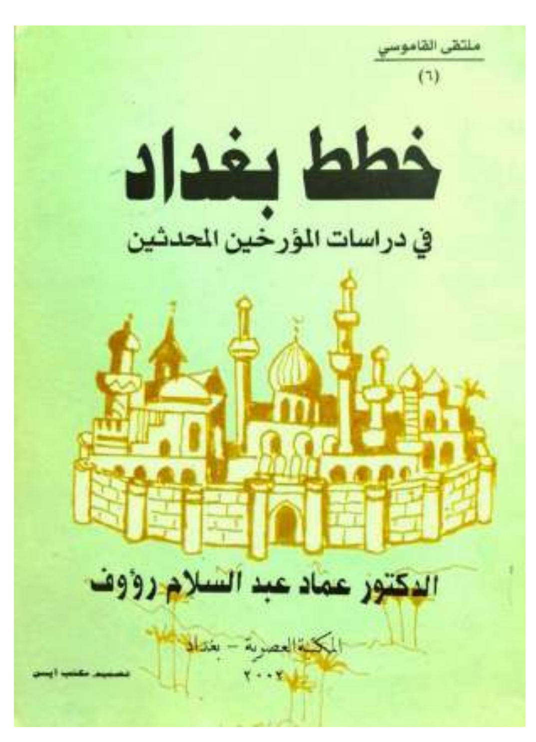

د.عماد عبد السلام رؤوف
العقد اللامع
بآثار بغداد والمساجد والجوامع
تأليف
عبد الحميد عبادة

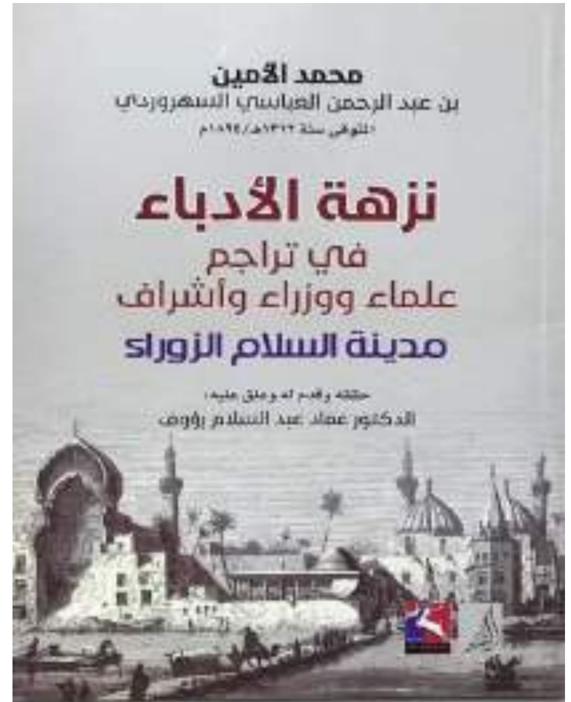

التاريخ والمؤرخون العراقيون
في العهد العثماني
عماد عبد السلام رؤوف


د. عماد عبد السلام رؤوف
دراسات ووثائق
في تاريخ
الخليج العربي الحديث

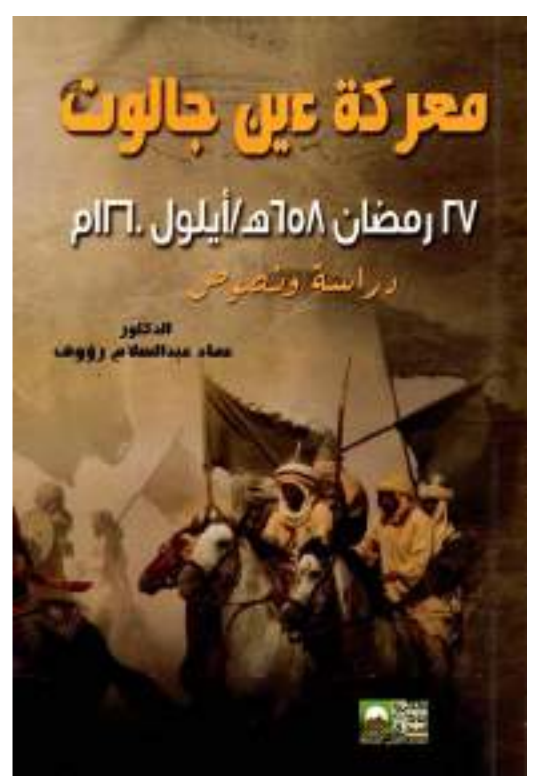

د. عماد عبد السلام رؤوف
أمراء وعلماء
من كردستان
في العصر العثماني


عبد القادر أبو السعود المقدسي
رحلة من نابلس
إلى إسلامبول
تحقيق:
د. عماد عبد السلام رؤوف

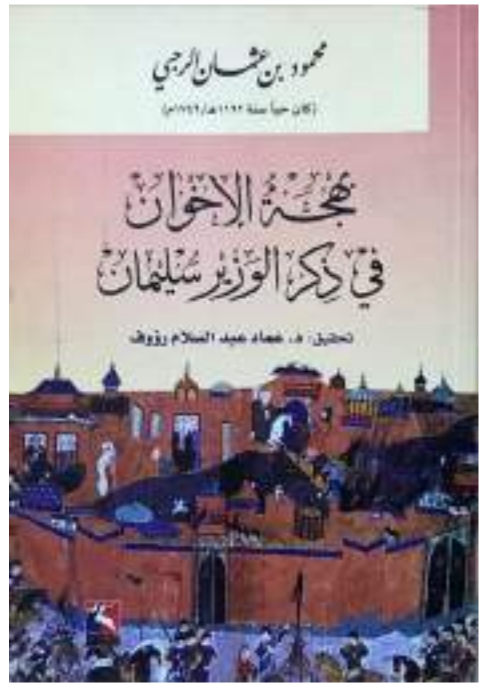

ملتقى القاموسي
(٦)
خطط بغداد
في دراسات المؤرخين المحدثين
الدكتور عماد عبد السلام رؤوف
المكتبة العصرية - بغداد
٢٠٠٢


محمد الأمين
بن عبد الرحمن العباسي السهروردي
المتوفى سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م
نزهة الأدباء
في تراجم
علماء ووزراء وأشراف
مدينة السلام الزوراء
حققه وقدم له وعلق عليه:
الدكتور عماد عبد السلام رؤوف


دراسات وثائقية
في تاريخ الكرد الحديث وحضارتهم


معركة عين جالوت
٢٧ رمضان ٦٥٨هـ/أيلول ١٢٦٠م
دراسة ونصوص
الدكتور
عماد عبدالسلام رؤوف


التفريس اللغوي في الأحواز: دراسة
وثائقية


محمود بن عثمان الرحبي
بهجة الإخوان
في ذكر الوزير سليمان
تحقيق: د. عماد عبد السلام رؤوف

لوحات الدكتور عماد عبد السلام رؤوف























رثائي

أيّ ليلٍ وأيّ صبحٍ

صباحي من يُداري ومن يُداويْ جراحي

لا تلُمْني لما ترى لست تدري

رُبّ صاح تظنه غير صاح

لا تَلُمني فإن في القلب شيءٌ

لا يُدارى وليس يمحوه ماحي

وفراقِ الآباء شيءٌ عظيمٌ

ما لذكرى همومه من بَراح

كيف أنسى من كان كالبدر

نوراً قد أضاءت من نورهِ كلُّ ساحِ

وسراجاً إلى المعالي منيراً

ودليلاً إلى دروبِ النجاح

كيف أنسى من كان حبّي وقلبي

وحياتي وجنّتي وارتِيَاحي

كان في ليلنا سراجاً منيراً

فتوارى بنوره في الصباح

قد سما للسماء والروح صارت

فِي جوارِ العليمِ بالأرواح في جوارٍ أنعم به من جوار

هو أهل الثناء والأمداح

رَبِّ أَلهِمْه ثابت القول واجعل

حوله القبرَ من جنانٍ فِساحِ

وتقبّله صابراً وشهيداً

ورفيقاً أهلَ التقى والصلاحِ

فزْتَ يا والديْ بقولٍ سديدٍ

وبوجهٍ يُنيرُ كالمصباحِ

لكَ فرضٌ وواجبٌ في صلاتي

بدعاءٍ بوافرِ الإلحاحِ

لكَ خيرُ الدعاءِ ما دمْتُ حياً

ورجائيْ في فالقِ الإصباحِ

أنت حيٌ أراك في كل دربٍ

من دروبي وحَيثما كنتُ ناحي

في بيوتٍ بنيتها شاهقاتٍ

شاهداتٍ بخيرِ كفٍ وراحِ

أنت حيٌّ أراك في البدر لما

يتجلّى بنوره الوضاحِ

أنت حيٌّ ذكراك في كل شيء

في وصاياك في جميع النواحي

ذكريات أصولها من نخيلٍ

باسقاتٍ وزهرها من أقاح

حكمة منك يا أبي كيف أنسى

حين جمع الأكف راحاً براحِ

لك ذكرى كثيرة في الوصايا

كنت والله سيّد النّصّاحِ

كنت تروي قلوبَنا بالوصايا

وطبيباً مداوياً للجراحِ

ولبيباً إذا تغلّق باب

جاء منك الجواب كالمفتاحِ

نادرٌ في الرجال شهمٌ كريم

حسنُ الخَلْقِ ظافرٌ بالمداحِ

فسلامٌ عليك في كل ليل

وسلام عليك كل صباحِ

وسلامٌ عليكَ ما طارَ طيرٌ

أو تغنّي بصوتهِ الصّدّاحِ

وسلامٌ عليكَ ما قامَ نَبْتٌ

واستمالتْ أغصانُهُ بالرياحِ

وسلام عليكَ ما شَعّ نورٌ

أو توارَى في غَدوةٍ أو رواحِ

وسلام عليك في كل حين

يا شبيهاً للبدر في الإيضاح

الخاتمة

﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾الكهف: 110 صدق الله العظيم.

وفي خاتمة هذا الكتاب أذكركم ونفسي بتقوى الله، وبالعمل الصالح لوجه الله تعالى، وقد بذلك جهداً كبيراً بترتيب وجمع مذكرات والدي المرحوم الدكتور عماد وهو عمل خالصاً لله تعالى، عسى ان يوفقني الله ان اكون الولد الصالح الذي يدعوا له وان اصون اسم هذا العالم الكبير انها لمسؤلية كبيرة ادعوا الله ان يقويني عليها. وبهذه المذكرات أترك الباب مفتوح للطلاب لأن يكملون على هذا البحث، ويقدموا ما لديهم من أفكار جديدة، وذلك لكي نعمل على النهج الصحيح للبحث العلمي لتقدم ونهضة أمتنا الإسلامية، كانت اول كلمة للمرحوم في مذكراته اهدي هذه المذكرات لطلبتي مؤرخون المستقبل.

ولعل الله تعالى قد وفقني، ولعل قلمي وفق في تقديم هذه المذكرات، وفي نهاية الأمر فإنني بشر أصيب وأخطئ، وإنني أتوجه إلى الله بالدعاء والرحمة للعلامة عماد عبد السلام رؤوف، والحمد لله الذي هدانا إلى هذا.

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾

صدق الله العظيم

ابنك المخلص

الدكتور

رؤوف عماد عبد السلام رؤوف

العراق / اربيل 18 تموز 2021


كلية الآداب - جامعة القاهرة
١٩٠٨
٢٠١٧
كلية معتمدة من الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد

